

رحيل في بدايات الألفيّة
الجزء الثاني .

حكاية الحر المملوك

روايه

صدقي شعباني



ماسـتر

رحيل في بدايات الألفية الجزء الثاني حكاية الحر المملوك

صدقى شعباني

تصميم الغلاف
بيشوى ظريف

الجمع والإخراج
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/١٠٨٧٢/٢٠٢٠م

ISBN: 978-977-85710-8-0

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناسر



٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهداء

إلى والدتي /

التي طالما تمنّيت أن يجمعني بها لقاء ولو كان في حلم. فتأبى إلا أن
تختفي بين جوانحي لتزيد صورتها إذكاء في خاطري. إلى التي لم يتيسّر
أن تهديني طول عمرها، وكتب لي طول العمر لأهديها حبّي وحشاشة
قلبي.



تصدير

****** «حدّثنا سليمان بن حرب قال: جدّثنا شعبة عن واصل الأجدب عن المعرور قال: لقيت أبا ذرّ بالريّذة، وعليه حلّة وعلى غلامه حلّة فسألته عن ذلك، فقال: إنّي ساببت رجلا فعيّرته بأّمه فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه ممّا يأكل وليلبسه ممّا يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموه فأعينوهم.»

صحيح البخاري

****** «الحرية مع الألم أكرم من العبودية مع السعادة.»
أبو حامد الغزالي

****** «الرجل الذي يحرم رجلا آخر من حريته هو سجين الكراهية و التّحيّز وضيق الأفق.»

نلسون مانديلا

کندشان کدفو (تریشور)
۲۰۰۲-۸-۳۰

. ۱ .

حاولت (أنا) أنسى ،
فنسيت بأن أنسى !!

. ۲ .

وفتحت شبابيك الذّكرى ،
علّ الأحباب يوافقوني ،
ونعيد القلب كما كان -
يشتاق الذّكرى ولا ينسى ،
لكنّ الأشياء تهاوت ،
ونسيت بأن أنسى ؛
أه ، حاولت (أنا) أنسى !!

. ۳ .

أحرقت بخوري /
ونذوري ...
صلّيت ،
وتلوت الأوراد ...
حفيت (...) وشققت الأثواب ،
لبست الصّوف ،

وصار البيت كهوفا...
لكّي نسيت بأن أنسى؛
آه، حاولت (أنا) أنسى!!

- ٤ -

النّخل... وهذي الغابات،
وماء الله... وأحبابي-
جفاة! تركوني لأسرار
(تحفل بالسّر)،
وأوهام الصّمت،
نبذوا قرباي وشوقي؛
الجيرة-
آه الجيرة أحبابي...
فطريقي تتشعب في ضلعي،
وتدمي حناياي (...)
آه، حاولت بأن أنسى،
لكّي نسيت...
الأحباب نسوني؛
لكّي نسيت...
النّخل هنا ينسى-
والقلب هنا ينسى-
والكلّ هنا ينسى،
بأنّي نسيت!!
آه، حاولت بأن أنسى-
لكّي نسيت!!؟!!

على متن الطائرة باتجاه مدينة مسقط
٢٠٠٢.٩.١

.١.

من أجلهم
من أجل أن يحتملوا أسماءنا،
من أجل أن يحتملوا أشياءنا،
نحبهم...

.٢.

من أجل أن يعتنقوا سمرتنا
وخوفنا...
أحبابنا/
نحبهم-
لأنهم حياتنا وموتنا،
أطفالنا-
أحبابنا نحبهم...

.٣.

نحبهم،
لأننا في سبيلهم
أحبنا أبائنا-
أحبنا

من أجل أن نحتمل الأسماء-
والأشياء...

أحبّنا آباؤنا
كي نحمل الإعياء للأبناء-
كي نذكر أسماءنا
ونعطي الأحفاد ما جادت به
(السّماء) !!

من صورة مطبوعة،
من سمرة مدبوغة،
من آية في القلب-
(يرسمها الآباء)
تمنعنا إذا كبرنا
أن نحاصر الخريطة الصّغيرة
أن نهجر الأسماء والأشياء-
ونعطي الأبناء وجهها آخر-
ونعطي الأبناء صوتا آخر...
نعطيهم (و) من لغة-
من لهجة في صوتنا
تحتقر الآباء...!!

. ٤ .

من أجلهم-
أحبّابنا نحيمّهم...
من أجل)
أن يحبّنا الأبناء (؟! !

كندشان كدفو (تريشور)

٢٠٠٢-٨-١٧

من القلب للقلب باب-

أدلاء كثر...

ومن طاقة الرّوح (...)

حتّى الغموض المبعثر في باطني

ألف رمز

يترجم عن نفسه في رموز

أحاول أن أمتطي لمعها-

أحاول أن أستبين الطّريق /

إلى سرّها...

من شتات الجزيرة

هذي التي عمّدتني بماء الضّياع؛

وأعطت لوجهي احتراق الشّمس؛

وقالت:

تمرّد على الأحرف المهمات،

وجرّد سيوفك في الكلمات،

وقل في ضياعك /

ما قد تريق القبائل فيه نداء اللّغات...

ليغدو ستارا يعلّق في اليهو؛

يغدو نشيدا ترتّله الألسنه...!!

من شتات الجزيرة (...)

حتّى اختلاحي...

(كطيررسا فوق ريشه قطر الغمام)

غزاني السّؤال المحيّر جدّا:

+ لمن تترك العمر...

.يا هاربا خلف ظلك؟!

+ لمن تترك الذّاكره-

والشّذى...

والوجوه الّتي سوف تشقى بدونك؟!

+ لمن تترك الحدو...

والقافله؟!!!

جيبور (راجستان)

٢٠٠٢ . ٨ - ٩

لم أعد أجدي لشيء...
لم أعد أصلح للصمت،
ورغم الحزن أضحك...
رغم هذا الماء-
والمطر المسافر في دمي-
رغم هذا الدّفء (
في قدمي يعطّل مشيتي)
- كم مرّ من حزن؟
ومن قلق عليك؟
- كم مرّ من خوف بلا إسم عليك،
وأنت في فوضى اللّغات،
تحاول الإنصات للنّبر الغريب؟!
تحاول الموت البطيء،
وتنتهي في كلّ شبر من تراب ليس لك-
من تراب ليس للماشين خلفك،
ليس للماشين حولك؟
لكنّه يبقى التّراب-
لونه لون الوجوه
لون هذا الفقر حول القصر!
لون المعابر والدّروب!
- يا أكبر...!
المدن التي خلّفتها،

صارت بلا معنى...
غدت مثل الخطى-
مثل شيء لا يليق بما اعتراني
حينما أوليت وجهي للضجيج،
وللغات؟!...
- يا أكبر...!
المدن التي أعطيتها إسما كبيرا-
والحصون،
وما أراه في الذرى يعلو ويعلو/
في انهيار-
كله يمتد جسرا في دمي؛
لكنها جيبور تعطيه اليتامى-
وتوزع الباقي القليل
على الثكالى...
والدموع،
ومن تعثرت الأحلام فيه،
فلم يجد غير الطريق/
إلى الحصن المعلق في الذرى
كي يغني/
أوبيع الحصن في ورق رديء،
أو...
أو...
- يا أكبر...!
المدن التي خلفتها-
صارت بلا معنى...
ولم أعد أجدي لشيء!!!

دلہی

۲۰۰۲-۸-۱۰

-۱-

دلہی تودّع آخر الحمقى-

تودّعني أنا...

-۲-

دلہی:

تودّع آخر الأسماء...!

دلہی:

تودّع آخر الأشياء...!

-۳-

دلہی:

تودّع آخر ما تبقى من زمان ليس لي!

دلہی:

تودّع آخر ما تبقى من زمان كان لي!

-۴-

دلہی الّتي عابثتها

ارتدت عليّ...

وكلّ شيء كان فيها-

صاخباً...

مال عليّ!!

وكلّ حصن كان فيها-
غافيا...
داعبته
علّي أرى ما كان يحبو في الحجارة
من دمي...
دلّهي التي أوليتها ظهري-
رمت سهما:
فغاب السهم في ورم السلالة
غاب في...!!

-٥-

دلّهي:
انتهيت!
وما انتهيت!
غامري دلّهي قليلا
كي أموت معلّقا
في حصن جدّ كان لي!!

کندشان کدفو (تریشور)

۲۰۰۲-۸-۱۸

سیأتي المطر	خفیفاً کطیف	
تثیر الشجر	کنسمه صبح	
حدّ الخدر	وتأسر قلبي	
*	*	*

سرى في السكون	خفیفاً کهمس	
وبثّ الشجون	فأزق عيني	
وأدمى الجفون	بكلّ فؤادي	
*	*	*

خفیفاً سیحملني فوق كفّ الربيع	ع	
سیحملني مثقلاً بالحنين المریع	ع	
وسحر بديع	إلى جنّتين	
*	*	*

سیأتي المطر	خفیفاً کطیف
کمسّ	
کهمس	
کروح /	
سمت فوق کلّ البشر	

کندشان کدفو (تريشور)

۲۰۰۲-۸-۲۲

ذکرتکم واللّیل قد هجعا

وبي قروح زادت الوجعا

أسلو هو اکم تارة وأری

طورا فؤادي مثقلا ولعا

قسّمت دمعی بینکم شیعا

كما یهود قسّمت شیعا

وارتبت فی قلبي کما فعلوا

بالعجل إذ قاموا له تبعوا

إذا بدوتم خاني جلدي

فمن یغيث الخائف الفزعا

ومن یمیط السّتر عن کلف

بکم کثیراً ورثا الجزعا

سأفرش الدّار لکم سکنا

حتّى تزیّدوني بکم متعا

ونسعيد الوصل فی حلل

من سحرها ازددنا بها شبعاً

- مشاهد وفصول -

كندشان كدفو (تريشور)

٢٧-٨-٢٠٠٢

- ١ -

(حدود مشهد تسيّجه الخضرة من جميع الجهات... أشجار جوزالهند تحتلّ المكان بأسره، تشمخ، وتكاد ذوائبها تعانق أجواز الفضاء... في الوسط تماما بيت على النّمت الهندي الحديث، يتكوّن من طابقين اثنين، وفي الفرندا كرسيّان من الخيزران، بينهما منضدة عليها صينيّة بها كؤوس فارغة وقنيّنة فارغة أيضا... فجأة، يسمع صوت كلب... ينبج الكلب ثلاث مرّات، ثمّ يصمت قليلا، ويستأنف النّباح...)

رجل شيخ:

(يجلس على أحد الكرسيّين، ويمدّ يده فيأخذ كأسا من الكؤوس الفارغة يضعها بين شفّتيه، ثمّ يعيدها إلى الصّينيّة من جديد...)

: كلب ينبج...

رجل شيخ:

(يجلس على الكرسيّ الثّاني، ويمدّ يده فيأخذ كأسا من الكؤوس الفارغة يضعها بين شفّتيه، ثمّ يعيدها إلى الصّينيّة من جديد...)

: هل شاهد حيّا يذبح؟!

الرّجل الأوّل:

(يأخذ القنينة الفارغة، فيرميها ناحية الجهة الّتي يأتي
منها النّباح... يخيم الصمت)
: أوجلا شيخا،
يضرب كلبا ينبح؟!

الرّجل الثّاني:

(يتحامل على نفسه، فيقصد النّاحية الّتي رمى
فيها الرّجل الشّيح الأوّل القنينة... يأخذ القنينة ويعود فيضعها على
الصّينية من جديد)
: مات الكلب المسكين
لأنّه حاول أن يعتاد على السّكر
فلم يقدر...!!

الرّجل الأوّل:

(يرفع القنينة كأنّه يصبّ شيئا في كأس أولى ثمّ في كأس
ثانية)

: فلنشرب نخب الكلب،
ونبح حتّى الفجر!!

الرّجل الثّاني:

(يرفع كأسا إلى مستوى شفّتيه كأنّه يشرب)
: هل نحن الكلب؟!

الرَّجُلُ الْأَوَّلُ:

(يدفع الصَّيْنِيَّةَ عن المنضدة فتتكسر القنينة والكؤوس

(

: نحن الكلب هوى كأسا-

فانقلب الكأس

ومات الكلب!!

الرَّجُلُ الثَّانِي:

(يتحامل على نفسه... يفتح فمه فيصدر صوتا مثل

نباح الكلب)

: فلننبج مثل الكلب مرارا،

ثمّ نموت!!

(يسدل الستار على المشهد)

کندشان کدفو (تریشور)

٢٨-٨-٢٠٠٢

- ٢ -

(الطَّرِيقُ معتمة... ظلمة كثيفة على الجانبين، وسكون تقطعه من
حين لآخر نسيمات خفيفة كانت تهبّ فتجعل ذوائب أشجار جوز الهند
تحفّ حفيفا...)

صوت أول:

ما أثقل هذي الظلمة!!

صوت ثان:

(يبدو أنه لم يكن مصاحبا للصوت الأول، بل نبع من
مجثم ما)

: ما أثقل هذا الصوت...!!

صوت أول:

(ينتبه إلى الصوت الثاني)

: من؟! صوت آخر؟!

صوت ثان:

(حانقا)

: هل صوت غيري،

يعبر في البدء،

ويعطي الأسماء لكل الأشياء؟!

صوت أول:

(يبدوأنه لم يكن يريد أن ينتبه إلى نبرة الحنق البادية في
كلام الصّوت الثّاني، وأنه كان سعيدا لأنّه وجد مرافقا سيخلّصه من
وحدته، حتّى ولو كان هذا المرافق مرافقا ثقيلا)
: فلننس بأننا أصوات...

صوت أول:

(مقاطعا)

: شأنك أن تنسى!
وشأني أن أنحت من عدم الأشياء-
ملايين الأسماء!!

صوت ثان:

(مهادنا)

: فلتقبل صوتا آخر،
قد يمددك بما لم تحظ به-
برأي في بطن الغيب...
وحكايا بطعم الشّهد،
ولون التّين الخمريّ-
يوذّ البلسم لو يعطيه أديم الأرض،
ويفرش من حوله أسرار البحر...!!

صوت أول:

(يحتدّ غضبا من جديد... يستغلّ بزوغ القمر، فيأخذ

شيئاً بالقرب منه يقذف به الصَّوت الأوَّل)
: هل تجرؤ، يا بعضاً من صوت،
أن تغزو مملكتي-
أن تعطي نفسك حقَّ التَّعميد،
وتجرحني...!!

صوت ثانٍ:
(يصمت، إذ يبدو أنَّ ذلك الشَّيء الذي رماه به الصَّوت
الأوَّل قد أحدث به ضرراً)
... :

صوت ثانٍ:
(في أمر)
: اخرج، يا صوتاً أخرق،
منها ولا ترجع-
فالصَّوت أنا،
والصَّوت لنا،
نحن الصَّوت نقول،
فهل تسمع،
يا صوت الطَّين الأخرق...!!

(ينسدل الستار على الطَّريق والظَّلمة والسَّكون...
والصَّوتين الأوَّل والثَّاني)

كندشان كدفو (تريشور)

٢٩-٨-٢٠٠٢

- ٣ -

(رواق مقبب يكتنفه الصمت والظلال... يفضي الرواق إلى معبد
راماكريشنا... والمعبد أمامه مجمرة نحاسية متناهية الطول، وبداخله
تجثم سكينه وجلال وهدوء...)

كريشنا:

(متربعا في فضاء المعبد، ينفخ في نايه، فجأة يتوقف،
ويخاطب شخصا غير مرئي)
: أنا أعطيت الأشياء بقاياها...
أنا أولدت الصبح،
وأولمت لأحبابي...
(يواصل النفخ في نايه)

سوميتا:

(فتاة صبيّة، ما تزال في ريعان الشباب... نذرت لخدمة
المعبد... تتقدّم بخفر حتى تقف أمام كريشنا)
: أنا- مولاي- فتاتك،
نذروني فعمّديني...

كريشنا:

(ينظر إلى صبا الفتاة... يؤخذ بجمالها... يمدّ يده، فتقلب

اليد إلى مرقى مرمرى)

: أنا أعطيت البركات لرؤادي،

ومنحت النّفحة...

فامشي في المرقى،

وكوني السرّ لذاتي...!!

سوميتا:

(تصفّق بيديها، فتسود المعبد- للحظة- ضجّة خفيفة،

وتدخل فتيات حسان، ينتظمن في حلقة حول سوميتا، وهنّ ينقرن

الدّفوف)

: مولاي، عطاياك هبات،

وعطاياي عطايا الموهوب:

فهات من بعض هباتك هبات،

كي نرقى ونمنح هذا الصّبح،

ونولم للأحباب...

وهات من بعض هباتك هبات!!

الفتيات

الحسان :

(يتحوّلن إلى كورس... يردّدن مع بعض على إيقاع الدّفوف)

: مولاي، عطاياك هبات،

فهات من بعض هباتك هبات...!!

فهات من بعض هباتك هبات...!!

كريشنا:

(يقبض يده الممدودة فيحتضن سوميتا والفتيات

الحسان)

: من مثلي اليوم لأحابي؟!
من مثلي اليوم لطلّاي؟!
أنا أولدت وأولمت،
وشققت فؤادي،
وأعطيت الحب...
وقسّمت هواي،
لأحجب بعض التّرويع القدسيّ،
وأمنح للإنسان تلايبب الفتنة...

الفتيات:

(يرَدَدُن)
- أعطيت الحبّ
وقسّمت هواي.
- أعطيت الحبّ
وقسّمت هواي.

سوميتا:

(وهي تضع يديها حول عنق كريشنا، وتنظر إليه مأخوذة
بجماله السّماوي)
: من مثلي اليوم أنا حبّه؟!
منحوني فأعطوني قلبه!!

كريشنا:

(في نشوة المأخوذ، وقد جذب إليه سوميتا وراحا في عناق
كونيّ سرمديّ)

: قلبك قلبه، يا حبه!
نذروك فأعطوني قلبي
وقد خنته!!

الفتيات:

(يردّدن على إيقاع الدّفوف)

: قلبك قلبه، يا حبه!

يا حبه!

يا حبه!

(ينسدل الستار على الرّواق والمعبد وكريشنا وسوميتا والفتيات...
ويسود هدوء وجلال وسكينة)

کندشان کدفو (تريشور)

۲۰۰۲-۸-۳۱

.۴.

* فصل *

المشهد الأول

(غرفة بالطابق الأول... إنارة خفيفة... صمت... يخرق الصمت
صرير الباب وهو يفتح... يدخل... يأخذ الوسادة إلى الجانب الآخر،
ويخلع قميصه ويتمدد)

هو:

ماذا؟!

.....

لا شيء جديد...

واليوم كأمس!!

هو:

الأرض تدور مع ذلك،

والشمس تشع-

لنحيا كما الأحياء!!

أليس كذلك؟

.....

الأرض تشيخ-
هرمت هذي الأرض،
وناءت بالحمل الأعظم...
والشَّمس خباياها جنون،
وغدا تحترق الشَّمس
ليسكن بركان الإنسان...!!

هو:

لا تذهب في الرَّوع كثيرا...
لنغنّ، وننشد مثل الأموات
أناشيد الأحلام
وملح الأرض
ونور الشَّمس
وأعياد الأحياء...!!

.....:

هل تسمع هذا الصَّوت؟!
(يضع يده على أذنه اليسرى كأنَّه يتحقَّق مصدر صوت ما)
: إني أسمع...
أت من خلفي وأمامي،
ويقول:

- يا أهل الأرض جميعا،
لبّوني...
فالموت بداية
والبدء نهايات الأشياء!!

المشهد الثاني

(يدخل فيفسح له الآخر مكانا على السرير... يجلس)

القادم الجديد:

(يروى المكان بنظرة خاطفة، ثم يلتفت صوبي)

في كل مكان...

إنسان يحلم بالخبز:

في كل مكان...

إنسان جائع...

.....

: أعلم أن الإنسان يجوع...

القادم الجديد:

(مقاطعا، وقد كان ينتظر هذه الفرصة ليواصل)

والعادة أن نعطي-

إن جاء إلى البيت غريب-

بعضا من فيض عطايانا...

للجوعى... وشذاذ الأفاق،

ومن ماتوا من الفقر... ومن

عاشوا يمتنون النفس بغريب/

يأتي كي يمنح من فضله-

بعضا من فيض عطايانا...

(يطأ رأسه للحظات، ثم يرفعه...)

هل تفهمني؟! هل تفهمني؟!

.....

لا تحمل في القلب همومك /
وهمومي؛
وامنح مادام الفقر،
ومن جاعوا،
ومن عاشوا يمتّون النّفس تباعا-
بمجيئي؛
فاليوم أحاول أن أنسى،
بأنّي نسيت...
واليوم أقيّد أحبابي...
بإحساني!!

(ينسدل الستار على الغرفة، والإنارة الخفيفة والصّمت... وهو،
و... ، والقادم الجديد)

الجزء الثاني

- حكاية الحرّ المملوك / الرّاي -
(المكاشفة والأسرار)

تكتشف فجأة أنك لست أنت؟! وأنت طوال كل هذه السنين التي مرت كنت تعيش داخل جلد شخص آخر، ربّما كانت له نفس ملامحك ومخاييلك، إلّا أنّه يظلّ في النّهاية غريبا عنك في كلّ شيء!!

... كنت أعلم أنّ الأسئلة المحيرة لا تأتي في حينها، وقد لا تأتي أبدا، رغم أنّ هذه الأسئلة نفسها تبدولنا أحيانا من الأهميّة بمكان، نحتاجها حتّى نتأكّد من صوابيّة بعض ثوابتنا، ونحتاجها أكثر حتى نوكّد ثقتنا من أنّنا مازلنا قادرين على طرح الأسئلة. وبالتالي مازلنا قادرين أن نكون أنفسنا، فلا نضيع وسط دوامة المتاهة!!

... لكن، ومع ذلك، سوف لن أكون في حاجة إلى كلّ هذه الأسئلة التي أتحدّث عنها، كما لن أكون في وضعيّة الحرج إزاءها بحيث يتعيّن عليّ أن أسعى جاهدا إلى إيجاد الأجوبة على كلّ الأسئلة التي كنت طرحتها... فقط سأكون مضطّرا إلى سؤال وحيد، سأعتبر أنّ كلّ وجودي الحاضر متوقّف عليه، إذ على ضوئه ستترتب أشياء وأشياء... سؤال محير كلّ الأسئلة التي داهمتني من قبل وأعجزني أن أجِد لها الأجوبة المناسبة. في هذه المرّة سيكون لزاما عليّ أن أطرح السّؤال، وأن أجِد الإجابة كلّني ذلك ما كلّفني، فلا خيار!!

هل أنا الشّخص الذي كنته منذ أربعة وثلاثين عاما؟ هل هو الشّخص ذاته؟ أم شخوص كنت أتقمّصها في كلّ مرحلة من مراحل حياتي دون علم أو وعي مني؟!!!

أدرك أنّ سؤالاً مثل هذا، أو بالأحرى أسئلة مثل هذه، قد لا تستحقّ كلّ هذا العناء، وهذه الكلمات الكبيرة التي بدأت بها حديثي.

فليس فيها ما يعدّ ابتكاراً أو تأصيلاً لشيء ما... بالقطع قد يكون ذلك صحيحاً؛ بل هو صحيح إذا ما فرط السؤال متى وتجاوزني، لأني أعلم أنّ هذا السؤال لا يخصّ أحداً غيري، وقد لا يهمّ أحداً غيري أيضاً!!

لا أدري لماذا عندما حملت القلم، وتجاسرت على الكتابة، بدلي ما كتبته أليفاً، بل ومعاداً إلى حدّ ما، لأني كثيراً ما بدوت غريباً لنفسي وأنا أشرد بعيداً وراء حدود غير منظورة، ألوك الأفكار دون أن أجد الرغبة في تدوينها. كنت مستسلماً إلى دعة السكون والشّعور الأثيريّ بالعطالة اللذيذة حيث لا قيود تشدّني إلى ضالة الواقع ومستلزمات الوجود... في شروذاتي تلك، وبين الأتون التي تفضي إلى مجاهل الذات، كان يصاحبني إحساس بالتمزّق والتلاشي؛ وكنت أظنّ دائماً أنّ شخصاً ما يأتي من الأقاصي ليأخذ بيد شخص آخر، ربّما كنت أنا، فيقوده عبر أكثر المسارب وعورة إلى أكثر الأماكن إلغازاً، وكأنّما يروم بذلك أن يكرّر فيه صور أبطال وهميّين كانت تحفل بهم قصص الأطفال والأساطير وروايات ألف ليلة وليلة... وخلال ذلك السّفر، لم يكن يخطر لي أن أعذب نفسي بما قد يخطر لذهني من أسئلة محيرة، إذ كان يكفيني أن أنظر من حولي حتّى أنسى كلّ شيء - الصّور، الخيالات، الألوان التي كانت تمتزج بألوان أخرى فتتوالد منها عشرات الألوان الغريبة الأسرة، المدى الرّحيب، والأصوات التي كان يحملها الأثير... الشّعور بأنّك لست أنت، بل لست أيّ شخص آخر؛ وإنّما مجرد خيال أوطيف انضمّ إلى بقية الخيالات والأطياف الأخرى في سمفونية الحفل الكوني!! كان ذلك الإحساس، في تغريبة الهروب، واستحال الإحساس إلى تحدّ وأنا أمسك القلم:

هل أنا نفس الشّخص، أم أخرج بلاهوية؟!!

الآن، تتناوبني قشعريرة اللفظ والمعنى، وأجدني مربكاً أمام نفسي، أكثر ممّا لو كنت أمام حشد من النّاس، لأنّه ليس من السّهل عليّ أن أفق بعد كلّ هذا العمر موقف السؤال والمساءلة؛ هذا إذا

كان هذا السؤال وهذه المسألة من النمط المعتاد للجميع، فما بالك وهما يمتان إلى شيء كان من المفروض أن لا يلتفت إليه لأنه - كما يقولون- تحصيل حاصل!... سيكون سخيفا بعد أربعة وثلاثين عاما أن أوزط نفسي في حبال سؤال قد يعيش أحدهم عمرا بأكمله دون أن يطرحه، إمّا لأنه لا يستحقّ عناء الطرح، وإمّا لأنه من الرثاءة بحيث لا يلتفت إليه!... ومع ذلك أطرح أنا هذا السؤال- وهذا السؤال بالذات، وأجدي، بحكم التزام أخلاقي لا أدرك مصدره تحديدا، مطالبا بالإجابة عليه...

للحظات لا أستطيع منع نفسي أن أكون مثل أيّ خلي لا تعجزه الإجابة على سؤال، تحت أيّ ظرف من الظروف، وحتى وإن وجد هذا السؤال مفاجئا، وفي غير محله؛ سينخرط في سيل من الكلمات التي لا تحيل على شيء خارج حدود الحروف التي توطّرها، وسيكون سعيدا أنّه فلان بن فلان، من قرية أو مدينة كذا، وولد سنة كذا، وهو من بلد كذا... كم سيكون سهلا عليّ لو فعلت مثله، إذ على الأقلّ سأخفف عن نفسي بعض الحمل، وأجنّبها مؤنة العذاب، لأتفرّغ لباقي الأعباء الأخرى التي تثقل كاهلي، وهي كثيرة على كلّ حال!!! أنا فلان بن فلان بن فلان، أصيل في سلسلة العراقة القبليّة، متأصل في بدوّة بلا حدود، تمتدّ من الأفخاذ إلى البطون، إلى العشائر، وهلمّ جرا؛ ولدت لأب وأمّ عربيّين مسلمين، في الرّابع والعشرين من آذار سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف، وعرفت مرارة التّشرد، وأن أكون في عائلة دون أن أشعر أنّي فرد من أفراد هذه العائلة... وماذا بعد؟!... أشياء وأشياء، قد تفيض بها الأوراق والأضابير؛ ولكن يظلّ السؤال هو السؤال، وتظلّ أنت ليس ذلك الخليّ الذي وددت لو كنته، ولكن مجرد جسم غريب في بلد غريب، تماما مثل القوقعة التي أخرجت لتوها من البحر...

كنت أعتقد دائما أنّي أنا- بداهة مثل بدايات أخرى تعلّمتها ونحن صغار، داخل فصول مغلقة، في شتاءات شديدة البرودة،

أمامنا المعلم بتكشيرته العابسة وعصاه الطويلة: تشرق الشمس من المشرق، وتنحدر في غروبها ناحية الغرب؛ وإذا انطلقت من نقطة ما، فإنك ستعود إلى نفس تلك النقطة، مثلما فعل ماجلان- ذات يوم- ليثبت كروية الأرض؛ وفي قرن من القرون، صحا العالم على حقيقة من الحقائق الجديدة، بأن الأرض تدور؛ و... و... ويحكم جاليليو ويحكم عليه بالموت؛ ولأن جاليليو ظل متمسكا باعتقاده لأخر لحظة رغم شراسة رجال الكنيسة اعتقدت أنت أنك الشخص ذاته منذ أربعة وثلاثين عاما. « لكن... » (نفس الاستدرك دائما... نفس الحيرة... نفس القلق إزاء السؤال !!)

... لأحد أن يتعذب مرة في حياته، ولي أن أتعذب مرات، وأن أحتمل العذاب مادام السؤال بداخلي، يؤرقني، ويزعزع كياني... أود أن أعترف- ولو كذبا- أنني أنا، وأعيش بعدها مرتاح البال دون منغصات، أخذ الأشياء على علاتها، ولا أحمل الكلمات أكثر مما تحتمل، وأضع حدا لمشاكساتي فأحقق مصالحة مع الحياة... أود أن يذوب الجليد الذي تراكم وتراكم حتى خوضت فيه من رأسي حتى أخمص قدمي، إلى الحد الذي ضيعت فيه الجهات، واختلطت فيه عليّ المسميات... أود حقيقة لو أكون أنا- كائنا ثابتا على أرض صلبة، يؤمن أن كل شيء بخير، وأن الكون بخير، وأن الناس جميعهم أسوياء، توحد بينهم إنسانية خيرة، ويجمعهم مصير واحد، غير أن السؤال يلح في كل مرة، ويلح أكثر حين أرى تلك الوجوه المدبوعة التي لوحتها الشمسوس المدارية تشرب في تحدي وهي ترسل تلك الابتسامات الغامضة، التي رغم غموضها أدرك جيدا ما تحمله من ألفاظ ومعان... إني أكاد أسمع الهمسات، وحتى حركات الأيدي لا تفوتني، وتقلصات الوجوه، وتلك المحاولات المقصودة لتصيدي وأنا داخل السيارة، والالتفاتات... كل ذلك كنت حريصا أن لا يغيب عني طوال الوقت، بالرغم من أنني كنت أتفادى الاحتكاك بكل ما أراه، والإمعان فيه مباشرة... كنت

دائما أحاول النّظر من طرف خفيّ: ألتقط كلّ شيء، أراقب، أدقّق في الملامح، أنظر في الأعين على حين غرّة، حركة الشّفاة، جرس الأحرف والكلمات على غرابتها، وأنا الآتي من تخوم حضارة قد هرمت وشاخت، وأشرفت على الموت صبرا!!!... كنت أرى غربيّ بداخلي، قبل أن أراها في من حولي: وكنت أسمع الكلمات، رغم أنّي لا أفهمها، وهي تنطق في لهوّة سريعة، أقرب إلى دفع موج هادر:

.إنّه الجسم الغريب!!

سأعترف أنّي كنت غريبا إلى حدّ ما، حتّى أكون منصفًا، ولا أظلم أحدا في لحظة من لحظات الغضب المدمّرة: غريب برأسي الحليق، وقبّعتي التي قال عنها زميل لي في العمل إنّني وأنا ألبسها أشبه أحد الماويّين في فترة الخمسينات؛ وغريب أيضا بذلك السّروال الذي لم أتخلّ عنه رغم الإلحاح، في قرية صغيرة أهلها مشهورون بلباسهم الخاصّ: شيء مثل الفوطة كانوا يشدّونه حول وسطهم ويثبتونه بطريقة فيها الكثير من المهارة بحيث تكشف عن سيقانهم وجزء ضئيل من أفخاذهم... وغريب بالفانيلا وذلك الجرزي دون أكمام الذي كنت اشتريته من أحد المخازن المشهورة بمدينة مسقط، وما أعجبنى فيه حقيقة أنّه كان مليئا بالجيوب... (ويجب أن أعترف هنا أيضا أنّي منذ غادرت بلدي، ذلك القابع في استحالة صمت المتوسّط، منذ سنتين تقريبا، وتحديدًا في الثّامن والعشرين من شهر أيلول سنة ألفين، غدوت شخصا مختلفا تماما... تخلّيت عن عادات قديمة، ربّما كانت أثيرة لديّ، وفي المقابل اكتسبت عادات جديدة أيضا، قطعًا ليست كلّها حسنة، وبعض من عاداتي القديمة التي تخلّيت عنها أجديني في أحيان كثيرة أفتردها، فأرجع على نفسي باللائمة، وأقسم في لحظة من لحظات الضّعف والقهر أنّي لن أغتفر لها ذلك أبدا... ولكن ما باليد حيلة، والعمر في انحدار، والصّحّة لا تسمح!... وأنا أكتب، وحتّى وأنا أفكّر وأشرد في الوجود من حولي، كنت أشعر لا إراديا أنّي في حاجة

إلى سيجارة، وأنّ الأفكار والهواجس والهلوسات ستكون أجمل، وأكثر أصالة إذا كانت معقّرة برائحة التّمباك... لا حيلة إذن إلا التعلّل، وكما تعودت من قبل على أشياء، يجب أن أعود الآن على أشياء أخرى، حتّى وإن بدت مستهجنة ومبتذلة أيضا!!!)

هل يمكن للهوس أن يبلغ حدّا أكثر من الحدّ الذي بلغه عندي؟! وهل يمكن للأفكار- على تضاربها- أن تتضخّم داخل شخص كما تضخّمت بداخلي؟!... سيكون أفضل أن أنغاضى عن الإجابة، وأواصل حتّى لا أضيع في متاهة من التّساؤلات الغير المجدية فأضيع «رأس الخيط»- كما يقولون... كنت بصدد الحديث عن العادات القديمة والعادات الجديدة، وقد جاء ذلك عفوا حينما تطرّقت إلى الجرزي والجيوب؛ وأنا هنا أضع عشرات الأسطر حول الجيوب، لأنّها غدت هوسا غير مفارق... صحيح لم يكن لديّ الكثير لأخاف عليه، ولكيّ كنت حريصا أن لا أضيع القليل الذي كنت أملكه، وهذا القليل الذي كنت أملكه لا يتعدّى بعض الأشياء الصّغيرة من المفاتيح- في الحقيقة هو مفتاح واحد لا غير، حملته معي في كيس بئّي صغير، أما بقية المفاتيح الأخرى فقد خبّأتها في شقيتي بـ «صور». في أماكن اعتقدت أنّه سيكون من العسير على أيّ شخص أن يتفطّن إليها فيما لورام البحث عنها... وبعض العملة... وتذكّرة السّفر... والجواز- جواز سفري!!

لم أكن أخشى على شيء خشيتي على جواز سفري؛ وقد قضيت ثلاثة أيّام بأسرها تتقاذفني الوسواس والظّنون، فكنت أفترض أشياء غريبة ليس لها وجود إلّا في مخيلتي؛ وما أكاد أهدأ، وتعاودني بعض الطّمانيّة حتّى يداهمني السّيل من جديد... أرى نفسي بلا جواز، في الحقيقة بلا هويّة... أراني مساء لا منبوذا... وربّما مسجوننا أيضا!!!... لا يمكن أن أنسى تلك الأيّام؛ ولعلّ مما زاد وطأة تلك المخاوف الوحدة القاتلة التي كنت متسرّبا فيها!!!... لقد حدث كلّ شيء كما في الحلم، وبسرعة خاطفة لم أكن، بحال، قادرا على التّحكّم فيها... ربّما

الخاطر... غرابته وطرافته في أن... ربّما التّوافق المستحيل والرّغبة في قلب موازين الأشياء، حيث كنت طرحت سؤالاً وأنا أكتب بعض الأقاصيص، ولم أكن أتصوّر بتاتا أنّ نفس ذلك السّؤال قد ينقلب إلى كرة يمكن أن ترتدّ بفعل صدفة مذهلة إلى ملعبي... «هل زرت الهند؟!»: لم أكن أفكر، آنئذ، في أبعد من الحروف التي كانت تؤطّر السّؤال، كما لم أكن أقصد شخصاً بذاته. رغم أنّي كنت أقصد «أيّ عماني» وأنا أسأل: أمّا أن يكون المقصود أنا، فذلك ما لم أكن أتوقّعه البتّة... على كلّ حال طرحت الفكرة فيما بعد، ولاقت قبولا من جانبي، واتّفقنا- أنا وصديقي الهندي... كان عليّ أن أحصل على التّأشيرة، واعتقدت في البداية أنّه يمكنني تحصيلها في نفس اليوم؛ لكن عندما ذهبنا إلى السّفارة، وأخذ الموظّف الأوراق المطلوبة والرّسوم والجواز أعلمنا أنّ التّأشيرة ستكون جاهزة في اليوم المقبل... أسقط في يدي!... مشكلة حقيقة...!! إنّهُ الجواز، في حياتي لم أأتمن عليه أحداً؛ كان دائماً معي، وكنت أخشى أن يضيع مني!!! هذا الخوف كلّهُ، والرّعب، كان لهما ما يبرّزهما في الحقيقة: فبالإضافة إلى أنّي لم أحمل معي كفاية من المال، فقد تركت بطاقة الصّرف في شقّتي بمدينة «صور»، وبينها وبين مدينة مسقط مسافة ثلاثمائة كيلومتر تقريباً تقطعها السيّارة في ثلاث ساعات... لو كان معي مال لبِتّ في أحد الفنادق، وتسلمت الجواز في اليوم التّالي، وسيكون الله قد كفاني شرّ القتال؛ أمّا والحالة هذه، فلم يكن لديّ خيار آخر إلّا أن أقبل بالحلّ الذي اقترحه صديقي الهندي: أن نعطي وصل استلام الجواز إلى أحد الهنود، وننقده أجرته، وهو يرسله لنا بالبريد السّريع في اليوم الموالي... قبلت على مضض، سيّما أنّنا لم نقابل ذلك الشّخص في دائرة رسميّة، والأكثر من ذلك أنّ صديقي الهنديّ لم يكن يعرفه... وعدنا في نفس اليوم ليلاً، ومن اللّيلة الأولى ابتدأت الأفكار السّوداء، وتلاها الرّعب... ماذا لو لم يرسل ذلك الشّخص الجواز، فنحن في النّهاية لا نعرف عنوانه، اللّهم إلّا ما

كان من رقم هاتف محمول قد يكون مزيفاً؟!... ماذا لوباع الجواز؟!... ماذا لو تصرف فيه بطريقة، فأنا بالرغم مما حدث لا أعني له شيئاً، حتى أنه لم يرني، إذ تمّ كل شيء على يد صديقي الهندي؟!... وماذا؟!... وماذا؟!... كنت أنتظر قدوم اليوم التالي بفارغ الصبر؛ وليت الأمر كله كان سيحسم صباحاً، إذ كان عليّ أن أنتظر إلى المساء... وجاء المساء، وذهبت ففوجئت... لم يصل الجواز بعد... «وصوله في اليوم التالي مؤكّد»، هكذا قال صديقي... كنت أريد أن أصدّق، لكنّها نفس الوسواس والظنون عليها لعنة الله... وبتّ ليلتي كسابقتهما... أرق... رعب... تهيّؤات... خيالات وافتراضات... ونوم متقطع... وتلا ذلك اليوم اليوم الذي يليه، وقد مرّ عليّ كأنه دهر... وذهبت، وشعرت عندما أخبرني «شانييل»- كان ذلك إسم صديقي- أنّ الجواز معه، كأنّ ثلوج القطب قد ذابت كلّها بداخلي، أو كأنّ برداً منعشاً قد غزاني ليطفئ ناراً كانت متأجّجة في كياني!!

... كنت إلى حدّ ما غريباً حتى في نظر نفسي؛ وكنت لنفس ذلك السبب أعذر أولئك الذين كانوا يرمقونني بنظراتهم الفاحصة، ليس فقط في جوار منزل السيّد «لوهيداكشان»- الطيّب جدّاً-، بل في كلّ «كندشان كدفو»، وحتى عندما ذهبنا عدّة مرّات بالسيّارة إلى مدينة «تريشور»، كنت أشعر غريباً أنّ كلّ شخص فيها يعرفني جيّداً... ربّما كان ذلك خاطراً سخيّفاً، من جانبي، أفرزه تحفّزي القبليّ، وخشيتي المفرطة، وذلك الهوس الغريب الّذي كنت تحدّثت عنه منذ قليل، ولكنّ ذلك ما حدث على كلّ حال!! في وقت ما، حين كان يركبني التحدّي، فأقرّر أن أنغلق على نفسي أمام تلك النظرات المتصيّدة والوجوه الفضوليّة، سرعان ما تدهمني الخواطر والأسئلة، وحتى أكثر الافتراضات استحالة: ماذا لو كنت أمريكياً؟! أو إنجليزياً؟! أو أيّ مواطن من جنسيّة غربيّة؟! ماذا لو كنت أيّ شيء، غير هذا الجسم الغريب الّذي شاء له سوء الحظّ أن لا يكون مثل هؤلاء الّذين كانوا

يتفحصونه بغرابة كلما مرّ أمامهم، ذا بشرة تضرب إلى الغموقه القاتمة؟ إذ على الأقلّ سأضيع بينهم دون أن أثير اهتماما أو انتباهها من أيّ نوع؛ ولا مثل أولئك الذين جاءوا حملة لعلم الحضارة، وحين استقرّ بهم المقام أصبحوا نهبة خيرات وغزاة، ثمّ خرجوا- على مضض- بنفس الصّفه، وعادوا أخيرا سيّاحا ورّحالة وجوّابة آفاق- ذوي شعور صفراء وعيون زرقاء وكلام كثير يقال بإغراء سيكون سماعه جميلا حتّى وإن لم يكن مفهوما!! (هل هي نفس العقدة التّاريخيّة التي تحدّث عنها ابن خلدون في مقدّمته: المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب؟! هل هي سلطة الشّكل والصّورة والجاذبيّة؟! أم شيء آخر يظللّ غامضا في الباطن يتحكّم في الرّغبات والأهواء؟!...) ماذا لو كنت أيّ شخص آخر، غير ما أنا عليه الآن، ببشرتي التي ليست لا إلى البياض ولا إلى السّواد، وملامي التي كانت تفصح إلى حدّ ما عن هويّتي وانتمائي؟!... هل كانوا سينظرون إلى بعضهم، كما فعلوا، ويضحكون؟! هل كانوا سيتصيّدونني؟! هل كانوا سينتهون إلى وجودي أصلا؟!

كان لديّ إحساس أنّي لست مخيفا مثل الأمريكيّ أو الإنجليزيّ! وأنّي وديع، تماما مثل ذلك الفيل الصّغير الذي شاهدته في جوار ذلك المنزل حيث كنت أقيم؟!...!

ستغرقون في الضّحك جرّاء هذا التّحول الغريب المفاجئ؛ وربّما ستتهمونني بالنّزق وعدم القدرة على سلسلة أفكار في نسق منهجيّ شديد الوضوح؛ وربّما تساءلتم بينكم وبين أنفسكم، أو فيما بينكم، عن علاقة بداية الحديث التي كانت سؤالاً في الهويّة والانتماء بما انتهيت إليه الآن من تطرّقي إلى الفيل ووداعته!!... سأعترف أنّ التّحول كان مفاجئاً حقّاً، ولكيّ لا أجد أيّ تناقض من أيّ نوع بين البدايات والنّهيات، كما أنّي أعتبر ما كتبتّه إلى هذه اللّحظة شديد الوضوح، أخذاً بعضه برقاب بعض وفق منهجيّة مخطّط لها سلفاً؛ كلّ ما في الأمر أنّ حكاية الفيل جاءت سابقة لأوانها بعض الشيء، وهي

حكاية مركزيّة، شديدة الأهميّة، ليس فقط لرمزيّتها، ولكن لقدرتها على تلخيص حكايتي الرّاهنة والمأمّها ببعض ما أعانيه، ومازلت... في الحقيقة هناك الكثير الكثير الذي أريد أن أحكيه، بعضه مازال عالقا بذهني، أحسّه شديد القرب منّي إلى درجة الاستبداد، والبعض الآخر أراه، يوما بعد يوم، يتميّع ويتّرجح أمامي، تماما مثل الرّزّيق، والسّبب في ذلك أنّي مازلت إلى الآن أعيش التّجربة الّتي أنا بصدد تدوينها... أعيش أحداثها... أعيش فصولها، كلّ يوم، فصلا فصلا... وأكتوي بنارها، وربّما هذا ما دفع بصورة ذلك الفيل المطيع إلى ذهني... أراني، بشكل ما، ذلك الفيل، على الرّغم من الفارق الفيزيولوجيّ بيّني وبينه؛ وأرى «شانيل»، صديقي الهنديّ، مدرّبه اللّذين جاء به، ذات صباح، إلى البئر الّتي تتوسّط عالما أثيلا من الخضرة الدّاكنة ليحمّماه...!! كنت أودّ- صراحة- لو جاءت حكاية الفيل في موضع غير هذا الموضع، سيّما أنّي اعتقدت، في البداية، أنّي رسمت الخطوط العامّة، ووضعت خطة محدّدة للكتابة، لكن- وكما سبق أن قلت- مازلت التّجربة قيد المعاشة، وليس من اليسير حقّا أن تتحكّم بكلّ مهارتك في أشياء شديدة القرب منك، بعضها مسلس قياده لك، وبعضها الآخر شارد موغل في شروده.

* حكاية الفيل الصّغير:

[... أعتقد أنّها ليست المرّة الأولى الّتي أراه فيها، إذ أكون على الأرجح قد رأيته من قبل... ربّما في الضّحى!! لا، لم يكن ذلك عند الضّحى، بل في فترة الغداء، ونحن حول الطّاولّة؛ وقد رآه أوّل من رآه السيّد «لوهيداكشان»، وبما أنّه كان حريصا جدّا على إدخال السرور والبهجة إلى قلبي، إذ كان يعتبرني فردا من العائلة، ويحنو عليّ كأحد أبنائه، بل لقد وجدته في أحيان كثيرة يعاملني كما لو كنت قطعة من الرّجاج الثّمين الذي يخشى عليه من العطب... ما كاد يراه حتّى ترك

اللّقمة من يده وهرع في خفة الشّابّ صائحا بي أن تعال... انصبت
لأمره، إذ لم أكن أملك غير ذلك، فمند وصولي إلى منزله بعد رحلة
بالحافلة امتدّت أربعين ساعة من «مومباي» إلى «كيرالا» نشأت ببني
وبينه علاقة، على فجاعتها، تظلّ طبيعيّة بين المضيف الذي يرشد
خلال رحلة الاستكشاف والضيف الذي لا يملك إلّا أن يطيع!!... كان
كلّ أفراد العائلة تقريبا في الخارج يشاهدون الفيل الصّغير وهو يعبر
بجانب سور المنزل الوطيء؛ وقد سبقني السيّد «لوهيداكشان» إلى
أقرب نقطة يمكن مشاهدة الفيل من خلالها، ولما أخذ موقعه إلى جانب
شجرة الجوز القريبة من بوّابة المدخل أشار إليّ فاقتربت منه... كان
المشهد رائقا إلى أقصى الحدود في تلك الفترة من فترات ما بعد الظّهر،
وكان صاحب الدّار غاية في الظّرف وهو يوجّه إليّ أسئلته المقتضبة،
دون أن ينظر إليّ، بلغة إنجليزية نصف سليمة... قال، وهو يسألني،
هل توجد فيلة في بلدك؟! فأجبته أن لا، غير أنّ لدينا بعضها بحدائق
الحيوان... وقال لي بعد فترة صمت قصيرة، أنظر إلى الفيل ما أجمله،
فصدّقت على كلامه، إذ كان الفيل فعلا جميلا إلى أبعد الحدود، وهو
يتهاذى في مشيته ويشمخ برأسه الكبير وجسمه الضّخم... كان كلّ شيء
فيه يوحي بالعظمة رغم شكله الهلاميّ، ولم أكن أتصوّر، في لحظة من
اللّحظات، أنّ مثل ذلك الكائن يمكن لأيّ شخص أن يعامله كما رأيته
في ذلك الصّباح الصّيفيّ الغائم، كدمية لا تملك من أمرها شيئا... وأنا
أراه، انتابتني مشاعر شتى، لم أستطع تمييزها بوضوح للوهلة الأولى،
وشيئا فشيئا، وجدتني حانقا عليه، لأنّي بمجرد رؤيته بدوت عاريا
أمام نفسي، مثله تماما، مسلوب الإرادة، يقودني «شانيل» من أنفي
مثلما كان يفعل ذاك الدّليلان به؛ ثمّ شعرت نحوه بعد ذلك بشيء
من الشّفقة السّاخرة يمازجها غير قليل من الاحتقار!!... شاهدتهم
من بعيد، هو والدّليلين، عندما جاء به، وكنت واقفا مستندا إلى
عمود «الفرنندا» المرمريّ، فتقدّمت وجلست على شيء كان يتوسّط

الحديقة اعتقدت في البداية أنه يحمل بعدا دينيا، سيما أن عائلة مضيفي كانت هندوسية، ولا أنكر أنني كنت أجهل الكثير عن عاداتها وطقوسها... وقف أحدهما أمامه، وهو يمسك عصا، ووقف الثاني خلفه، وكان يحمل عصا أيضا؛ وكان الفيل مقيدا بسلسلة مشدودة إلى قدمه الخلفية اليمنى، وأديرت بحنكة حول وسطه، قريبا من مقدمة جسمه، وسلسلة أخرى أحكم شدّها حول رأسه... اقترب أحد الدليلين من البئر، وهو يحمل سطلا... ملأ السطل ماء، ثم رشق به جسم الفيل... فعل الدليل الثاني مثله... وتواصلت لعبة التحميم لبضع ثوان... في وقت ما، رأيت الدليل الذي كان يقف في المؤخرة يضرب الحيوان ضربات خفيفة على عجزته، فيتأخر بخلفيته، ويمد قائمته إلى أمام حتى تلتصق بطنه بالأرض المعشوشبة ثم ينبطح على جانبه الأيسر... حينما ضربه الدليل، ظننت أنه سينور... حسبت أنه سيثأر لكبرائه التي جرحته، غير أنه خيب آملي... كان مسالما وديعا، وأوعية الماء تغمر وجهه وبطنه وكلّ عضو من أعضاء جسمه، حتى ذيله الطويل ونابيه الأبيض الناصعين... وتتوالى ضربات العصا من جديد، فينفر الحيوان المسكين في محاولة للتوازن، يقف بعدها، ثم يؤخر خلفيته ويقدم قائمته، وما أن تلامس بطنه الأرض حتى ينبطح على جانبه الأيمن... كنت أنظر إليه وأنا أتساءل: هل كان سعيدا؟! هل كان يستمتع فعلا بحمامه الصباحي؟! أم كان شقيا في تلك اللحظة، شأن كلّ من سلبت إرادته وحمل على ما يكره؟!... قلت لنفسى، لا شك أنه سعيد، فمن كان مثله، يحمم كلّ صباح، ويعتنى به، ويقدم له طعامه في مواعيد محدّدة، لا بدّ أن يكون محظوظا؛ ثم أردت إلى نفسى ثانية، فتطالعتني أحداث رحلتي منذ أن انطلقت من مدينة «صور»، إلى أن ركبت الطائرة، ووصلت إلى مدينة «دلهي»، ثم اليومين الفضليين اللذين قضيتهما بـ «مومباي»، وأخيرا حلولي بقرية «كندشان كدفو» بعد رحلة الأربعين ساعة؛ حينئذ، أرى حدود المأساة، وتنكشف

لي الخبايا المستورة كما لو كانت على صفحة مرآة صقيلة شديدة البياض، فأشعر بالرتاء لحالي وحال ذلك الفيل الوديع... لا شك أنهم كانوا يجبرونه على فعل أشياء لا يحبها، مثلي: ولا شك أنهم كانوا يجبرونه على فعلها في أوقات ربما كانت لا تناسبه: ولا شك أنهم كانوا- في الكثير من الأحيان- يشعرون بالغبطة إذا بالغوا في إهانته والسخرية منه، مثلي... حتى وهم يرشقونه بالماء على مؤخرته، كانوا يجبرونه على أن يلقي بفضلاته دون إرادة منه!!

- ٢ -

(...) لم يكن الثالث من تمّوز يوما عاديا!! كان الجميع يعلم ذلك، ليس فقط أولئك الذين أمضوا اليوم الفارط يطوفون على أفراد الإدارة واحدا واحدا من أجل أن يوقعوا لهم على وثيقة إخلاء الطّرف، وذلك حتى يتمكنوا من الحصول على بدل تذاكر سفرهم وجوازاتهم، بل وأولئك الذين حجزوا في مواعيد متأخرة نوعا ما... وقد وجدت نفسي في الخضم، مشمولا بحمى السّفرومراسيم المغادرة، على الرّغم من أنني- للسّنة الثّانية على التّوالي - أقرّر البقاء وعدم العودة لأسباب متعدّدة انضاف إليها سبب جديد- قراري قضاء بعض الوقت في رحلة إلى «هندستان».

لعلّي كنت أبدوسخيفا، أو أخرق، أو أفقر إلى ذلك التّوازن الذي كنت محافظا عليه طيلة سنة بأكملها؛ ولعلّي كنت أيضا أبدو عقلانيا، ومفيدا، وقد وجدتني أصحو في الصّباح المبكر، على خلاف عادتي، لأهرع إلى شقّة صديق من أصدقائي ربطتني به علاقة من نوع خاص، مازلت إلى الآن غير قادر على فهمها أو تفسيرها، سيّما أنّ ما بيني وبينه من نقاط الاختلاف أكثر عشرات المرات من الأشياء المشتركة...

لعلَّ شخصيَّته هي ما شدَّتني إليه، أو أمانته الَّتِي قلَّ مثيلها في عالم- ابن إبرة- ضاعت فيه الأمانة، أو صراحته المفرطة الَّتِي جعلت الجميع يتجنَّبونه وينفرون منه!!... المهمَّ أتي خرقت الرُّوتين المعتاد للأَيَّام الماضية في محاولة للتَّغيير؛ وقد كنت أبدو، في ذلك اليوم، شخصا مغايرا بالفعل، أو هكذا بدوت في نظر نفسي... أشياء كثيرة كنت أحسُّها بداخلي، وحشد من المشاعر المتنافرة كنت أعجز ما أكون عن التَّعبير عنها، غير أنَّها كانت تستبدُّ بي إلى درجة الهذيان، فتارة تستخفُّني أريحيَّة أحسن تحت وطأتها أنَّ الوجود، بل الكون كلُّه لا يسعني، وطورا تجتاحني حالة الاكتئاب اللَّعينة- هذه الَّتِي ولدت معي وظلَّت- بين الفينة والأخرى، فأحسب أنَّ كياني كلُّه قد انقلب رأسا على عقب، وربَّما انعكست تلك الحالة على مظهري الخارجيّ أيضا... حينئذ، أجدني منطويا، متقوقعا على ذاتي، أقرب إلى صمت أشبه بالسَّكون، وحتَّى مجرد الكلام كنت أشعر بالعزوف عنه، والأسئلة حين كانت توجَّه إليّ، أقتصر- للإجابة عليها- بالإشارة أو الإيماء...!!

أستشرف الأَيَّام القادمة... وبقدر سعادتي أنَّ المكان ما يعتم أن يصبح خاليا، ويصير كلُّه لي، يترأى لي شبح الوحدة... والسَّكون المخيم... والسَّاعات الطَّويلة... والصَّمت الثَّقيل، حيث ولا نأمة تشي بحياة أو بقيَّة حياة... أحاول أن أعزِّي نفسي بالنَّسيان، وأتعلَّل أنَّ هذا الوضع الَّذِي أفكر فيه وأحسب له ألف حساب لم يعد غريبا عني. إذ صرت قادرا على التَّأقلم معه!! سيكون عليّ أن أتسلَّح ببعض الصَّبر، فالقليل منه يكفي، والاستعداد لتقسيم اليوم إلى فترات محدَّدة؛ في الحقيقة، ليست الفترات الَّتِي أعنيها هي نفسها المتعارف عليها، حيث الصَّباح تعقبه الظَّهيرة، ويلي الظَّهيرة المساء، ثمَّ يجيء اللَّيل فيجَلُّ الأرض بظلمته؛ فقط ما أعنيه أنَّه سيكون عليّ أن أقلب منطق الأشياء المعتاد كي ما أكون قادرا على الصَّمود؛ فإذا ما فكَّرت أنَّه سيكون بوسعي احتمال نهارات صيف مدينة «صور» الحارقة أكون

كمن يجذّف ضدّ التّيّار، أو مثل «سيزيف» الذي حاول أن يتحدّى
الآلهة فعاقبته الآلهة... إذن، لابدّ من وجود بديل! لابدّ من الخيار
الأصعب، وهو أن أتحوّل إلى كائن ليليّ، سأحوّل الليل إلى نهار والنهار إلى
ليل!!!... خلال الصّيف الماضي، وعلى امتداد شهرين كاملين، هما كلّ
الإجازة السنويّة المسموح بها، وعادة ما تنطلق من الرابع أو الخامس
من تمّوز وإلى غاية السّابع من أيلول، كان أكثر ما يؤرّقني اليوم الأوّل...
لم أكن أبالي بالشّهرين، أو بالأحرى كنت أتجنّب التفكير بهما، وإنّما
ما كان يجبّني باعتباره تحدّيًا كان يفرض عليّ أن أكون في مستواه هو
الرابع من تمّوز... سيمرّ الصّباح عاديًا، وسنلتقي، كلّنا، كالعادة، لنثرثر
ونتبادل آخر الأخبار؛ ودون شكّ، سنحاول قدر المستطاع أن نتفادى
الحديث عن السّفر، وسنقتصر في حديثنا على الطّقس، والحرارة
الغير العاديّة، ونحن نحسّي الشّاي على عتبة المدخل المفضي إلى
مطبخ المركز، وربّما مرّ بنا واحد من أهل البلد فسلقته الألسنة،
ويكون ذلك مؤشّرًا لينقلب الهجوم على أحد أفراد الجماعة، شأننا
في سائر الأيّام... وستمرّ الدّقائِق والسّاعات، ربّما للمرّة الأولى خلال
عشرة أشهر، بسرعة مذهلة، ينتهي بعدها كلّ شيء في الثّانية أو
الثّالثة بعد الظّهر... ستأتي سيّارات التّاكسي تباعا، لتتوقف عند
واحد من مداخل العمارات الثّلاث، وسيكون الجميع في الانتظار،
مستعدّين، بأمّعتهم المحزومة سلفا، وثيابهم الّتي أعدّوها لهذه
المناسبة، وأطفالهم الصّغار، إمّا محمولين على الأذرع، أو يمسكون
بأيديهم ليقودوهم إلى عالم ما يزالون يجهلون عنه الكثير الكثير... (إنّه
قدر الكبار أن يتعدّبوا بهذا الرّحيل الدّائم، وقدر الصّغار أن يولدوا،
وينشأوا ويتعرّعوا في بلد غير البلد، وأن تعتاد ألسنتهم لغة غير لغة
آبائهم وأجدادهم)... وسيكون عليك أن ترى كلّ شيء بملء عينيك،
وأن تودّع أصدقاءك الكبار واحدا واحدا، وأن تحمل أصدقاءك
الصّغار لتطبع قبلات المحبّة والوداع كليهما على وجناتهم المتورّدة،

وأنت ترى تلك الابتسامات الصَّغيرة على شفاههم... تراها ولا تفهمها؛ هي قطعاً ابتسامة فرحة ما، ولكن أَيْة فرحة؟! أهي فرحة العودة إلى البلد؟ إلى الوطن؟! لكن ماذا يعرف هؤلاء الصَّغار عن الوطن غير أنه مدينة كبيرة أو قرية صغيرة، لهم فيها جدّ وجدة طيّبان، يحنون عليهم ويحبّانهم وينتظران رؤيتهم بفارغ الصَّبْر؛ ولهم فيها أيضاً أحوال وأعمام بدأت أسماؤهم ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، وخالات وعمّات، منهن المتزوّجة التي أنجبت أطفالاً هم أصدقاء هؤلاء الصَّغار، والعانس التي لوّحت عشرات المرات للقطار المارّ أمامها، إلّا أنه تجاهلها ومضى لا يلوي على شيء، ومنهن التي مازالت تنتظر بختها...!! وسيكون عليك أن تلوّح بيدك، وأنت ترى سيّارات التاكسي تعود من حيث أنت، قائلاً: مع السّلامة.

فتجيبك أصوات عديدة، مشوّشة، مندغمة، مردّدة بنبرات فيها شجى ممزوج بفرحة لا تكاد تبين:
مع السّلامة... مع السّلامة...

... نفس المشية، ونفس الخطى، لم يكد يتغيّر فيهما شيء، رغم أنّ ذهني يضطرم بألاف الأفكار، تحملني في لحظات قصيرة جدّاً على كفّ الرّيح، تجوب بي الأقطار، وتهوّم بي، أراني عبر المساءات العيقة الأكثر بعداً، في إحدى المقاهي على مشارف المدينة التي كانت سنة النّوم تداعبها إلّا أنّها ترفض أن تستسلم لها بسهولة... تقاوم كي تبقى محافظة على فتنها العصىّة، تلك الفتنة التي كانت تطالعنا- ونحن جلوس في الرّحبة حول كؤوس الشّاي أو القهوة، تتناهى إلينا من الدّاخل أنغام الشّوق والذكرى تصدح بها حنجرة «السّت»- في الأنوار الباهرة المنبعثة من محطة السّكة الحديد، وجموع المسافرين التي لا تنقطع حتّى ساعة متأخّرة من المساء... والمواعيد المضروبة سرّاً، والالتفاتات اللّائبة كلّما مرّت فاتنة مرمّاح من أماننا... والأحاديث التي تبتدئ هادئة، خافتة، رصينة، ثمّ تلتهي إلى صخب وقهقهات معرّبة، غالباً ما تستثيرها حكايا

«ذات مغزى» أو نكات لا يملك الواحد أمامها إلا أن يضحك... ودخان السجائر... وسلطنة الأراكيل وهي تتوسط الحلقات المضروبة حولها... وأطياف الذكرى... والأصدقاء الذين خلفهم ورائي، وكنت أخاف أن أهاتفهم، أو أراسلهم، كي لا أضعف وتخونني الدموع، وأنا ابن الأربعة والثلاثين عاما، أشعر أنني شخت وهرمت كثيرا، ويجدر بي، إذا أردت أن أحافظ على بعض الوقار المتبقي لدي، أن لا أبكي، حتى ولو كان ذلك سرا، من دوني النوافذ مغلقة والأبواب موصدة... ويعبر الطيف ليحل محلّه طيف آخر، وينسدل الستار على صورة المدينة الغافية، ويهت شبح المقهى وتتميع وجوه الأصدقاء؛ وفجأة تنفجر آلة الزمن، ترتج فيسمع لها دويّ مخيف، وأنظر من حولي فلا أرى أمامي شيئا، والمدى الذي كان يعجّ بالصّور والأصوات والوجوه والضحكات ينهار دفعة واحدة، يتشظى، ويرتدّ إلى مزق صغيرة، لا تكاد ترى... السّنون والأعوام، والأيام، والساعات، تصبح كلّها غير حقيقية، وإنّما مجرد احتمال؛ وأرتدّ إلى داخلي، أحاول أن أبحث عن شيء، عن حقيقة ما أتعزّى بها... أسعى إلى اكتشاف ولو جزء من الأشياء التي كنت ضيّعتها في غفلة مني... التاريخ، اليوم، السنة!!... أصطدم بالأسئلة، وفي لحظة ما، تنقلب هذه الأسئلة إلى خيوط عنكبوتية، تلتفّ حولي فتكبّلني تماما؛ وأسعى - مدفوعا بغريزة البقاء- أن أتفادى الغرق؛ أستجمع ما تبقى لديّ من قوّة، وأدفع بيديّ البائستين إلى الأمام، في محاولة لاختراق الموج الهادر... كنت- بشكل ما- أخوض حربا ضدّ نفسي، وكنت في هذه الحرب أنزع إلى أخفّ الأضرار، لأنّي على أتمّ العلم بما يمكن أن تتمخّض عنه حرب ضروس كهذه، أجدني مدفوعا إلى أتونها وأنا مجرد من كلّ الأسلحة، مجرد حتّى من الوعي أنّي أخوض حربا... وما دام الأمر كذلك، فلا وجود لاحتمالي الرّيح والخسارة، وإنّما هو احتمال وحيد أنا أدركه من البداية: الخسارة، ولا شيء غير الخسارة؛ هي خسارة الأرض، موطن القدم الذي كنت أفخر دائما أنّه أصلب من أن يخيس بي، وأنّي

حين أكون مستقطبا في حدوده أشعر بالصَّلابة والثَّبات، وأتَّى شخص له تاريخ وجذور، و«أصل وفصل»، على حدِّ قول النَّسَّابة وأهل السَّير والأخبار... خسارة الشَّعور بالحنين، ونفحات الحبِّ التي تهمني بعقبها وأرجها بين الفينة والأخرى، كتعزية لهذا الضَّياع والشَّتات، بين الأبعاد المترامية والمسافات الغير المحدودة، عبر رحيل في أصل زمن هلامي، لا شكل ولا لون له... خسارة الماضي، الماضي كلَّه، بذكرياته، بآلامه، بأحزانه، بأفراحه، وكلِّ شيء نبت مع هذا الشَّخص الذي هو أنا، وترعرع معه، طفلا مشرَّدا بين الدَّور والبيوتات، عرف الموت منذ وقت مبكر، وعاشر الألم حتَّى صار هو والألم وجهين لعملة واحدة... احتفى بالصَّمت، فعَلَّمه الصَّمت كيف يصير مغلقا... علَّمه كيف يصير منطويا، وأعطاه الألغاز والأسرار، وسلَّحه بالسَّتائر الكامدة والأبواب الموصدة... والمفاتيح الصَّغيرة...!! خسارة الأشياء الأثيرة، وما خلَّفته ورائي، مَدسوسا بين الرُّكام، في غرفتي الصَّغيرة في تلك المدينة النَّائمة بين الجبال... وشوشة الأصوات... إغراء الهمسات... والأحلام التي كانت تنبعث سحريَّة من بين دَفَّات الكتب التي كانت تحفل بها الأرفف الحجريَّة...!! خسارة الذَّاكرة بمعنى ما!!؟!

المشيئة ذاتها، والخطى ذاتها، لاشعوريَّا يقوداني، وراء أصوات محرَّكات سيَّارات التَّاكسي التي بدأت تتلاشى شيئا فشيئا، إلى البوابة الخارجيّة؛ لم تكن لديّ فكرة واضحة عمّا يمكن أن أفعله هناك، ولكي كنت أحسّ، في داخلي، أنّ شيئا عزيزا قد ضاع مِنِّي، وأتّه عليّ- بالرَّغم من كلّ شيء، برغم الحسرة والأسى والبكاء من غير دموع- أن أودّع ذلك الشَّيء طائعا؛ في تلك الحالة فقط ربّما سأكون سعيدا لأنّ أحدا لم يغصبني على شيء، وإنّما وهبت ما وهبت للضَّياع عن كرم وطيب خاطر!! ياه، ما أسرع ما يطوي الخواء والفراغ الأشياء! وما أسرع ما تنطمس الملامح بمجرد أن يَلْفها غبش الظَّهيرة! وما أسرع ما يحلّ السَّكون، ويأتي الصَّمت مجلّلا بهالته الرّهيبة...!!

كان باب غرفة الحارس مغلقا، وكذلك النَّافذة؛ وقد أُلقيت عليهما نظرة عابرة، وأنا اتَّجه صوب البوابة... خلال الأيام السَّابقة، كانت عادة الحارس أن يجلس إلى بعض أصدقائه على المقعد الطَّويل، قريبا من المدخل، بين نخلتين، كانتا تظلِّلانه بجداولهما المتهدِّلة، وتقياهنه وهج الحرارة اللَّافحة؛ وقد كنت أمرِّبهم فألقي التَّحية أو أجلس إليهم لبعض الوقت فنتبادل الحديث ونحن نحتمي الشَّي... أمَّا اليوم، فيبدو أنَّ الحارس نفسه قرَّر أن يمنح نفسه إجازة، وأنَّ يبتعد عن هذا الموكب الحزين الَّذي كنت الشَّاهد الوحيد على أطواره، إذ ليس له فيه ناقة ولا جمل، وهو ابن البلد الَّذي لا يستغرق للعودة إلى بيته أكثر من ربع ساعة بالسيَّارة. بعدها يجد نفسه محفُوفًا بأطفال يضجُّون من حوله، وزوجة تخلع له حذاءه، ثمَّ تأتيه بطشت الماء فتغسل له قدميه... وتقدِّم له طعامه، وتجيئه بصينية الشَّي، فيسحب من جلبابه علبة السَّجائر، ويأخذ سيجارة ثمَّ يتسلطن...!!

سيكون عليَّ أن أصبح ممثِّلا، ولو مرَّة واحدة في حياتي، وأنَّ أتقمَّص دور الحارس، «ابن البلد الصَّعيدي». فهذا الباب الحديديِّ الكبير الَّذي أراه أمامي كان لا بدَّ لأحد أن يغلقه بعد أن أقفر المكان، فمن يدري؟ ربَّما خطر لأحدهم أن يقتحم حرمة الصَّمت والسَّكون، فيعبث بقداسة الأشياء في الدَّاخل بعد أن اكتسبت مسحة جلال كونيَّ منذور للتأمَّل والعزلة... طافت على شفتي ابتسامة وأنا أفكِّر بدوري الجديد، وتقدَّمت ونيذا فشددت ظلفتي البوابة إلى بعضهما، ودفعت بالقضيب الطَّويل إلى الحلقة الحديديَّة... ثمَّ عدت من حيث أتيت!!

أمور كثيرة تختلط عليَّ، وكلَّما حاولت أن أنفادها وجدتها تحاصرني وتضيِّق عليَّ الخناق... كنت أريد دائما أن أكون بعيدا،

كنت أريد أن أحافظ على تلك المسافة التي تجعلني لا أتورط مع من أريد الحديث عنهم، وكان أكثر ما يعجبني اختبائي، هروبي ليس وراء الكلمات فقط، بل وأيضا ذلك الاختفاء المتواصل وراء الأسوار العالية والجدران الغارقة في فوضى الظلال، والأمكنة المستحيلة: كنت أعتقد أنّ ذلك كفيّل بأن يوفّر لي جانبا من الحرّية في أن أقول ما أفكر فيه بكلّ صراحة، أن أقول شيئا مغايرا عمّا قيل من قبل...! سعادة ما، فرح بلا حدود، نعمة ذات جرس خاصّ تهسّ، توسوس في أذني، احتفائي الذي بقدر ما يؤرّقني يثبت في نفسي شعورا بالفخر والارتياح، أن أكون الراوي... شخص لا يكتب من أجل المتعة دائما، وفي كلّ الحالات، كما لا يغترّ بهرج الشّهرة التي تجلبها له فتنة الكلمات ومثانة الحكمة، إنّما يكتب أحيانا تحت وطأة شعور بالغبن والظلم، شعور بعدم الارتياح، شعور بالرتاثاة والرتابة يراه في كلّ شيء من حوله؛ أشعر بميل خاصّ نحو هذا الراوي، أحاول أن أكونه، وأخاف أن أتورط في الكتابة عن نفسي، حتّى في أخرج اللّحظات حين لا يكون هناك مفرّ من البوح والاعتراف... أفكر مليّا قبل البدء، تنازعني نفسي، وعشرات العقبات التي تبدو أمامي أحاول أن أتخطّها، في صمت، ودون ضجيج كبير، أصطنع أشخاصا آخرين في مخيلتي، ليسوا وهما كلّهم، وليسوا خيالا جامحا من إفراز ذاكرة تهرب من جفافها إلى عزاء ما... كنت أرى نفسي دائما، أترأى لعيني كلّما حاولت أن أكتب شيئا، أتجرّد من صفاتي الكثيرة، أقسمها كما أقسم أيّ شيء آخر، وأعطي من نحتهم قلبي على أوراقي وقد كسوا لحما وسرت في شرايينهم دماء الحياة، شخص- هذا الشّخص أنا- يتحوّل إلى أشخاص عديدين، ينقسم كلّ شيء فيه ويتمزّق، يتشظى، يسيل الكلام على شفاه عديدة كان من المفروض أن تنطق به شفاهه، كلام كثير، أحيانا يبدو غير مفهوم، وأحيانا أخرى يلتبس بالصّمت، يصير ثقيلًا غير محتمل، إنّ هروب الوحدة إلى العدة، الميل إلى الامتلاء، على الرّغم ممّا فيه من المراوغة والمماحكة...

في وقت ما، أتساءل عن هذا التّوب الجديد الذي ارتديته: ألا يكون أكبر مقاساً؟ أليست نرجسيّة مفرطة أن أتعدّد في كمّ هائل من الأشخاص؟ أليس هروباً...؟! أليس الأجدران أواجه الجميع بالصفة التي أنا عليها في الواقع؟ أليس جبناً أن أتوارب وراء الأسماء الكثيرة والأشياء العديمة الفائدة؟! أنا الراوي، نفس الراوي، لم يتغيّر فيه شيء، سوى أنّه هذه المرة، لا يجد أمامه خياراً إلا أن يقول على الملأ: ربّما أعادت الأشياء نفسها، ربّما كانت الأحداث تتكرّر، ليس في مستوى المخيال فقط، وإنّما أيضاً على أرض الواقع، ولكنّه متأكّد من شيء واحد: إذا لم يجد الراوي ما يعيده أعاد نفسه، لا بدافع التّضخيم- تضخيم حجمه- أو الدّعاية التي ستمكّنه من اكتساب شهرة الظّهور وذبوع الصّيت، ولكن بدافع خفيّ مرده إلى استنفاد كلّ السّبل التي كانت تقوده دائماً إلى الإفلات، والخوف من المتاهة... فقبل كلّ شيء وبعده، يظلّ هذا الراوي إنساناً، يخاف الوحدة، ويودّ لو يتعدّد... يوجس خيفة من السّفر والتّرحال سيّما إذا كان هذا السّفر وهذا التّرحال مفاجئين، بعيديّ الشّقة...

أنا الراوي، مجرّداً من أسمائه المتعدّدة والأشياء التي كان يتخفّى وراءها، قرّرت أخيراً أن أعترف... لا يهمّ أن يكون اعترافاً على نفسي أو اعترافاً أبرئ به نفسي، المهمّ أنّه اعتراف وكفى!!

(...) ماذا تبقى من كلّ ما كان؟ وهل المكان هو نفسه المكان الذي عرفته من قبل؟ والأصدقاء الذين عرفتهم، أصدقاء لم يكتب لي أن أعرفهم هناك، في ذلك البلد الذي ننتمي إليه جميعاً، وعرفتهم هنا، بمحض الصدفة بعد أن ألقت بنا عصا التّرحال، ولفظتنا الدّور والشّوارع والبوابات، شسوع المسافات والأميال التي يكفي مجرّد التفكير فيها قبل السّفر حتّى تبعث على الغثيان، ما يزيد على ستّة آلاف

ميل، وفي ما بينها لا بدّ من الانتظار، لا بدّ من ذلك الإحساس الجديد، ذلك الشّعور بعدم الانتماء إلى مكان، في لحظة ما، نكون في حيّز، يلقّنا، نتعزّى قليلا، وما أن نستريح على المقاعد حتّى يأتينا الصّوت عبر المضخّمات منبّها إلى ابتداء الرّحلة من جديد... هذه المرّة، كما في المرّة السّابقة، سيكونون وحدهم، لن أرافقهم، سأظلّ والصّمت، وسأعتاد عزليّ وسط الفراغ... الخطى تقودني، لا أملك أن أتحكّم فيها، ولولا أنّي اعتدت المسار لربّما كنت ضعت، هي المسافة، الطّريق الّتي تتعرج، تشكّل زاوية حادّة، من البوّابة الخارجيّة، ثمّ الممشى المسفلت بين رفيف أشجار النّخيل، وبعد ذلك الفضاء الغامر، حيث تستقطب الرّؤية تلك العماثر، والانغماس في لذاذة الهدوء المعفّرة برائحة حرارة مثقلة بالرّطوبة... المشهد لا يتغيّر، معالمة قد تختفي، غير أنّها هي دائما، أحيانا يشدّك، ليس في كلّ الأوقات، وإنّما في المساءات الرّاحلة، حين تخفّ حدة الشّمس ويروق الهواء، حينئذ يهدم الباطن، تنقلب المشاعر الملوّثة بروائح مزكّمة عطنة إلى أخرى جديدة، وتولّي كوابيس الأيّام المنقضية دونما رجعة لتحلّ محلّها أحلام من نوع آخر، الحكايا، والأحاديث الّتي لا تنتهي، والتطلّع إلى منظر القمر من حين لآخر، ونفثات الدّخان، وأقداح الشّاي، وفناجين القهوة، وبأليل لو تطول قليلا!!

كنت في حاجة إلى سيجارة...!!

كنت قد اقتربت من الشّقة حين التفتّ إلى الوراء، شقّتي، حنين ما يجرفني إلى تلك الشّقة، غير أنّي في تلك اللّحظات لم أكن أملك إلّا أن أتطلّع إلى الوراء، ليس لأنّي ربّما اكتشفت شيئا لم أكتشفه من قبل، أو لأنّي كنت أريد فعلا أن أجد شيئا مغايرا، وإنّما أردت أن أرى المنظر غداة الرّحيل... هل تغيّر شيء؟! هل كان الباب الّذي يفضي إلى الإدارة والأقسام كما هو دائما؟! والسّاحة، وتلك الحديقة الصّغيرة، والأروقة، والمطعم، والمدخلان اللّذان يؤدّيان إلى الطّابق العلويّ،

والبحر، ترى هل هو نفس البحر الذي أدمنت رؤيته خلال سنتين متتاليتين، أم بحر آخر له نفس الاسم، غير أنه يحفل الآن بالآف الأسرار والألغاز؟!... كان يروقي الهروب، وكنت أبحث عن أكثر الأماكن أمنا، بعيدا عن المطاردات، والقهقهات، والأعين المتلصصة، وذلك الاقتحام المبالغت في الساعات المتأخرة من الليل... اقتحام طفيلي، لا أنكر أنه لم يكن لي فيه خيار، كما أنني لم أكن أملك حياله أي شيء، بقدر ضيقي به إلا أنه أتاح لي فرصة للاكتشاف، أواخر الليل، تحت سماء لا قمر فيها أكثر أيام السنة، ظلمة شبه معتمة، ليس بعيدا عن تلك الأشجار المعمرة، كلما نظرت إليها، أو تطلعت نحوها غزاني إحساس غريب أنني - رغم محدوديتي في الزمان والمكان- كائن خالد، يملك لغة خاصة، هي اللغة التي تخوله أن يتحدث إلى كل شيء من حوله... الطيور الراحلة أبدا، أطياف الموتى الذين كنت أستحضرهم أمامي، فيتصل بيننا الحديث، جدي أبو النجاء، والدتي التي قضت وهي لم تجاوز الرابعة والعشرين من عمرها، الأصوات الكثيرة، أصوات لم أكن أعرف تحديدا أهي أصوات حقيقية أم أصوات نابعة من داخلي، لكنني كنت أشعر أنها قريبة مني إلى حد الألفة والاستئناس، كان كل شيء من حولي متناغما، أليفا، وكنت أحاول أن أتأقلم مع المشهد، أن أكون جزءا منه... إلا أنه في لحظات معينة، ينقلب كل شيء في باطني، ويعروني ضيق بلا حدود، وقرق، عندئذ أغدونزقا، شكسا، وعدوانيا، أو بالأحرى مازوكيا، أتلذذ بتعذيب نفسي، وبدل أن أستمتع بما يحيط بي أجدني أرتد إلى الداخل، أستدعي صورا بعينها، أستحضر أشخاصا آخرين، لم أكن أميل إلى محاورتهم بقدر ما كنت ميلا إلى محاسبتهم... ومن بين أولئك الأشخاص كانت صورة «ح» الأكثر حضورا في مخيلتي، لم يكن صديقا حميما في يوم من الأيام، ولولا أنني تعرّفت إليه عن طريق صديق آخر، كنت أعتبره تعزية حقيقية في هذه المدينة المقطوعة، ربّما لم تتصل بيننا عرى المصاحبة، «ح»- لا أدري لماذا كان

يقترن في ذهني دائما بصورة «شلهوب»، شخص آخر ربما لم يكن له وجود في الواقع، وهو موجود في مخيلتي فقط، تصوّره دائما معقوف الشاربين، عظيم البطن، يرتدي عوينات طبّية ويدخّن كثيرا... صورة أشبه برسم كاريكاتوري، فيها الكثير من التّضخيم والتّهويل، تشي بعدم التعاطف وعدم الارتياح أيضا، وكشكل من أشكال العقاب كتب عليّ أن يرتبط مصيري طوال سنة كاملة بهذا الشّخص... كان إلى حدّ ما أشبه بالقضاء النّازل، كان قدرا لا مفرّ منه!!

أكون كاذبا ومراوغا إذا قلت إنّني أحبّته يوما، أو ارتحت إليه، أو صفت إليه نفسي؛ كان تألفنا بحكم العادة ليس إلّا، إكراما لذلك الصّديق، صديقي «ع»- الفتى السّاحليّ، الّذي من تخوم الزّمن الرّاحل، بقيّة من رائحة عطرة هفت في لحظة من اللّحظات مثل الحلم العابر، ثمّ تلاشت كما تتلاشى نسمة صيف-؛ وبحكم نفس العادة، كنت أتغاضى عن الكثير من «الأشياء»- هي في الحقيقة خطايا- كنت أراها ولا أراها، كنت أعتبر أنّه إذا بدر منّي ما يسيء إلى «ح»، سيكون ذلك في الوقت نفسه إساءة إلى الجميع، وأولهم صديقي «ع» الّذي تعرّفت عن طريقه إليه... كانت علاقتنا أشبه بمسرحيّة تراجيديّة، على النّمط الإغريقيّ، في ثلاثة فصول، تنطلق رتيبة، متأنية، ثمّ في لحظة ما، تبدأ المأساة، ويتفوّض كلّ البناء... ولعلّه هو نفسه كان يدرك حدود تلك العلاقة، ويعرف جيّدا أنّها إذا بلغت حدّا معيّنّا ربّما انقلبت إلى نقيضها تماما، وما كان بالأمس القريب يعدّ صحبة وصداقة سيصبح قطيعة وبرما لا شفاء منهما... لكنّه لم يكن يبالي، كان كلّ همّه أن يجد متنقّسا لأرقه، أن يهرب، لا يهيم إلى أين، إذ قد يكون هروبه إلى ممالك ليست له، وأماكن محرّمة ليس من حقّه اختراقها أو العبث بممتلكاتها... الكثير من الأسرار لم يظهر في حينه، وقد استغرق وقتا حتّى يتّضح كلّ شيء؛ إذ عرفت فيما بعد أنّي لم أكن الضّحيّة الأولى ولا الأخيرة، وأنّ هناك من أصدقائنا من كان مثلي، أو أشدّ حياء منّي... حاول أن يحتمل، وأن

يتجمل بذلك الصبر الخرافي في مواجهة ظاهرة غريبة، لا تشبه ظاهرة أخرى، وليس لها ما يوازيها فيما عرف عن حالات الترجسية والفصام و«الشيزوفرنيا»!!

كانت تجمعنا المساءات، بعد انتهاء الدوام، وبعد أن نكون قد أخلدنا إلى بعض الراحة بعد الغداء، نخرج فرادى أو في جماعات إلى المقهى؛ هناك ننسى لبعض الوقت أننا غرباء، ننسى تلك الغربة المفروضة علينا، وشسوع المسافات؛ ونجهد أن نتناسى ما خلفناه وراءنا في ذلك الوطن الذي كلّمنا مرّ علينا يوم في مدينة «صور» أخذت صورته تتميع في أذهاننا، تتميع مثل الزئبق، تراقص أمام أعيننا إلا أننا كنّا دائماً نملك ما ندفع به تلك الصورة... نتحلّق حول النضد الدائري الكبير، وما أن يستقرّ بنا المقام حتّى نومي إلى النادل... كان «حاتم» هو الآخر، مثلنا، وافداً، اضطرتّه الظروف إلى القدوم، وقد كانت الأيام الطويلة الرتيبة كفيلة أن تؤلّف بيننا... اعتادنا واعتدناه، كان يكفي أن نشير إليه حتّى يأتي بنا بأقداح الشاي، ودورق الماء... الحكاية نفسها تتكرّر كلّ يوم، اللهمّ إلا ما كان من بعض التفاصيل الدقيقة التي بالكاد يمكن ملاحظتها... أشخاص عديدون، من أماكن متقاربة أو متباعدة، منهم الشمالي، ومنهم الجنوبي، وكم هائل من اللهجات؛ صحيح أنّه لم نكن نعرف الكثير عن بعضنا، لم نكن نعرف شيئاً عن أهواء كلّ منا وطباعه، وما وحّد بيننا، في لحظة حنين جارفة، الرغبة في الاستئناس والقرب؛ كانت الأيام- الأيام وحدها- كفيلة بكلّ شيء، وكلّما ازددنا اقتراباً من بعضنا بدأت الفوارق تظهر وأوجه الخلاف تتعمّق... وهكذا بدأت حكايتي وماساتي مع «ح»!!

كلّما تذكّرتّه أحسست بذلك الجرح الذي أوّشك على الاندمال يتقرّح من جديد، يتقيح، وتعاودني نفس المشاعر التي عانيت منها على امتداد كلّ الأيام الماضية، مزيج من قرف تخالطه نقمة وضعف وأشياء أخرى أراني إلى الآن غير قادر على التعبير عنها... أريد أن أنسى-

حقيقة أريد أن أنسى، أريد أن أمحو هذه الصّورة من ذاكرتي إلى الأبد، وهذا الشّخص الذي تعرّفت إليه في ساعة سوء طالع تمنّيت لو أنّ بيّني وبينه ما بين المشرق والمغرب...

إلاّ أنّه يابى أن يستسلم، يرفض أن يعتقني، وما يكاد يمرّ بعض الوقت أكون خلاله قد ارتحت إلى الاعتقاد أنّي تخلّصت منه حتّى يفاجئني على حين غرّة، أراه يتطلّع إليّ على مقربة، ترتسم على شفّتيه ابتسامة ملغزة أقرب إلى التّشقي، وهو يمسك بسيجارتته، كلّ ملامحه تشي بما يخترنه من تسلّط وجبروت، يحدّ في نظراته كأنّه يقول لي: لا تحاول الإفلات، وإذا ما فكّرت لحظة في الهروب ستجدني أمامك؛ إنّهُ خطيئ، منذ البداية، والصّمت الذي راكمته على امتداد الفترة الماضية تحوّل إلى عجز كلّيّ، حاولت أن أتحدّاه مرارا، أن أقول له بصراحة ما أفكر فيه... حاولت أن أقول له رأيي فيه، وإنّي قد ضقت به ذرعا، وإنّي لا أريده، لكن ما باليد حيلة!! كان الكلام الذي ربّته، وقرّرت أن أجهه به، يتلاشى إذا رأيته، تتصلّب شرايبي في الدّاخل، وأحسّ باختناق في حلقي؛ وتتواصل المأساة، ويستمرّ العذاب دون هواده، وأنظر إليه، أسترّق النّظر إلى عينيه، فأرى نفس الملامح، نفس الإصرار على ملاحقتي...

يهتزّ الباب في أيّة لحظة، تحت وطأة ضرباته، ويدخل تسبقه رائحة الدّخان التي كانت تشي دائما بحضوره... ويطلق السّلام في لهوّة، ثمّ يجلس... كنت أنفاده، أتعمد أن أجعله يحسّ بضيقه به، نادرا ما كنت أردّ تحيته، وإذا رددتها فبرود لا يكاد يخفى، لكن كان يتظاهر باللامبالاة، ومن على النّضد يروق له أن يأخذ جهاز التّحكّم عن بعد ويبدأ لعبته الأثيرة التي لا تنتهي إلى ساعة متأخّرة من اللّيل... السّفر عبر القنوات- دون توقّف!!... كنت أتساءل بيّني وبين نفسي: هل تكون الوحدة ما دفعه إلى ترك شقّته؟! هل يكون ذلك الشّعور بالخوف، الخوف من شيء ما، الخوف من الصّمت، الهروب من العزلة التي

تسيج حياته؟!...ربّما يكون كلّ ذلك مجتمعا، أو رغبة الامتلاء من حياة يغيظه منها أن تمرّ رتيبة جدداء، وهو الضّليع في عالم اللّيل والأسرار، تنبوه الأماكن فيخترق الجدر إلى الحدود المتاخمة للذّة بلا حدود... «صور» المدينة- أو مدينة اختصرها خياله في الفندقين على الأطراف المتباعدة، وصورة الجارية الحسناء القادمة من لثة الاحتراق، والفناجين الصّغيرة المسكوبة على حرقه الشّفاه، وصحون المزة، وصوت العشّ يتردّد على أنغام الأرغن وكلمات المغني!!... موجود وغير موجود، يغطس جسده في الأريكة، ويشطح به الخيال بعيدا، إلى درجة تندغم فيها الرّؤية من حوله... حتّى أنا وصديقي- الذي يشاطرنى نفس الشّقة- ربّما تحولنا في ذهنه إلى مجرد نقاط... إلى مجرد كائنين ضئيلين قميئين، لا مهمّة منهما إلّا أنّهما كانا وسيطين إلى عالمه الجديد...

كان حصارا!! كان صداما خفيا، واحتدّما في الباطن يأبى أن يترجم عن نفسه في كلمات، ملازمة غرفتي الصّغيرة، أستدعي أطياف النّوم، أنقلب في الفراش، لكن تظلّ رائحة الدّخان تلاحقني، والأصوات المزدحمة الآتية من جهاز التّلفزيون تعفّر أفكاري وتزيدها تشوشا... أفتح الباب، أجتاز المجاز الضّيق، أنا على يقين أنّه رأني، أتجاهله تماما، وأفتح الباب الخارجيّ، ثمّ أغلقه بعنف، وما هي إلّا أن يستقبلني عالم اللّيل الضّائع برائحة الحنين والذّكري، والغضب أيضا!!

- ٣ -

لا شيء يبقى على حاله، وكما مرّ العام الأوّل بسلام، والعام الّذي يليه، سيمرّ هذا العام أيضا، وسأنسى كلّ شيء، ليس فقط شبّح «ح»، بل وأيضا كلّ المشاعروالأحاسيس الّتي ولّدها في نفسي... الحق، الغضب الأبكم، الإرهاق القاتل وأنا أتمدّد، في المساءات المتأخّرة وإلى

السّاعات الأولى من الصّبّاحات الغافية، على ذلك المقعد الخشبيّ في حديقة المركز، الهلوسات الّتي غدت حالة مرضيّة ملازمة، والأرق... سوف يمرّ كلّ ذلك، وستبقى في ذاكرتي، من بين اللّحظات، لحظة مكاشفة مازلت أحتفظ بها إلى الآن، أحتفظ بها كما هي، بزخمها، بحميميّتها، وشحنة الصّدق الّتي ولّدتها، في أحد المقاهي بالمدينة، ذات مساء راحل، وقد تألّبت الطّبيعة فجأة، لا على الكائنات فحسب، وإنّما على كلّ شيء، حتّى تلك الأشياء الصّغيرة، الّتي لا تراها العين عادة، وتظلّ متخفّية في شرانقها المستحيلة...

لم أكن في حاجة إلى أن يدعوني، كما لم يكن هو أيضا في حاجة إلى دعوتي- هو صديقي «ع»، بعد أن توثّقت بيننا عرى صداقة تكاد تكون غير واقعيّة بالنّظر إلى الوضع الّذي نعيشه في بلد كلّ فرد يحاول أن يظلّ فيه إلى أطول فترة ممكنة حتّى ولو أدّى به الأمر أن يبذل ماء وجهه أمام «المواطنين»، أهل البلد، الّذين بيدهم «الحلّ والعقد»، والحرمان والغفران... كان في انتظاري أمام شقّته، وما أن رأيته حتّى تحرّك في اتّجاهي، سرنا جنبا إلى جنب دون أن نتبادل كلاما كثيرا، خرجنا من البوّابة فاستقبلنا الشّارع، وأزيز السيّارات الّتي لا تنقطع حركتها في ليل أو نهار... رغم صمته كنت أحس ما يهجس به، كنت أدرك أيّ إنسان هو، حرّمته الحياة، وقست عليه كثيرا، وحملته وزرا ثقيلا، زادته قسوة والده ثقلا على ثقل، وهو ابن الثّالثة والأربعين، تزوّج وهو ما يزال يدرس بإحدى الجامعات في ذلك البلد الصّغير على ضفّة المتوسط، وتصور في البداية أنّ كنف العائلة سيوفّر له الملجأ، وذلك الحلم الصّغير الّذي لا يشبه أيّ حلم آخر في بساطته... ليطلب الغنى من يريد أن يصبح غنيّا، وليتركوا له مساحة للهدوء وراحة البال؛ ليصخب العالم، ولتدوّ الأصوات اللاإنسانيّة، ولتهتزّ العجلة الجهنميّة وتطو الأرض طيّا، ولكن ليتركوه وشأنه، ينتظر بكرة وأوّل أبنائه... كان التّرهّل باديا عليه، وكان كلّ جسده ينطق بتعب لا يرحم، ليس فقط

جزاء السّنوات الّتي يحملها أينما حلّ، ثمان سنوات بكاملها، والسّنة التّاسعة سيكون عليه أن ينهما بنفس المدينة الصّغيرة الّتي شهد بنائها ترتفع لبنة لبنة، وتتمدّد بشوارعها العريضة ومطاعمها الّتي لا تحصى ولا تعدّ، وليس له خيار، التّزامه بإنهاء إجراءات حصول زوجته على الجنسيّة، شقّته الّتي مازالت لم تكتمل بعد، والتّحدي الّذي طرحه على نفسه منذ أن طرد والده عائلته وألقى بمتاعه- أثائه القليل وأشياءه الّتي كان يعتزّ بامتلاكها لأنّها الأشياء الّتي شقي كثيرا حتّى حصل على المال الّذي اشتراها به- إلى الشّارع، وهو بعيد، قد طوته المسافات وغيّبته دياميس الغربية، في رحلة الأميال، على امتداد خارطة النّسيان، من المغرب الكبير إلى الشّرق العربيّ مرورا بالبحر الأحمر... لا يدوم الصّمت طويلا بيننا، يمتدّ إلى بعض لحظات فحسب، ثمّ تسيل شجونه، وتحدثم الكلمات على شفّتيه، وتطفئ على ملامحه مسحة من مأساة أثيلة، كنت أحرص على مراقبته وأستدعي في ذهني الحركات القادمة... لن يتأخّر في استخراج علبه سجائره، وسيسحب سيجارة يشعلها، ثمّ يشفط منها أنفاسا متتالية، وسيشرف حسوة من الشّاي، وسيبدأ الحكاية... الحكاية المتجدّدة، رغم أنّي سمعتها مرّات إلّا أنّي لم أملها، تقال دائما بأسلوب مختلف، ويمتزج الأسلوب بمشاعر أقدر أن أحدها من البداية إلّا أنّها تتدرّج وتتصاعد إلى درجة تغدو فيها الأحاسيس الأولى، بالمقارنة مع المشاعر الجديدة، مجرد صورة باهتة، بلالون، هناك الغضب الّذي تحوّل مع الوقت إلى مرارة وقهر، ونبرة التّأنيب واللّوم الّتي استحالّت مع الأيام إلى نبرة أشبه بالمنجاة، تسمعها، تظنّها موجّهة إليك، كجزء من تنمّة الحكاية، إلّا أنّك إذا دققت جيّدا، وتطلّعت إلى تينك العينين المتعبتين اكتشفت أنّه يخاطب شخصا آخر، اكتشفت أنّه يستحضر شخص والده ويتوجّه إليه بالخطاب... ما ذنب الزّوجة؟ ماذا جنت، وهي الّتي كانت دائما تقف إلى صفّه، وتلومه هو، زوجها، إذا نشأت بوادر الخلاف بينهما؟

وأبنائؤه- ابنه وابنته، هل أذنبا هما الآخران؟! على حبّه لهما إلا أنّه لم يتردّد لحظة واحدة في طردهما: كان دائما يتساءل بينه وبين نفسه، أو يتطلّع إليّ ويقول كأنّه لا يصدّق أنّ الذي حصل منذ خمس سنوات أو ستّ سنوات قد حصل فعلا: هل يمكن لإنسان أن يلفظ فلذة كبده وقرّة عينيه، ويتبرأ منه، دون أن يؤنّب ضميره، أو يشعر بوخزة النّدم التي ستظلّ تلاحقه إلى آخر لحظة من حياته؟!... هو لم يطلب الكثير، لم يكن شرها في يوم من الأيام، وكان راضيا أن يعيش في كنف أبيه، سيكون سعيدا حتّى لو خصّص له غرفة صغيرة يعيش فيها هو وزوجته وأبنائؤه، ولن يضيره أن ينام على الأرض ويتناول طعامه على طبق من القشّ، لكن يصطدم بالصّرامة والشّدّة الباديتين في الوجه، والكلمات التي كانت تعبّر عن نفسها في صمت: أنت الآن رجل، ولن أكون مسؤولا عنك، فلديك زوجتك وأبنائك!!... كان مجبرا على الاستسلام، وقبل ذلك حاول أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ترجّاه وتوسّل إليه بكلّ الوسائل، طمأنه أنّه لا يطعم في شيء، وأنّه يكفيه من دنياه القليل، فقط ليدعه إلى جانبه ويتركه يرثي أبنائه في سلام...

نجلس متقابلين، أمام المدخل. في مواجهة الشارع، أنفادى النّظر إليه، خلال مساحة الصّمت التي تمتدّ بيننا، وأتطلّع إلى كائنات المساء المتأخّر وبداية اللّيل: السيّارات الكثيرة التي تنطلق في كلا الاتجاهين، غير مبالية بعشرات اللّهجات التي تكتظّ بها المدينة، ومئات الوجوه التي تحمل سمات حضارات عدّة قادمة من وراء المحيط الكبير، والبنائيات التي لم تكن موجودة، وتصحو في يوم من الأيام فترى الحيطان وقد ارتفعت والأبواب قد وضعت في أماكنها والنوافذ وهي تفتح على المدى المترامي...

تتناهى إليّ من الطّرف الآخر نهضة حرى فأعرف أنّها مقدّمة للكلام، ليس الكلام المعتاد، وهو يستعدّ للسفر بعد أن حصل على التذكرة وحجز على أحد الخطوط الأوروبيّة، وإنّما كلام آخر سينضاف

إلى حكايته الأولى... لم تعد حياتي ملكا لي وحدي، كما أنّ مشاعري التي احتفظت بها دهرا بين جوانحي لم تعد هي الأخرى تخصني، تخصّ عالمي الذي بنيته بداخلي وضربت من حوله الأساسات العميقة والأسوار العالية بعد أن كاشفته مرارا، واتّصل بيننا الحديث طوال السّنتين المنقضيتين... أشعر أنّي غدوت جزءا من عالمه الخاصّ، وأنّي بالنّسبة إليه الآن أكثر من صديق، وأنّي لا أختلف عن أيّ من أبنائه... أرى ذلك في عينيه، حين يهدأ ويروق، وفي ملامحه التي سرعان ما ترتدّ إلى صفائها، ألمس خوفه عليّ في نبرة صوته، وهو يقول لي بعدوبة:

- لا أريد لك أن تتعذّب مثلي؛ والأفضل أن تعود معي!

كلماته تنكأ الجرح الذي لم يندمل بعد، تغوص بباطني لتثير الوتر المشدود، أشعر بالضيق إلّا أنّي أجهد أن لا يرى ذلك باديا عليّ، أتحصّن بالصّمت، وأكتفي بالنّظر إليه، لأنّي أعرف أنّه سوف لن يكتفي بتلك الكلمات، سيقول من جديد، وسيكون عليّ أن أسمعه إلى النّهاية، حتّى لو لم أرد ذلك، لأنّي أحبه، وأخاف أن أجرحه:

- يجب أن تعود!

أمدّ يدي على النّضد أمامي، أحاول أن أتغلّب على ضعفي بالنّقر بأصابعي على الطاولة، أتريث قليلا قبل أن تخرج الكلمات من بين شفتي:

- لا أستطيع!!

يتذكّر فجأة أنّي أطلّعته على نيّتي في السّفر، ليس غربا باتّجاه ضفّة المتوسط، وإنّما شرقا عبر المحيط، يضع السيّجارة بين شفّتيه ويجذب نفسا عميقا ثمّ يطلق الدّخان فينعقد حلقات فوق رأسه، ويحسّو من كأس الشّاي. يقول:

- أعلم ذلك، لكن سيكون من الصّعب عليك أن تنسى إذا فكّرت في النّسيان... هناك أهلك، والهروب ليس هو الحلّ في نظري.

هو على حقّ. كان دائما على حقّ؛ ولكّني كنت ميّالا إلى مخادعة

نفسي، أتلذذ بحلم الانفصال، وأستعدّ للحظة حاسمة، هي لحظة الحرية ربّما، أو النسيان الذي سأدفع ثمنه باهظا حتّى أحصل على ما تصوّرتة دائما رمزا لاعتقائي وحرّيتي... نسيان الأرض، والأشياء الحميمة، والمدينة التي تقترن في ذهني دوما بصورة لفاتنة ترتبص للإغراء والإغواء، والأصدقاء، وفوق ذلك كلّ غرفتي الصّغيرة التي لم أكن أتصوّر يوما أنّي قادر على التخلّي عنها... تلك الغرفة لم تتخلّ عنيّ، وأنا الآن أفكر في هجرانها، بكلّ ما فيها، بأرففها الحجرية التي تزدحم فيها الكتب ازدحاما: كتب التاريخ (تاريخ الطّبريّ، والمسعوديّ، وابن الأثير، واليعقوبيّ...)، وروايات غابرييل غارسيا ماركيز وحنّا مينا والطّيب صالح وعبد الرّحمان منيف وجمال الغيطاني، ودواوين محمود درويش وسعدي يوسف وأدونيس، ومخطوطاتي- قصائدي ورواياتي- التي أكتشف الآن أنّي قد أفقدتها إلى الأبد، بعد سنتين متتاليتين من الهروب والمجابهة، لا أدري مجابهة ماذا، ولكنّي هكذا كنت أشعر في قراري، أتخيّل أعداء من حولي وأتحفّز لمجابهتهم أو الارتداد والنكوص عنهم... وأسماء أشخاص يعزّون عليّ كثيرا، وعناوين، ورسائل كنت أتمنّى أن أكتبها إلّا أنّي أضرب عنها صفحا ممّنيا نفسي بكتابتها في يوم ما... أغاني «السّت»، والحاكي القديم، وبعض الأشياء الصّغيرة الأخرى التي انقرضت في عالم المدينة المتحرّك فنأت بنفسها إلى تلك الغرفة حتّى تكون قادرة على تحدّي الزّمن، ومقاومة الموت!!...

لا أقول شيئا... يغالبني الصّمّت فيغلبني، وأجدني أتباعد، أحنّ إلى الأماكن التي طلقها بمحض إرادتي، أتذكر من تخلّيت عنهم، وملا محهم، وأحاديثهم، وحتّى مؤامراتنا الصّغيرة خلال حرارة الصّيف القاتلة، نهرب إلى عزاء أثيل، فنغلق من دوننا الأبواب، ونسرح قليلا على إيقاع النّغمات ورائحة الدّخان والأنخاب التي كنّا نحاول تهريبها من الصّخب الجهنّميّ إلى عتاقة الماضي المنسيّ... ما بين « يا ليل الصّب متى غده»، و«حبيبي على الدّنيا إذا غبت وحشة»، و«معلّتي

بالوصل والموت دونه»، إلى سنوات لا تنسى وأحداث تظلّ في الذاكرة، رغم الحيلة والرغبة في محوها... فبعد الكأس الأولى، وإطفاء النور، وغرق المكان في عتمة شفيفة تخترقها من حين لآخر ذبالة شمعة وانية، يحلو البوح، تأتي الكلمات بمفردها ونتحوّل نحن إلى ضيفان، نسمع الجرس، ومهزّنا النّبر الحزين، نعود القهقري سنوات... المدينة «العربي»، أو المدينة العتيقة، يغزوها الرّذاذ، فتنتعش الأجساد المتعبة، وأتركه في صمته يحاول أن يجمع شتات ذكرياته وهو ما يزال طالبا، يحسو من كأسه ويدخّن، ثمّ يحسومزة أخرى، ويتأنّى قليلا قبل أن يجذب من سيجارته نفسا جديدا... نحن لسنا قربين من بعضنا في المكان فحسب، والذي يجمعنا ليس مجرد الحاجة إلى كسر الزّوتين اليومي وإيجاد مساحة للعريضة اللّذيذة، وإنّما ما يوحد بيننا أيضا رابطة الدّم؛ صحيح أنّنا كنّا دائما بعيدين، حتّى ونحن ندرس في نفس المعهد، في السّنة النّهائيّة من التّعليم الثّانوي، ولدينا نفس المدرّسين، ونفس الأصدقاء أيضا، ونجتمع في أغلب الأحيان في قاعة المذاكرة، ولا يندران نلتئم في حلقات فنتبادل أطراف الحديث ونضحك مليّا، وربّما تحوّل ضحكنا إلى قهقهات عالية حتّى نجلب انتباه الفتيات سواء المتحلّقات حولنا أو أولئك الجالسات غير بعيد عنّا؛ وصحيح أنّنا كنّا نعرف بعضنا- لسنا جيرانا، ولا نسكن في نفس الحي- إلّا أنّ علاقتنا كان يشوبها شيء من البرود، نتبادل التّحايا، نتصافح ويمضي كلّ منا في طريقه... بعد عشر سنوات، نتقابل من جديد، بعيدا عن الشّواغل والمشاكل، وبعد أن تقدّم بنا العمر، وأصبح كلّ منا يشعر في داخله أنّه يكبر سنوات في كلّ عام ويتحوّل إلى كائن أسطوريّ خارج حدود الزّمان والمكان... يتغيّر كلّ شيء... تحوّل الألوان، وينقلب الكون كلّ رأسا على عقب، ولأنّ الأشياء تتبدّل بسرعة مذهلة نحاول أن نتوقّف قليلا، نتناسى للحظة أنّنا في عالم متحرّك، لا يهدأ، ونختار من بين الأماكن النّواصي والتّخوم، فيجمعنا المقهى، أيّ مقهى نرتاح إليه، وكنّا نبذل

المقاهي كما يبدّل غيرنا السيّارات والأثاث... ونوع السجائر والنساء
أيضا...!!

... تسقط الأسئلة دفعة واحدة، والتّخمينات، وأحاول أن أتغلّب
على الفضول إذا رأيته أتيا يتوحّى الجادة، ويتوارى عن العيون وراء
الظلال... هؤلاء الذين يجلسون في المقهى، ويضحكون، ويتبادلون
خراطيم الأراكيل، والندل بفانيّته الحمراء ذات الخطوط السوداء
المتعامدة، والأشخاص الذين يمرّون على مقربة، باستمرار، وقد
يحدث أن يتوقّفوا قليلا فيلمّوا ببعض من معارفهم فيثرثروا لبعض
الوقت ثم يعودون من حيث أتوا، وغير هؤلاء، والشّوارع، والميادين،
وربّما المدينة بأسرها، إذا نظرت في عينيه اكتشفت أنّ كلّ هذه الأشياء
لا تعني له شيئا، وأنّ وجوده ليس في الحقيقة إلّا مجاملة لنا جميعا...
لم يقل إنّّه فوق كلّ شيء، وإنّّه قد وجد بالخطأ في عالم ربّما يفصله
عنه قرن من الزّمان على أقلّ تقدير، إلّا أنّ كلماته كانت تقول أكثر
من ذلك... يتحدّث إلينا- هذا ما كنت أعتقدّه أنا على الأقلّ-. ويده
لا تني تعبث بنظّارته السوداء التي كانت تحجب عينيه دائما، يسهب
في الكلام، يدقّق، يورد أمثلة عن أشخاص، ليسوا أشخاصا عاديين،
فلاسفة وعلماء اجتماع وعلماء نفس وأنثربولوجيين وأخصائيين
في علم النّفس المرضي والتّربويّ وألسنيّين- ميشال فوكو، ورجيس
دوبريه، وبورديو، وشومسكي، وجان بياجيه، وكارلو، وآلان، وغيرهم
كثير... ويحلّوله بين الفينة والأخرى أن ينطلق إلى عوالم أثيريّة، يتخذ
أجنحة سحرية ويحلّق بعيدا، فتختزن نبرته كمّا هائلا من التمرّد
المتوحّش، وتوقه إلى الانفلات... كنّا نحن- بمعنى ما- صنائعه، جزءا
من العالم الذي كان يشيّد في خياله، ويرسم منظوره ويحدّد زواياه،
ولا أنكر أنّه كان ساحرا بارعا، لا يفوته شيء، وما يعزب عنه في لحظة
من لحظات الشّرو لا بدّ أن يجد وسيلة ما لمعرفة ما فاتّه... كان رغم
تمرّده على واقعه، وضيقه بما حوله ومن حوله، يسعى أن يكون له

موقع ما داخل الكون، أن يكون قائد الحفل الأوركستراي الذي يتحكّم في كلّ شيء، ويحدّد بحركة بسيطة من يده مسار الأنغام والتّرايم... الأشياء التي لا نعرفها نحن، وربّما لا نلقي إليها بالا، والأسرار التي لا يتداولها إلاّ بعض الأشخاص، وفي أضيق الحلقات، والأحداث التي وقعت والتي لم تقع بعد، وهي مؤهّلة دائما أن تقع، فجأة، وعلى حين غرة، وأسماء أقاربنا المشتركين في الحيين- الغربيّ والشرقيّ، وأسماء الكبار الذين ماتوا والذين مازالوا أحياء وقد بلغوا أرذل العمر، وأسماء الذين ولدوا حديثا، والذين كبروا في غفلة منا، والنساء المتزوّجات، والغير المتزوّجات، وفلانة التي طلقها فلان لأنها كانت تواعد خليلها سرا في بيت الزوجيّة، وفلان الذي اشترى سيّارة من تلك السيّارات ذات الأربعة أحصنة، ودفع ثمنها مبلغا محترما، ولم تمض عليه أيّام حتّى تمكّنت منه عادات جديدة، أفلس، وبدل أن يهتمّ بزوجته وصغاره صار همّه أن يفني اللّيل في طقوس سكره ما بين الحانة والبيت على متن سيّارة لم يكن قادرا على القيام بأمرها... وفلان الذي هرب من السّجن، وتمكّنوا أخيرا من ضبطه... قال: قال لي بعض الثّقات ممّن لا أتهمّ أمانتهم: حين اقتحم رجال الدّرك المنزل، فتشّوه غرفة غرفة حتّى انتهوا إلى غرفة النّوم... لم يحسّ بهم حين دخلوا فقد كان يئنّ تحت ثقل زوجته التي كانت تصرخ من اللّذة وهي تعلوه!!... والعمّ سرحان- عند هذا الحدّ نبدي استغرابا، ننظر إلى بعضنا في تساؤل، يتطلّع هو بدوره إلينا، ويقول في تعجّب: ألا تعرفون العمّ سرحان؟! نقول بصوت واحد، وفي نفس الوقت: ومن هو العمّ سرحان؟!... وبعد أن يعدّل نظّارته، وبإلقاء نظرة حوالية يدرك أنّه يسيطر على المكان تماما، يواصل موضّحا: العمّ سرحان جارنا، وقد مات اليوم... كان طوال عمره يخاف من الموت، ويكره سيرته، وإذا صادف أن سمع أحدهم يتحدّث عنه أصابه خوف ورهبة وفرّ بجلده... كان يتفادى المرور من أمام المقابر، فإذا ما اتّفق أن وجد نفسه بمحاذاة إحداها

خلع نعليه وأطلق ساقيه للريّح... ويصمت ملياً، يسحب سيجارة ويرمي علبة السّجائر على النّضد بطريقة مسرحيّة، يشعل السّيجارة ويجذب نفساً خفيفاً، ويكون ذلك إيذاناً لنا بمواصلة الحديث، أو بالأحرى تغيير مجراه...!!

الصّيف، الحرارة تخفّ شيئاً فشيئاً، وضوء النّهار يبهت، والمدى الّذي كان مترامياً يبدأ بالانكماش مخلفاً شعوراً غامضاً بالارتياح... آخر الأصدقاء يدخل ويغلق باب السّور وراءه، وتسود للحظة حالة من الفوضى اللّذيذة، الكلّ يتكلّم، وفي نفس الوقت... ننسحب جميعاً إلى أقصى الرّحبة في مواجهة الدّار من النّاحية الشّرقية. وقد فرشت البسط والمفارش... كان كلّ شيء معدّاً، والوليمة جاهزة... تحلّقنا في حلقات صغيرة، وشرعت الأيدي في المجادلة... وغير بعيد، كانت تلك القوارير العجيبة تلتئم على نفسها، دافئة، في أحواض من الثّلج، تمتدّ إلينا بعض الأيدي بين الحين والآخر، وما بين المزمنة والشّراب كان المسجّل يتدفّق شجناً بأنغام مهريّة من الزّمن الدّابر...

كنت أراقبه طوال الوقت، وبقدر ما كان بقيّة الأصدقاء يمعنون في الشّراب دون أن يفرطوا في نصيهم من الأكل، كان هو يشرب ويتكلّم، ويدخّن؛ كانت تلك خطّة من بعض خططه، وهو على قدر كلفه بالشّراب، كان يخشى أن يسكر، كان يخشى أن تغيم الأشياء في مخيلته، وأن يضيّع رأس الخيط، لا بدّ أن يظلّ صاحياً، وأن يلمّ بكلّ أجزاء المشهد... كان الشّراب- بالنّسبة إليه- مجرد وسيلة كفيفة بأن تقوده إلى حالة، وكانت هذه الحالة مزيجاً من شعور بحزن طاغ إذا تعمّق التّبس بمشاعر أخرى غاية في الغموض... ربّما الخوف، أو بمعنى أدقّ الرّهبة جرّاء إحياءات الماضي، وذكريات سوف لن تمّحيّ من ذاكرته أبداً... الوحدة القاتلة رغم وجوده وسط هذا الحشد من الأصدقاء، وإحساس بالتّفكّت والتّمزّق يجهد أن يقهره بعزمته الّتي لا تفلّ... يهرب من الواقع المريع إلى عالم الكتب، وإذا سنم الكتب عاد إلى الواقع من

جديد كي يتزوّد منه... عائلته كانت ملجأ حقيقياً بالنسبة إليه، والده الذي يكنّ له معزة خاصة في قلبه، ووالدته التي طغى احترامه لها على حبه إيّاها، وهي التي كانت تخاف عليه من هبوب النسيم، يخجل أن ترى عليه آثار الشراب، مرة واحدة- لا يمكن أن ينساها-، ودّ لو أنّ بينه وبينها بعد المشرقين، كان غاضبا ومحبطا، لذلك أفرط، كان يبحث عن عزاء، وتصوّر أنّ الشراب هو ذلك العزاء، وبدل أن ينتظر حتّى يتخفّف من سكره هرع إلى البيت... كان في حالة لا يحسد عليها، وما أن أبصرته والدته حتّى انتابها خوف وتمكّن منها هلع، أوشكت أن تولول، أيقظت كلّ أبنائها ليلا، كانت مصرة على استحضار الطبيب، غير أنّه بكلمات قليلة جهد أن يجعلها ثابتة صلبة طمأنها:

- ساكون بخير، فلا تقلقي!!

ومنذ ذلك اليوم، حرّم أن يعود إلى المنزل وهو ما يزال تحت وطأة الشراب... كانت الخمر هاجسا أكثر منها عادة أو إدمانا، أو مثيرا من مثيرات المتعة كما كانت لدى الكثيرين، ومنهم أصحابنا... خليط متنافر جمعهم الوظيفة، ووحد بينهم ثقل الروتين ووطأة الفراغ!!

... الذاكرة العصبية، الشوق الدائم والحنين، الرغبة في تحطيم الطّوق المحاصر والتّحليق إلى أعلى، رحابة الفضاء، الانخراط الأقرب إلى الوجد حين التّفكير في الرّوغان، ومعانقة الحرية الهاربة، ربّما تخيل نفسه فارسا من فرسان العصر القديم، ربّما انتشى لحظة هروب، أو غداة لحظة من لحظات الخلوّ إلى نفسه، كلّ شيء عنده بقدر، طبقة صوته لا تتجاوز حدّا معيّنا، تظلّ رتيبة هادئة، حتّى عندما يحتدم النقاش وتسود الفوضى، لا شيء عنده يعلو على العقل، ولا يؤمن بحضارة تحطّم القاعدة وتعتنق الاستثناء... يتحدث عن مناهج التربية الحديثة، ويسهب إذا تعلّق الأمر بالمدرسة المفتوحة، يستهويه الجنون، ليس الجنون «النّثريّ»، على الطّريقة الواقعيّة المرتثة، وإنّما الجنون «الكلاسيكيّ» كما نظّر له ميشال فوكو، وآمن به... ربّما تحلو

المقاطعة في وقت ما، ربّما انزلت نكتة من بين الشّفاه وعمّ المكان صخب وضحكات ما تعتم أن تتحوّل إلى قهقهات... حينئذ تنفج شفاته الكامدتان عن ابتسامة فاترة، يجهد أن يمسك بسدى الحديث من جديد، يتأّنى كثيرا في كلامه، وكأنّه يقرأ من ورقة منشورة أمامه... كان فمه يتدفّق بكلام وعيناه تنطقان بكلام آخر، مغاير تماما، تلك الرّفرفة الخفيفة الّتي تضفي على ملامحه القاسية مسحة من الرّثاء، وتجعله أقرب ما يكون إلى طائر بحريّ موارب بين زرقاء الماء من تحت وزرقاء السّماء الّتي تحجبها سحب بيضاء متكاثفة أشبه برقائق الثّلج... وتسألّه وهو يحتضنها بين ذراعيه، في الغرفة الصّغيرة بذات الشّقة الّتي أجراها مع أحد الزّملاء لإعطاء دروس إضافيّة إلى طلاب السّنة النّهائيّة من التّعليم الثّانويّ، و«استضافة» بعض النّساء الصّغيرات المحترفات من حين لآخر: «لماذا لا تنظر إليّ؟... لماذا لا تقبّلي؟!... قبّلي!!» إلّا أنّه كان يراوغ، يسمع ولا يسمع، ويواصل عمله، كأنّه يؤدّي واجبا ثقيلًا على قلبه... ونتسامر، يطول بيننا الحديث، وتحطّ عليه جبهة ثقيلة، لا أملك أن أواسيه لأنّي أعلم أنّه يرفض أن يكون مثارا للرّثاء والشّفقة، وأكتفي بالنّظر إليه وهو يدخّن ويتكلّم عن أحداث ماضية موعلة في النّسيان... المأساة الّتي كنت أخشى أن أساله عنها، نظرة الحزن المتألّقة في عينيه، الفضول الّذي كنت أحاول دائما أن أخدم صوته بداخلي، كلّ ذلك أراه مختصرا، أراه قريبا وبعيدا في نفس الوقت... أنظّاه بالشّروء، وأنأى، أتشأغل بمراقبة الفراغ، ويأتيني صوته أشبه بالهمس، وهو يقول:

- لم أفعل شيئا أستحقّ عليه كلّ ذلك...

كان يتعمّد أن يقطع حديثه إذا أراد أن يشدّ انتباه سامعه... يتظاهر بعدم الاهتمام، وفي الوقت الّذي يعطي فيه الانطباع بلامبالاته وعدم اكترائه يكون مسيطرا على الموقف تماما... كان يريد أن يضفي قداسة من نوع ما على كلّ شيء يتعلّق به، سيّما أشيائه الحميمية وحكايته الّتي

كان سيّطويها النّسيان لو لم يلق بنا القدر في طريقه... كنّا نحن في نظره خاصّة الخاصّة، ومحطّ سرّه ومحلّ ثقته، وهو الذي انتهى إلى القناعة أنّ المجتمع الحاليّ في تركيبته ليس إلّا رجعا لصدى مجتمع القرن الرابع أو الخامس للهجرة، يقسّمه - كما قسّمه المؤرّخون العرب من قبل - إلى خاصّة وعامة، ويحلّوه أن يلصق بالعامة كلّ النّعوت التي كان التّوحيدي يتفنّن في إيرادها... سوقة ودهماء، ورعاع وطفمة، يعيشون ليومهم ولا يحترمون من كان مثله، جهبذا من جهابذة العصر، يشقى في علمه في حين ينعم الجهلة بجهلهم!!

طريقته في الإمساك بالسّيجارة بين إصبعيه السّبابة والوسطى أسرة، يعبث بها مليّا صعدا ونزولا كأنّ غايته ليست التّدخين وإنّما إلهاء نفسه، ينظر إليها، فكأنّما يخاطبها ويشكو إليها همّه وبئّه، وهو الذي تعود على الصّمت، ليس بيننا فحسب، بل وحتىّ في منزله، بين أهله الذين يحبّهم إلى درجة الجنون... إخوته البنات، وأشقاؤه الذين يكبرونه، وشقيقه الأصغر الذي ما ينفكّ عنه كلّما وجد فرصة للإلام به والمكوث إلى جانبه... يريده أن ينشأ مثله، مجالدا مصارعا، ينزع ما يعتبره حقّه بيديه، لا يركن إلى السّلم حتّى إذا ما ظلم ردّ الظّلم بالظّلم... كنت أراه متناقضا إلى حدّ ما، إفراطه في التّمسك بروابطه القبليّة - أو بالأحرى روابطه الأسريّة الضّيقة، وحديثه كلّما وجد فرصة للحديث عن الحادثة وما بعد الحادثة، عن العلم والأنساق، والبنى، ومعاداة الشّاذّ والمهمّش... كنت أتساءل دائما - لم أكن ميّالا إلى مجادلته، وكنت أتفادى احتدام النقاش بيننا: أين الولاء للأسرة من شموليّة العلم؟! وهل إذا تشبّثنا بجذورنا الضّاربة في أصل أربعة عشرين من الهزائم والنكسات - على حدّ تعبير أغلب النّقاد العرب وغير العرب - نكون أوفياء للحادثة؟!... أين موقعنا من الحادثة التي نتحدّث عنها إذا كنّا نفكر بأكثر البنى الاجتماعيّة تقليديّة وتخلفا؟!... يتأمل السّيجارة في يده، يعبث بها، يقرّبها من فمه، ينزلها مرّة

أخرى، بحركة بسيطة من سبّابته يخفقها فيسقط الرّماد في المنفضة على الأرض... في الأخير يجذب نفسا - نفسا قصيرا، يرمق المكان بنظرة متأنية، فيضبطني وأنا أختلس النّظر إليه، كنت كالمجرم المحاصروهو يرتكب جريمته... أدرت وجهي بسرعة، ولم يفتني أن أرى ابتسامة خبيثة ترتسم على شفّتيه الكامدتين، قال:

- لم تجدوا دليلا واحدا ضديّ فأطلقوا سراحى... قبل ذلك قضيت أياما مريرة في السّجن؛ لم أكن خائفا بقدر ما كنت أفكر في طريقة للدّفاع عن نفسي...
ويصمت مرّة أخرى...

لم يكن في الشّقة أكواب، فعمد بعض الأصدقاء إلى علبه من تلك اللعب المنتشرة في أرجاء الشّقة فقطعها نصفين بسكين المطبخ وصبّ في قعرها حثالة الشّاي... امتدّت يده إلى العقب فحسا حسوة، ثمّ نظر إلى أقصى الغرفة حيث كان ينام صديقنا الثّالث الذي أفرط في الشّراب... قال مواصلا:

- كان الخوف آخر ما أفكر فيه... كنت أخشى أن أضعف، لذلك كنت دائما متيقظا... حتّى النّوم إذا ألمّ بي كنت أحاول أن أحوشه، لا بدّ أنّ أظللّ صاحبا إلى التّهاية، لا يمكن أن يأخذوني على حين غرة، كنت أعرف أنّهم سيَجربون كلّ شيء حتّى يضطّروني إلى اعتراف من أيّ نوع... أنا لم أفعل شيئا أعترف عليه، وما فعلته كان بدافع القناعات التي آمنت بها وسأظلّ وفيا لها حتّى لو أخذوني إلى حبل المشنقة...
يتوقّف...

وجودي لم يعد يعني له شيئا، وهو لم يعد يعنيه أن يقنعي بقدر ما كان يريد أن يقنع نفسه بأنّ كلّ ما فعله، وما سيفعله - إذا قدر له أن يفعل شيئا ما، كان دافعه إيمانا صادقا أنّه بالإمكان أن يكون هناك عالم أفضل من الذي نعيش فيه... أنّ هناك عالما في مكان ما، مازال في طفولة دائمة لم يطله الهرم والشّيخوخة...

أصغي إليه من جديد، وهو يقول:

- لم يكن يعنيني الألم، فقد جربته وتعوّدت عليه، وإنّما ما كان يعنيني وأفكر فيه باستمرار أثر الصدمة... الانفجار الذي لا شك أنّه سيحدث في أية لحظة إذا علمت والدتي أنّي داخل زنزانة بالكاد تسمح باستيعابي...

الزّمن يتمرد، يرفض أن يترك الأشياء تمرّ بسلام، يعود القهقري، وينطلق في أحيان كثيرة إلى الأمام دون سابق إنذار، يستثير الذاكرة السّاكنة ويحوّلها إلى برك وحمم فائرة، فتتداخل الحكايات إلى درجة الفوضى، وتتشابك الخطوط الأكثر تنافرا، ويسود شيء من الفوضى الطّاغية... صور الأشخاص، الذين اعتدت عليهم، واعتقدت، في وقت ما، أنّه صار لك من القدرة ما يمكنك من التّمييز بينهم دون عناء، والأشياء الأقرب، الأكثر حميميّة، وهي تتشكّل من عدم ما، من فراغ، لتأخذ فيما بعد شكلا حقيقيّا، يكفي أن تتخيّله حتّى يتجسّد أمامك، والأحلام الرّابضة دوما على التّخوم وما تعتم أن تتحوّل، في لحظات بعينها، إلى كوابيس، والهواجس، والسّفر عبر المسافات، خلف ذاكرة ما، أو بعض من ذكرى... كلّ ذلك يختلط عليك الآن ويتشوّش، يتحطّم على صخرة اللامعقول، ويغدو جزءا من منطلق آخر، لا يعرف الاعتياديّة أو الانتظام، ويبحث لنفسه عن مكان في الظّلمة المعتمّة، وبين الأشكال والألوان الأكثر تمردا...

الريّح تفتحّ فحيحا متواصلا، تدهامك، تهاجمك كما لو كنت عدوا، تجتثّ الأشياء الأكثر هشاشة، وفي ذروة الانتشاء تغتّر بقوّتها فتعتقد أنّك من ضمن الأشياء الهشّة، تستجمع كلّ قواها، ترتدّ نحوك وهي تروم أن توسّع مداها... وفي طريقها تنتقم لنفسها فلا تترك شيئا: تسحب النّضد، تبلغ مدى معينا ثمّ تتوقّف، تسقط بعض الكؤوس،

وينسكب بعض الماء، وتشعر إذا خضبتك الريح أنّها توشك أن تقتلعك من مكانك... تمارس هواية من نوع جديد: التّجاهل، رواقية بلا حدود، وأنت تشعر بتلك الحرارة في عينيك، وكم هائل من الغبار وهو يتسرّب عبر خياشيمك إلى دواخلك...
يقولون هنا:

- الريح الصّوري، وموسمه قد حان: لا يشبه أية ريح أخرى، وعند حلوله تشعر أنّ كلّ شيء فيك ينقلب رأساً على عقب، وحتى المشاعر تغدو زنبقية قابلة للانفجار في أية لحظة!!

أتطلّع إلى صديقي «ع»... أراه بعيداً، وربّما كنت أنا الذي رحل بعيداً، كان ما يزال يتحدّث، إلّا أنّي تهت وسط دوامة الحديث، لا شكّ أنّه تكلم كثيراً وقد أدركت ذلك من عدد الأعقاب في المنفضة... كان إذا تكلم يسرف في التّدخين، وكان إذا دخّن يحلّوله أن ينساب كما الماء، يشفّ وترقّ مشاعره فيحكي ويحكي، ويتطلّع إليّ من حين لآخر، يريد أن يرى أثر كلامه على ملامحي، وأسرح معه، أشرد إلى مجاهل أخرى، أرى كلّ شيء كما لم يكن من قبل، وأمعن في التّخوم فأكتشف أنّه بالإمكان اكتشاف عالم غير العالم، ووجود يسع النّاس والأشياء جميعاً...
كانت السّاعة تشير إلى التّاسعة، وكانت المدينة تستعدّ أن تنغلق على نفسها حين تحرّكنا صوب الرّصيف وغيّبتنا الظّلمة وسط ستائر الكثيفة!!

-٤-

... أية لهفة؟ أي إحساس مسيطر بالهروب، رغم أن ليس هناك ما يدعو إلى العجلة؟... سيكون الصّيف، وتكون الحرارة، وتكون السّاعات الطّويلة، ورغبة جامحة في التّأسي في خضمّ الصّمت

والسَّكون البليدين...

كان المكان - المكان بأسره - كلّه ملكا لي، إلّا أنّه لم تكن لديّ الرّغبة في اكتشافه؛ قد أكون سنمته، وقد أكون كرهته لكثرة ما تألّفت معه، وقد أكون أيضا نقيمت عليه لأنّه سيظلّ دائما كالشّوكة في الحلق يذكّرني بمأساة عمرها أكثر من ثلاثة أشهر - تسعين يوما، ألفين ومائة وستين ساعة، مائة وتسع وعشرين ألفا وستمائة دقيقة بتمامها وكما لها...

لكن تلك حكاية أخرى! وللمأساة تفاصيلها، منها ما أشعر حياله بالخجل، ومنها ما أريد نسيانه، نسيان أحداث بعينها، نسيان الأشخاص الذين تسبّبوا بهذه المأساة، وحتى المشاعر التي تولّدت على امتداد تلك السّاعات والدّقائِق!!

... الحرارة، مشبعة برطوبة قاسية، والرّطوبة ترين، دون رحمة، تجعل الجسد دبقا، تلتبس بتلافيف الدّماغ، فيصير الدّماغ رخوا، ومع الرّخاوة تأتي التّحوّلات، والتّشوّهات أيضا!... كنت أعني أنّي أتوجّه نحو الشّقّة، أنّي أتوخّى المسار الذي كنت أسير فيه دائما، نهاية عام دراسيّ آخر، عام جديد ينضاف إلى العام الذي سبقه، وقرار راسخ في البقاء، في تفادي ما يمكن أن يترتّب عن عودتي فيما إذا قرّرت ذلك، لوعة اللّقاء أو الغياب، دون استعداد نفسي، الخوف، بلى الخوف من المكان، وعليه، ربّما تغيّر كثيرا، إلى الدّرجة التي يمكن أن أنكره فيها، ما يمكن أن يقوله الأصدقاء عني، كلام كبير، ضجّة وعتاب، وربّما انتهى العتاب إلى لوم وتقريع، ومقاطعة... أعترف أنّي مقصّر، وأنّي طوال الفترة الماضية لم أتجشّم حتّى عناء الكتابة، وإرسال مكتوب أبعث فيه التّحايا والسّلامات، وأسأل عن الحال والأخبار، وسيكون من حقّهم أن يغضبوا، أن يبدوا استياءهم، وأن أتحمّل نظراتهم القاسية دون احتجاج أو ردود فعل... هم الأصدقاء، قبل كلّ شيء وبعده، هم الذين تركتهم ورائي، ولم أنسهم رغم أنّي لم أبرق إليهم أو أكاتيهم، كنت

دائماً أعتقد - ولا أعرف لماذا - أنّ الكلام الكثير ينتقص من المحبة، وأنّ
المكاشفة الدائمة يمكن أن تفسد القلب، وتلوّث المشاعر... خطأ؟!...
ربّما! ولكن هذا ما حصل على كلّ حال.

تقودني قدماي... أنتعّر، ليس جرّاء التعب والتّرهّل رغم أنّهما
صارا عدوين ملازمين، وإنّما نتيجة الضّغط النّفسيّ الذي أخذ
يتعاظم بداخلي منذ أن أخذ صدى أصوات محرّكات سيّارات التّاكسي
التي أقلّت آخر الرّاحلين يتلاشى في ذهني شيئا فشيئا... توقّفت قليلا
عند العتبة، ونظرت إلى الخلف، رفعت رأسي إلى الأعلى... كان نور
الممرّ المفضي إلى الطّابق الأوّل مضاء، لم يحن المساء بعد وكان الوقت
ما يزال مبكرا، الظّهيرة - رابعة النّهار!!... تأخّرت إلى الوراء وأطفأت
النّور، كنت أريد أن ألقى نظرة أخيرة، لمحة نهائيّة على المملكة الصّغيرة
التي أقفرت وصارت كلّها تحت تصرّف... السّاحة المثقلة بالأتربة التي
جلبتها معها رياح اللّيلالي الماضية، شقّة المدير في الطّرف الآخر، ورفيف
الأشجار المعمرة وراءها تماما... كانت تلك الأشجار أشبه بلوحة، تذكّر
النّاظر إليها بتلك الصّور المرسومة على البطاقات البريدية، لا حركة،
لا نائمة، والأغصان، الأوراق، كأنّ هناك من تعهّدها بقوانين وقواعد
صارمة عن الانضباط والخضوع... من جيبي سحبت المفتاح، أدخلت
المفتاح في الأكرة، صرّ... أدركته مرّتين، ودفعت الباب يملأني إحساس
جديد لم أشعر به من قبل... كنت دائما أدرك أنّ هناك من يقاسمني
شقّي - أحد الأصدقاء من نفس البلد، على ضفّة المتوسط، جمعتنا
ذكريات مشتركة وتواطؤ ضمنيّ منشؤه رغبة ملحة في الهروب والبحث
عن هدوء مستحيل... كنت - حتّى وهو غير موجود بالشقّة - أحسّ به،
أراه ماثلا أمامي، يأتيني صوته من الصّالة، أو أسمع صرير باب غرفته
الكبيرة، أويتناهى إليّ رنين هاتفه المحمول، يخاطب على الضّفّة الأخرى
أشخاصا حميمين... يتساءل عن سير الأشغال في بيته الجديد، يطمئنّ
على الجميع، ويذكّر خطيبته، وهو يهمس فترقّ مشاعره وتفرّق نبرته،

أنّه على العهد، أنّه لن ينساها...

لأوّل مرّة، منذ أيلول الماضي، أفتح الباب دون تحفّظ، أفتحه بحريّة، وبشيء من الخوف لا أعرف مصدره، وأدخل، ومع الخطوات الأولى، ينتابني إحساس لم أشعر به من قبل: أنّي وحيد، ومستوحش... ومعزول تماما!!

أدفع الباب، أغلقه، أتقدّم إلى الأمام... في وقت ما، يهجس بداخلي صوت خفيّ، شيء ما يقول لي إنّ الباب ما يزال مفتوحا، أترجع، أمسك بالمقبض المعدنيّ، أعيد المفتاح إلى الأكرة مرّة أخرى وأديره، أتأكّد أنّه مغلق...

لم تكن لديّ أيّة فكرة واضحة ممّا يمكن أن أفعله في اللّحظات الأولى، ممّا دفعني أن أستدعي أشياء بعينها وأن أجربها الواحدة تلو الأخرى منقادا إلى رغبة غامضة في الخلاص... كانت الشّقة ما تزال تحت تأثير نظام ساهم في إرساء الجانب الأكبر منه زميلي الذي يقاسمني الصّالة، وغرفتي الحّمّام، والمطبخ، ويستأثر لنفسه بغرفة النّوم الكبيرة التي تفتح مباشرة على الرّواق الضيّق الطّويل؛ وكنت أشعر في داخلي، في لحظات معيّنة، بالاحتجاج على تفاصيل كثيرة تتعلّق بذلك النّظام - الإصرار على تحطيم كلّ الحواجز، تعرية الشّقة تماما وجعلها عرضة للنّظرات المتلصّصة، التّخلص من بعض السّتائر التي كنت أحرص على شدّها إلى النّوافذ التي تفضي إلى الباحة الخارجيّة...، إلّا أنّي كنت أجترّ غضبي دون أن أجرؤ على مواجهته، بعض التّغييرات الطّفيفة كنت أقوم بها في غيابه، أحاول أن أوفّر ولو جانبا بسيطا من الحماية، لا أصوات، لا ضجّة أو ضوضاء، حتّى التّلفزيون، قبل أن أشعله، كنت أحكم إغلاق الأبواب والنّوافذ، حتّى لا يصدر من داخل الشّقة ما يمكن أن يشي بوجود أشخاص أو حياة من أيّ نوع... وإذا كنت متحصّنا، تواربني الاستحكامات التي كنت أتفنّن في القيام بها، فإنّ ذلك لا يمنع - في أحيان كثيرة - بعض المنعصبات التي تأتي في شكل

مضايقات عابرة، ثمّ ما فتئت تلك المنغصات الصّغيرة أن تحوّلت إلى هجومات شبه يومية يقوم بها أولئك الصّغار، الذين كانت تضيق بهم الأمكنة والمساحات فينسحبون إلى الملجأ الأثيرلديهم - المكان المفروض أنّه شرفة، والذي يتّصل بالصّالة وغرفة زميلي الكبيرة ببايين، كانا ينتميان في الأعلى بواجهتين زجاجيتين؛ ولأنّ تينك الواجهتين لا تحجبان شيئا في الدّاخل، ولأنّ الصّالة كانت «فضاء استراتيجيّاً» تضمّ، إضافة إلى جهاز التّلفزيون، عددا من الأرائك والكراسي، وأريكة طويلة لطالما اتّخذتها سريرا في الكثير من اللّيلالي، ومكتبة خشبية - بقايا من زمن بعيد يعود إلى عشر سنوات إلى الوراء، تعبق بروائح شتّى، جهد أحد المدرّسين «السّريلنكيّين» أن يدفع إليها بكلّ ثقله الثّقافي والدّيني والاجتماعي، والوطنيّ أيضا؛ أناجيل صغيرة، مطوّيات، أعداد شتّى من مجلّات محلّية مكتوبة باللّغة الإنجليزيّة، مجلّات كبيرة متناهية في الكبر، وأخرى صغيرة إلى الحدّ الذي يمكنك من طيّها ووضعها في جيبك، رسوم مطبوعة على أحدث طراز وبأدقّ التّقنيّات تمثّل بوذا في جلسته الخرافيّة، نتف من رسائل، جرائد كثيرة... ببساطة عالم بأسره، يذكّر من يراه أنّ صاحبه لم يتحوّل، لم ينتقل إلى غربة، أنّه مقيم على الرّغم ممّا توحى به المؤشّرات، وأيضا تلك الحكايات التي كانت تروى على ألسنة من عرفه...

[«نهال سنغ»، صار له أكثر من عشر سنوات بمدينة «صور»، مدرّس لغة إنجليزيّة... بعض المدرّسين الموجودين بالمركز يؤكّدون أنّه درّسهم... يبدو أصغر من سنّه الحقيقيّ بكثير، وقد توصّلت إلى ذلك الانطباع من صورته التي أخذت له مع بعض الأصدقاء، قميء الجسم، ذو شارب، يرتدي قميصا وبنطلون «جينز»، في السّنة التي غادر فيها على إثر القرار الذي يقضي بإنهاء خدمة كلّ المدرّسين الذين صار لهم عشر سنوات أو أكثر بالبلد، اصطحب زميلا له «سريلنكيّا» إلى

المنطقة الصناعيّة وأوصى بإنجاز صندوق كبير الحجم حمل فيه كلّ
أشيائه - عفوا، حمل فيه ما أمكنه حمله، وقد تمّ كلّ شيء في الشّرفة
لأنّ الصّندوق كان من الكبر بحيث عجزوا عن إدخاله إلى الشّقة، كان
يوما غير عاديّ... كان شبه احتفال ساهم فيه الجميع، المدرّسون
العرب، أصدقاؤه، وغير العرب... كان نهال محبوبا...! كان «شيئا» من
التّاريخ، ولأنّه كذلك سيظلّ في الذاكرة، سيصبح جزءا من الموروث،
ولن ينسى بسهولة!!»]

البرم... الضّيق المستبدّ، ليس بنفسني فحسب، وإنّما أيضا
بأولئك «الشّياطين» الذين لا أعرف كيف ولا متى ابتليت بهم على وجه
التّحديد؛ كانوا هم سبب برمي وضيفي بالدرّجة الأولى، لا يتركون شيئا،
مهما كان غير متوقّع إلّا وفعلوه، حتّى مجيئهم كان غير متوقّع في أغلب
الأحيان، دائما يأتون على غير انتظار، وحين أكون أبعد ما أكون عن
التّفكير فيهم... تساءلت مرارا، وأنا أنتفض على الأريكة، ثمّ أثوب إلى
نفسني فأتدارك ما يمكن أن يشي بوجودي بالشّقة: «ليس الذّنب ذنبهم
على كلّ حال!! الذّنب ذنب الكبار الذين يريدون دائما أن يتخلّصوا من
صغارهم حتّى يخلو لهم الجوّ في شققهم للقيام بـ «مهمّاتهم» الصّعبة
والسرّيّة!!»... إذ أفكّر في ذلك، إذ أتخيّل أولئك الكبار وهم يأكلون
ويشربون، ثمّ وهم يضحكون من قلوبهم، ثمّ وهم ينسحبون أخيرا إلى
تلك الغرف السرّيّة التي عرفوا كيف يؤثثونها ويحجبونها، ليس عن
أنظار الآخرين، ولكن أيضا عن أنظار أبنائهم، وفي أوقات محدّدة كانوا
يعرفون متى يختارونها، أصاب بهبوط نفسيّ، وأحسّ بانتكاسة لا شفاء
منها... لماذا، من بين العمائر الثّلاث، لا تروق للصّغار إلّا عمارتنا، ومن
بين الشّقق لا تعجبهم إلّا شقّتنا، أنا وزميلي، ومن بين الأماكن لا تحلو
لهم إلّا الشّرفة؟! هل كانوا يدركون بغريزتهم الطّفوليّة أنّ الصّالة

المكان المفضّل لديّ، وأنّه في الوقت الذي اختاروه هم للهوهم أكون أنا في الصّالة، أتمرّج على التّلفزيون، أو أستمع إلى الموسيقى، وأنا أضع السّمّاعة على أذني حتّى لا تتناهى الأصوات إلى الخارج؟! وهل، لأنّهم كانوا يعرفون ذلك، يرومون إزعاجي والانتقام منّي بشكل ما؟!... كنت أتخيّل أشياء، كنت أطرح أسئلة في حالة الغضب، أحسنّ بالقهر والانسحاق، أحلّق في الفضاء وأتشتّت، وأجديني أهوّم بعيدا، تتوارد عليّ الأجوبة والكلمات والمفردات دون إرادة منّي، وكنت أتوقّع أشياء دائما، وفي كلّ لحظة... في وقت ما أسمع ضربا شديدا على النّافذة، وقع حجارة مختلفة الأحجام مرفقة بصياح حادّ وضحكات معرّبة ربّما كانت لا تتناسب مع السّنوات القليلة الّتي كان أولئك الصّغار يحملونها وراءهم... الجناية! الضّريبة المدفوعة سلفا! تتعلّم بسهولة وقد لا تنقل إلى الآخر شيئا ممّا تملك، يكون لزاما عليك أن تنسى دون شعور بالذّنب، حتّى نفسك، أن تقدّم بيديك، وعن طيب خاطر ضحاياك الّذين ليسوا - في الحقيقة - سوى أبنائك فلذة كبّدك، في بلد لا يختلف فيه الكبار عن الصّغار، يصبح الصّغير هنا، يعرّب، يقول كلاما كبيرا، ولأنّه تربّى خارج البيت، بعيدا عن أبويه، فقد انتقل إليه كلّ الوباء المنتشر كسموم الخماسين في الخارج... في وقت آخر، يخيّل إليّ أنّ الشّرفة قد تحوّلت إلى مسرح كبير، يضحّ بالحياة، ليست الحياة المعتادة، ولكن تلك الحياة الّتي لا تختلف كثيرا عن الفوضى؛ وفوضى الكبار غير مرغوبة وقد تسبّب الكثير من الأضرار، فما بالك بفوضى الصّغار، صغار أقرب إلى العدوانيّة، تعلّموا كيف يرذّون عليك بفضاظة، وكيف يلقمونك حجرا إذا ضحك في وجه أحد منهم!!... يعنّ لي أن أرى المشهد عن قرب، في الحقيقة كنت غير قادر على السّيّطرة عليه، وما دام الأمر كذلك فلا أقلّ من أن أراقبه، أن أرى بعينيّ البلاء الّذي قيل عنه قديما «يأتي إلى حدّ عندك، ودون استئذان!!»... أخطو خطوات على أطراف أصابعي، إلى أن أبلغ النّافذة، أزيح طرف السّتارة

قليلا، لا يهولني المنظر بقدر ما يهولني العدد، أكثر من اثني عشر ولدا وبناتا، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثالثة عشرة، لا تعرف متى يسكتون، يتكلمون جميعا، وفي نفس الوقت، أحيانا كنت أتعمد أن أمسك بطرف الخيط، أجهد أن أفهم ما يقولون، أحاول الإلمام ببعض ما يشغلهم، ولكن المحاولة كانت تفشل في كل مرة... أتحين فرصة انتهائهم من لعبهم وانسحابهم، أتسلل إلى المكان خفية، أشمله بنظرة سريعة، فأصاب بالرعب، هل يمكن أن تتحول الشرفة في ذلك الوقت القصير إلى ما يشبه المذيلة؟! هل يمكن أن تتحالف كل الأشياء ضدي... حتى الفوضى؟!... أشياء أعرفها وأخرى لا أعرفها: حجارة، طوب، أشكال هندسية غريبة وبيوت فوضوية، أعقاب زجاج محطم، دمي منتوفة الشعر، و... بقايا ضحكات مزعجة كنت أسمعها تتردد في ذهني كأنها رنين جرس أحسه ينصب على أذني انصبابا!!

... أوف! أوف!

لا تظن أنك تسمع مطربا من أولئك المطربين الشاميين، الذين أصبحوا ملء العين والبصر، ليس في الشام فحسب، وإنما في كل مكان من أرض العرب، وذلك لقدرتهم الخارقة على دغدغة القلوب وهز الأقدسة، سيما إذا انسابت حناجرهم بتلك الألحان المرتجلة التي هي أشبه ما يكون بالخيرير، أو الزقزقة تأتيك ذات صباح شفاف، متعقرا بمسحة ضبابية، من على شباك شرفتك في الطابق الأول، أو من بين أغصان شجرة عملاقة، تطلقها عصفير صغيرة... صغيرة جدا، في حجم راحة الكف، تتمي وأنت تسمعها لو أنها ددفت بأجنحتها الأثيرية وجاءت تسعى حتى تستقر في حضنك، تناغمها وتناغيك، وتبثها شجون أربعة عشر قرنا من الوجد المكبوت والصبايات التي لم تشبع بعد... الصوت من الداخل، من باطن الباطن، غير مسموع غير أنني أحسه في كل ذرة من ذرات الهواء التي أنتفسها، أشعر به يلقي كما تلف الحية الرقطاء ضحيتها، تبدأ في مخالطتها شيئا فشيئا، وهي تتقدم

ببطء، تحاصرها حتّى تجرّدها من آخر محاولة في الخلاص، وفي اللحظة المناسبة تنقضّ عليها، تمصرها وهي تنهال بأسنانها السّامة على الرّقبة، تبتعد عنها قليلا، تراقبها وهي تتعثر في خطواتها، تترنّج كالسكران، تسقط، دون أن تعلم لماذا ماتت أو من قتلها... أنا تلك الضّحية!! ليس تلك الضّحية تماما، ولكن شيئا يقرب منها، محاصر من داخلي أكثر من الأشياء المحيطة بي، معزول، مجرد من كلّ الأسلحة، تحطّ عليّ مشاعرشتي، لا رابط بينها، أليفة بقدر ما هي متوحّشة، خشنة وناعمة في نفس الوقت، ضاحّة إلى حدّ الموت، مغرية كما لو كانت تذكّر بلحظة غائمة. لحظة محبّبة من لحظات العشق والميلاد... اخترت، ولم يختر أيّ أحد بالنيابة عني، ومن كلّ قلبي كنت أنتظر حالة الفراغ هذه، حين انتهاء كلّ شيء، حين خلوّ الفضاء، كي أتفرّغ للصّمت، وحتّى أتمكّن من إغماض عيني وأخذ نفس عميق - أخذه بحريّة وأنا أعبّ الهواء بمفي وخياشيمي إلى رثتي، ثمّ أتحرّر منه من جديد كي أبدا محاولة أخرى... عبّ وإطلاق، وعبّ وإطلاق مرّة أخرى، إلى أن تغدو اللّعبة مملّة، وتنتابني الرّغبة في تجربة شيء آخر؛ ولكن أيّ هواء؟! أيّ شيء هذا الذي أريد أن أتنفّسه؟!... الحرارة القاهرة، الكثافة الهولانيّة التي لا تشبه شيئا غير نفسها، ولا تملك إسما محدّدا ينعتمها أو يحيل عليها، كما لو كانت مجرد حالة، مجرد وضع لما قبل الخلق، يفرّج لأنّه غير مرئيّ، ويظلّ كذلك إلى أن يتأكّد أنّ الفزع قد انقلب إلى رعب، والرّعب قد صار رهبة مكتومة، والرّهبة قد اختصرت في تلك النّظرة اللّإنسانيّة، نظرة قد امتزجت فيها الحياة بالموت، ثمّ انطفأت الحياة فجأة، فغدت النّظرة خلاصة للحظة النّزع التي تجلّ عن الوصف أو الكلام...

الشمس في المكان كلّ، ضيف ثقيل غير مرغوب، وهو لم يكن مرغوبا في يوم من الأيام؛ فضائحيّ إلى أبعد الحدود بقطع النّظر عن النّوايا، وهي ليست دائما بريئة، طفيليّ جرّه فضوله، وقاده بحثه الذي لا يفتري إلى البدايات، إلى الكوى الغامرة، والشرّاعات المفتوحة... لا شيء

غير مرئي، وكلّ شيء يحيل على نفسه بوضوح، بداية من أكوام الأتربة في المدخل، إلى المكنستين الهزيلتين اللتين كانتا تستندان في تراخ إلى حائط الحمام، واللّتين لا تملك إذا نظرت إليهما إلّا أن تتفاجأ بالسؤال يفرض عليك نفسه: كم عمرهما؟ وركام الأحذية الّتي تصطف في نظام غريب، أحذية تختلف من حيث الحجم والشكل، ليست كلّها صالحة للاستعمال، منها ما اشترите منذ سنوات، ومازلت محافظا عليه، ربّما كأثر لا غنى عنه يذكّر بالماضي، يحيل على تاريخ ما، حتّى ولو كان هذا التاريخ تافها، ليس فيه ما يدعو إلى الافتخار لأنّه عاركلّه، مجرد كومة أو أنقاض أهيلت عليها السّنون، في فوضى ودون نظام، ومنها ما اشترите منذ وقت ليس ببعيد، في فورة حماس، حين ذهب الحرص وهفت النّفس إلى بعض التّغيير... (ما من غرابة، كان الأمر بسيطاً جدّاً، ولا يحتاج إلى كبير إيضاح: كلّ الأيّام سواء، يأتي يوم جديد حينما ينقضي اليوم الّذي قبله، ومن قال إنّّه دائماً هناك جديد تحت الشّمس يبدو أنّه كان شخصاً خارج المكان والزّمان، كان بمعنى ما خارج التّاريخ، لم يعيش التّجربة كما كان يجدر به أن يعيشها، لم تمتزج روحه بحرارة عمرها من عمر الأرض، تظّل متوهّجة على امتداد السّنة، لا تكاد تخفّ حتّى تعود مرّة أخرى، وبأكثر حدّة، كأنّ لها مع أهل الأرض ثأراً لا يمحي؛ لم يمت في اليوم ألف مرّة، وهو يرى بعينه موته، يودّ لو ينقذ نفسه، يودّ لو يتعلّق بقشّة النّجاة، ولكن في وقت ما يهدم كلّ شيء فيه، ليست الأعضاء فقط وإنّما المشاعر أيضاً، ويبلغ به القرف مبلغاً يتميّ فيه أن يلفظ الرّوح، وبسرعة؛ لم يشعر - في أحيان كثيرة - أنّه كلّما مرّ عليه عام، في أتون أقيانوسه الأرضيّ البعيد، تأكّد فقدانه لذاكرته، وتحول ماضيه العتيق إلى غمامات أو نقاط سود تغزو أفق رؤيته كلّما حدّ نظره فجأة ثمّ أغمض عينيه على آلاف الأحلام والهواجس والخيالات الّتي فقدت شكل الأحلام والهواجس والخيالات، ومنذ زمن بعيد، موغل في القدم: لم يصب

بالعطالة، الانتفاء، الضياع والتلاشي، التَشْطِي على الحدود العصبية، على الحواف، الشَّفير المعلق بين السَّمَاء والأَرْض، وهو لا يعلم هل هو حقيقة على الأطراف، ربّما في زمن غير الزَّمن، ومكان غير المكان، حيث المعرفة مجرد وهم، كذبة صنعها العلماء ومختلقوا التَّرهات وصدّقوها في لحظة من لحظات التَّجَلِّي، وحيث العقل مجرد أداة لتنظيم الفوضى، فإذا عمَّ الهباء وانقلب العالم كلّهُ إلى رقعة لليباب عاد العقل من جديد إلى جنونه الجنينيّ لببشّر بفلسفة الفزع والرّوع... حيرة الأسئلة! كيف تتماسّ الأشياء؟ وكيف تلغى الحدود؟ ومتى ينتهي الوعي ليعوّضه وعي جديد؟! وكيف تنقلب المواقع وتتبادل المفاهيم وتغيّر الحقائق حقائق أخرى؟! هل يحصل كلّ ذلك من تلقاء نفسه أم أنّ الإنسان هو الذي يتدخّل في اللّحظة المناسبة ليضفي لمسة إنسانيّة أخيرة على عناصر الكون والوجود؟!... وأخيرا، ألا يحتمل أن يكون كلّ ذلك مجرد إرهاب نفسيّ، ليس حقيقيا بقدر ما هو متخيّل، انتحله الإنسان ليؤكد عظمتة الوهميّة وتفردّه في أعلى سلّم الهرم الحيواني - أو ليس يطلقون على الإنسان صفة الحيوان ويتبعون ذلك بعشرات النّعوت: الحيوان المفكّر، الحيوان النّاطق، الحيوان الاجتماعيّ، الحيوان السياسيّ، إلخ؟... لم يعرف أو لم يحاول أن يعرف حينما جرّب كلّ الوسائل واختبر النّتائج بعد أن وازى المنطلقات بالمحصّلة التّهائيّة أنّ أيّ شيء هنا، مهما كان مبتذلا وتافها، من شأنه أن يضفي مسحة - لا مهمّ أن تكون حزينّة أو أيّ شيء آخر - على حياة الرّتبة الّتي يعيشها، ولأتني .شخصيا - انتهيت إلى تلك القناعة فقد اخترت أن اشتري عددا من البنطلونات والقمصان والأحذية... للتّغيير، لأنّه دائما لا جديد تحت الشّمس!!)... كثيرا ما فقدت توازني، وأنا أسعى أن أعدّل خطواتي، أتعثّر، وفي كلّ مرّة أطرح التّحدي على نفسي، وألو أن لا أنسى في محاولة لإثبات السّيّطرة والقدرة على تأكيد الذات، أجدني أضيع وسط المناهة، تندرّي الوعود وتسقط التّجليّات الكبيرة،

وبدل أن أثبت أراني غير قادر حتى على الملمة ضعفي، فما بالك بكسب رهان صعب دون الفوز به خرط القتاد، في اللحظة الأخيرة أستند إلى الدّولاب المفتوح، كان مفتوحاً منذ عرفته، بقية أخرى من بقايا «نهال»، خلف فيه أشياء، واضطرت أنا وزميلي، نتيجة تراكم مشترياتنا في كلّ مرة، إلى مراكمة أشياء جديدة فيه: ألواح عديدة، ربّما مضت عليها سنوات وسنوات، لا أدري فيما كان يستعملها «نهال»، أسياخ ذات مقابض خشبية، سكاكين مطبخ، علب فارغة، وقناني خمر، فارغة هي الأخرى، نصحت زميلي حين أصرّ على التخلّص منها أن نحفظ بها كي لا يذهب خيال من يراها مرمية في سلّة المهملات الجماعية في الباحة الخارجية بعيداً؛ قلت له:

- ربّما ظنّ من يراها أنّنا نحن من...

ولكنّه قاطعني في حزم قبل أن أكمل:

- فليظنّ ما يظنّ...

ثمّ صمت قليلاً ربّما التقط نفساً عميقاً:

- لا داعي للقلق ما دمنا واثقين من أنفسنا.

ولم أعقب على كلامه لأنّي كنت، قبل كلّ شيء وبعده، أختبر ردّة فعله... لم أكن أهتمّ كثيراً لكلام النّاس، وهو يعلم ذلك جيّداً، ولكن كانت تلك فرصة نادرة لافتعال حديث، حتّى ولو كان ذلك الحديث مرتجلاً وغير ذي جدوى...

... كان الدّولاب مستطيل الحجم، ذا مصراعين متعامدين، مطلّيين باللّون البنيّ؛ وكانت به لوحة تحكّم، بها أزرار لتغيير درجة حرارة الماء بغرفة الاستحمام، وشاء سوء الحظّ أن يحدث عطل بتلك الأزرار فظللنا نغتسل بالماء البارد على امتداد السّنة، سواء في الشّتاء أو الصّيف؛ وقد حاول زميلي مع كهربائيّ المركز، وجرب أن يصطحب الميكانيكيّ الهنديّ إلى شقّتنا، ولكن ذهبت كلّ محاولاته أدراج الرّيح... كنّا في الحقيقة نقنع بالقليل في هذا البلد المعزول المتباعد، ونقنع

بالأقلّ في مدينة «صور» - ليست مدينة «صور» التي تروي الأسطورة الفينينيّة أنّ بحّاراً اسمه «قدموس» هو الذي بناها، وعندما شيّدت المدينة تحوّلت إلى مركزها من مراكز التجارة في العصر القديم، شأنها شأن بقيّة المدن الأخرى... «بيروت» و «صيدا» وغيرهما من المدن، وإنّما «صور» الأخرى، ربّما اقترن إسمها أكثر ما اقترن بإسم ذلك البحّار الذي حاول «فاسكو دي قاما» مداراته، فلمّا عجز عن ذلك اقتاده بالقوّة، ذليلاً يرسف في قيده، ليدلّه إلى الطّريق المؤدّية إلى «الهند»... «أحمد بن ماجد»، لم أقرأ عنه في الكتب، ولم أسمع حكايته من أحد مدرّسي التّاريخ، أو الشّيوخ الذين قابلتهم هنا، وكان يحلو لهم - نظراً للفراغ وطول السّاعات وحياة التّبطل - أن يفakhروا بالقليل المتبقي من تاريخ عريق ليس فيه ما هو جدير بالمفاخرة، اللهمّ إلّا ما كان من بحار متلاطمة من الدّماء، والخيانات التي أجمّحت نار الفتنة في مطلع الإسلام، وأدّت في النّهاية، بعد ثمانية قرون، إلى سقوط غرناطة ونهاية حلم غير مضمون هربه عبد الرّحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم من بيت من البيوت الدّمشقية العتيقة إلى شبه الجزيرة الإيبيريّة، أو الأندلس أو «أندلوسيا»، كما أصبح يروق للكثير من الأوروبيين أو المستشرقين أن يسمّوها... «أحمد بن ماجد» انطبعت صورته مبكراً في ذاكرتي، وأنا ابن تسع أو عشر سنوات، مازلت طالبا في المدرسة الابتدائيّة، تستهويني المغامرات، ومن بين المغامرات كنت أرتاح إلى الأحداث الواقعيّة - أشياء التّاريخ، ولعلّي كنت - بمعنى ما - متميّزاً، ليس على الصّفّ كلّه وفي كلّ المواد، وإنّما في مادّة التّاريخ بالذّات... أظنّ السّاعات الطّوال أمام جهاز التّلفزيون، تغربي برامج بعينها، وإذا كنت أنتظر شهر رمضان بفارغ الصّبر لأتابع المسلسل «الدينيّ»، فإنّي في سائر الأيّام كنت أتحرّق شوقاً إلى ما يبثّه التّلفزيون من مسلسلات تاريخيّة، وهكذا تمّت معرفتي بـ «أحمد بن ماجد»... الآن لا أذكر إسمه إلّا واستحضرت في ذهني صورة الفنّان

الذي قام بتجسيد دروه - «محمود سعيد»...!!

لا أدري لماذا أصبحت ميّالا إلى الاستطرادات، ما يكاد يقرّ عزمي على الحديث عن شيء بعينه حتّى أجدني أضيع، أضيع تماما: تجتذّبني الأحداث، أحسّ بحاجة قاهرة إلى الارتداد إلى الوراء، أذكر أشياء ربّما لم تخطر ببالي أبدا، فإذا خطرت أشعر بنوع من الحيرة والاستغراب: هل أنا الذي أوجّه قوى الباطن بداخلي؟! أم أنّها هي التي توجّهني؟! من يتحكّم بمن؟! ما مدى العلاقة التي تربط الإنسان بالوجود؟! ومن يحدّد مثل هذه العلاقة؟! فإذا ما تحدّدت هذه العلاقة، فإلى ما ستؤدّي واقعيا؟!

أعرف أنّها أسئلة، وأكثر من ذلك أسئلة محيّرة، ستظلّ دائما في حاجة إلى أجوبة، ولكن بدلا من ذلك سأضطرّ إلى حسم المسألة بكلّ بساطة، وسأقول حتّى لا أضيع مرّة أخرى:

- نقطة إلى السّطر!!

... كراكيب وهلاهيل، من زمن افتراضيّ أوجد له العلماء ما يناسبه من الحيوانات المنقرضة والكائنات الالكلة الأعشاب الخضراء، واللّحوم التي تضرب ألوانها إلى شيء بين الأحمر والأبيض، تجبرني على إحصائها كلّما مررت بها، على النّظر إليها كتجسيد فوضويّ لذيد حياة العزوبة المزمنة التي يعاني منها أقلّ من واحد في المائة - هو أنا ذلك الواحد بعد أن تأمر الجميع عليّ، فتزوّج من تزوّج، وطلّق من طلق ليتزوّج من جديد، وبعضهم تزوّج ثانية، سرا، في واحد من أحلامه الكثيرة التي لا تتوقّف أبدا عن الدّوران حول محورها الأزليّ... كراتين، مفارش قديمة، عطنة الرّائحة، ذهبت ألوانها وحالت، وسائد رخوة، وأنصاف قناني بلاستيكية اعتقدت دائما أنّها ضرورية سيّما إذا حان وقت تنظيف الشّقة، وهو وقت . لعمرى- عصبى، يتمّ الاستعداد

له بالمكانس العادية والمطاطية، وخرق من الخيش، والمنظفات على اختلاف أنواعها، من معطر وشبه معطر، وحاد، ويستنزف طاقة أكثر من خمسة أشهر من إجازة مطولة، خالصة المرتب، بين المكتب والشقة، والشقة والمقهى، وأحياناً من المقهى إلى مقهى آخر في السوق التجاري، على بعد ثلاثة كيلومترات تقريباً... لم يكن لنا - في الحقيقة - خيار فيما نفعله، إذ كان لنا «ناصر» بالمرصاد... كان «ناصر» المسؤول عن السكن بالمركز، لا يطمئن، ولا يهدأ له بال إلا إذا ألقى نظرة فاحصة ومتأنية على الشقة بما فيها، الغرفتين والصالة، وخاصة المطبخ والحمام، ما يكاد يدخل حتى يهرع إلى باب «التواليت» فيفتحه ثم ينطلق رأساً إلى المقعد فيرفع غطاءه ثم يدس أنفه وكأنه يختبر الرائحة الآتية من الأعماق الباطنة المتخثرة في قاع بلا قرار... كان يقول إذا وجد خلافاً، إذا لم ترق له الرائحة، مخاطباً صاحب الشقة، وهو يحاول أن يرسم على وجهه سيماء من يشعر بأهميته كموظف يدرك أن له، من السنة الإدارية، يومين كان يمارس فيهما مهامه بامتياز كمسؤول عن «الحمامات والتواليتات»، كما كان يحلو لصديق من أصدقائنا أن يقول، يوماً في بدايتها على إثر العودة من رحلة الستة آلاف ميل بعد الإجازة السنوية ويوماً في نهايتها إذا حان موعد السفر وكان من الضروري زيارة الشقق للتأكد من نظافتها حتى يوقع على وثيقة إخلاء الطرف وهو هادئ البال مرتاح الضمير... كان «ناصر» يصعد نظراته في مخاطبه، وهو يمسك بورقة وقلم كانا ضروريين لتسجيل بعض الملاحظات عن النظافة:

- لماذا لا تشتري «تيزابا»...

وبعد أن يصمت ملياً وهو يدون بعض الأشياء على الورقة، يضع كفه على كتف محدثه بتحبب، ويواصل قائلاً:

- شوف، يا حبيبي، لازم تحطّ تيزاب وايد حتى يكون كل شيء

نظيفاً!!!

ونضطرّ إلى مسيرته، لا نريد مناقشته حتّى لا نقع معه في إشكالات
نعرف أولها ولا نعرف آخرها، وحتّى يوقع لنا على الوثيقة الّتي من دونها
سيكون من العسير علينا الحصول على الجواز والبدل النقديّ لتذاكر
السّفر!!

... وأشدّ دفّتي الدّولاب إلى بعض وأغلقهما، وما تزال آخر البقايا
تترأى لعيّتي كما لو كانت كابوسا يأبى إلّا أن يرافقني إلى مستقري
الأخير... عصيّ، ليف، وبعض القطع الخشبيّة الّتي انتشرت فوقها
حقول من المسامير كنّا نستعملها لتقشير السّمك، لم نبذل في مقابلها
ولو فلسا لأنّها كانت «منتوجا محليّا» كان زملاؤنا في ورشة النّجارة
يزودوننا به كلّ بعد «حين ومين»... وتغيم الرّؤية فجأة، يمتدّ البصر
إلى نهاية الممشى، حيث يقوم باب غرفة زميلي كالطّود، وبالرّغم من أنّه
كان مواربا إلّا أنّي لم أجروّ في يوم من الأيّام على فتحه... لم يكن من
عادتي اختراق المجالات الغير المسموح بها، كان الفضول آخر ما أفكر
فيه، وذلك منذ السّنة الأولى الّتي اخترنا فيها أن نسكن مع بعضنا، يثق
أحدنا بالآخر، ولم نكن نلجأ إلى لعبة المفاتيح، حتّى عندما كنّا نضطرّ
إلى السّفر خارج المدينة!!

الآن، أدرك جيّدا أنّه بعد قليل سأفتح الباب، وسأحكم شدّ
السّتائر على النّافذة الوحيدة، وبعد ذلك سأقرب الحشّية منها
بحيث تحجبها تماما، وسأدفع إليها بالمكتب كي لا تتحرّك من مكانها...
ثمّ سأعتمد إلى السّرير الخشبيّ فأجعله كدعامة للباب الخارجيّ، وفي
الأخير، وكي لا يفوتني أن أضع اللّمسة الأخيرة على المشهد بأكمله،
سأدفع الكومودينو بمحاذاة الحائط إلى أن يسند السّرير والباب
كليهما... كنت أتحمّس لأيّ طارئ مباغت، كنت أخشى أن يحدث ما لم
يكن في الحساب، كأن يتسلّل أحدهم إلى الدّاخل، وأنا غير موجود،
فلا يدع شيئا قابلا للأخذ إلّا أخذه!!

أعود القهقري... أسحب المفتاح وأخرج... أجذب الباب وأغلقه بإحكام وأنا أعلم أنّ الخطوة التالية ستكون الصّالة... سأقلب النّظام، سأجرب أن أمارس شيئاً من الإثارة منذ اليوم الأوّل، ربّما كانت الوحدة قدراً، وربّما كانت الأيّام الثّقيلة تتربّص، في الزّوايا وعلى امتداد الدّروب الأكثر إعتاماً، ولكن لن أخسر شيئاً إذا حاولت أن أقيم -ولو جسراً هشاً- مع العالم الصّغير المحيط بي...

* الصّالة:

[لم يبق إلّا أن أمنحها إسمها، وقد أسبغت عليها من روعي ما لا يمكن لأحد أن يسبغه على عزيز أو شيء أثير لديه... كنت وأنا أدور داخلها كالخذروف، وأنا أزيد احتجابها احتجاباً، وأنا أحاول أن ألملم عريها وأغطي كلّ شبر فيها، ثمّ وأنا أصاب بحالة أقرب إلى الشّطح عندما انتهيت من بناء لبنات النّظام- نظامي الخاصّ، كأنّما أجهّز عروساً لعريسها ليلة الزّفاف... كلّ شيء بداخلها كان فتنة من نوع خاصّ، تتعرّز، تتمنّع، تقتل إذا نظرت وهي لا تعني ذلك، والنّقاب يكاد يحجب الوجه كلّهُ إلّا العينين المريضتين الدّاعيتين، تحتضني وإذا ما فعلت ذلك أحسست، في وقت ما، كأنّما أعود من جديد إلى وضعي الجنيني محفوفاً بالغشاء المشيمي الرّقيق، يأتيني الوجود موصولاً بأُموميّة الحياة، وتنسكب البدايات في قالب النّهيات، وتغدو الفواصل مجرد وهم من أوهام الخليقة البائدة: ألنّ الصّمت هو الوجه الآخر للصّمت الذي هو الصّخب الأرضي؟! ألنّ الأوضاع كلّها ما هي إلّا اختصار لوضع وحدة طارئة تحوّلت مع الزّمن إلى أصل من الأصول المؤدّية إلى ذوب العشق والتّجليّ، توطّر له مقدّمات الخطف؟! ألنّ الإنسان ليس في الحقيقة اشتقاقاً من الأنس- كما يعتقد البعض- وإنّما بالأحرى توليد لطاقة النّسيان على الاختفاء وراء أقنعة استطاعت فجأة أن تدمّر حواجز الوجود والتّاريخ فحوّلت الأزمنة إلى أزمنة شخصيّة يوظّفها

الفرد ويتصرّف فيها وفق حاجته الماسّة إلى «الميتامورفوس»- التّحول وفق آليات «الميتاكرونوس»... لأنّ القدريّة التي كبّلت العالم في مفاهيم عن المدنيّة وحضارة الألفة والاستئناس، وموّهت على القيم الباطنة، بل وقمعها، ليست في نهاية المطاف إلاّ أكذوبة جديدة من بين أكاذيب كثيرة قام عليها وجود الإنسان حتّى يبقى ويحفظ عليه حياته من الدّوبان والاندثار؟!... ماذا يعني من كلّ هذه الأسئلة، وأنا ما نأيت، ما اخترت أن أتوارب وأتباعد إلّا لكي أتجنّب هذه الأسئلة، وأخلد إلى نفسي، أتتبع ذبالة نشيد كنت دائما أسمعها إذا همدت الأصوات وتهافت المكان قبل أن تنسدل عليه ستائر كثيفة وطبقات من ظلمة داجية!!!...

الفاتنة، المرماح، الهفّافة، الضّاجة، المغناج، اللّعوب، الكاعب، الخريدة، ذات اللّبة الرّيانة، ذات الخدّ الأسيل والقّد الأثيل، الملكة المتوجّة على كلّ ممالك الأرض، الأميرة ذات الإمارة، العلامة الفارقة التي تحدّد مواعيد الأوبة، غداة انسلاخ المساءات، ودقّ النّفير وهو يعلن اقتراب ساعات النّشوة والعريضة اللّيليّة، تأتي محتجبة وراء بيارق اللّذائذ، على جناح براق خرافيّ يعرف كيف يوّلّد الرّغائب، ويحيي الهمود الباطن... أنشد يتوتّر الجسد، تتمدّد الأعضاء وترتخي، وتتدفّق الأمواه الكثيرة التي تحاصرها الدّواخل وتسيل، تعبر الأعالي والأسافل، تتخطّى كلّ المتاريس المزروعة على امتداد الحدود، الرّابضة كقدر لعين وراء الخطوط الحمراء... المتحاربون، الأعداء والأصدقاء، تحسّهم بداخلك، وليست المعركة خارج وعيك، على أرض محايدة، بل هي هناك، في ذلك المكان الذي مازلت لا تعرف عنه شيئا، وسط حلقة متداخلة من المشاعر والأحاسيس الغير المحدّدة، والرّغبات الملوّنة، الضّائعة بآلاف الرّوائح المحرّمة، لكتّها أسرة إلى درجة القهر، وأنت تستحضرها وتننتشي لانسكاب فورتها وارتطام أمواجها العارمة وضجيجها المدمّر... مينرفا احتفاء مجوسيّ، أقرب إلى نرفانا تتداخل

ففيها نرجسيّة الذات بأيروسيّة تشكّلت عبر آلاف السنين، ولدت مع الإنسان الأوّل، الإنسان القديم، قبل أن يتحلّل من عقد دماغه بها انتماء قدريّ إلى كائنات عديدة صنّفت في خانة الرئسيّات، ويهتدي إلى أسلوب جديد من وسائل التّجريب، عبر اختفاء النّتوءات والأخاديد وانتهاء باستعمال اليدين... اليدان وهما تستقيمان وتستويان!!!... اليدان وهما تنطلقان في رحلة بحث طويل عن الطّوطم. طوطم الطّواطم، الرّمز المحدّد لرغبة غير مسمّاة، تستثيرها قوى باطنة في مسالك اللاّوعي، والمسارب الخفيّة «للوبيدو» المتمرّد!!!... اليدان وهما تكتشفان العالم المجهول، تؤثّثان الوجود فتعطيان الأسماء تباعا للمسمّيات، دون أن تنسى أن تعطي محدّدا ما، أن تضع على الأشياء الكثيرة نقطة استفهام تقود حتما إلى المنابع السريّة التي تنتهي عند أودية الكشف والحلول... ألف باء، أبجديّة شيء فوق الحبّ، وبعد الرّغبة واللذّة، بدايات النّهائيات- منطلقات أحاسيس ستبقى في حاجة إلى إعادة النّظر بمفردات المعاجم والدّوائر اللّغويّة والموسوعات... في كلّ ليلة، في نفس الموعد، وبين نفس الأشياء التي ربّتها بنفسي، ومع يقين ما فتى يتزايد بالطّمانينة واستسلام مطلق لإرادتي أجبرت «الكلّ» عليه بعد أن أغلقت الباب بالمفتاح ودعّمته بالسّرير الخشبيّ الذي كان موجودا في الصّالة... في نفس التّوقيت، السّاعة والدّقيقة، السّابعة أو بعد السّابعة بقليل، على الأريكة الطّويلة، ورأي النّضد ذو القاعدة الخزفيّة، وفوق النّضد الأباجورة، وعويناتي وكتاب ما... اصطنعت لنفسني طقوسا وانضبطت بتلك الطّقوس، ولعلّ ما شجّعني على ذلك حرارة الطّقس التي كنت أحسّها في كلّ مكان... كنت أتخفّف من كلّ ملابسي، وأظلّ في بنطلون قصير، وكنت أجلب بعض الأشياء التي لا غنى لي عنها من غرفة نومي، اللّحاف والمخدّتين الوحيدتين، فإذا ما ألقيت نظرة عجلى على ما حولي، وراق لي الجوّ، تمدّدت بتكاسل، وما ألبث أن تمتدّ يداي إلى العوينات والكتاب... أضع

النظارات على عيني، وأفتح الكتاب... السفر الدائم، التدويم، الغيبوبة اللذيذة التي لا يفرضها المرض وتأتي وحدها، دون استئذان، كطيف من أطياف العصر القديم، تحطّ من الأعالي القصية للأولمب الزيوسي... يبدأ السمر، ومع السمر تأتي الخواطر، ويروق كلّ شيء، تتساوى المتناقضات جميعها ولا تعود هناك حدود بين المرغوب والمرهوب، وبين المسموح والممنوع، وبين المحظورات على اختلاف أنواعها ومراتها... كنت كمن يحاول جاهدا أن يهرب من قيد ما، أو كمن كان مقيدا مسلوب الإرادة على امتداد أشهر بطولها فاختار أخيرا أن يتمرد، أن ينتقم لحرّته السلبية... «الدنيا هانية»- حبّ وحرب (أمّها الماشي، ليس هناك طريق. ماتشادو)... طريق القصيبة (وحزنت الطريق كثيرا واكتأبت، وفي الأخير ماتت من المرارة. من التراث الشّعيّ لقبايل إفريقيا الوسطى)... وصايا العراء (عندما تفتّح الورد، يفتّح عالم معها. أليك)... عصفور المسالخ... أنشودة الإيتاب... شعيرة الأرق... بقايا امرأة... الدنيا هانية... رغبة الأرصفة... ساعات من سيرة ذاتية لمدينة... شاردة- حسان بورقية... «عالم بلا خرائط»- جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف، هاجس آخر من هواجس ما قبل الحرب وبعدها، تساءلت كثيرا بعد أن قرأت الرواية مرّة، وقبل أن أعيد قراءتها مرّة ثانية: «لماذا هذا العنوان بالذات، عالم بلا خرائط، وليس عنوانا آخر؟!» فكّرت في ذلك طويلا، واستغرقني السؤال أيّاما بليالها؛ في البداية اعتقدت أنّها مجرد عنوان لرواية، وكما فعل عشرات الروائيين برواياتهم، أطلقوا عليها من العناوين ما سمحت به قرائحهم في لحظات التّجليّ فعل مثلهم جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف، غير أنّي لم أطمئنّ إلى هذا التفسير... بدت لي التّرجمة الجغرافية التي حاولت أن أسقطها كإجابة على السؤال لا تفي بالغرض خصوصا وأنّ الأحداث لا تتجاوز في مجملها بعض القرى الجبلية، وتتمحور أساسا حول مدينة، على الرّغم من إحالاتها

الواقعية، إلا أن الروائيين يصرون- ولا أعرف لماذا- أن الخيال اصطنعها في لحظة جموح حتى تسع كل سفرهما وتهيماتهما... العالم من هذا المنظور صغير جدًا، يؤكد «الخرائط» أكثر مما ينفيها، يرسمها بكل تقاطيعها، بكل تفاصيلها، بكل ألوانها الحائلة وغير الحائلة؛ ومع ذلك يظل عالم الرواية بلا خرائط!! تظل خلفيّة ما وراء العنوان، وإذا كانت كل أدوات الجغرافيا غير قادرة على التفسير، فإن «نجوى» تبقى هي العلة والمعلول، تبقى هي التفسير، وانطلاقا منها ومن خلالها تتحرّر كل المشاعر والأحاسيس من قيودها لتكون سببا في سقوط كل الأقنعة المحظورة... وبكلام قليل، تظل «نجوى» سببا في تمزيق كل الخرائط، المعادل الرمزي لعبودية الإنسان، ليس فقط في الزمان ولكن في المكان أيضا، تظل «نجوى» سببا في سقوط كل الخرائط!!... مداراة، لعبة خطيرة غير مضمونة، أدورها ما استطعت، أتعسف عليها وأنا أشد ما أكون شوقا إلى اعتناقها، أشد رغبة، صحيح كنت أوجّلها، أتناساها إلى حين إلا أنني كنت أعلم أنني لن أخلف الموعد، أنني أحترق في داخلي، أتحرق إلى الموت الجميل؛ هل حقّا أنّ الموت جميل، أم أنني الوحيد الذي يريده وينتظره؟! لعله ليس الموت نفسه، لعله كان شيئا مختلفا وأنا أتجهّز له وكأنّي أتجهّز لحرب، أذكر أنّ أحد الأبطال الخرافيين، الأبطال المغامرين، الذين أحببتهم كثيرا، وكنت أحسّ أنّهم قريبين منّي إلى درجة الانسحاق- مصطفى سعيد، قال عنها في أحد المواقف الدرامية العظيمة أنّه كان يخوضها بكلّ الترسّانة الحربيّة القديمة، الترسّانة العربيّة التي لا يملك الشعراء الجاهليون والمخضرمون غيرها، كان يخوضها بالسيف والرمح والنشاب، و«جين مورس» تبتعد عنه رغم قربها منه في المكان، فاتنة إلى أقصى حدود الفتنة، في عريها الأنثوي، وهو في حميا عذابه، في أقصى درجات الانتشاء والرغبة كان مستعدّا أن يفعل أيّ شيء من أجل امتلاكها، من أجل أن يذوب جسده في جسدها، ياه، ياه، الزّمن!!... لم يكن تأسيّا ما كنت أطلبه، لم يكن

شيئا آخر غير خدر، غير رحيل عبر أميال غير منظورة، لا تقاس بتقديرات النّظر والحدس، وتقيد كأحد الثّوابت في أحد الأضابير والخانات وتعتمد كحقيقة تتوالد منها حقائق أخرى باعتماد قاعدة التّمائل، إنّها الأميال الخرافيّة يقطعها القلب في جريه المتواصل، في طيه للمسافات، في انطلاقه صوب المجهل التي لم تكتشف بعد، وسيكون من المستحيل على أيّ خيال إنسانيّ أن يهتدي إلى أسرارها اللّذيذة القاتلة... أرى كثبانا وسهولا، هيئات مربّرية، وروابي تهمزّ فأسيل مسافرا إلى الحدود الأقيانوسيّة، أهفو إلى التّطلّع ويساورني القتل، وفي لحظات بعينها أنسى الثّارات التي خلّفها الحروب القديمة، أئنّس برغبة الاعتناق ومن هجعة السّكون أدفد صوب الأعماق، أتلّمس طريقي، عبر الثّنايا الأكثر غموضا إلى الأودية الشّوكيّة، أتضجّ بدماء نشوة لها طعم الملح، تزرع في من الجيشان والإثارة بقدرما تبعث على التّقيوّ والغثيان، وأغمض عينيّ على المشاهد جميعها، أعرف أنّ الكون بأسره قد تحوّل إلى بانوراما كاسحة، تتوارد الملامح، تتلو الفصول الفصول، ومن مجاهل ما، لا أدري أكانت تنطلق من داخل ذاتي أم تنبع من إطار خارجيّ غير معلوم، أرى الاحتفاليّة الكونيّة، وتهزّني الطّقوس؛ هل كانت نفس الطّقوس التي تتكرّر كلّ يوم؟ هل هي نفس النّشوة؟ هل هي نفس الأحاسيس التي كانت تولد كلّ ليلة؟!... لست أدري تحديدا، كانت الكلمات تسقط والمفردات، تتحطّم اللّغة المسكينة على حواجز الصّمت، يتدفّق المشهد تلو المشهد، وحينما أفيق أسعى أن أترجم، كنت أحسّ أن الذي رأيته وأراه لا يمكن بحال أن يترجم إلى لغة إنسانيّة، ومع ذلك كنت أحاول، كنت أموت بالليل وفي الثّهار أرتدّ إلى هيتي البائسة، أقرب ما أكون إلى فزاعة أقاموها في منتصف حقل مهلهل لتخيف الطّيور الصّغيرة الجائعة... الأمل في عزاء ما، والعزاء لا يمكن أن يكون «نهاريّا»، لا يمكن إلّا أن يكون «ليليّا»، وأنتظر اللّيل، أيّامي كلّها، على امتداد شهر بأكمله كانت

اختصاراً لذلك اللّيل، كانت محورا ومدارا، وما بين المحور، وفي أتون المدار، كنت أتحوّل، كنت أرتدّ، أنكص، أصارع، أتناول في الهيئات، وأتأكل من الدّاخل، أذوب كما الثّلج سلخ الشّتاء وحلول الرّبيع، تداعب أوتاري الباطنة همسة غنج، آهة من تلك الآهات الأسطوريّة الضّائعة بسرّ الحياة فأتلاشى، أتشظى، يستحيل جسدي هباءات وذرات، أنبعث في وضع حلوليّ، وأروم مقامات العشق فيأتيني الخطف، وتندغم الأسافل في الأعالي وتبلغني الأصوات كما لم أسمعها من قبل، متداخلة ولكّها لذيدة، لها رنة المزامير في الرّبور، وسحرية وصايا رأيّتها ذات مرّة في منامي وبنت في آلاف النّشوات وحين أفقت أضعت كلّ الخيوط المؤدّية إلّها، ومع ذلك ظلت أطلّها لأنّها بقيت عصيّة على كشوفاتي... لم تكن تهمّ الأسماء كثيرا ما دامت الوجوه، ومادام الزّمن يذوب ويندمج في أزمنة جديدة، يتوحّد فيها كلّ شيء، تلك الأجساد وهي تتقارب، وهي تؤطّر للحظة القادمة، حين تحتجب كلّ الرّوى، ولا يعود هناك سوى المسافة القصيرة والنبض القاتل؛ حين تسود في وقت ما أثريّة الرّقص على أنغام موسيقى تنبعث من الأجساد... تنفجر من الأعضاء قبل أن ترسلها تلك الآلات المخبّأة وراء حاجز ما... الكلمات، إثارة ما، حركة، التفاتة، موجات صغيرة أشبه ما تكون بموجات بحريّة، دعوة من طرف خفيّ، مداعبة وانطلاق، والأصوات تأتي تباعا، تتداخل الهيئات بدءا، وبعد لأي تغدو كلّها هيئة واحدة، اتّحاد الأصول، عودة الفروع إلى الغواية الأولى على المشارف الخطرة، انطلاق... فوضى جميلة لا تتوقّف... خبب مغر ما يفتأ أن يتحوّل إلى عدو وركض مدويّين... اشتباك كان يشتدّ كلّما حانت ساعة النّوبان... ثمّ يحلّ همود قاس إذا امتلأ المكان بتلك الرائحة التي ترسلها تلك المادّة اللّزجة... المادّة المحبّبة... المادّة المنقرّة!!!

أنا الراوي، أكتشف في النهاية أنني تحولت إلى ضحية!!
وإذا كنت من قبل أنا الذي أتحكم في خيوط اللعبة التي كنت
أحكم شديها حول الشخص، وبمهارة عجيبة، وجانب كبير من هذه
المهارة يعود إلى أنني كنت أدير الأشياء عن بعد، أرتب لمراحل المعركة،
دونما أي شعور أو إحساس بالخطر، أخذ الشخصيات على حين غرة،
في أقصى درجات الانتشاء، في الوقت الذي تعتقد فيه أنها أصبحت
تملك كل شيء، أنها أصبحت ملكا متوجا، متربعا على عرشه... اللعبة
دائما مأمونة، بالنسبة إليّ، وليس فيها أي احتمال لأي خطأ من أي
نوع، لذلك كانت البدايات تنطلق سلسلة، متناغمة مع بعضها
البعض... لم أكن أقحم نفسي في الأتون، أتباع قدر الإمكان، غير
أنّي أظهر في اللحظة المناسبة حين يكون المسار في حاجة إلى تصحيح،
وحين أرى أنه من الضروري أن يكون هناك من يضع النقاط على
الحروف- بعض من التركة التي كان لزاما علينا أن نرثها، وقد قدمها
لنا النقد الحديث على طبق من فضة خالصة، بقطع النظر عن
مدى جدواها: الراوي العليم الذي يرفض سلفا أن يكون غفلا كي
لا يسري الماء من تحت قدميه وهو لا يعلم، وحينئذ سيصير مضربا-
على كل فم ولسان- للغفلة والجهل والغباء، وبدل أن يكون هو المبدع
الخالق تكون الشخصيات قد ضحكت عليه واستدرجته إلى الخازوق
الذي سيجلس عليه دون أن يعلم... قلت: إذا كنت أنا الذي يتحكم،
ويصول ويجول، يكيّف كل شيء على ذوقه وحسب هواه، فإنّي حين
قررت أن أقحم نفسي في الخضم، أي اخترت أن أكون واحدا من هذه
الشخص، لا أتوارب عنهم، وإنما أختلط بهم، أمتزج بهم حدّ التّخمة
ارتدّ سحري عليّ، وصرت مكشوبا لهم، فأكلوني بدل المقلب مقالب،

وبدل الخازوق وجدت نفسي جالسا على ألف خازوق!!

حاجة ماسة إلى الإفصاح، رغبة في الإفضاء، لا يهّم إلى من، ولا أريد أن أذكر أسماء أشخاص بعينهم، تأسيًا ببعض أصحاب الرسائل القدامى الذين كان يروقهم كثيرا أن يدبّجوا مقدّمات طويلة، وينطلقوا في حديث له أوّل وليس له آخر، لا أدري عن ماذا، فإذا ما انتهوا من عيون أديهم وفرائد بنات أفكارهم، وحتّى يتأثّروا خطى السلف ومن احترف حرفتهم ويتّخذوا الوسائل عند أصحاب المكانة والنّفوذ كتبوا على الصّفحة الأولى، وقبل البدء: إلى وليّ النّعمة- أبقاه الله وأدام عزّه-، فلتة الزّمان، من بيده زمام العدل وسوط البطش، أهدي هذا المؤلّف الضّخم وقد بذلت فيه قصارى المجهود، وسهرت عليه اللّيل، واستوفيت فيه ساعات النّهار... أو أوّلئك الذين كتبوا، وحبّروا الصّفحات وسوّدوا المسوّدات، وكانوا يشعرون بغصّة الكتابة ووطأة العذاب، مخلصين لأديهم الذي هو عماد أمرهم ومستقام حالهم، فإذا راق لهم ما كتبوا ووجدوا فيه متعة ووجدا، ولم يصبروا على كتمان ما انتهوا إليه، أثروا أن يشركوا أصدقاء لهم وأخلاء، تمكّن منهم هاجس الكلمة، واستبدّ بهم سحر المفردة وأفانين القول والخطاب، أثروا أن يشركوهم فيما كتبوا، حتّى يحمّدوا بما كتبوا أوّلا، ثمّ ينتشر ذكرهم ثانيا، وتدوّي أسماءهم وتطبق الأفاق وتسري مسرى النّار في الهشيم، وحتّى يحفّزهم ذلك على الكتابة من جديد ثالثا، فيكتبون ويكتبون إلى أن ينهدّ حيلهم وتجفّ أقلامهم... أمزح؟! ربّما كنت أمزح، غير أنّ هناك شيئا من الحقيقة المرّة فيما قلته!! المهّم، لنترك كلّ ما قلته جانبا، ولأحاول أن أرّتب أفكاري من جديد...

سأعترف...!!

لم تكن بذهني خطّة واضحة، كما أنّ الأشياء في حينها لم تكن تنضبط بمنطق معيّن، حتّى أنّه لم يكن ممكنا أن أطلق على ما كنت أفكر فيه مشروعا أو برنامجا للكتابة؛ ولذلك أسبابه طبعا.

لم أكن قد فكّرت بعد في السّفر إلى «هندستان»، ولم أكن قد انتدبت للعمل في هذا البلد الذي أعمل فيه الآن، مدرّسا من بين مدرّسين آخرين ومدرّبين، لا يعرفون «متى يأتي مکتوبهم وينتهي مقسومهم»، بحسب المأثور الشعبي... فقط كنت واقعا تحت تأثير فكرة مغرية، فكرة مستبدّة إلى حدّ التسلّط، وما كنت لأفكر فيها لو لم تأت الأحداث تباعا وتتسارع وتيرة القلق والجموح والرغبة في فكّ حصار كان دائما مقدّرا له أن يبدأ في نهاية حزيران وينتهي في الخامس عشر من أيلول، التّاريخ المقرّر لبداية سنة دراسية جديدة في ذلك البلد المتوسّطيّ الصّغير الذي أنتمي إليه... ودائما يطلّ الخوف كلّما ابتدأت الهواجس، ويتضخّم الخوف ليصبح رعبا ورهبة حيال كلّ ما هو جديد... رهبة حيال المجهول الذي لم يعرف بعد لأنّه- بكلّ بساطة- غير مضمون... التّباعد، الهوس من فقدان الأنيّة، تاريخ بأسره من حميميّة راكمتها سنوات طويلة من التّجارب والقرب والاستئناس توشك أن تضمحلّ، عند التّفكير في نهاية الحلول ومشقة السّفر، يبدأ التّوجّس، ينفجر بالداخل تمرّق ما، صراع لا مفرّ منه، سيّما أنّه يستحيل النّكوص، الارتداد إلى الخلف وقد سوّى كلّ شيء، سلّمت الجوازات ولم يبق إلّا ختم التّأشيرة، ثمّ هناك الالتزام حيال صديق، اتّفقنا أن نسافر معا، بمفردنا، لا شكّ أنّ التجربة فريدة، أقرب إلى المغامرة، ونحن نساfer لأوّل مرّة، إلى البرّ، أرض الكنانة...

لكلّ شيء سبب؛ ولكلّ سبب مسبّب، على حدّ قول العلماء؛ أو كما يقول الفلاسفة، لا بدّ لكلّ معلول من علّة، ولا بدّ لكلّ محمول من حامل، وللعوارض جواهر لا بدّ من إدراكها حتّى يكتمل الخلق وتدرّك الحقائق!! وأنا... لماذا كنت أريد السّفر؟ هل كان ذلك مجرد عناد؟ أم رغبة في التّغيير؟... أم شيئا يقترب كثيرا من التجربة البفلوفية لإثبات الفعل المنعكس الشرطيّ: اعتاد الكلب صوت الجرس ثمّ يقدّم له الطّعام... فصار كلّما رنّ الجرس هبّ لتناول الطّعام؛ وفي وقت ما

دقّ الجرس ولم يقدّم الطّعام، ولكنّ الكلب استمرّ مع ذلك على نفس عادته القديمة!!!...

لعلّ الأحاديث الكثيرة، والشّجون الّتي فاضت عقب تلك الأحاديث في مقهى السّكّة الحديد، والأماسي الّتي زادت تلك الشّجون ألقا عصيًا على التّفسير، واللّيل الّذي كان يأتي من الكوى المجهولة، والأغاني المهرّبة من زمن كان يعرف معنى الطّرب الأصيل: لعلّ كلّ ذلك مجتمعا زاد من الرّغبة. وتضاعفت الرّغبة فتأكّد القرار... العدو، السّحر الّذي يعرف كيف يسري مسرى الدّم، ويلوّث كلّ شيء... كانت القاهرة «المعزيّة» مجرد حلم، شأنها شأن بقيّة الأحلام الأخرى، قرأنا عنها غير أنّنا لم نعرفها، فتح «جواهر الصّقليّ» البرّالمصريّ، ولأنّ المعزّ لدين الله الفاطميّ أراد أن يفعل ما لم يفعله آباؤه من قبل، أبو عبيد الله الفاطميّ وأبو القاسم بن عبيد الله والمنصور بن أبي القاسم، أدرك أن لا شيء أبقي للأثر وأدوم للذكّر من بناء الحصون والقلاع والمساجد فأمر ببناء «القاهرة المعزيّة»...

وسافرنا!...

وكان الأمر لا يخلو من بعض المشقّة، أو حتّى أضع الأشياء في إطارها الصّحيح كانت المشقّة ربّما الشّيء الوحيد أو أكثر شيء بقي عالقا في ذهني من الرّحلة... استغرقنا يومين كاملين، وكان لا بدّ أن نقف لوقت طويل أمام البوّابات ربّما تتمّ إجراءات العبور؛ وعندما بلغنا الإسكندريّة كنت مجهدا جدّا، وكنت أحسّ أنّي في حاجة إلى ساعات وساعات من نوم متواصل، وأنّه بمجرد أن نستقلّ سيّارة الأجرة الّتي ستقلّنا إلى القاهرة سأروح في سبات عميق... ماذا بقي من الإسكندريّة؟ ماذا تبقى غير تلك الرّؤية الغبشيّة الّتي زادها اللّيل إعتاما وغموضا... كان اللّيل في كلّ مكان، والوجوه نفسها، الّتي كانت تمرّ بنا كانت هي الأخرى كأنّها امتداد لذلك اللّيل الدّاهم، ولحسن الحظّ أنّنا لم ننتظر طويلا... كان أحد أصحاب سيّارات الأجرة ينادي

بصوته المشروخ الذي كان يمزّق سكون الليل عن زبائن محتملين ربّما كانوا يريدون التوجّه إلى القاهرة... تقدّمنا منه ونقدناه الأجرة دون نقاش كبير... لم يكن همّنا المساومة، ولم نكن ميّالين إلى دخول في جدل لا جدوى منه، بقدر ما كنّا نتطلّع إلى تلك المقاعد الجلديّة في الدّاخل...

كم كانت القاهرة كبيرة ومخيفة لمن يدخلها أوّل مرّة! كم كانت كبيرة بالنّسبة إليّ، وأنا أتفاجأ بدخولها- كنت نائما عندما فتحت عينيّ فجأة، انهرت بالأنوار، وحاصرتني المدينة وهي تجري بسرعة مذهلة مع السيّارة التي كانت تدخل إلى أحد المستودعات... حاولت أن أسيطر على نفسي، وأنا أتفادى النّظر في وجه صديقي؛ ربّما داهمته نفس المشاعر التي داهمتني، وربّما أحسّ كما أحسست أنّ العالم الذي يلوح أمامنا الآن هو أكبر من كلّ العوالم التي مررنا بها... أكبر من المدينة الصّغيرة التي شهدت ميلادنا وشقاواتنا، وأكبر من المدن الأخرى التي درسنا بها واعتدناها مع الأيام فصارت مدنا أخرى لنا، نحفظ بها في قلوبنا، حتّى عندما عدنا إلى مرابع صبا... لا أدري ما الذي دفع بصورة «طارق بن زياد» إلى ذهني في تلك السّاعة. ولا أدري لماذا كانت صورته، دوناً عن باقي الصّور، الأكثر وضوحاً وجلاءً في مخيلتي، تصوّره في خوذته، وهو يمتشق سيفه ويواجه جنده ببسالة من لا يدرك نتائج الخطوة القادمة، ويقول جملته الشّهيرة التي دوّنها التاريخ وحفظتها الأجيال جيلاً بعد جيل:

- أين المفرّ! البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ السيّف...

كنّا في حاجة إلى شيء أكثر من السيّف!! كنّا في حاجة إلى الحذر، ونحن نأخذ حقائبنا من صندوق السيّارة وننطلق عبر أوّل شارع صافدنا... كنت أنظر عن اليمين والشّمال، كنت أدقق في العلامات الفارقة، في الطّرق المؤدّية وغير المؤدّية، أحاول أن أثبت الصّور

والأشياء والملامح... والبنائيات أيضا، وهي تشمخ حاجبة كل شيء: المساحة والفضاء والسّماء التي لم أعرف بعد هل كانت زرقاء، كالسّماء التي خلفناها وراءنا، أم بلون آخر ربّما زادته بعض السّحابات البيضاء الهائلة فتنة وجمالا... في البداية، شعرت بشوق دافق، دغدغي حلم الضيّاع اللّذيد وسط متاهة مدينة كهذه، لكن لم يكن ذلك الحلم واقعيا ونحن نكاد نسقط من جرّاء التّعب والإرهاق...

قال صديقي، وفي الحال وافقته على رأيه:

- لماذا لا نأخذ تاكسي؟

أوقفنا تاكسي... قلت للسائق ونحن ندخل:

- قصر النّيل... عمارة ٤.

المرة الأولى، داخل حدود مكان لم نكتشفه بعد، لا بيت لنا فيه، ولا ذكريات كتلك الذّكريات العتيقة التي ظلّت وستظلّ تقاوم التّلاشي والنّسيان... له سحره دون شكّ، كأني اكتشف جديد، يبعث على التّحدي بنفس القدر الذي يبعث على المشاكسة...

لكل فضاء ما يميّزه، يحيل عليه بمعنى ما، شيء يظلّ لصيقا به، لا تذكره أو تتخيّله إلّا تراءى أمامك ذلك الفضاء، متراميا فسيحا، كبيرا وشامخا... عند مدخل العمارة، كان الباب مغلقا، ولم يكن هناك بواب، ظللنا لبعض الوقت نفكّر فيما يمكن فعله، ولم نهتد إلى حلّ ملائم، سيّما أنّ المدينة ما تزال نائمة، ملتئمة على هواجسها وأحلامها... كان يمكن أن نسأل أيّ شخص، أن نستفسر، إلّا أنّ الشّخص الوحيد الذي رأيناه كان نائما بمؤخّرة «بيكاب» متلقّعا ببطانيّة... أثّرنا أن نتنظر قليلا، وتقدّمنا فجلسنا على حافة آخر الدّرجات التي تقود إلى البوابة. في تلك اللّحظة بالذّات، حينما امتدّ بصري فجأة إلى الأمام، رأيته يعدو بخفّة، تحت عدد من السيّارات المركونة إلى رصيف العمارة ثمّ يختفي فجأة كأنّه الشّبح... ابن عرس!! حيوان صغير قميء، تودّ إذا رأيته لو أمكنك أن تمسكه بين يديك الاثنتين، تتمنّع بلملمس فروه

الناعم، وأنت تتأمل انفراجة فمه وقائمتيه الرقيقتن... فيما بعد، في زمن ما، بعد حوالي سنتين من ذلك التاريخ، سأنتهي إلى شبه قناعة، أنّ الأماكن، كالأشخاص تماما، لا بدّ أن تحتفظ لنفسها بملكيّة شيء ما، لا بدّ أن تكون لها من السمّات ما يميّزها، فإذا كان الأشخاص يتميّزون عن بعضهم البعض بالملاحم والقسمات حيث أنّ لكلّ واحد منهم أشياء خاصّة به لا يملكها غيره، فكذلك الأماكن، تحيا في الاختلاف، وتقاوم الزّمن، لا باعتبارها كائنات مجهولة الهوية، عطل من كلّ جاذبيّة، ولكن باعتبارها تهاويل وزخارف تضيع في أتونها فتشعر بذلك الألق الذي يغزو كلّ خلية من خلاياك، تحسّ بالخدر والانتشاء، وتدرّك أرقّ درجات السّموّ، شيء غامض أشبه بلوثة الجنون أو ذوبان الإشراق... كان ذلك في أحد الفنادق- «ريجنّت كونتنتال»-، في غرفة بالطّابق الثّالث، في مدينة «دلهي»... الصّباح الباكر، في اليوم الثّالي على وصولنا، أنا وصديقين هنديّين تعرّفت إليهما بمدينة «صور»... في اليوم الأوّل من السّفر كنّا مرهقين جدّا، نحمل في جرابنا أكثر من ثلاث ساعات إلى مدينة «مسقط»، محشورين في مقعد السيّارة الخلفيّ، أربعة أشخاص، في وضع مازلت إلى الآن أفكر في الكلمة المناسبة التي يمكن أن تصفه، وثلاث ساعات أخرى بالطّائرة إلى مطار «إنديرا غاندي الدوليّ»، وأكثر من ساعة بالتاكسي إلى الفندق... التعب والإجهاد، ولا عزاء في ذلك الصّباح الحارّ إلّا النّوم... نمنا كثيرا، ولم نصح إلّا حوالي السّاعة الثّانية عشرة!!

أمام الفندق كان هناك عدد من الأشجار، في الجهة المقابلة، داخل حيّز مسيّج، في وسطه باب، وإلى اليمين مظلة حجريّة جلس تحتهما هنديّان، وقد لاحظت أنّهما ينظران إليّ باستغراب، كنت أنا أيضا أنظر إليهما، بدوا لي مألوفين، بل أكثر من ذلك رأيت فيهما نسختين مكرّرتين- نسختين معادتين لآلاف الهنود الذين كانت تعجّ بهم الشّوارع في نهايات الأسبوع- أيّام الجمع، بالسّوق التّجاري والمحلّات والمقاهي

الكثيرة وهم يحتسون الشاي، متعلّقة أبصارهم بشاشة التّلفزيون، في مدينة «صور العفّية»، تعالج آذانهم صخب لغات عديدة مهيّبة من وراء المحيط... أنا كنت «شيئا غريبا»، وجهها غير مألوف داخل المكان، «شيئا» ليس مهيّبا وإنما اجتثّ اجتثاثا من بين أناس غير الناس، ومن زمان غير الزّمان، بتلك الملابس، وتلك البشرة الفاضحة، والملامح الّتي لا شكّ أنّها تقول وتعلن أكثر من الكلمات والمفردات... لم أتوقّف طويلا، لم أرد أن أواصل لعبة اكتشاف الوجوه. إذ كنت أبحث، ربّما غريزيّا، عن أوّل اكتشاف، عن المدخل الحقيقيّ لتلك المدينة الّتي لم أتعرف عليها بعد... لم أكن أتصوّر، في آية لحظة من اللّحظات، أن أرى ما رأيت، أو بالأحرى لم أتوقّع أن تكون «دلهي» قد اختارت لنفسها، من بين الكائنات الكثيرة الّتي تملأ الكون، أبشع الطّيور منظرا وأكثرها قذارة- هكذا كان رأيي في الغريبان؛ ربّما كان هذا تجنّيا من طرفي، وربّما كان رأيا خاطئا لم أستند فيه إلى غير الغريزة والعاطفة، ولكن هذا ما كان... العدد مهول، لم أر مثله في حياتي قطّ، كانت تلك الغريبان تطير من شجرة إلى شجرة، وفي بعض الأحيان تحطّ على الأرض أو على أحد المحيطان، لم يكن في مشيتهما ذلك السّحر الخرافيّ الّذي يحاكي تيه الحمام، أو زهو الطاووس، كانت عندما تمشي كأنّها تعرج، أو أصابها شلل لا شفاء منه، منذ عصور خالية ضاربة في القدم...

عادت بي الذاكرة إلى الوراء، إلى سنوات خلت، سني الصّبّ الأولى، في تلك المدينة الّتي كدت أنسى إسمها، وقد تركتها منذ ما يقرب من سنتين متتاليتين... كنّا ونحن صغار يروقنا أن نهرب إلى أكثر الأماكن أمنا، نفرّا إلى الكوى الأكثر حصانة، ولم يكن أكثر من الصّحراء أمنا وحرّيّة، هناك كان يطيب لنا اللّعب إلى ساعات متأخّرة من النّهار، لا ندع شيئا إلّا جرّبناه ولا خطيئة من خطايا الصّغار إلّا ارتكبتها... وكنا حينما نتعب نتطلّع إلى البعيد، نسرح أنظارنا في المدى، وكأنّنا نبحث عن شيء ضاع منا منذ أمد، أو كأنّنا نريد أن نكتشف خلقا عصيّ

المنال نضيفه إلى أشياء الكون الأخرى... حينئذ، وعلى مبعده، على أحد أسلاك أعمدة الكهرباء، التي كانت تنتمي إلى زمن له طعم التوت والحنظل كليهما، كنّا نرى غرايين، ولأنّ الغريبان كانت من الطيور النادرة في المدينة فقد كنّا ننسج حولها عشرات الحكايات، وكانت تلك الحكايات تشبهنا تماما، فيها الكثير من جموحنا وخيالنا الذي لا يحدّ. كان أحدها يؤشّر ببديده، ويقول وهو ينتفض في مكانه من الفرح: - انظروا هناك.

وكنّا ننظر جميعا صوب المكان الذي أشرنا ناحيته.

يقول آخر:

- إنّهما غرابان...

فيقاطعه ثالث، وهو يتّجه بكلّيته إلى الجماعة كلّها، ثمّ يقول:

- لا، إنّهما ليسا غرايين، ولكنّهما وليّان صالحين من أولياء الله،

هكذا قالت والدتي، ووالدتي أخبرها الإمام بذلك حينما سألته عن غرايين رأتهما في مكان ما.

كان الحديث يتداخل إلى حدّ الفوضى، وكنّا نتكلّم في نفس الوقت، كان جميعنا يعرف الغرايين، بل لقد كنّا نعلم أنّ المدينة كلّها، بأناسها الكثيرين، بأطفالها ونساءها ورجالها وشيوخها، يعرفون ذينك الغرايين حقّ المعرفة، ربّما كانا الغرايين الوحيدين في الناحية، ولأنّهما كذلك فقد تركا ذلك الانطباع الذي سيطر على الجميع، أنهما وليّان صالحان، بل لقد كنّا نعرف حتّى إسميهما، وهما إسمان لوليّين صالحين، كنّا نزورهما في العطل السنويّة، فنولم في مزاريهما، ونأكل ونشرب، وقد نبئت اللّيلة هناك، وما بين هذا وذاك، يمتدّ السمر، في حلقة الذّكر، على أنغام الدّفوف الكثيرة والنّبرات التي كانت تحمل شجى سنوات بعيدة.

يقول رابع، حين يحلّق الغرابان بعيدا، ويختفيان:

- لقد طار جدّي عثمان وجدّي سليمان!!

[سقى الله أطلال الأحبة بالحمى...]

أحبة الأيام الخوالي، أذكرهم ففتقرّ جراح في القلب لم تكد تندمل، وتجتاحني مرارة أين منها مرارات سابقة كانت تأتي وتمضي دون أن تخلف أثرا، تمضي كأنّها لم تكن، تجمعنا الأماسي ولا تفرق بيننا الليالي والنهارات الطويلة لأننا كنّا دائما نعرف كيف يستحضر أحدنا الآخر في مخيلات ابتلاها الله بالذكى، تتعذب بها وتلتدّ بها في نفس الوقت، وكأنّما حكم عليها بمازوكية لا شفاء منها... وجهه ليس مألوفاً فقط، وملامحه أكاد أتشرّبها ملمحا ملمحا، وكأنّها انبثقت على حين فجأة من فراغ الذاكرة، واستقرّت في دخيلتي شيئا يقاوم الموت والنسيان ويأبى إلا أن يكون خالدا، أبديا، سرمديا؛ مازلت أذكر كلماته، طريقة نطقها، نبرات صوته، وهو إذا اندفع في الكلام لا يتوقّف أبدا، يستغرق، وأحيانا يقاطع لأنّه عنّت له في لحظة ما فكرة أوراى يخشى أن يضيع منه، يخشى أن ينساه في خضمّ الحديث، وهو إذ يفعل ذلك يفعله في كثير من أدب جمّ، يقول: اعذرني للمقاطعة، أنا أسف... يروقني كثيرا أن أسمع، أحبّ حديثه الذي يعرف كيف يصرفه، فلا هو إلى الجدّ كلّ، ولا إلى الهزل كلّ، يعرف متى يزلق نكتة، في أوقات بعينها، أحيانا لا يتورّع عن إدخال بعض الألفاظ البذيئة في صلب الحديث، ونجد أنفسنا نضحك دون إرادة منّا؛ وكشأن كثير ممّن عرفتهم، حرّمته الحياة، وابتلي بأقرب الناس إليه، يعنّ له أن يحكي، يروي حكايات طويلة، يذكر جزئيات، ويختم بطرح مشاكله... قال لنا ذات يوم، وكنا ثلاثة، أنا وهو وصديق ثالث من أصدقائنا كنّا دائما نلتقي فنجلس في مقهى السّكة الحديد، وقد كان يتقصّد أن يكون الحديث في تلك الدائرة الضيقة كلّما أراد أن يفضي لنا ببعض ممّا يعاني في علاقته مع والده، الذي كان يشعر حiale بكثير من الاضطهاد والقهر:

- تعبت... والله تعبت كثيرا، يا جماعة: إنّه- كان إذا أراد الحديث عن والده أشار إليه بضمير الغائب- لا يكفّ عن اتّهامي وكأني مجرم... يقول ويقول... لا يعرف المهادنة أبدا...

وبعد أن يتوقّف قليلا ليأخذ نفسا، ويتطلّع إلينا ليري مدى اهتمامنا بما يرويه، يتابع:

- إنّي أشعر فعلا بالمهانة، والفضيحة أيضا، وهو لم يترك أحدا من جيراننا إلّا وذكرني عنده بسوء كثير...

ثمّ، ودون انتظار، يتّجه إلى صديقنا الثالث الذي كان يعرف والده جيّدا، وقد كان من حين لأخريزوره في منزله ثمّ يبيت اللّيل عنده: - هل تراني فاسدا أنت؟... أنت تعرفني جيّدا، وتعرف الكثير عن علاقاتي...

كانت أسئلته بدهيّة في نظره، أو كما يقول أهل النّحو والبلاغة، كانت أسئلته أسئلة إنكاريّة في غنى عن أيّة إجابة، ولأنّ الأمر كذلك فقد كان يواصل وعيناه في أعيننا كما لو كان ينشد تعاطفنا معه وموازرتنا له:

- ليحمد الله أنّي لست من الجماعة إيّاهم، ولست من خلطاء السّوء، لم أسرق، ولم أجلب له من المتاعب ما قد يسبّب له قلقا أو عنتا...

ولكنّه يستدرك بعد قليل، إذ يرى ابتسامة صغيرة على شفتي صديقنا الثالث ويلحظ تلك النّظرة التأمريّة في عينيه:

- صحيح أنا أشرب، من حين لآخر، ولكيّ لا أسكر، وكلّ راتي صرفته عليهم، لم أدخر شيئا لنفسي لذلك لم أستطع أن أوفر شيئا... فلماذا يتّهمني؟ لماذا يحمل عليّ وكأني لست ابنه، من لحمه ودمه؟...

ويعود بذاكرته إلى الوراء، إلى أحداث مضت، وقد ظنّ أنّ والده سيقلع عن عادته القديمة ويحقّق معه سلاما دائما بعد أن أصيب بانزلاق غضروفيّ في عموده الفقريّ وأجرى عمليّة جراحية لم يكن

ليجربها لولا أن تدخّل صديقنا، فسحب كلّ المال الذي معه في البنك وزاد فاستدان من بعض معارفه:

- ذيل الكلب وضعوه في قصبة خمسين عاما، وعندما سحبوه عاد إلى اعوجاجه مرّة أخرى!!

... كان يعيش مع عائلته في نفس البيت، وكان بمقدوره أن يستأجر له بيتا أو شقّة، ولكنّه لم يفعل؛ ولعلّ ما منعه من ذلك، وبالدرجة الأولى، والدته وأخواته البنات، صغرى أخواته أعرفها وقد درّستها، حتّى من قبل أن أتعرّف إليه، وعندما ذكر لي فيما بعد أنّها أخته تفاجأت، سيّما وأننا نمتّ إلى بعضنا بصلة قربي، رغم أنّها بعيدة، تجمعننا القبيلة الكبرى، وأشياء أخرى، إحساس ما بالظلم، شعور بالحيف إزاء حياة لا تعرف كيف تعطي ولا كيف تمنح... كنت أزوره في بعض الأحيان، أدخل من بوّابة السور الخارجي، شبه المواربة، وأقطع المسافة إلى نافذة غرفته التي كانت تفتح على الباحة وراء البيت، وما أن أطرّق المصراع طرقات خفيفة وأنده عليه حتّى يهبّ إليّ... ندخل سوّيّة إلى عالمه الصّغير، ونغلق وراءنا الباب حتّى لا تأتينا الأصوات العديدة من الخارج وهي تخوض في شؤون الحياة اليوميّة الرتيبة، ونجلس على حافة سريره... مدرّس لغة عربيّة، تشرئب بأعناقها من بين بعض أرفف في خزانة خشبيّة بعض الكتب والصّحف والمجلّات، والدّواوين الشّعريّة والروايات...

- لكم أودّ- كان يقول إذا فاض كأسه من الهمّ واليأس- أن أتواري ولو لبعض الوقت من البيت؛ لقد صارت الحياة هنا خلاصة مأساة متكرّرة...

ويضيف بعد لأيّ، وقد أراد أن يغيّر مجرى الحديث تماما:

- أتعرف فيما أفكّر؟!

ولا أريد أن أحدس أو أتورّط في لعبة تقود إلى تخمينات لا تنتهي:
- لا.

يتأتى قليلا قبل أن يجيب، وينظر إلى السّقف وكأنّه يستلهم منه الإجابة، أو يستعديه على جروحه الكثيرة لعلّه يسعفه في لحظة تجلّ بحلم أحلامه:

- امرأة ما!

أنتفض في مكاني، وكأنّي لم أسمع، ثمّ أتجه إليه بكليتي. وأسأله مستغريا:

- ماذا قلت؟!

ترفّ على شفّتيه ابتسامة أسيانة. يربّت على كتفي بحنان، وبدل أن يجيبي ردّ على سؤالي بسؤال جديد:

- هل عرفت معنى الجوع؟... هل جرّبت أن يطلب جسدك، فلا يظفر بغير الخواء؟ هل جرّبت أن تنام. وتتقلّب على جنبك طوال الليل فلا النّوم يسعفك ولا الرّاحة توافيك؟!!!... إنّهُ الجوع. يا صديقي! إنّهُ الجوع المدمّر القاتل!!

أذكر الآن أنّي كنت أسمعهُ يتحدث عن بعض النّساء، ظننت في البداية أنّي لا أعرفهنّ، أو على الأقلّ لا أعرف إحداهنّ؛ واكتشفت بعد أن اتّصل بيننا الحديث أيّاما، أنّ خططا ومغامرات كانت تتمّ. ليس دائما بنجاح وبتوفيق. في إحدى الشّق الموحّرة بظاهر المدينة. وأنّه كان يذهب مع بعض الأصدقاء إلى هناك... «نرجس»، كان ذلك إسم الفتاة التي كانت تتردّد على الشّق بانتظام، بل إنّها تكاد تكون الوحيدة، ليست جميلة إلى الحدّ الذي يجعل الجميع يفتن بها، ولكنّها كانت تفي بالغرض على كلّ حال... كان وجودها، مجرد وجودها، ثمّ ولوجها إلى الدّاخل، وبعد ذلك قيامها بواجبها الرّوتينيّ الذي كانت تعرف كيف تقوم به، وبدرية من اعتادت «مهنّتها» حتّى أتقنتها، في أيّام بعينها، حينما يشتدّ اللّغط والرّحام، وتنفق «سوق الرّجال»، كلّ ذلك كان من شأنه أن يسكت الجوع إلى حين، أن يجعل الجسد يستعيد عافيته واتّزانه... لم أرها، ولو مرّة واحدة، غير أنّي من خلال الحديث

عنها توصّلت إلى رسم صورة تقرّيبية لها، ربّما في الثامنة عشرة أو العشرين من عمرها، سوداء الشّعر طويلته، تلبس «بولوفرا» أحمر، وبنطلون «جيتز»، وتضع على شفّتها أحمر فاقع اللّون... والشّيء الوحيد الذي يحمل مسحة من الواقعيّة، شيء سيظلّ لصيقا بها في ذاكرتي إلى النّهاية، شفّتها، يقولون، لا أذكر من قال ذلك، على وجه التّحديد، إلّا أنّه كلام يقال، وبصوت عال: جعلت المرأة للعناق والتّقيل، ولأشياء أخرى...

كان يقول، ليس في غير قليل من الأسف:

- لذيذة لولا...

يطأطأ رأسه قليلا، ينقر بأصابعه على النّضد، يترك للصّمت أن يمتدّ بيننا لحظات... أقول لنفسي لعلّه كان ينتظر أن أقاطعه، ولنفس ذلك السّبب كنت ألزم الصّمت، أحرن كتييس، وبعد أن يهزّ رأسه مرّة ثانية وينظر إليّ مليّا، يواصل:

- كنت أنتظر منك أن تسأل، أن تبدي رأيك؛ ألا تهتمّ أنت

بالموضوع، ألا يهّمك الأمر...

وإذ يرى على شفّتي ابتسامة ساخرة، يكتفي بها كجواب على

سؤاله، ويمسك بالخيط من جديد:

- شفّتها أسوأ ما فيها، أشعر بالقرف كلّما نظرت إليّهما، وحتىّ

لا تذهب كلّ المتعة، كنت أتفاداهما، لكّتها الع (...) الخبيثة كانت

تعرف أنّي لا أحبّ شفّتها، أنّي أصاب بالغثيان كلّما نظرت إلى وجهها،

كانت تريد تعذيبني فتقول بغنج: قبّلي، كنت أقبلها مرغما، أريدها أن

تسكت، ريثما ينتهي كلّ شيء...

في مرّة أخرى، حدّثني عن «بسيمة»...

«بسيمة» جنس آخر من النّساء، ربّما عرفتها قبل الجميع، إلّا أنّ

علاقتنا ظلّت في حدود معيّنة لم تتجاوزها، كانت تعمل بالمعهد الذي

كنت أدرّس فيه، شغالة، ورغم أنّها تجاوزت تلك السنّ التي تحلّو فيها

النساء في عيون الرجال إلا أنه يظلّ فيها شيء من تلك الأشياء التي لا يعرف كيف يعبر عنها الإنسان، لم يغز الشيب شعرها بعد، بل إنّي أكاد أجزم أن ليس في شعرها شعرة بيضاء واحدة، في سلوكها شيء من ابتذال وجراة، وربّما ذلك ما جعلني أهتمّ بها، هل كنت قادرا على تحديد مشاعري تجاهها منذ الوهلة الأولى؟! هل وجدتْها ربّما شهيةً شأن كثرات عرفتهنّ، أم أنّها مجرد نزوة عابرة، وتمرّكغيمة صيف؟!... تخاطب الجميع دون تكلف، وربّما كانت إذا اقتربت من بعض المدرّسين تتعمّد أن تجعل بنطالها القطنيّ الذي كانت تلبسه أثناء العمل ينشمر عن ساقها الرّيانتين اللّتين تشبهان في امتلائهما كوز الدّرة الذي تلتفّ اللّحاء حوله فيزيد ذلك من اشتهاه والرّغبة فيه... تضحك، تتقصّد أن تضحك بصوت عال، تصهل كالفرس الجموح، تريد للعدوى أن تنتقل إلى السّامع، تريد لضحكها أن تنغل في الدّاخل، وتبعث الوهن وتقيد تماما، حتّى لا مفرّ من قيودها ولا إفلات من سحرها الطّاغي؛ هل كانت جميلة؟ أم أنّي أتوهّم أشياء لا وجود لها في الواقع؟ هل كنت أتصوّر ذلك لأنّي كنت الوحيد الذي ظلّ مبتعدا عنها، هل كنت أخشى غوايتها؟ أخشى الفضيحة فيما إذا سعت إلى توريطي؟... أعترف أنّ الأشياء كانت متداخلة في ذهني إلى حدّ الفوضى، وأنّه في الوقت الذي كانت «بسيمة» تسعى إلى الاقتراب منّي، كنت أجهد بكلّ ما لديّ من قوّة أن أبتعد عنها... لكنّها ظلّت مع ذلك تلاحقني، قهقهاتها تتناهى إليّ من نوافذ الفصل، تخترق أذني اختراقا فأشعر للحظات أنّها طوّقتني وأنّي بتّ أسيرا لها، رغم بعدها...

حدست أنّ لها علاقات، بالطّبع علاقات مشبوهة، حتّى من قبل أن تنتشر الأخبار عنها، وعن سيرتها، في المعهد وخارجه، من أشخاص لا يهدأ لهم بال إلا إذا نجحوا في «معرفة العلّة وابنة العلّة»، والعجيب، وخلافا لما كنت أتوقّعه من نفسي، ما كان ذلك ليمنعني من الاسترسال في رسم الصّور، ووضع خطط ما، ليست بالضرّورة خططا من ذلك

النوع الذي كنّا نتحدّث عنه بلدّة في ذلك البيت الذي كان يشبه الميدان بمخبئه الأرضي ومرافقه المتعدّدة ورحبته الفسيحة، والذي أجره صاحبه كمقهى لأحد أولئك الذين أثروا حديثا، وإنّما مجرد خاطر، يداعب دواخلي من حين لآخر، في لحظات الخلو، وأوقات المتعة المتناهية، حين يغدو الكون، كلّ الكون، مجرد نقاط سوداء ما تفتأ أن تغيم في الذاكرة ويحلّ محلّها وهم من الأوهام القديمة في الامتلاك وفكّ جميع المغاليق التي تؤدّي إلى مكان مجهول، رغم غموضه يظلّ أسرا فتّانا...

صورتان تتواردان بالتناوب، لا تمحو الواحدة الأخرى، ولا تطغى الواحدة حتّى تحجب الأخرى تماما، ولا تتمكّن الواحدة من النفس فتجعل الأخرى مثيرة للبؤس والقرص والاستياء؛ «بسيمة» بزيمها الذي بقدر ما كان يثير الاستهجان عند الآخرين إلّا أنّها كانت تصرّ على أن تلبسه كما لو كان قطعة فنيّة من تلك الملابس التي لا تحظى بمثلها إلّا أولئك الفاتنات الصّغيرات اللّواتي كثيرا ما كنّ يظهرن على أكثر من قناة تلفزيّة؛ كان ذلك زيّ العمل، وكنت خلافا لكلّ الآخرين أحبّ أن أراقبها من بعيد وهي تلبسه، أتأمّلها مليّا، وهي تتشّى، عن قصد أو غير قصد، تميل في حركات فيها الكثير من دلال المحترفات اللّواتي قضين هزيعا من أعمارهن في بيوت مغلقة، من دونها أبواب وأبواب، توضع بروائح ما قبل الحبّ وبعده، تنادي على زميلة لها فجأة، وتتبع ذلك بضحكة مرببة ممطوطة، ترفع ذؤابة قميصها الطويل، تشدّه إلها فيرسم حدود جسدها الذي ما يزال محافظا على جزء كبير من فتنته ورشاقتها: التّهدان الكبيران، البطن الملساء التي تمتدّ على الجانبين، ثمّ تستدقّ عند الخصر، ويمتدّ الجسد من جديد في التّفاف يشكّل ردفين قويّين ثقلين، يتصلان في انسجام عجيب مع فخذيها الطّريّين... الصّورة الأخرى، مغايرة تماما، صاحبها لا تمتّ إلى تلك الأخرى اللامبالية، ولعلّي إذ أذكرها الآن أستعيد لذادة برودة الشّتاء الحيّة.

وهي تنسرب عبر الملابس إلى كوى الجسم الخبيثة ثم تراوغ الخلايا الغافية لتستقر أخيرا في مستودع الألبان والأسرار... بمحض الصدفة التقينا، وإذ رأيتهما قررت أن أتعمد تجاهلها إلا أنها لم تترك لي مجالا للهروب... أمسكت بيدي فصافحتني، وحاولت أن أجذب كفي غير أنها أصرّت على الاحتفاظ بها في يدها، إلى تلك اللحظة كان كلّ شيء عاديا، لا حركات ولا إغراء... (عفوا! نسيت أن أقول إنّ «بسيمة» في حياتي كانت مثل القدر، ليس القدر بالمعنى السلبي، ولكن قدرا آخر، لا يبعث على الرهبة كما لا يبعث على الاطمئنان، يقيم مسافة ما، ترغب في التخلص من أسرها، كما ترغب أيضا أن تتوارب في ثناياها... كان لها ولدان، ولد وبنت، وقد درّستهما كليهما، وكانت هي دائمة السؤال عنهما، وذلك ما أقام علاقة من نوع خاصّ بيننا، كنت أظاھر بالتمنّع، وفي قراري أودّ لو يمتدّ الجسر إلى أقصى حدوده، شريطة أن أكون أنا من يملك «الأزرار» جميعها، و «الأوراق» أيضا... كانت «بسيمة» - ابنتها - تشبهها إلى حدّ ما، إلا أنّ فيها فتوة جامحة، لا تملك إذا امتدّ طرفك إليها إلا أن ترغب في احتجازها في دياميس ظلمتك إلى الأبد، ممثلة، إلا أنّ امتلاءها كان محبّبا، بل كان أروع ما فيها، لا ينقصها غير تلك الملابس الإمبراطورية التي تعود إلى القرون الوسطى حتّى تغدو أميرة من أميرات البلاطات الملكية!!)... شعرها الكستنائيّ مشدود إلى الخلف بمشبك، يؤطر وجهها القمحيّ المستدير، وهي ترتدي سترة جلديّة وبنطالا وحذاء عالي الكعب يرتفع إلى منتصف ساقها، وتفوح منها رائحة مخدّرة، عطر ينتشر في حياء، ويغزو الأنف وما يعتم أن ينساح إلى الأعماق في انسيابية غريبة مدمّرة... ابتسمت، كانت ابتسامتها تحمل بقايا من تلك الضحكة المتمرّدة، اقتربت أو هكذا أحسست، بدا لي أنّ عينيها رفّت فجأة فيما يشبه الغمزة، وقد شجّعني على استنتاج ذلك أنّي أحسست كأنّ يدها قد ضغطت على كفيّ، ربّما خطر لها شيء، ربّما كانت تريد أن تختبر صمودي، قالت:

- كيف حال بسمة في الدّراسة؟
تعمّدت أن يكون ردّي مقتضبا حتّى أختصر الحديث إلى أقصر
مدى ممكن:

- لا بأس!
هل شعرت برغبتي في التّخلص منها؟ هل أرادت هي أن تفوّت هذه
الفرصة، لتحاول من جديد مرّة أخرى؟
قالت:

- مع السّلامة.

فرددت:

- مع السّلامة.

ومضى كلّ منّا في طريقه.

... مع الوقت، وداخل الضّجيج المدوّي وبين ثنايا طبقات متكاثفة
من الظّلمة والإعتماد القاتمين، ولأنّ الخيال- إذا تمكّن الصّمت جارحا
كاويا- يجمع إلى أقصى حدود الجموح متخطّيا كلّ الجسور والحدود
والعقبات، ويتمرّد، يضرب في المتاهات الخرافيّة، تلك التي كانت
مسرحا للحكايات اللّذيذة والقصص الضّالّة التي تلتذّ بضياها بين
الدّروب والنّواصي المغلقة، اعتبرت أنّ «بسيمة»- المرأة النّصف،
الضّاغطة المرخية، الجاذبة الدّافعة، اللّذيذة إلى الحدّ الذي تودّ فيه
أن تهصرها بين ذراعيك حتّى تتحطّم عظامها، والمقرّفة إلى الدّرجة التي
تثير فيك الغثيان بعد أن تمتلكها عنوة وتشهدها بعد الحبّ تنسحب
من بين يديك، ثمّ توليك ظهرها وتروح في سبات عميق يقطعه بين
الفينة والأخرى شخيرها الذي يستثيرك بقدر ما ينفّرك-... اعتبرت أنّها
صارت من الممتلكات الشّخصيّة، سرّا من بين أسرار أخرى سأعرف
كيف أخفيها عن عيون الآخرين المتلصّصة، ولكن اكتشفت بعد مرور
الأيّام أنّي كنت مخطّئا كثيرا، وما كنت أعتقد أنّه ملكيّة خاصّة أفاجا
أنّه أصبح مشاعا مشتركا، مبدولا لكلّ من يرغب، ويكون قادرا على

الدَّفْع...

عندما غيّرت المعهد والتحقت بمعهد آخر، غدا صديقي «رامي» الذي شاءت ظروف الانتقالات الدورية أن تأخذه إلى معهدي القديم الواسطة التي من خلالها بقيت على علم بما يحدث هناك، وإذا كنت منذ البدء حريصا أن أستدرجه دون أن يعلم كي يتحدث عن «بسيمة» وأخريات كنت أعرفهنّ، وأعرف حكاياتهنّ، إلّا أنّي بعد ذلك صرت ميّالا أن يكون الحديث مباشرا ومفضوحا إلى حدّ ما، حينما لمست ميله، ورغبته في نشر شبّاكه، وفردّها في كافّة الاتجاهات.

قال مرّة، في سياق حديث طويل عن المدرّسين والمفتّشين ومناهج التدريس، ثمّ لا أعرف كيف انتقل إلى إيراد نكات فاضحة وسخريّات لاذعة عن بعض الأشخاص الذين كنّا نعرفهم ونستاء منهم، وفجأة، وكان بصره يلوب هنا وهناك دون أن يركّز في شيء محدّد، نظري عيني وقال:

- يظهر أنّ الثمرة أصبحت جاهزة للقطاف!

ولأنّني لم أدرك علاقة الثمرة بما كنّا فيه من حديث، ولأنّني تفاجأت كثيرا لهذا التحوّل الغريب، ولأنّني لمست شيئا من الهزل في نبرته لا يتفق مع الجدّيّة التي كان يتحدث بها منذ قليل، فقد سألته، وأنا أنظر في عينيه أيضا:

- عن أيّة ثمرة تتحدّث؟!

قذف الاسم في وجهي كالكرة، دون تمهيد:

- بسيمة!!

هل كان على علم بعلاقتي بها؟ هل أخبره أحد؟ أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد جیشان لم يستطع التعبير عنه بغير تلك الكلمة الأقرب إلى الصّرخة؟... أنا في المقابل لم أكن متأكّدا من الاسم، بالأحرى من صاحبه، هل تلك التي يقصدها «بسيمة» التي أعرفها أم «بسيمة» أخرى؟!... أردت أن أعرف، أن أخاطله لاستخراج ما في جعبته، فسألته:

- لم أسمعك جيّدا... ماذا قلت؟
ضحك ضحكة صغيرة، غير جلسته حتّى واجهني تماما، قال
معرّضا:

- لم تعد تسمع؟ هل أصبت أخيرا بالصّم؟!
لم يكن ينتظر جوابا، واصل:
- رأيّتها هناك...

قاطعته وأنا لا أخفي حماسي ولهفتي لمعرفة كلّ شيء:
- هناك أين؟

صمت قليلا قبل أن يجيب، ويبدو أنّه لحظ اهتمامي فقرّر أن
يتندّر لبعض الوقت:

- جيّد، بدأت تهتمّ الآن!... وهذا يعجبني...

رشف حسوة من كأس الشاي بجانبه، وتطلّع حواليه كأنه يخشى
للحديث أن يتجاوز حلقتنا، وقال بنبرة فيها الكثير من الشوق والتوق:
- قابلتها في المعهد، وقد صار لي الآن أكثر من شهر وأنا أحاول أن
أتوصّل معها إلى «اتّفاق»- وشدّد على كلمة «اتّفاق» بنبرة تأمّريّة تحمل
الكثير من المعاني والنوايا الغير المعلنة...!

عند هذا الحدّ قرّرت أن أتأكّد، قرّرت أن أعرف فيما إذا كانت
«بسيمة» هي نفسها «بسيمتي». قلت:

- هل تقصد (تباطأت قليلا!!) ... الشّغالة؟

انتفض في مكانه كالملسوع. بدا عليه الاستغراب والدهشة. سأل
ولم يكن سؤاله يخلو من بعض الحدة:
- وكيف عرفت أنت أنّها شغالة؟

أردت أن أبعد التّهمة عن نفسي، وأن أجعل تفكيره يحيد عن أيّة
أفكار مسبقة، أو سوء نيّة، ربّما تكون قد خامرته عمّا يكون بيني وبينها،
فقلت مدّعيًا البراءة واللامبالاة:

- هل نسيت أنّي كنت أدرّس هناك، وأنّي أعرف كلّ واحد في المعهد.

بعد ذلك بأيام، وفي نفس المكان، بالمقهى، بعد نهاية الدّوام،
جلس على مقعده وكان يبدو على وجهه الهمّ والبؤس، قال بأسى لا
يخفى:

- يبدو أنّه كتب علينا...

ولا أدري لماذا قلت، وقد جرى الكلام على لساني دون تفكير:

- كتب عليك الجوع، يا صديقي العزيز!!

لم يصدّق أذنيه حين سمع تلك الجملة، ونظر إليّ وكأنّه ينظر إلى
ساحر من سحرة القرون الوسطى، وقال بمزيج من الدهشة والخوف
والنشوة:

- هل تدري أنّ ذلك ما أردت قوله فعلا!

راقت لي اللّعبة وأردت أن أواصلها إلى النّهاية عليّ أستطيع أن
أخرجه من الجوّ الحزين الذي يلفّه:

- ذلك حتّى تعرف أنّ كلامي لا ينزل الأرض أبدا...

وبدعابة، وحتّى أحيله على مرجعية هو يعرفها جيّدا كمدرّس لغة
عربية على اطلاع بفنّ الرّسائل، قلت:

- أنا شيطانك، وعليك أن تكون شاعرا من الآن، وأنّ تتجهّز
لرحلتك الطّويلة بين أتون «التّوابع والرّوابع»...

قاطعني قائلا:

- دعنا من المزاح...

وبعد قليل:

- لقد طار العصفور قبل أن يدخل إلى القفص!!

قلت وأنا أعلم أنّه سيتكلّم حتّى دون الحاجة إلى سؤالي:

- ماذا تقصد؟

قال:

- أنا الغبيّ... كان يجب أن أنتظرها: لقد قالت لي إنّها ستذهب إلى
«الحمام»، وإنّه بإمكانني أن أصطحبها إلى الشّقة...

سألته:

- ولماذا لم تفعل؟

نظر إليّ بحسرة وكأنّه يلومني لأني لم أعد قادرا أن أفهم عنه
من النظرة الأولى، من الكلمة الأولى أو من مجرد إشارة، وقال بصوت
متحسّر:

- وكيف أصطحبها وقد كانت معي نرجس بالشقة؟

قلت من جديد:

- هذا حسن، فلماذا الأسف والحزن؟!

لم يتطلّع إليّ هذه المرة، نظر إلى الشارع الإسفلتي شبه المقفر
وقال فجاءني صوته وكأنّه يأتيني من قاع بئر بلا قرار:
- خدعتني الساقطة، فلم يكن بيننا شيء، قالت إنّ عندها
العادة...

وتوقّف لبعض الوقت وكأنّه يحسم موقفا ما، ثمّ واصل:

- أنا الغيبي... كان لا بدّ أن أجرب شيئا جديدا، وأن أنهش لحما
جديدا، وأختبر رائحة لا شك أنّها تدوّخ سيّما وهي تخرج لتوها من
«الحمام»...!!!

... انتظرنا البوّاب حتّى أفاق من نومه وسألناه إن كانت توجد في
العمارة شقق شاغرة، ورغم أنّه ما يزال واقعا تحت تأثير النعاس إلّا
أنّه كان لطيفا معنا، وبعد أن اختفى في الدّاخل لبعض الوقت رأيناه
يأتي من جديد، وما أن اقترب حتّى قال لنا بأسف ظاهر إنّ كلّ الشقق
مشغولة؛ شعرنا بخيبة أمل للوهلة الأولى، ولعلّه لاحظ هو ذلك، ولا
شكّ أنّه عرف أيضا أنّنا غرباء، أراد أن يختصر علينا الطّريق فقال
إنّ في الشارع الذي يلي الشارع الذي نحن فيه توجد قهوة صاحبها
يعرف أحد السّماسرة الذين يمكنهم أن يخدمونا... كنّا نريد أن
نختصر الوقت، وكان همّنا الحصول على شقة مهما كانت التكاليف:

في البداية اعتقدت أنه بإمكانني أن أساوم، وأن نكون نحن الذين نحدد شروطنا، ولكن بمضي الساعات أسقطت كل ذلك من حسابي ولعنت من كل قلبي جميع النصائح التي كان «رامي» يحرص أن يسجلها في دفتر صغير، بعد جلسات عديدة قضيناها مع بعض أصدقائنا الذين كانوا زاروا القاهرة مؤخراً... حملنا متاعنا القليل وسرنا مسترشدين بتوجيهات البواب، الذي ظل يراقبنا من بعيد حتى اختفينا في منعطف الشارع... كانت القهوة على مرمى حجر، واضحة، معلما قائما وسط رفيف من البنائيات التي تحيطه من الجانبين، بدت لي القهوة الوحيدة في الناحية، يتأكلها القدم، وهي صغيرة بالكاد تسع الأشياء داخلها، كان صاحبها رجلا في متوسط عمره، أصلع، أقرب إلى الهزال في قميصه ذي الأكمام القصيرة وبنطاله الذي انشمر عن كاحليه، وصرمايته... لم ينتبه إلينا، فقد كان منهمكا في نشر الرمل في أرض المقهى ورشه بالماء، ولا أدري لماذا ظننت أننا لو وقفنا إلى جانبه طوال الوقت لما أعارنا انتباهه، لذلك اقتربت منه بأدب وسلّمت عليه، ردّ التحيّة في شبه فتور، وهو ما يزال منصرفا إلى عمله، قلت له إننا نريد شقّة للإيجار... رفع رأسه قليلا إلينا وقد ارتسمت على شفّتيه ابتسامة فاترة، وفي صمت اتّجه صوب الركن القصي للقهوة حيث كانت تقوم أكوام من الكراسي المهلهلة، وجلب لنا كرسيين وضعهما على الجانب الآخر من الرّقّاق، وقال بصوت اعتاد عليه مع أمثالنا من الرّبائن:

- ماذا تشربان؟

نظرت إلى «رامي» متسائلا، قال:

- شاي.

التفت إلى الرجل صاحب المقهى، وقلت محاولا أن أقلّد صوته

المحايد:

- وأنا أريد قهوة من فضلك.

تركنا الرجل ومضى في حال سبيله، تاركا للصّمت الصّباحي أن

يلقنا من جديد... امتد بصري إليه للحظات وهو يلج إلى الدّاخل، إلى المكان الذي قلت لنفسى إنّ مثله لا يمكن أن يعول عليه صاحبه لوحده كمورد رزق، ولا شكّ أنّ له موارد أخرى، ربّما لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار في مترين، وهو قياسا إلى المقاهي- حتّى تلك الّتي في المدينة الصّغيرة الّتي ولدت فيها وترعرعت بذلك البلد الصّغير الجاثم على ضفاف المتوسّط، حتّى لا أذكر باقي المدن الكبيرة، تلك الّتي لا يحلوفها العيش فقط، وإنّما يحسّ الواحد إذا ضاع في أتون إحداها أنّه يولد مرّة ثانية- لا يعتبر شيئا ذا بال بأشياءه القليلة وقائمه الّتي انتثر فوقها، وفي غير نظام، عدد من الأباريق الّتي ذهب طلاؤها والأكواب المختلفة الأحجام.. لم يجذبني المنظر لأكثر من دقائق، وفي وقت ما ثقلت رأسي وأحسست بتعب الرّحلة يحطّ عليّ دفعة واحدة، وأنّ رغبتى الوحيدة في تلك اللّحظة أن أنام، وفي ذلك المكان بالذّات... ثقل جفناي وغفوت، ولست أعلم مقدار الوقت الّذي قضيته في النّوم، إذ عندما أفقت أخيرا بعد أن شعرت بيد «رامي» تهزّي برفق من كتفي ذهب في ظني أنّ السّاعة ربّما جاوزت الثّامنة... عاد صاحب المقهى إلينا وهو يحمل صينيّة عليها كوب من الشّاي وفنجان من القهوة يتبعه صبيّ مازال لم يتخطّ الطفولة إلى الفتوة بعد ينوء تحت نضد كاد لتقلبه يجرّه جرّا، وبعد أن قرّبه منّا وضع الرّجل الصّينيّة عليه وهو يقول:

- بعد قليل سيأتي «أبو خليل» وسنتفق على كلّ شيء.

فهمت أنّ «أبا خليل» هو السّمسار الّذي حدّثنا عنه البوّاب، وقد خطرت لي للتوّ حين رأيت ملامح صاحب المقهى والتّغيّر الّذي طرأ عليه، سيّما ضحكته الّتي غدت ودودا وطريقته الهادئة في وضع الصّينيّة على النّضد كأنّه ساحر على وشك أن يخرج الشّريط الحريريّ الّذي وضعه في قبعته أرنبا أو حمامة صغيرة ما تفتأ أن تطير قليلا ثمّ تحطّ على يده ذات القفّاز المخمليّ... خطرت لي أنّه ليس السّمسار وحده الّذي سيأخذ عمولة وإنّما هذا الرّجل أيضا الّذي ما شككت لحظة أنّه بعد أن

اطمأنّ إلى أداء عمله الصّبّاحيّ وجعل قهوته في أحسن صورة ممكنة لا بدّ أن يتفرّغ لنا تماما؛ جلس معنا وهو يراقب الصّبّي يخرج المناضد من داخل القهوة ويرتبها في الخارج، ثمّ وهو يسحب الكراسي ويركنها في نسق معيّن حول المناضد، وحين راق له الشّغل التفت إلينا بكليته، وقال وهو ينظر إليّ كأنّه حدس بغريزة التّاجر عنده أنّي أنا الذي يحمل «المال كلّ» وأنّي أنا الذي سأحاسب في النّهاية:

- يا مائة مرحب...

ورفع يده اليمنى وطبطب بها على صدره بطريقة توحى بسعادة وودّ زائدين، وبعد أن أجال بصره مرّة ثانية في المناضد وترتيب الكراسي وشاهد أوائل الزّبائن يتوافدون على القهوة، ثمّ وهم يطلقون عليه تحيّة الصّبّاح فيردّ عليها، ثمّ وهو ينده على صبيّه ويأمره أن يجلب للباهوات مشروبهم- كان يذكر اسم الشّخص وما يريده كأنّه لكثرة ما اعتاد الوجوه التي كانت تؤمّ المكان أصبح على إلمام بطباع كلّ زبائنه وما يريدونه-، قال مطمئنا وموجسا خيفة أن تضيع منه الفرصة جزافا:

- لا تقلقوا، ما يلبث «أبو خليل» أن يأتي، لقد تعود أن يكون هنا في تمام التّاسعة...

وكي يشدّ اهتمامنا ويجعل القلق آخر ما نفكر فيه انخرط في سيل من الأحاديث إذا حاولت أن تربط بينها صارت حكاية تروي حياته منذ أن كان شابّا بالصّعيد إلى أن قدم القاهرة كما قدمها مئات آخرون، وتزوّج و«خلف عيالا»، وفتح هذه القهوة التي قال عنها إنّها «ما جابت همّها»... كنّا نسمع ولا نسمع، نتظاهر بالسّماع، ومن حين لآخر ننظر إلى بعضنا، أنا و«رامي»، وكانت نظراتنا المتأمرة تقول سنمنحه بعض الوقت فإذا لم يأت السّمسار سنبحث عن شخص آخر يمكن أن ينقذنا من الورطة التي نحن فيها، ولعلّ الرّجل لاحظ تلك النّظرات، ولمس بعينه الذّبّيّتين تلك المؤامرة الصّغيرة التي كنّا بصدددها، فقال وهو يشير إلى رأس الشّارع:

- الحمد لله، جاء «أبو خليل»...

وقام لاستقباله.

«أبو خليل»، السَّمسار المحترف، لا أعرف كيف ظهر ولا متى ظهر، ولا من أي مكان نبع، هكذا فجأة، كأنه جيّ مصباح علاء الدين؛ لم أرتح إلى المصادفة التي ربّما جعلته يهلّ علينا بطلعته في تلك اللحظة بالذات، وقلت لنفسي إنّ الأمر كلّ لا يخلو من بعض الترتيب المسبق، وإنّ صاحب المقهى ربّما جعلنا ننتظر كلّ ذلك الوقت حتّى يعطي لنفسه فرصة المشاورة مع هذا السَّمسار، وأن يحدّد في النهاية كم سيأخذ منه، في نهاية المطاف سيأخذ منّا نحن!!! لم أتوقّف كثيرا عند تلك الخواطر والتفاصيل وقررت أن أركّز كلّ همّي في المشهد أمامي والرجل الذي كان غريبا إلى حدّ ما، بشاربه الرصاصيّ المعقوف، تنتهي ذوائبه إلى أعلى في زهو وتيه، وجلابيّته الطويلة التي تلفّ جسده العظيم الممتلئ وقامته التي بدا لي أنّي لم أر أطول منها في حياتي، كأنّها الطّود، ذكرتني حين اصطدمت بها ما كنت أقرأه في بعض القصص الخياليّ عن شخصيّات عصور دابرة!!!... كان يلبس كذلك طاقية بيضاء وشالا مزركشا جعله يسترسل من عنقه وحتّى وسطه كأنّما يريد بذلك أن يمنح نفسه أقصى ما يستطيع من الأهميّة والراحة في نفس الوقت، وقد مدّ يده مصافحا الرجل الذي أفسح له الطّريق وقاده إلى التّضدّ الذي كنت أنا و«رامي» متحلّقين حوله، وبعد أن اطمأنّ إلى جلوسه على الكرسيّ الذي جلبه الصّبّيّ حالما رآه قادما من بعيد، قال مداعبا، وهو يرغب في تأجيل «الصّفقة» لبعض الوقت:

- الباهوات من زمان في انتظارك، يا «أبا خليل».

نظر إلينا «أبو خليل» كلينا وقد ارتسمت على شفّتيه ابتسامة غامضة نوعا ما، عزوتها إلى اكتشافه للعبة التي أراد الرجل صاحب المقهى أن يلعبها معه، أو خيبة أمله فيما كان ربّما فكّر فيه من قبل من أن يكون هذان اللذان ينتظرانه، وأشار إليهما صاحبه، «معرفة

قديمة»؛ قال:

- تشرّفنا.

وبعد أن أعطى نفسه وقتا كافيا في تأملنا وتقدير ما نملكه من المال وأي الشّقق التي سيأخذنا إليها، قال وقد ارتاح تماما إلى هيئتنا وملاحنا التي كانت قطعاً توحى بالضّياح وعدم الرّغبة في الدّخول في أي نقاش من شأنه أن يقود إلى «الأخذ والرّد» في مساومة طويلة لا تنتهي، قال:

- خيرا إن شاء الله.

تولّى صاحب المقهى الحديث بإسمنا فقال إنّنا غريبان وإنّنا نرغب في تأجير شقّة لبضعة أيّام... كان «أبو خليل» يستمع طوال الوقت وقد بدت على وجهه علائم الاهتمام، وما أن أنهى إليه الرّجل رغبتنا حتّى قال باختصار شديد ووثوق:

- هناك شقّة، في الميدان...

ونظر إلينا، تفحصته جيّدا رغم أنّي كنت مثقلا بالنّوم، شيء ما في ملامحه، في وجهه، ربّما رقّة عينه اليمنى، أو انفراج شفتيه عن سنّيه الأماميين الكبيرين اللّذين كانت تعلوهما صفرة خفيفة، جعلني متأكّدا أنّه يرغب في محاصرتنا، وما ذكره للشّقّة، دونا عن شقق أخرى ربّما كان مخوّلا في تأجيرها، إلّا حيلة منه سيجعل بها الحديث يتّخذ مجرى واحدا، من جانبه، يستطيع من خلاله أن يفرض شروطه...

قلت متسائلا:

- في أيّ مكان بالميدان؟

ضحك ضحكة قصيرة فيها قدر من السّخرية، وكأنّه يتساءل ما شأن هذا الغريب بالميدان الذي لا يعرف عنه شيئا؛ قال بعد أن تنحج ليجلوصوته ممّا قد يكون علق به من حشرجة ربّما أدّت إلى سوء فهم بيننا:

- قصر النّيل.

قلت إنّنا كنّا هناك، وإنّا قصدنا العمارة رقم ٤، ولكنّ جميع الشّقق مشغولة... نهض «أبو خليل» فنهضنا خلفه، وسار فأردنا أن نسير وراءه، غير أنّ صاحب المقهى اعترض سبيلنا، وقال بمواربة فهمت منها أنّه يريد أن نعطيه «شيئا»، قال:

- حلّت البركة!

أدخلت يدي إلى جيبي فأخرجت المحفظة وفتحتها وظللت متردّدا لبعض الوقت لأنّني لم أكن متأكّدا من المبلغ الذي يريد الرّجل أن يقبضه كثمن لأتعبه، ولكنّه، كشأنه في كلّ مرة عندما يرغب في الأخذ بزمام الأمور، قال حتّى يضع حداً لتردّدي:

- في مثل هذه الحالات أطلب عشرة جنيه، ولكن يعلم الله أنّي أحببتكم، وسأكتفي منكم بستّة فقط، إكراما لعيونكم!!

... وجدنا أنفسنا بعد دقائق معدودات ندخل مع «أبي خليل» من بوابة عمارة بنفس الشّارع الذي أقلّنا إليه التّاكسي منذ الصّباح الباكر، كان البهو الدّاخلي واسعاً فسيحاً، تطفى عليه مسحة من الكمود وتكتنفه ظلمة خفيفة لم تنجح الإنارة المنبعثة من بعض المصابيح الموزّعة هنا وهناك في جعله يتخذ طابعا آخر غير الذي كان عليه، امتدّ بصري لإيراديا، وجالت عيني في المكان في محاولة لاكتشافه، تفاجأت بالصّمت، والكثافة الطّاغية التي كانت تزداد وتزداد فتجعل القلب ينقبض وتبعث في النّفس شعورا غريبا من الصّعّب تحديده سيّما إذا انضاف إلى المشهد كلّ وعي بأنّ المكان يمكن أن يتحوّل في أيّة لحظة إلى متاهة عجيبة من المنعطفات والتّعرجات والأبواب الموصدة، وبعض الأصوات الخفيفة التي كانت تنطلق من أماكن عديدة، ودون سابق إنذار كأنّها تدعو إلى شيء ما أو تحذّر من شيء ما، قد يحدث بين الفينة والأخرى... إلى اليمين، وعلى بعد أمتار قليلة من البوابة، مقعد طويل جلس عليه رجل فان، بدا لي من منظره أنّه بلغ السبعين أو الثّمانين، إلّا أنّ نظراته كانت توحى بشيء مناقض تماما لسنّه، فعيناه لا تنيان

تتحركان كأنهما بندول ساعة تتأملان الرائح والقادم، كان يجلس إلى جانبه شخص آخر، وكانا يتحدثان بصوت عال نسبياً حينما دخلنا، وإلى اليسار بعض درجات قليلة تؤدي إلى باب المصعد، ومقابل البوابة، على مبعده كبيرة، كان السلم يتعرج في شكل لولبي، وما عدا ذلك كان الفراغ والسكون، وكان التوجس والرهبه والخوف والرعب: من شأن بعض الأشياء أن تدخل السلو إلى القلب، من شأنها أن تجعل الإنسان يشعر بشيء من الطمأنينة وهو يتقدم بخطى ثابتة نحو هدف مرسوم ومحدد، ومن شأن بعض الأشخاص، أشخاص معينين، بوجوههم الداعية وملامحهم السمحة، واستعدادهم أن يخفوا لاستقبالك دونما خطط مبيتة أو سوء نية أو إحساس بالمؤامرة، من شأن كل ذلك أن يمد الطريق لنوايا جديدة، أن يمحو بعض الأفكار المسبقة والخواطر والأوهام التي كانت منذ قليل مسيطرة، ويجعل «البساط أحمدياً»، فلا شكوك ولا حسابات، ولكن وأنا أرى ذلك الرجل الذي ما شككت لحظة أنه البواب، وجليسه الذي كان ينظر صوبنا كما لو كان ينظر إلى صيد طال انتظاره، وهو الآن قاب قوسين أو أدنى من السقوط، وكذلك الجبهة التي حطت على قلبي فجأة، ثم الصمت الذي لفّ صديقي «رامي» الذي حاولت بطرق شتى أن أنتزعه من العالم البعيد الذي سافر إليه، ولكن دون جدوى، فقد بدأت أحس بالوحدة، وانضاف إلى الوحدة شعور بالخوف من أن يتم كل شيء بخلاف ما كنا رسمناه قبل الرحلة... نزلت يدي دون إرادة مني إلى جيبي، وظلت للحظات ترتاح على المحفظة التي كانت تحوي تلك الورقات من فئة (...). فكرت أن المبلغ ربما لا يفي بالغرض، وأن المشاريع الصغيرة التي انتهينا إلى وضعها في لهوجة، وفي لحظات متسرعة من النشوة الغير المبررة، كانت مبالغاً فيها إلى حد كبير!!! فإذا قلنا مثلاً، وهذا ما خططنا له منذ البداية، إننا سنمكث في القاهرة لمدة ثمانية أيام، وإننا خلال تلك الفترة سيكون علينا أن نفكر بجنون، وأن نحلم إلى أبعد

مدى ممكن، رجوعاً إلى أحاديث سابقة عن شوارع بعينها، لا يحلوف فيها التجوال إلا ليلاً، وإذا تجوّلت فيها لا بدّ أن تستبدّ بك رغبة جامحة في أن تقصد بعض فنادقها الفاخرة، وإذا تناولت الغداء أو العشاء هناك، ولعبت برأسك روائح المكان والأشياء... والنساء، وشربت كأساً أو اثنتين، غدوت أميراً من أمراء العصر الأمويّ أو العبّاسيّ، وساورتك أريحية، ولأنّ الإمارة لها شروطها وتنازلاتها الخاصّة، مالت نفسك أن تصرف بسخاء؛ وكما هي الحال دائماً، إذا لاحظ صاحب الفندق منك ذلك دسّ عليك بعض النّساء الصّغيرات المحترفات فجئتك بعددهنّ وعديدهنّ، يمسنّ ويتننّن، فيتحلّقن حولك، وفي لحظة من اللحظات تضيع بين الأبعاد والمسافات، وترى نفسك في عالم غير العالم، تقوم ببيان في المتاه. وبعد الشّراب يخيل إليك أنّ تلك البنيان قد استحالت إلى قصور، وتحيط بتلك القصور أسوار عالية، شاهقة، وعلى امتداد الباحات الفسيحة تشمخ الحدائق بأشجارها وأزهارها، ويأتي الليل فتنتظم حلقة السّمر، ويقدم المغنّون وأصحاب المزاهر والدّقوف، وتدخل إلى الخلوة الجوّاري، فارهاث خفيفات، يفضن أنوثه وشباباً، فيصيبك الخدر، وأنت تنظرو ولا ترى، تتناهى إليك الألحان والنّغمات، فتسكر، وتسكر، وتجد أنّ العالم قد بدأ يتقلّص ويتقلّص، تجده قد تحوّل إلى أثيريّة فيها قدر غير محدود من جنون الخيال وعربدته الصّارخة، وفيه من إسقاطات الذّات أغوار وأغوار لا تصحو إلا إذا سقطت أقنعة وقام مقامها شسوع تتمازج فيه الأشياء دونما رغبة في الصّراع أو المشاكسة... وإذا قلنا إنّّه قد يطرّق الباب، في أيّة ساعة من النّهار، فتجد أمامك ربّما واحدة أو اثنتين من أولئك النّساء اللّواتي يأتين دون استئذان، ويطرّقن كلّ الشّقق، في أغلب الأحيان، دون استثناء، وفي أحيان أخرى، بناء على بعض المعلومات التي يتلقّونها من مجهولين عن القادمين الجدد، وبالتّواطؤ مع بوابي العمارات الذين كان لهم من «طيّهن نصيب»، حينئذ لا تملك إلا أن تفسح لهنّ

الطريق، وتقودهم إلى واحدة من الغرف الكثيرة في الشقة، ثم تغيب في وجودهن، وبين... أحضاهن!! ولا بدّ من تغيير ما، إذا كان معظم الوقت سنصرفه بين الأحياء العتيقة، والميادين، والمتاحف، والقلعة، والأهرام... وحديقة حيوان الجيزة، فقد حسبنا حساب التعب والإرهاق، وأشياء أخرى، ولذلك سنهتف إلى بعض أصحاب المطاعم فيأتونا بطعام سوف لن نضطرّ إلى دفع ثمنه وحسب، وإنما سندفع مع الثمن أنعاب الشّخص الذي جلبه، وهكذا!!! شعرت أنّي أكاد أبكي من الدّاخل، ورثيت لنفسي، إذ فكّرت مرّة أخرى في تلك الورقات من فئة (...): أو لم نبالغ كثيرا خلال هذه الرحلة؟! أو لم نجازف؟!... هذا الشعور - لا أدري - سيصبح هاجسا ملحا لا فكاك منه، وسيصحبني إلى وقت متأخر جدا، لقد صار سلوكا مرضيا، يستبدّ بي، ويحاصرني، فيسبّب لي كمّا هائلا من القرف والخيبة والألم، وأجديني غير قادر حتى على التّفكير أو التّركيز، أغضب لأتفه الأسباب، أسبّ وألعن، أشيل في الدّاخل، وبعد أيام أسقط مريضا، يصعد الألم إلى الرّأس ويتكتّف، يتجاوز الألم إلى العذاب، وأتناول الدّواء مؤملا أن أقطع الطّريق على الدّاء، كنت أخاف المرض سيّما آلام الرّأس، وربّما لأنّي كنت كذلك، كان المرض يتجسّد أمامي، طيفا معاندا متحدّيا، يترأى لي بمنظره الكريه، وكأنّه يقول لي بكلّ وقاحة وفجاجة: استعدّ الآن فقد حان موعد المعاناة!! وأستعدّ، ويأتي المرض وأتحمّل حتّى لا يعود فيّ قدرة على التّحمّل... لن أنسى أنّي لم أختّر، لم أختّر شيئا في حياتي، وحتّى هذه الرحلة كنت مدفوعا إلها دفعا؛ لقد استغلّ صديقي «رامي» افتتاحي بفكرة الرّحيل، وظلّ أيّاما يداعب أعماقا مجهولة بداخلي، ويعزف على أوتار رقيقة كنت أحسّها تتراقص بإغراء، في رأسي، وبين تلافيف دماغي، فقال لي ذات يوم:

- ما رأيك لو نسافر؟!

سألته بدوري:

- إلى أين؟

قال مقترحاً:

- مصر!

فسألته من جديد:

- وهل نسافر وحدنا؟

فقال:

- وماذا في ذلك؟... سيكون ممتعاً أن نسافر بمفردنا، أنا وأنت

فقط!!

وبعد قليل، وقد تداخلت في ذهنه أشياء كثيرة متناقضة جعلته مستثاراً غير قادر على كبح مشاعره:

- هل تريد أن أكون صريحاً معك؟... لقد سئمت كل شيء هنا،

وأريد شيئاً من التغيير...

ثم نظر إليّ وغمز بعينه وواصل قائلاً:

- يا عزيزي، ليس هناك ما هو أجمل من «الشيء المصري».

سافرت إلى مجاهل، وأمعنت في السفر، وقادتني أفكارى إلى مناطق محرمة محظورة، نسيت المكان بما فيه ومن فيه، وجهدت أن أتخلص من حالة الخوف والقلق بالزوغان، فرأيت، في ذلك الظرف الوجيز الذي استغرقه هروبي، ما لم تره الإنسانية كلها طيلة قرون وقرون، ولأني كنت وحيداً، فقد احتجبت كل العوائق التي نمت بداخلي وتراكمت، وتحطمت قيود وسمعت صوت ارتطام سلاسل ودرق ودروع وهي تتساقط في فوضى عارمة... ضعت، تلاشيت، وما زاد في ضياعي وتلاشيّ أيّ حين انتهت من حالة الشرود التي سيطرت عليّ، وأفقت تماماً، وجدت المكان خلافاً لما كان عليه منذ دخولنا إليه، والأشخاص الذين كانوا معنا، وترسخت ملامحهم في ذاكرتي وانطبعت وجوههم في مخيلتي، زاد عددهم، وحين أنعمت النظر فيهم، تفاجأت لرؤية امرأة كانت تجلس إلى جانب البوّاب، وقد كانت تتحدّث وهي تبتسم

ابتسامات موحية، وتضحك ضحكات صغيرة بين الحين والآخر؛ كانت توزّع نظراتها بين السّمسار «أبي خليل» وبيننا، أنا و «رامي»، وكانت مستثارة إلى حدّ كبير وهي تتكلّم... بدا لي الحديث متشعباً وطويلاً، لم أفهم منه شيئاً، ولعلّي لم أفهم لأنّي لم أكن أتابع الحديث من البداية... كان البهو الداخلي يسبح في برك كبيرة من النور كأنّه لم يعرف الظلمة من قبل، ولا ذلك الكمود وتلك القتامة التي كانت تتسرّب من كلّ الزوايا الظاهرة والخفيّة؛ والعزلة، الوحدة التي ذهب في اعتقادي أنّها الطّابع الذي يسم هذا المتاه ليس في الحقيقة إلّا تمويهها ما يعتم أن يتحوّل إلى مشهد بانوراميّ للرّائحين والغادين، أناس لا تعرف ماذا يفعلون أو لماذا جاؤوا، سيّما إذا تأملتهم وحاولت أن تحزر طبيعة الأشياء التي يفعلونها أو جاؤوا من أجلها، ففشلت، وبدل أن تنتهي إلى نتيجة معقولة ازددت اضطراباً وتشوّشاً؛ رجال ونساء، أطفال صغار... رجال بجلابيهم، بعضهم يعتمر طاقية، ونساء ملفوفات في ملاءتهنّ اللّف، وأخريات يبدون- للوهلة الأولى بألوان ملابسهنّ السّاطعة التي لا تملك حيالها إلّا أن تتأمّل وتحلم، وزينتهنّ البادية في وجوههنّ وقد غدت مسرحاً لأنواع متنوّعة من البودرة و«الروّج» ومستحضرات أخرى- صورة مغايرة لجمال من نوع آخر، بحثّ ويستثير... كنت أنظر في جميع الاتجاهات إلّا أن أركّز في ذلك المشهد الذي لا بدّ أنّه كان يخوض في «مفاوضات» لا بدّ أنّها كانت صعبة ومتشعّبة، وكنت أبحث عن شيء ما، عن تعزية، بعد أن فرّ النّوم من عينيّ، وتركني النّعاس لرحلة قد تطول في هذا الخضمّ، الذي لا أعرف متى ابتدأ، ولا في أيّ وقت ينتهي...

شاهدت المرأة تهض من مكانها، وتبعها «أبو خليل»، ونهض البوّاب أيضاً فتقدّمهما إلى الدّرجات التي تقود إلى المصعد، ومضينا نحن خلف الجميع...

خيّل إليّ، أثناء الحديث، أنّ «أبا خليل» حين كان يخاطب تلك

المرأة كان يناديها قائلاً «يا ستّ روحية»... امرأة محيرة، ليس من السهل اكتشافها من النظرة الأولى، ولا من السهل اختراقها أيضاً، قدّرت حين اصطدمت بوجودها إلى جانب البوّاب، وهي التي تدير الحديث في أغلب الأحيان، أنّها قد تكون هي صاحبة العمارة، كان ذلك مجرد تخمين، فهي ليست من النوع الذي يمكن أن تصنّفه حالما تراه، فتقول مثلاً «إنّها شغالة»، أو هي من أولئك النساء المحترفات اللواتي يعرفن كيف ومتى «يقدّمن خدماتهنّ»، أو هي زوجة البوّاب أو قريبتها، أو امرأة تريد أن تؤجّر بيتنا...

مستديرة الوجه، كبيرة العينين، ضاحكتها، بشرتها تغلب عليها سمرة خفيفة رائقة، رغم تقدّمها في السنّ، قلت لنفسني إنّها قد تكون تجاوزت الأربعين ببضع سنوات، ورغم ذلك ما تزال على شيء كبير من جمال؛ كان شعرها ملفوفاً في شال أزرق يوطّ وجهها كلّهُ، وينحدر على منكبيها الفسيحين إلى ما تحت صدرها، وكانت تلبس فستاناً أزرق أيضاً، إلّا أنّه شديد الزرقة...

فتح البوّاب باب المصعد، وأفسح الطريق فصعدنا كلّنا، ثمّ دخل هو بعدنا وأغلق الباب من جديد وضغط على زرّ في الدّاخل، رأيت الرّقم ٣ بوضوح، ولما تحرك المصعد، بدأت أرسّم في ذهني صورة للشقّة التي سنؤجّرها لمُدّة ثمانية أيّام... تخيلتها فسيحة، كبيرة، مدخل أو مممرّ، وربما صالة، وغرفة أو اثنتان، وحمام ومطبخ، و... جهاز تلفزيون، قلت لنفسني: لا بدّ أن يكون هناك تلفزيون، التّلفزيون ضروريّ، ضروريّ جداً!!!...

أدخلت «السّتّ روحية» المفتاح في الأكرة وفتحت الشقّة، ثمّ أشارت إلينا بالدخول فدخلنا، أنا و«رامي»، ثمّ البوّاب و«أبو خليل»... لم تكن الشقّة كما تصوّرتها تماماً، ولكن فيها شيئاً من تلك الصّورة المتخيلة... باب كبير تتوسّطه عين سحرية، يفتح على مدخل متوسّط الحجم قامت في وسطه منضدة مخروطيّة الشّكل حولها عدد من

المقاعد الخشبيّة التي كسيت قواعدها ومساندها بالقطيفة، وعلى جانبيها، عن اليمين وعن الشّمال، دولابان قد وضع على أحدهما جهاز تلفون... اجتزنا المدخل، وانعطفنا إلى اليمين في ممرّ طويل نسبياً؛ وفتحت «السّتّ روحيّة» باباً إلى اليسار، وقالت بنبرة أرادت أن تحملها قدراً كبيراً من الإغراء:

- تفضّلوا.

الصّالة... فرشت أرضيّتها بالسّجاد، وقامت حيطانها في شموخ، وارتكنت إلى جدرانها العالية القديمة أرائك كان يبدو عليها شيء من العتاقة والبلى؛ في أقصى الزاوية اليمنى، كان هناك نضد خشبيّ، مرتفع القوائم، عليه جهاز تلفزيون، وإلى جانبه كانت هناك ستائر من الموسلين الأبيض قد انسدت في تكاسل، وهي تهمسّ من حين لآخر جرّاء نسيمات رفاق كانت تهبّ في الخارج...

جلست «السّتّ روحيّة» ودعّتنا إلى الجلوس فجلسنا... ألقت علينا نظرة فاحصة، وبعد قليل قالت:

- شوفوا، يا باهوت...

وتوقّفت للحظات رأيّتها خلالها تتبادل نظرات متواطئة مع السّمسار الذي نظر إليها بدوره، وملّس على شاربيه المعقوفين ثمّ ضحك ضحكة فيها الكثير من الإيحاء.

ربّما لم تعجب المرأة بتلك البداية التي أرادتها لحديثها، لأنّي سمعتها تقول بعد قليل:

- صلّوا على النّبيّ، يا جماعة.

فردّدنا وراءها، جميعنا، وفي نفس الوقت بطريقة ميكانيكيّة، وقد بدأت أملّ كلّ تلك اللّعبة، وكان أقصى ما أتمنّاه أن ينتهي كلّ شيء بسرعة، وأن أتوجّه إلى أقرب غرفة وأنام إلى العصر...

.اللهم صلّ على النّبيّ.

تابعت «السّتّ روحيّة»:

- الشَّقَّةُ غرفتین وصالة وحمّام ومطبخ...

ثم وكأَنَّها نسيت شيئا فاستدركته:

- لكن لم تقولوا لي كم يوم ستظلّون بالشَّقَّة.

وتطلّعت إلينا. قلت بشيء من الفتور واللامبالاة:

- ثمانية أيّام...

فقاطعتني وقد بغتت. لعلّها كانت تؤمّل أن تطول إقامتنا، ولكن

حتّى تمسك بطرف الخيط من جديد، ولا يبدو منها ما قد يشير إلى

استيائها أو امتعاضها، قالت متودّدة:

- على خيرة الله إذن...

وصمتت قليلا، ولتضع خاتمة مناسبة لكلّ تلك المقدّمة الّتي

ابتدأت في الهووانتهت هنا، في الشَّقَّة، قالت ببطء، وكأَنَّها تريد لنا أن

نتشرب كلّ حرف من كلماتها:

- ثمانية أيّام... كلّ يوم بثمانين جنيه...

كان السّمسار كأنّه ينتظر تلك اللّحظة بالذّات ليتدخّل، فقال:

- يعني، اللّهم صلّ على النّبيّ، ثمانية أيّام بستّمائة وأربعين

جنيه...!!

في الحال أجريت عمليّة حسابيّة بدت لي معقّدة وشائكة، ولمّا

استقرّ المبلغ في التّهایة في ذهني، تطلّعت إلى «رامي» بجاني، ثمّ نظرت

إلى «السّت روحیة» لا إراديا قائلا:

- هذا كثير جدّا!!!

فقالت كي تقطع عليّ الطّريق أوّلا، ثمّ كي تصرفني عن أيّة فكرة

ربّما توحى إليّ بخطوة رعناء ليست في الحسابان ثانيا:

- المبلغ ليس كثير ولا حاجة، والعمارات الأخرى أسعارها نار،

خاصّة في الميدان... واسأل «أبو خليل» إذا أحببت.

ورفعت رأسها ما أن أنهت كلامها إلى السّمسار الّذي كان مستعدّا

لتلقّي نظراتها الّتي لا شكّ أنّها أرادت أن تكسب بها تأييدا وتعاطفا،

وفوق ذلك كلّه تريد أن تنتزع منه دعما أكيدا، لأنّه إذا ضاع «الصّيد» ستضيع عليه هو العمولة، أمّا إذا كان متعاوننا فإنّه بقدر تعاونه ستكون مكافأته مجزية... لم يكذب «أبو خليل» خيرا، قال وهو يقترب وكأنّه يروم بذلك أن يؤثّر علينا بكلامه وهيكله العظيم أيضا:

- السّتّ معها حقّ، يا جماعة...

التفت إلى «رامي» استشيريه، إلّا أنّي وجدته غير ميّال إلى الحديث أو النّقاش، كان هو الآخر متعبا ومجهّدا، وكانت ملامحه تشي برغبة قاهرة في النّوم... أخرجت المحفظة من جيبي، دون أن أنتبه إلى السّمسار والبوّاب وقد جحظت عيناهما أمام منظر النّقود، وعددت المبلغ المطلوب، بالتمام والكمال- ستمائة وأربعين جنهما مصريّا، ثمّ قلت مخاطبا «السّتّ روحية» التي مدّت يدها لأخذ المبلغ:

- اتّفقنا إذن...

كنت أحسب أنّ الأمر انتهى عند ذلك الحدّ، إلّا أنّ السّمسار اقترب منّي وهو يفرك يديه... رسم على شفّتيه ابتسامة فأحسست أنّي قد انهرت تماما، وأنّ بقيّة الصّمود والتّحدّي التي كنت محتفظا بها إلى ذلك الحين قد غدت قبض الرّيح؛ ولا شكّ أنّه قد لاحظ ذلك على وجهي وملامحي، ولم يفته ارتخاء شفّتي على ضحكة بلهاء غبيّة، فأراد أن «يضرب الحديد وهو ساخن»... قال:

- أرجو أنّك لم تنس عمولتي!
سألته مدّعيا التّجاهل وعدم المعرفة:
- أية عمولة؟

انقلبت ابتسامته إلى تكشيرة فاستنتجت أنّه قرّر أن يخوض الحرب إلى النّهاية ولن يتنازل عن شيء يعتبره حقّه... سألتني بدوره بنبرة تشي بشيء من الخشونة:

- ألم تؤجّر الشّقة؟!

قلت بفتور وأنا أتفادى النّظر في عينيه:

- بلى.

قال:

- ما دمت قد أجرت الشّقة، وما دمت أنا الذي توسّطت في ذلك، فلا بدّ أن تعطيني عمولتي!!

قرّرت أن أتشبّث بأخر فرصة في الخلاص، نظرت إلى «السّتّ روحية» التي كانت تعدّ المبلغ بصوت عال، أدركت أنّها ليست مستعدة لإنقاذه أو مساعدتي، قلت لـ «أبي خليل» محاولاً توريط «السّتّ روحية»:

- عمولتك تأخذها من السّتّ روحية!!

فوجئت «السّتّ روحية»، عرفت أنّها أخذت على حين غرة، فتدخلت لتضع حدّاً للمناقشة... قالت:

- في مثل هذه الحالات، يأخذ السّمسار عمولته من المؤجّر والمستأجر...

قاطعتها مستسلماً:

- حسناً...

ورفعت رأسي إلى «أبي خليل» قائلاً:

- كم عمولتك؟

قال بحدّة:

- خمسون جنهما!

انتفضت في مكاني كالملسوع، وقلت بحدّة أيضاً:

- ولكن هذا كثير جدّاً.

اقترب منّي أكثر من ذي قبل، ربّما خامرته خواطر عديدة؛ ترى ماذا يقول عنيّ الآن؟ هل فكّروا هو يقترب أن يسحقني؟ هل ندم أنّه دلّني على الشّقة؟ هل كان حانقاً؟

قال:

- خمسون جنهما، ولن أقبل أقلّ من ذلك!

قلت لنفسي: وما نفع الاحتجاج الآن؟!... هل أسترّد النّقود من «السّتّ روحية» ونبدأ رحلة البحث من جديد؟!... هل أغير رأيي، فقط نكايه في هؤلاء الذين يريدون أن «يمتصّوا دماءنا»...؟! لكن، هل مازال لدينا من القوّة ما يكفي؟ هل نستطيع التّغلب على تعب أيّام وأيّام من السّفَر؟!

قرّ رأيي على التّسليم، وفتحت المحفظة مرّة ثانية ونفحت السّمسار عمولته، لكن ما كدت أفعل ذلك حتّى تقدّم البوّاب أيضا وهو يقول بمسكنة:

- وماذا عني أنا أيضا؟

أحسست أنّ الغضب بدأ يصعد إلى رأسي، وأنّي قد ارتكب حماقة، قلت بصوت أردته أن يكون هادئا جدّا:

- وماذا فعلت أنت؟

كانت نبرتي فيها الكثير من السّخرية، وفيها مرارة، وغضب وقهر، ولكن يبدو أنّ البوّاب لم ينتبه إلى ذلك كلّهُ، أو أنّه انتبه غير أنّه أراد أن يتظاهر بالتّجاهل وعدم المبالاة، قال بكلّ بساطة، لا يحسنها إلّا البوّابون أمثاله، الذين لا شكّ أنّه مرّ عليهم الكثيرون مثلي ومثل صديقي «رامي»:

- أنا البوّاب!!

لم أتمالك نفسي من الضّحك...

- وماذا في ذلك؟

قال وهو يفرك كفّيه:

- في ذلك الكثير...

ثمّ بعد قليل وهو ينظر إلى «السّتّ روحية» التي كانت تراقب المشهد بكلّ اهتمام:

- وإذا أردت أن تعرف، اسأل «السّتّ روحية»!!

قالت «السّتّ روحية»:

- لن تخسر شيئاً إذا أعطيته شيئاً...
وغمزت بعينها قبل أن تواصل:
- سيكون مفيداً جداً لكم في الأيام القادمة!
أدخلت يدي إلى المحفظة، وأخرجت ورقة نقدية من فئة الخمسة
جنيهاً وأعطيتها إياه دون أن أنظر إليه، ولكن سمعت صوته يتناهى
إلى أذني مشرّشراً كأسنان المنشارعلى الخشب:
- هذا فقط!!
قلت له وقد صمّمت على مجابهته بكلّ قوّة حتّى إذا لزم الأمر أن
أتنازل عن الشّقة وأبدأ البحث أنا و«رامي» من البداية:
- أعتقد أنّ المبلغ كافٍ ويزيد...
أراد البوّاب أن يقاطعني إلّا أنّ «السّتّ روحية» أسكتته بإشارة
من يدها قائلة:
- خلصنا، يا «عمّ محمّد»...
ووقفت دلالة الانتهاء من مهمّتها، ثمّ اتّجهت بكلّ جسمها إلينا
وهي تقول بإغراء شديد:
- لا شكّ أنّكما متعبان... سأترككما الآن لتناما قليلا، وسأتي في
المساء لأرى إن كان ينقصكما شيء...
اتّجهت صوب باب الصّالة فتبعها السّمسار والبوّاب، ووصلنا
صوتها وانيا من الممرّ:
- مع السّلامة.

- ٦ -

«يا إلهي!... يا إلهي! ما هذا العطش الذي يقطع أمعائي كأنّه
السّكاكين؟... ما هذا الهبوط الذي يباغتني، ويحطّ عليّ فيقيّدني،

وأحسّ تحت ثقله كأنّ أسياخاً ممّاة تنغرس في جسمي؟!... لا أثر لمعالم كنت أراها من قبل، تحدّد المسارات وتحيل على الطّرق المؤدّية، تدلّ على المسالك الّتي تقود إلى أماكن بعينها... كوى انحفرت صورها في الذاكرة فغدت مثل العلامات الأولى... أصبحت البدايات الّتي لاغنى عنها ولا معدى... أيعقل أن يكون كلّ ذلك وهما؟ وأن أكون طيلة كلّ هذه السّنوات أرّبي أشياء غير حقيقيّة بداخلي؟!... آه، أيّ مكان هذا المكان الّذي أراه، بل آية أمكنة تتراءى لي الآن؟ كأنّي وسط متاه، صحراء بلا حدود، كلّما أوغلت فيها، صرت قاب قوسين أو أدنى من الضّياع!! يا إلهي! يا إلهي! أين الماء؟... أين تكون الحياة وسط هذه الأشلاء الّتي لا تنضبط بالجهات، بل إنّها تلغي هذه الجهات، تتمرّد عليها في لحظة من لحظات الانتشاء الغامرة، حيث لا حقائق على الإطلاق، وحيث الوجود الإنسانيّ نفسه رجراج، تماما مثل الزّئبق!!...

جسدي، كياني كلّهُ، أحسّه كأنّه كائن منفصل عنيّ، لا أملك السّيطرة عليه، وحتّى لو حاولت ذلك سيكون من المستحيل عليّ أن أستعيد توازني السّابق، ساقاي كأنّهما ساقا شخص آخر، يداي، تتحرّكان دون إرادة منّي، دماغي الّذي في رأسي كأنّه دماغ لكائن آخر، يتلقّى منّي الإشارات، غير أنّه لا يستجيب، كان رأسي يثقل إلى حدّ الانفجار، وفي أوقات بعينها يخيّل إليّ أنّي أسمع أصواتا معرّبة تأتي من كلّ مكان، من أعماقي المجهولة، تكبّلني، فأرتدّ إلى الخلف، تراودني رغبة في الانتحار؛ لكن أيّ انتحار يمكن أن يخلّصني من هذه المأساة، من هذا العطش الّذي كنت أراه يتجسّد أمامي، من حين لآخر، كأنّه عملاق من العمالقة الّذين كانت تتحدّث عنهم الأساطير القديمة؟!... [هل كنت «عوليسا» جديدا في رحلة عودته إلى موطنه؟ وهل كان عليّ أن أواجه «السّيكلوب» المخيف؟!]...

أشعث الشّعر، حافي القدمين، لاط في الزّاوية القصوى من المطبخ، ماذا كان الفصل؟ وكم كانت السّاعة، يا ترى؟... نظرة الرّعب،

أجل نظرة الرعب، تلك النظرة التي لن أنساها ما حييت، ذلك الضياع الذي كنت أراه، لا يفصله عن التجسد سوى ثوان قليلة، هي كل الوقت الذي يستغرقه الجبل الخرافي كي يتمخض عن الفأر الذي لا يعلم أحد متى ولا كيف انبعث إلى الحياة... أوه! أوه! من كان ذلك الشخص، يا ترى؟ هل كنت أنا، أم شخصا آخر، ربّما تبينّت فيه صورة لشخص آخر، عرفته... هل عرفته فعلا، أم أنّ خيالي يصوّر لي الأشياء الآن على خلاف ما هي عليه في الواقع؟... في زمن ما، في عصر من العصور السحيقة التي شهدت انتحار العنقاء، وعادت مرة أخرى لتشهد انبعاثها من جديد، رمزا لقيامة ستظلّ شاهدا جديًا على لاجدوى العدمية، كانت حيوانات صغيرة، صغيرة جدًا، في حجم الكفّ، تأتي دون خوف، فتأكل الحبّ الذي وضعه شخص ما على كفّه، أو فتات الخبز الطازج، وزخّات المطر، الحبيبات التي كانت تتساقط بين الفينة والأخرى، فتملأ الكون بأسره، هناك كانت ترقّ الأحاسيس، تغدو المشاعر شفيفة إلى أقصى الحدود، ننسى، تمحي من الذاكرة صور بعينها، لتعوضها صور أخرى أكثر تسامحًا؛ في زمن الولادات المتعسّرة، حيث يولد العظماء، وينقذ القادة الرائعون إلى الوجود، ويكبر الفلاسفة ويحلّق العلماء بعيدا، بعيدا، في فضاء العالم الرّعب، انسربت من التّيه هيئة هيولانية بلا شكل، كانت تكبر كلّما اقتربت من الأرض... لا شكل، لا لون، لا رائحة!! فقط مجرد أصوات غير إنسانية، مزيج من ضحك هستيريّ، وبكاء ونشيج... وصراخ، آه كم كان كاويا ذلك الصّراخ! كم كان مرعبا، وأنا أنظر من حولي، أريد أن أركّز في المشهد المبذول أمامي، أحاول أن أتأكّد من أنّ الذي أراه ليس وهما آخر من الأوهام الكثيرة التي تفاقمت وتضخّمت بداخلي إلى درجة القرف... ربّما كان الصّراخ منبعثا من داخلي! ربّما الضّحك والنّشيج والرّعب، والهيئة، هل هي هيئة شخص غيري؛ لا، لا، تذكّرت الآن!! كنت أرى خالي، أراه، بشحمه ولحمه، مشعث الشّعر، حافي القدمين، وضحكت

كثيرا، ضحكك من كلّ قلبي في ذلك المساء، ثمّ بكيت، ضحكك وبكيت في نفس الوقت، وقلت في نفسي بشيء من السّخرية المرة:
- آه، يا إلهي! هل كان خالي رجلا عظيما لأنّه كان مشعّث الشّعير وحافي القدمين؟!..

... وكما تتواتر المشاهد، ينتهي مشهد، يتلاشى، ليحلّ محله مشهد آخر، على الرّكح، المكان المؤطّر بمؤثرات وديكورات، وإضاءة، وعشرات الألوان التي تتفاوت، وفق الحالات، من الخفوت والكمود، إلى الإنارة الفاضحة، كنت أرى الصّور أمامي، لكن ما أسرع ما كانت تمرّ تلك الصّور! ما أسرع ما كانت تختفي، في لمح البصر، لا تلبث إلا ثواني، أو أجزاء من الثّانية، وكأنّها في صراع مدمّر مع الزّمن الزّنبقي!! لا، ليس حلما، وليس كابوسا؛ إنّهُ ليس شيئا على الإطلاق، ربّما مجرد حالة من الحالات، دمار، ورغبة قاتلة في... آه، رغبة في ماذا؟ حلقي يجفّ، عيناى تغيمان وسط المرامي والأبعاد، المسافات تتوالد من مسافات أخرى، والذاكرة: خواء يولّد خواء، والخواء الجديد يولّد خواء آخر، وهكذا، لعبة لا تنتهي البتّة، وأجري، أو أتصوّر أنّي أجري، ربّما كانت قدماى تتحرّكان في نفس المكان، إذ لم أنظر إلى تحت، وإنّما كان بصري معلقا في المدى، الشّسوع، كآتي كنت أرى أشياء بعينها، الماء، أو هو السّراب، الذي قيل عنه قديما: يحسبه الظّمان ماء!!... أين العمار؟! الخضرة التي رأيته ذات يوم وأنا صغير فتعلّقت بها عيناى الصّغيرتان، واعتقدت أنّذاك - ولست أدري لماذا- أنّ العالم تحرّكه قوّة خضراء، وأنّ هذه القوّة هي المبدأ والمنتهى، وأنّ الله ربّما يكون خلق هذا الكون كلّهُ وفقا لنموذج أصيل توّطره الخضرة من جميع جوانبه!!... أين الدّار، دارنا منذ ما يقرب من ألف سنة، في محلّة من المحلّات الكثيرة، في درب من الدّروب، المتفرّعة من أحد الشّوارع الفسيحة الواسعة، في مدينة الرّصافة، حيث الدّجلة يرفد الفرات، وينجدل التّهران، في عناق محموم إلى المجاهل الأكثر إلغازا، في أصل حضارة عمرها من

عمر الزهور البرية والطحالب ذات الرائحة الربيعية العابقة؟!... أين
الرتين الآتي، لا أعرف من أين، ولكي كلما سمعته أحسست بالرجفة
تندس أشبه ما يكون بقشعريرة ما بين مسامي، وتسري مع الشرايين
في دمي، اللحن، العزف الصاخب الصارخ، ينتشر في الجنبات، وعبر
الزوايا، في قصور لا تنام البتة، تظل صاحبة إلى الصبح، تصل ليلها
بنهارها في نشيد كوني، عتابا وميجانا، وقدود، أين منها الصخب الذي
يتأكلي الآن، في المناء، ضائع، مشرد، صعلوك تائه، يبحث عن العزاء،
في أرض غير الأرض؛ يا إلهي!! الماء، قطرة ماء... قطرة ماء... ماء!!
تطفو صورة خالي من جديد، أراه يتقدم في إباء، بين جنديين
يلبسان الزي العسكري، كأنما يقودانه إلى سجن، لم أرا السجن، ولكي
رأيت الحيطان العالية الصماء، وهو يضحك، كانت ابتسامة محيرة
مرتسمة على شفثيه اللتين حال لونهما من التّمباك، يداه مقيدتان،
وشعره ما يزال أشعث، وقدماه لم تكونا عاريتين، وإنما لقيهما في خرق
من الخيش، انطمست ملامح وجهه، انطمست كلّ العلامات الفارقة
ما عدا الصوت، كان صوته واضحا؛ عندما مرّبي انتزع يديه المقيدتين
من قبضة الجنديين وصفعني بعنف على قفائي حتى كدت أسقط- من
أثر الضربة- منطرحا على الأرض، لم أغضب، تداركت أمري فنهضت
بسرعة وجريت وراءه، تعلّقت بتلابيبه رغم محاولة الجنديين إبعادي،
وصرخت بصوت عال، وبنبرات خلت أنّ صداها قد تردّد في كلّ مكان:

- لماذا ضربتني، يا خال؟!

ثمّ تعلّقت به أكثر، كأنّي كنت أخشى أن يتلاشى أويذوب:

- أنا لم أفعل لك شيئا!!

ولكنّه ضحك، أطلق ضحكة هستيرية، والتفت إليّ وقذف في
وجهي بعنف حمّله كلّ غضبه وقهره وضعفه:

- أنا لست نادما لأتّي ضربتك، ولو حاولت أن تقترب أكثر لحطّمت

جمجمتك الصغيرة القذرة، يا ابن أختي!!

وعلت ضحكته، تحوّلت إلى قهقهة تردّد صداها في أشلاء اليباب المحيط، وقال بقرف:

- أعطني مالا أعطك شعرا أشعث وقدمين حافيتين!!

المجنون؟!... فجأة، وعلى غير انتظار، نطّ أمام عينيّ، وكذلك الجنديّان اللذان كانا برفقته، انقلبوا جميعا إلى حيوانات شرسة، كانت تهرّفي وجهي، أيقنت أنّه لا فائدة من المهادنة في تلك اللحظة، وأنّ أنجع وسيلة هي الهروب، لكن حينما كنت أستدير تسمرّ جسدي في مكانه، ورأيت قدميّ تغيضان في بحر لا متناه من الرمال المتحركة، صرخت، أو هكذا اعتقدت، إلّا أنّ صوتي كان هباء، لا أثر ولا صدى على الإطلاق، كأنيّ ولدت بلا صوت، أخرس، لا يحسن غير إشارات وإيماءات محطّمة بلا معنى... رأيت تلك الحيوانات التي كانت منذ قليل آدميّة تتقدّم ببطء، تستعدّ للانقضاض وقد تأكّدت من العجز الذي كان يكبلني، فتحت فمي ثانية وأردت أن أستغيث، فانقذف، لا أدري من أين، برميل أسود، كانت النّار تنبعث من فوهته، وتراءى لي خالي مع ذينك الجنديّين وقد تحوّلوا جميعا، هذه المرّة، إلى كلاب مدرّبة، بالحسّ، على الفتك...!! كانت تلك الكلاب تدرّج البرميل الأسود باتجاهي، وكنت أميل يمينا وشمالا، في نفس الوقت الذي كنت فيه أغرق وأغرق، والرمال ما تنفكّ عنيّ، كأنّها أرادت لي خلاصا من البرميل لتقودني إلى هلاك محقّق، في بطن رمال لا تعرف الشّفقة أو الرّحمة... وأطلقت صوتا... سمعته، هذه المرّة، وكان واضحا جليّا في أذنيّ، لم يكن صوتا عاديا، كان انفجارا، أو هستيريا، أو شيئا كنت عاجزا عن تسميته...

تذرّى المشهد، احتجب من أمامي، كما لو كان بفعل ساحر، ورأيت السّراب الذي كان سرابا، ذلك السّديم، الغبش الأبيض، وقد استحال شيئا فشيئا إلى وادي بين جبلين عظيمين، على مفترق طرق، وقد قامت في جنباته الواحات، وبين الواحات، وفي وسطها

بحيرات صغيرة من الماء تشكّلت في زمن منسيّ، من المطر الحليبيّ...
لم أصدّق عينيّ، لم أصدّق أنّي نجوت من الكلاب والبرميل بتلك
السّرعة الجهنميّة العجيبة، كما لم أصدّق كذلك أنّي تخلّصت من
خالي الموتور، وقد كنت إلى آخر لحظة ضدّ أن نبيع الفيلا التي بناها
جدّي بدمه وعرقه من أجل سداد السّنّات التي عليه، لعلّه يستطيع
أن ينجو من السّجن الذي كان يؤخّر دخوله مرّة بعد أخرى، بتلك
المبالغ الصّغيرة التي كان يعطيها المحامون للقضاة كرشوة تدفعهم
إلى التّسويف وتأجيل الحكم النهائيّ مرّة بعد مرّة... أه، يا إلهي! يا ربّ
السّماء، عرفت الآن لماذا كان خالي يريد أن يحطّم عظامي!! لم يكن
غضبه من فراغ، من لا شيء، كان يرغب أن يقول لي بصراحة عدائيّة
إنّه لا يحبّني، وإنّه... وإنّه... أوه، الطّنين!! ينتقل من الأذن اليمنى إلى
اليسرى، سؤال لم أتبيّنه للوهلة الأولى، طنين وجفاف في الحلق، وفي
البعيد، بين المرامي والابعد القصيّة، الواحات والبحيرات، وأكوام
من الموتى والعظام، والقيود والسّلاسل، والجماجم التي تتكلّم، وهي
تتضاحك، تتراقص، بعضها له جمّة، والبعض الآخر فقط بعض
شعيرات انتثرت هنا وهناك... والرّجل، الرّجل، كان يحمل كتابا، كان
يقرأ وكأنّ المنظر لا يثير انتباهه، أم أنّه هو الذي كان يخرج تلك الأشياء
من رأسه ويضعها في الكتاب، وفي لحظة من لحظات التّجلّي، يطلقها
في الوادي كي يستمتع بمنظرها...!! هل اقتربت منه، هل سألته؟! يخيّل
إليّ أنّي وجدت نفسي، هكذا بجانبه، أو أنّ قوّة ما قادني إليه، لم يرفع
رأسه، انفرجت شفّته وسمعته يقول بنفس فلسفيّ، ونبرات جدّيّة،
وصوت مؤثّر: وحشرت الكائنات في المطهر لتسأل... بغتة رفع رأسه،
رأني، فانطبعت على شفّته ابتسامة هي مزيج من الحيرة والبعثة
والرّغبة في السّيطرة على الموقف: - أنت كائن آخر؛ أنت روح أخرى
جاءت إلى المطهر لتحاسّب؛ أليس كذلك؟! نظرت إليه بدوري، مأخوذا
بصوته، وهيئته وكلّ شيء فيه، ووجدت نفسي أسأله بدل أن أردّ على

سؤاله، قلت: - من أنت أيها الرجل الطيب؟! ضحك ملء فيه، ومدّ لي يداً مجدورة، كأنه قد خرج لتوّه من مرض عضال فتك بقرى ومدن من عصور دابرة، وقال كأنه يسخر، أو يوضّح، أو يضع نقاطاً تالفة على حروف مهترئة: - أنا لست رجلاً طيباً، بل أنا «دانتي أليغيري»، وما تراه الآن أمامك، الكوميديا التي جعلتها أنا إلهية، لأنّه لا يمكن للكوميديا إلّا أن تكون إلهية!! ونظرت إليه وهو يختفي، كالطيف أو الخيال، ويأخذ كتابه وصنائه التي ملأها الكتاب، ويحلّق في الأجواز الغير المنظورة!!!...

أتلبّس بالأشياء وتلبّسني، وحدة خلق من عناصر شتّى يحكمها التناقض المتناغم، لا أحسّ أنّي أشكّل خللاً وأنّ العالم يمكن أن يتقوَّض لأنّي أنا أريد ذلك، ولا تنطبق السّماء على الأرض، ولا يموت الأشقياء ولا يحيا من هوليس أهلاً للحياة، ولا ينبت الفطر السّامّ على الأديم، ولا... يموت خالي [من القهر]، فقط لأنّي أرغب - مجرد رغبة هي إلى النّزوة أقرب - أن أستمتع «بالخراب الجميل»!! من قال إنّ الخراب جميل؟! وإنّ الجمال يمكن أن يتبادل مع الخراب مواقع... النّجوم، والنّيازك، والكواكب الهامدة التي قال لي الطّيف الّذي كان غالباً ما يزورني في أوقات بعينها إنّها مسكينة جدّاً، وإنّها تصنع المشاعر والأحاسيس وتجعلها رقيقة مثل طيور السّنونو، هذه الطّيور الصّغيرة في حجم راحة الكفّ، طيور كنت أخطئها دوماً رغم أنّه لم يكن يمرّ يوم من الأيّام الكبيسة إلّا وكنت أراقبها تحطّ على أهداي، وفي لمح البصر تلج أغوار عينيّ وتختفي داخل محيطات وجزر ومتاهات وأقيانوسات ومجاهل... شيء، أو صحيفة، أو طومار في داخله صحيفة، ألقت به أياد كثيرة، أياد ليست آدميّة، ولأنّها ليست آدميّة فقد جهدت أن أتبيّنها وهي تنبع من أبواب السّماء التي انفتحت كما لو كانت طاقة من جحيم، بدت لي أشبه بتلك الأيدي البحريّة، في جرار لا تشبه شيئاً كما تشبه الخمّ الّذي كان يرتكن إلى جدار بيتنا القديم الّايل للسّقوط، أياد أخطبوطيّة

تمتدّ إليّ دون هوادة، أتخمتها الحيتان والطّحالب والقواقع فأصاها
جنون البحث عن لحم إنساني... لحم طريّ رخو يصلح للمصمصة
بعد المأدبة الفاخرة!!... والصّحيفة تصغر وتكبر، تصغر حتّى تصير
في حجم حبّة الحمّص وتكبر حتّى تصير بحجم عفريت المغارة أو خادم
المصباح: شبيك لبيك!! لكن لا أمانى ولا رغبات، والعطش، العطش
المدّمّر القاتل يهري أمعاني، يسحق عظامي؛ آه، خترفة، جنون قليل
يزداد حجما، يتضخّم مثل البالون، يتميّع، يرتخي، وينشدّ في لحظات
معينة، يكبر ويكبر، في طريقه إليّ، يحتكّ بي، ولا أستطيع الفكك منه،
يهصرني حتّى ليكاد يهرسي تحتة، أسمع صوتا!!؟! ترنيمة من زمن ما
سمعتها ذات يوم، لكن أين؟! هل هو البيت ذاته، والقافية، والرّويّ،
كان أصدقائي كلّهم يقولون: ليس هذا من الشّعري في شيء، هراء،
وفي أقصى الحالات هو نظم، ليس إلّا: [كأنا والماء من حولنا**قوم
جلوس حولهم ماء...]

تسقط الصّحيفة!! تسرّب الكلمات منها وهي تصطفق بحروفها
الكثيرة، تنشد حرّية ما، تكره اللّحمة والسّبك والوحدة والنّسيج
والنّظام، البنية والبنى، وإذا انزلقت، حرّفت الأسماء قليلا، صارت
لغوا، وما كان، في لحظة ما، «بنية» استحال إلى «بنية»، وما كان
«نسيجا» ما يعتمد أن يتحوّل إلى «نسيج»؛ وتضع أذنك على باب
المقصورة، لا تسمع في البداية شيئا، تحاصرك الظلمة من كلّ مكان،
وفي وقت ما، تأتي الأسماء والأشياء، والنّغم الرابض خلف الباب: [
جاذك الغيث إذا الغيث همى**يا زمان الوصل بالأندلس// لم يكن
وصلك إلّا حلما** في الكرى أو خلسة المختلس]... الخدر المدوّخ، يا
الله، ما أروع! وما أروع أن نموت ونحن نترنّع من أثر الرائحة!! والمزاهر
والعيدان، المثاني والمثالث، والمقتولة تتحوّل إلى قاتلة، ومن قتل
يتجسّد حيّا ليقتل ويقتل، ثمّ يقتل ويقتل، ويتصوّر أنّه يبعث الصّور
كما تبعث الأرواح من البرزخ، يرسم الشّعروالجبين والأهداب الطويلة

والوجه والملامح والكتفين والخرافيتين والصّدر النّاهد، المرمّاح في فتنة
الحلم القصيّ الذي يأتي على حين غفلة ليسلب النّوم من العيون الغير
المسّهدة... يرسم البطن الضّامر والخصر النّاحل والأرداف والفخذين،
وما بين فخذ وآخر ينساح العالم على أبعاده ومراميه، وترفد الأنهار
البحار، وترتق الجزائر الجزائر في صلب لحن كوني لا ينضبط بغير
«نوتة» الوجود الآخر!! ياه، يالي من ضائع ومضيّع، يقتفي الأثر، لأيام
وليالي، لأشهر بطولها، ليكتشف في التّهاية أنّ الأثر الذي كان يتعقبه
يصبح هو المتعقب الذي لا يمل، يترجم موسيقى الصّخب إلى هينمات
عذاب عن... الماء والعطش!! وسألته، وهو يقود السيّارة بسرعة
جنونية. أن يتوقّف قليلا، بدت لي واجهة المحلّ الذي مررنا به كما
لو كانت مصفوفة بالآف مؤلّفة من قوارير الماء المعدنيّ؛ تظاهر بعدم
سماعي وغمغم بكلمات لم أفهم منها شيئا، في الحقيقة أنا لم أفهمه في
يوم من الأيام رغم أنّي حاولت ذلك عشرات المرات، على امتداد سبعة
وعشرين يوما، في المدينة الكبيرة، والبيت، وفي الشّارع ذي الالتواءات
والانحناءات التي كانت تشبه في مجملها لوحة تشكيلية رديئة!!

نزلت نار فأحرقت الصّحيفة تماما، وشممت رائحة الاحتراق،
وتضافرت فجأة الحروف والكلمات فانتظمت من سداها عشرات
المشاعر والأحاسيس الرّقيقة؛ اخترقني صوت ما، وأنا أبحث عن شيء
في أرض أتت عليها المستنقعات:

- هل رأيت نجما يموت؟!

كان السّؤال غريبا، أو هكذا بدا لي... رفعت رأسي ببطء مستعدّا
للمفاجأة التي يمكن أن تكون في انتظاري، لم أجد شيئا؛ قلت:

- من الذي يتكلّم؟

جاءني الصّوت مرّة أخرى:

- أنا؟

سألت بفتور، هذه المرّة:

- ومن أنت؟!

فقال وهو يضحك، وكانت ضحكته تخبو شيئا فشيئا كأنها
تحتضر:

- أنا النّجم الذي مات بداخلك!!

ابتسمت، لكّتي خفت فأخفيت الابتسامة وراء شفّتي، وقلت وأنا
أخرج الكلمات حرفا حرفا:

- أنا لا أحمل نجوما بداخلي!!

وبعد قليل:

- أنا لا أعرف نجوما تموت!!

قال، وكنت أراه يتكوّر ويصير في هيئة النّجم:

- أنت جاهل!

وصرخ في وجهي بعنف:

- متى تعلم أنّ الأحاسيس مثل النّجوم الصّغيرة، فإذا ماتت
الأحاسيس ماتت تلك النّجوم؟؟ وأنت اليوم، أيّها الضّائع، قد انطفأت
نجومك جميعا، وماتت أحاسيسك!!

ثمّ أضاف وهو يخلّق بعيدا، في المدى الغير منظور:

- وداعا! وداعا!

... في عالم الاحتمالات، بين الممكنات، ما أنا نفسي إلا احتمال
آخر، وجود غير موثوق البتّة، من الممكن أن يختفي، أن يتشظّى
ويتذرّى في أيّة لحظة، أتلّمس جسدي عضوا عضوا، أتأكّد من أشياء
وأشياء ظننت أنّها لي، وأنّها كانت تنضاف إليّ في كلّ مرحلة من مراحل
حياتي، ومع ذلك يظلّ الاطمئنان بعيدا، وتظلّ الحيرة واديا بين جبلين
أخضرين. في المدى المتناهي، أندفع باتجاهه، تحت وطأة العطش، لأوّل
مرّة كنت أرى المسافات تنطوي طيّا، تقربني من الهدف الذي كنت أراه
يتكشف بكلّ وضوح، أبيض ناصعا في بياض الثلج ذات يوم شتائيّ من
أيّام كانون الأوّل الباردة... خضرة عارمة، والنّخيل في كلّ مكان، قلت

لنفسى أليس من الأجدر أن أشرب، وأن أطفئ غلتي، وتعجبت لأني أحسست فجأة بالهمود، ولم أكن متشجعا لأي شيء، كنت أنظر إلى الماء وكأني أنظر إلى مستنقعات كوئتها مياه الأمطار التي كانت تختلط بالتراب والطين... اقتربت من بحيرة لون صفحتها بلون اللجين، اقتربت منها بدافع الفضول، أردت أن أضع كفي على الأديم الأبيض الرائق، قلت يا الله! فانقلبت المياه بغتة إلى برك من الحيات، تفتح أفواهها متحفزة للهجوم عليّ، ارتددت لإراديا إلى الوراء، فعادت المياه كما كانت؛ تقدمت، انحنيت بجذعي وقربت شفتي من الماء، وقلت يا الله!!! ما كادت شفتي تلمسان الأديم حتى انتفضت من الأعماق الغافية آلاف الحيات، كانت تتشبث بشفتي، وأعضائي كلها، وجسدي كله، وتنغل في أعماقي، تتلبس بدمي، وبأمعائي، وأسمعها وهي تغني، وتعربد؛ لا أدري لماذا عن لي أن أنظر إلى صورتي في الماء، كنت أعتقد أنني أموت ببطء، وأنّ لحمي لا شك قد ازرق بفعل السمّ، والأنياب القاتلة التي انغrust في كلّ شبر مني، ولكن ما أن اصطدمت عينا بصفحة البحيرة حتى رأيت... عجباً!! الشعر الأجعد وقد بات أصفر مسترسلا، ناعما كما لو كان شعر أنثى، والعينان الزرقاوان، امتداد لامتناه من سفر موصول، وطوبولوجيا الجسد تطلق شكلا وهيئة قديمين، تمتاز فيها أنوثة وذكرورة خلّاقة، صرخت، وبدا لي أنّ شخصا آخر يتكلم بدلا عني: «أنا تريسّياس، وقد تنبأت بكل شيء!!»... ورأيت أناسا كثيرين يخرجون من الماء، تفصلني عنهم سنوات وسنوات، الثياب والأحذية والملاح، وتلك الأشياء التي كانوا يضعونها على رؤوسهم، واللغة المقعّدة، والأدب الجَمّ وهم ينحنون بقاماتهم الفارعة أمامي، ويقولون: - السلام على مولانا، سلطان البرّين وخاقان البحرين؟!... ضحكت، ضحكت، ضحكت، قلت: - أنا عطشان، أريد ماء!!! رأيتم ينظرون إليّ متعجّبين مندهشين، كأنهم لا يعرفون الماء؛ وتقدّم مني أحدهم وكان يبدو عليه أنّه مقدّمهم وقال لي وهو ما يزال منحنيا: - العفو، يا مولاي؛ هلاً أخبرتنا ما الماء؟!... ضحكت مرّة أخرى، وأخرجت

من جيبي كوبا به ماء، وقلت في المرة الأولى: - هذا هو الماء!، وفي المرة الثانية، قلت: - والماء الذي عندي أبيض!، وفي المرة الثالثة، قلت: - وإذا قَرَبْتُ رأسك من الكأس تحوّل الماء في الحال إلى حيّة!!، وأومات إليه بالاقتراب فاقترب، وأمرته أن يقرب رأسه فقربه، وما هي إلا طرفة عين حتّى انقضّت عليه حيّة من باطن الماء وابتلعتة كلّ، ابتلعتة بملامحه وأدبه وثيابه وحذائه والعمامة الكبيرة على رأسه؛ كانوا يأتون الواحد تلو الآخر وينحنون، وفي كلّ مرّة تبتلع أحدهم الحيّة... حين لم يبق غيري، أطلقت ضحكة سوداء، قهقهت فخرجت القهقهة مشوّهة، لها ألف عين وأنياب عملاق هرم، وأخرجت من عيّ كأسا بها ماء وأدנית وجهي فابتلعتني حيّة كبيرة لها رأس إنسان وهيكل أسد؛ رأيت مدينة على مقربة، أسوارها عالية متناهية العلوّ، وبابها عظيم لا شكّ أنّه استنفذ صنوبرة بأكملها، أردت أن أدخل فاعترضت الحيّة سبيلي، وقالت: - لن تدخل... قاطعتها قائلا: - لماذا؟ أنا عطشان، وأريد أن أشرب!!... قالت: - لن تدخل حتّى تجيب على السؤال الذي سأطرحه عليك، وإذا فشلت في الإجابة حولتك إلى صخرة!! قلت معتداً بذكائي وغروري: - اسأليني عن أيّ شيء، فأنا حجة! ضحكت، قالت ساخرة: - سنرى... وبعد قليل أضافت وهي تحدّ في بصرها: -؟! لم أسمع شيئا غير أنّي ألفت نفسي أقول، وبكلّ اعتداد ووثوق: - أنا!!... وما حدث بعد ذلك لم أكن متأكّدا منه تمام التأكّد، ولكّني أحسست كأنّ كياني كلّهُ بدأ يتحوّل شيئا فشيئا، وأنّ أعضائي كانت تتصلّب عضوا عضوا: الرأس والوجه والكتفان واليدان والبطن والفخذان والرجلان والقدمان...!! ونبع من داخلي صوت لا إنساني متحشرج، كان صوتا مخنوقا بالكاد يتسرّب من لهاتي مخترقا الترسّبات الصخريّة التي كانت تسيّجني، من رأسي حتّى أخمص قدمي:

- لا... لا... لا...!!»

كنت مستيقظا، أتقلب في الفراش، مغمض العينين، منبطحا على بطني، موليا وجهي إلى الدوّلاب على يميني؛ وكنت أسعى أن أركّز في الأصوات المختلطة الآتية من الخارج، في شكل تموجات صغيرة تقذف بها بعض النسمات المشاكسة، فتتسرّب عبر انفراجة النافذة الكبيرة ذات المصراعين العظيمين، مخترقة الستارة البيضاء الطويلة التي كانت ذوائبها ترتاح بتكاسل على أرض الغرفة...

عندما دخلت إلى الغرفة في الصّباح، أمسكت بمقبض الباب وحاولت أن أغلقه، إلّا أنّه حين بلغ حدّا معيّنّا تصلّب وصار قاسيا، حينئذ غيّرت رأبي وتركته على حاله، موقنا أنّه بإمكانني أن أسمع أيّ شيء يدور في الشّقة من خلال الفتحة الصّغيرة التي بالكاد تسمح لعينين طارئتين بالتّطلع إلى الأشياء في الدّاخل... رغم الكوابيس والأحلام المزعجة لم أضيّع إحساسي بالزّمن، فقد كنت على يقين أنّ السّاعة ربّما جاوزت الرّابعة عصرا، وأنّي نمت أكثر من سبع ساعات متواليات...

ربّما الإرهاق، أو التّعب الّذي كان يسمّرني إلى الفراش الدّافئ، ما كان يمنعني من التّهوؤ، ولكنّي أيضا كنت أتحدّث من الأصوات الّتي كانت تصلني متداخلة من الصّالة. تتخلّلها بين الحين والآخر ضحكات أنثويّة، قدّرت أنّ «روحيّة» جاءت إلى الشّقة، وأنّها وفّت بوعدّها الّذي قطعتّه في الصّباح، لكن سمعت أصواتا أخرى بدا لي أنّي أسمعها لأوّل مرّة، امرأة ورجل، أو أكثر من ذلك؛ تساءلت، بيني وبين نفسي: «أيعقل أن يزورنا أحد في هذا الوقت المتأخّر؟»... وعادت بي الذاكرة إلى مكان غير المكان، في تلك المدينة الّتي لا شكّ أنّها صارت بعيدة جدّا الآن، تفصلني عنها «نجاد ووهاد»- على حدّ قول أهل السّير والقصص؛ هناك كنت أنا الّذي أحدّد علاقتي وفق مزاجي ومقاييسي الخاصّة، وإذا لم تكن لي رغبة في أيّ شخص من الأشخاص الّذين يضطربون حولي لم أعدم الوسيلة لإقصائهم من طريقي!!.... المكان غير المكان.

والنّاس أيضا، في هذه المدينة الكبيرة الّتي أجدني مفتونا في الوقت نفسه بعناقتهما وأتحسّب من مفاجآتها الغير المنتظرة...
أصررت على العناد!

قرّرت أن أظلّ في مكاني لا أبرحه حتّى يعاود الشّقة سكونها الأوّل، وانقلبت على ظهري وفتحت عيني نصف فتحة، وسحبت ذراعيّ، ثمّ شبكت أصابع يدي اليمنى بأصابع اليسرى ووضعتهما تحت رأسي وأنا أتأمّل ما حولي في غباء، ودون هدف محدّد: سمعت الباب يصرّ، ووقع أقدام تتسلّل إلى الدّاخل في خفة القطّ، عاودني التّحفّز، وأحسست بأعصابي تنشدّ من جديد... أغمضت عينيّ مرّة أخرى، وبسرعة انقلبت على بطني، في وضعي الأوّل، متظاهرا بالنّوم...

رغم استنارتي وتقلّب المزاج الّذي لفّني على حين فجأة، كان كلّ تركيزي منصرفا إلى الأقدام الّتي اقتحمت الغرفة دون استئذان، استبعدت أن يكون القادم أيّ شخص، ورجّحت أن يكون «رامي»!!... اقتربت الخطى أكثر، شعرت بها تلج الغرفة وتتّجه صوب السّرير، ثمّ تتوقّف قليلا، وتسلك الطّريق على امتداد الحشية حتّى غدت بجاني تماما؛ امتدّت إليّ يد بتؤدة، بالكاد مسّت كتفي، تجاهلتها، ثمّ عادت اليد مرّة أخرى تهزّني أكثر من المرّة السّابقة، تقلّبت في الفراش، أردتها أن تكون حركة عفوية، انكفأت على نفسي، قرّبت ركبتيّ من صدري، ورحت أصدر في البداية شخيرا متقطّعا، ثمّ اتّصل الشخير بعد ذلك ممضّا مزعجا...

كان «رامي»، وقد سمعته يقول وكأنّه فطن أنّ الأمر كلّه لا يعدو أن يكون مجرّد لعبة ليس إلّا:

- أعرف أنّك صاح، فلا تزعجني؛ الجماعة في انتظارنا!!

قلت متفاجئا، وبصوت ما تزال به آثار النّوم:

- أيّة جماعة؟!

لم يرض أن يجيبني، ولكن ارتسمت على شفّتيه ابتسامة ذات

دلالات، وقال وهو يغادر الغرفة:

- تعال إلى الصّالة وستعرف الأمر بنفسك!!

قمت متثاقلا، وسرت نحو نضد وطيء كان مركونا إلى جانب الدّولاب الكبير، وضعت عليه، في الصّباح، حقيبة اليد الّتي كانت فيها ملابسي وبعض اللّوازم الأخرى... فتحت الحقيبة وأخرجت منها المنشفة، وفرشاة الأسنان، وقطعة الصّابون المعطّرة، ثمّ فتحت الباب وانطلقت نحو الحّمّام... كانت الأصوات ما تزال تصلني من الصّالة، فتوقّفت للحظات في الممرّ، وحاولت أن أحس من من الأشخاص يكون قد جاءنا في هذا المساء المتأخّر... استبعدت من ذهني «أبا خليل»، إلّا أنّي كنت أعتقد أنّ البوّاب قد صعد إلى الشّقة مع «السّت روحية» لسبب أو لآخر... دخلت إلى الحّمّام، وتقدّمت من الحوض الصّغير القائم إلى يمين الباب، وفتحت الصّنبر، تركت الماء يغمر رأسي حتّى سرى الخدر إلى دماغي، ثمّ أخذت قطعة الصّابون ودعكتها بين يديّ، وبعد ذلك مسحت برغوتها وجهي كلّه، تسرّب الألم إلى عينيّ رغم أنّي أغمضتهما، وفي الحال وضعت كفّي تحت الصّنبر مرّة أخرى وغسلت وجهي ثمّ مسحته بالمنشفة... نظرت إلى نفسي في المرآة البيضاء الصّغيرة أمامي، بدا لي الشّخص الّذي رأيته على صفحتها ينظر إليّ في حياد، كانت عيناه متورمتين إلى حدّ ما، وكانت شفّته مزمومتين، كأنّه على استعداد للهراش، اغتصبت ابتسامة مبتسرة وأنا أخذ فرشاة الأسنان وأسكب عليها المعجون بهدوء، لكّني رأيته وأنا أفعل ذلك يتأمّلي بسخريّة كما لو كان يتحدّاني، أو كما لو كان بيني وبينه ثأر قديم... قلت لنفسني: ليس هذا وقتا للّزاع الآن! وهزّزت رأسي بنزق ولوّحت بكفّي، كنت أريد أن أرمي بكلّ شيء وراء ظهري، وأنّ أّستعدّ للمشهد الّذي ينتظرني بالصّالة...

كانت «السّت روحية» تجلس على نفس الأريكة الّتي جلست عليها في الصّباح، وإلى جانبها، جلس رجل لم أعرفه، وامرأة أيضا، وفي الجهة

المقابلة، جلس «رامي»، وهو يضحك... كان منسجما تماما، وما أن رأني، حتّى أشار إلى الرّجل قائلا:

- عمّ أحمد.

ثمّ إلى المرأة:

- السّتّ زينب.

اقتربت فسلمت على الجميع، ثمّ عدت القهقري فاتخذت مجلسي في النّاحية الأخرى إلى جانب «رامي»... كنت طوال الوقت أنظر إلى «السّتّ رويّة» وهي تتكلّم، كنت أحاول، سيّما في اللّحظات الأولى، أن أتغلّب على الخجل الذي اعتراني في حضور الزوّار الجدد، ولم أجد وسيلة خيرا من التّظاهر بالاستماع إلى الحكاية التي كانت ترويها «السّتّ رويّة»، والتي يبدو أنّها بدأتها منذ ساعات قبل مجيئي... من حين لأخر كنت أسترق النّظر إلى الرّجل والمرأة... كان الرّجل أشيب الشّعر، نحिला، يرتدي قميصا أبيض قديما، وسروالا قصيرا يصل إلى ركبتيه، وكانت تبدو على ملامحه، في ذلك المساء الذي كان يقتحم الصّالة في أناة وصبر دائبين، آثار طيبة ليس من السّهل ملاحظتها للوهلة الأولى، وبقايا حزن تليد. في تلك الأخاديد التي تركتها الأيام على جبينه المغضّن وخديّه الخاسفين... وكانت المرأة رائقة الملامح رغم تقدّمها في السنّ، تضع على رأسها منديلا طويلا قد نفرت من خلاله بعض خصلات من الشّعر الذي اختلط بياضه بلونه الضّارب إلى الصّفرة، وكانت قصيرة يغلب عليها الامتلاء، وقد لاحظت أنّها كانت تبتسم ولا تتكلّم، في حين كان الرّجل يعلّق بكلمة من هنا وكلمة من هناك كلّما توقّفت «السّتّ رويّة» عن الكلام...

بدا لي أنّ «رامي» كان يعير «السّتّ رويّة» اهتماما زائدا، ورغم أنّي لمست محاولاته اللّبقة في مجاملة الجميع، إلّا أنّ نظراته وتطلّعه إلى المرأة التي كانت تتحدّث أوحى إليّ، ولا أدري لماذا تحديدا، أنّ العلاقة بينهما من الممكن أن تتطوّر وتتخذ شكلا آخر، لا يمكن تصوّره أو

الحدس بنتائجـه... ارتحت إلى الاستنتاج الذي توصّلت إليه، بل لا أنكر
أني أحسست بشيء من الغبطة والكثير من الارتياح عندما أنهت إلينا
«السّت روحية» بكثير من الاحتفالية أنّها ستكون رفيقتنا طيلة الأيام
الثمانية التي سنقضها في الشّقة!!

قالت وهي تريد أن تضع كلّ شيء في مكانه حتّى يكون واضحاً
ومفهوماً:

- عمّ أحمد سيكون معكم دائماً، مرتين في اليوم، في الصّباح
السّاعة التاسعة...

وبعد قليل وهي تلتفت إلينا، أو بالأحرى التفتت إلى «رامي»، ثمّ
التفتت إلّي من باب المجاملة:

- وفي المساء، ما بين السّاعة أربعة إلى السّاعة الخامسة...
ثمّ أضافت بعد فترة صمت:

- عمّ أحمد سيكون مفيداً جدّاً لكم، إذا رغبتُم يمكن أن يجلب
لكم ما تريدون، من المحلّات تحت، كما يمكن أن يقوم بأيّ شيء
تأمرونه به داخل الشّقة... يمكن أن يطبخ، وأن يجهّز لكم الطّعام إذا
كنتم في الخارج...

ولمّا تأكّدت أنّنا استوعبنا كلّ ما قالته، وأنّنا بالتّالي يمكن أن
نحدّد علاقتنا بـ«عمّ أحمد» وفق ما أنهته إلينا، اقتنعت أنّه حان دور
«السّت زينب»، فقالت:

- السّت زينب هي الأخرى ستكون معكم، مهمّتها تنظيف الشّقة
وترتيب الأغراض؛ وإذا كانت لديكم ملابس في حاجة إلى غسيل أو كيّ
يمكنها أن تقوم بذلك...

وأطلقت ضحكة قصيرة فانفرجت شفتاها عن أسنان نضيدة
بيضاء ناصعة، وقالت:

- أمّا أنا فيمكن أن تندوها لي كلّما احتجتموني!
قالت الجملة الأخيرة بطريقة لم أفهمها، وممّا زاد في عدم فهمي

أنّها ربّما أرادت لتلك الجملة أن يكون لها وقع خاصّ... كنت أنتظر منها أن تلمّح، أو تشير إلى ما يمكن أن يشي بمقصدها، غير أنّها تركت كلّ شيء معلقاً؛ قلت لنفسي ربّما هي تشعر بشيء من الحرج لوجود الرّجل والمرأة، ولا شكّ أنّها ستنتظر اللّحظة المناسبة، في الأيّام القادمة، لتكشف عمّا خفي من نواياها المضمرّة.

في البداية تصوّرت - وكان ذلك مجرد تخمين من جانبي - أنّ كلّ ذلك الإدلال من جانب «السّتّ رويّة»، أخذها مبادرة الكلام في كلّ مرّة، وقبل الجميع، عفويّتها وهي تتحدّث أو وهي تضحك، حتّى وهي تورد النّكات النّكتة تلو الأخرى... تصوّرت أنّ كلّ ذلك لا بدّ أن يكون جزءاً إحساسها أو شعورها بأهميّة مركزها بالعمارة، وتخيّلت، في لحظة من اللّحظات، أنّها هي صاحبة العمارة، وقد هممت منذ الصّباح، منذ أن التقيناها، أن أسالها ذلك السّؤال الذي كان يلجّ عليّ دون هواده، ولكيّ كنت ما أن أفتح شفّتيّ حتّى يتملّكني التّردّد وبرّج عليّ... هذه المرّة كنت مصمّماً على طرح السّؤال عليها، وقد استغلّيت فرصة قيام «عم أحمد» و«السّتّ زينب» استعداداً للمغادرة، وما أن غيّبهما الباب، وسمعت وقع أقدامهما، في الممرّ، ثمّ في المدخل، حتّى قلت وأنا أكاد ألتصق بكتف «السّتّ رويّة»:

- لا مؤاخذه، يا ستّ رويّة: هل يمكن أن أسالك سؤالاً؟!
فالتفتت إليّ وقد أحسست أنّ وجهها كلّّه قد استحال إلى ابتسامة بلا حدود:

- أسأل، يا خوي، أنا تحت أمرّك!
فتنحنّحت لأجلو صوتي ولأتغلّب على الحرج في نفس الوقت:
- هل أنت صاحبة العمارة؟

حملقت فيّ كأنّما انشّق بطن الأرض فجأة وظهر أمامها مارد أشعر يروم افتراسها، وعندما أفاقت من أثر الصّدمة، طرّقت حلقها بضحكة مجلجلة، وقالت بمرح فائق:

- يا ريت، يا خوي...

ثم، وبكلّ بساطة:

- يا سيدي، أنا شغالة، مثلي مثل زينب...

أحسست أنّ ألف قناع قد سقط دفعة واحدة، وأنّ «السّت روحية» التي استقبلتنا، والتي زارتنا في الشّقة، قد أصبحت «روحية»، «روحية» فحسب، ولم أصب بخيبة أمل جزاء ذلك، بل على العكس شعرت في قراري بسعادة غامرة لا أعرف مصدرها!!

في اليوم التّالي، كان الجميع مدعوّين... «عم أحمد»، و«زينب» و«روحية»، وشخصان آخران اكتشفنا فجأة أنّهما من نفس البلد- بلدنا؛ كانت «روحية» من أخبرنا بذلك عندما أخذنا الحديث وتطرّقنا إلى سكّان العمارة فكانت تذكرهم واحدا واحدا، وبالإسم أيضا... وقد أخذت أنا و«رامي» الأمر ببساطة متناهية، حتّى لا أقول بفتور؛ [أشخاص هم مجرد وجوه وملامح، هيئات وأسماء، ونبرات مختلفة؛ ماذا يهمّ لو كانوا من نفس البلد؟! بل ماذا يهمّ، في نهاية المطاف، إن كانوا من نفس المدينة أو الحي؟! سيفترق كلّهم عند نقطة ما، وسيمضي كلّ واحد منهم بمفرده، يحمل همّا وربّما آمالا لن تصدق أبدا!؛ أردت أن أقول كلّ ذلك لـ «روحية»، إلّا أنّها لم تمهلني، ونهضت من حينها إلى شقة بجوار شقّتنا، وما هي إلّا لحظات حتّى وجدنا أمامنا شخصين سلّما علينا ودعوناهما إلى الجلوس فجلسا، تحدّثنا قليلا، وشربنا القهوة ودخنا، وحوالي السّاعة الحادية عشرة صباحا، استأذنا، ولكن صديقي «رامي» نظر إليّ فجأة، وهو يقول بصوت أقرب إلى الهمس: «ما رأيك لو نستغلّ هذه الفرصة وندعو الجميع إلى الغداء؟!»... وافقت رغم أنّي لم أكن متحمّسا للفكرة كثيرا، ووضعت في اعتباري كثيرا من الأشياء التي كان «رامي» غافلا عنها... نظرت إليه بدوري، بحنان،

وتأملت ملامحه، نفس العذوبة القديمة، وذلك الكمّ الهائل من البراءة التي كانت تترجم عن نفسها بأقلّ الكلمات، والجذع وهو يميل قليلا إلى الأمام، فترسم لعينيّ تلك الصّور عن أشخاص قرأت عنهم، قادة وشعراء، وأشخاص آخرين مهمّين، في أوقات بعينها حين يستبدّ الفكر، وتتمكّن اللّجاجة مع قرب الحلول، حيث تأتي الأفكار العظيمة، والخطط، وتولد القصائد، ويمتزج الوحي بالإلهام في عناق محموم، ويكون الكشف والإشراق؛ وضعت يدي على كتفه في تحبّب، وقلت:

- لا بأس من الدّعوة، ولكن فلتستعدّ...

ولم يمهّلني حتّى أكمل الجملة، فقاطعني:

- وماذا تقصد؟

طفت على شفّتيّ، ودون إرادة منّي، ابتسامة فيها رثاء وسخرية، مردّها إلى جهله بمثل هذه الأمور، وقلت كأنيّ لم أسمع سؤاله:

- عليك أن تكون جاهزا من الغد، في الصّباح؛ سيكون علينا أن نشترى الكثير من الأشياء، وأن نحضّر كلّ شيء...

قاطعني مرّة أخرى:

- قالت لي رويّة إنّها على استعداد أن تشرف على الغداء... ستكون موجودة هي وزينب، وستعاون الاثنتان...

وصفن، فامتدّت يده إلى جيّته، وحكّ جبينه، ثمّ سألتني بتناقل:

- ولكن، هل لديك فكرة عمّا يمكننا أن نشتريه؟!

فضحكت، وقلت:

- لا تقلق من هذه النّاحية...

كنت أريد أن أمنح نفسي فرصة لترتيب الأفكار في ذهني، وقلت بعد لأيّ:

- اللحم... ضروريّ، وسنترك لهما أن تطبخا ما تشاءان، وسنشترى

كبابا أيضا، وكذلك السمك، والسّلاطات، ويمكن كذلك أن نشترى موزا وعنبا وبطيخا...

تطلّع إليّ بنظرات مرتابة، وحدّ فيّ بصره كأنّه يعاتبني، وبعد لحظات قال وهو يتقدّم منّي، ويضع يده على كتفي كأنّما يذكّرني بشيء هامّ كنت نسيته، وقال برخاوة:

- نسيّت الأهمّ...

وغمز بعينه، فلم أتركه يكمل وقلت بدوري:

- لا تقلق سنشتري ما تريد، وإذا أحببت أيضا انتقينا شيئا من

المكسّرات... كمزمنة...

ثمّ تذكّرت، فقلت متسائلا:

- لكن، ماذا عن الآخرين؟ أقصد...

ولكنّه سرعان ما تدخّل قائلا:

- لقد كنت قلقا بدوري، وطرحت الأمر على رويّة، قالت: لا

مانع...

ثمّ أضافت:

- وجماعتكم أيضا يشربون، فلا تقلقوا من هذه النّاحية!!

... لم يكن لدينا الكثير لنفعله، ولم نكن قد اتّفقنا بعد على

برنامج محدّد لتنظيم وقتنا رغم أنّ هناك أشياء كثيرة تدور في ذهنينا...

الهرم، القلعة، والمتحف الوطني، وجبل المقطم، والمقاهي المبتوثة هنا

وهناك، وعتاقة الأحياء، أبو العلا، شارع محمّد عليّ، ومقام السيّدة

زينب، وخان الخليليّ، رائحة الزّمن الذي ولّى، بين المسارب المسقوفة،

الملتوية، أزقة ضيّقة تفضي إلى أخرى أكثر ضيقا، ونبرات من لغات

شتّى، تغمرك فلا تملك إلّا أن تستسلم، تسير مسرّنا إلى الأماكن

الخفيّة، تعبر الشّوارع، تنقل نظراتك على الجوانب القصيّة، رائحة

العود، والبخور، والخدر الحيّ الذي يلقّك دون استئذان فتنتشي،

وترحل بك الذاكرة عبر الرّوايا المعتمة والمقاصير وتتطلّع بانشداه

إلى القصور ذات الأسوار العالية، وتأتي من كلّ جهات الدّنيا السّتّ

الأنغام والألحان مرجّعة على ضربات الدّفوف والمزاهر والعيدان!...

المقام الحسيني، وغير بعيد، البنايات الحديثة، الامتداد الطبيعي لجامع الأزهر، آلاف الأقدام، وجوه تنتمي إلى نفس الحيز، وتتوخد بالملاح، كثافة القسمات التي تحاول أن تسجلها في ذهنك فتنتج حيناً وتفشل في الكثير من الأحيان، لكنّ الحرص على جعل المكان أليفاً، الرغبة في أن تضمّ كلّ شيء إليك، العلامات الفارقة وسط هذا المتاه العجيب، والآثار التي تركها الخطى، من زقاق إلى زقاق، ومن حيّ إلى حيّ، ومن ناصية إلى ناصية، ومن كوبري إلى كوبري، كلّ ذلك يجعلك ميّالاً إلى ممارسة رياضة المشي، دون التّفكير في استقلال سيارات الأجرة، أو الحافلات العموميّة، أو تلك «الميكروباصات الصّغيرة» المفتوحة الأبواب دائماً، ومن فتحها يأتيك الصّوت الأبديّ منادياً، العنق مشرئب إلى أمام واليدان على الحوافّ والصّوت يلعلع دون توقّف: عتبة... عتبة... عتبة... الأشياء الصّغيرة الأخرى، السّحر، التّوق الذي لا يغالب، وفرحة بلا حدود، وأنت تتأّنّى، ترى الأشياء بدقّة، وكأنّك تتشرّبها حتّى لا تهرب منك، تبحث عن الأسرار التي لا يهتمّ النّاس بها عادة في خضمّ الحياة، تستغرقهم المشاغل بين طلبات البيت، ومستلزمات العيال، وإلحاح الرّوجات على أشياء بعيدها، وحمدت الله كثيراً أنّك خليّ، لا زوجة، لا أطفال، لا مشاكل، تقودك قدماك، وتبتعد عن الجادة عامداً، ربّما في ناصية ما ينتظرك شيء غير متوقّع، ربّما سرّ من الأسرار التّليدة، لغز مهرب من ألف عام، عبر تلافيف الذاكرة، وضائق به الحياة على رحابتها فاختر النّأي والبعد، كذا جامع «السّلطان قايتباي»... وأمام البوّابة المفتوحة، والبناء الشّامخ الذي رغم قدمه وفجاجته، واهترائه أيضاً، والدّرجات القليلة التي تقود إلى الفناء الدّاخليّ، نسيت نفسك... تملكك رغبة في البكاء، أخذك الحنين بعيداً إلى الأصول، إلى البدايات، المنابع الأولى، حيث لم يكن الخطو الطّفليّ إلّا تجربة غير مضمونة لاحتراف المشي!! كان الاسم مغرباً، مغرباً جدّاً: «قايتباي»، رغم ما كنت قرأته في أحد الكتب

عن هذا السّلطان، من سلاطين الممالك البرجيين، هو وسلطان آخر، «برسباي»، أحدهما أُمّت به العلة التي كانت فيها وفاته، فاستدعى طبيبه الخاص واشترط عليه شروطا، قال له: إن لم تشفى أعدمتك، وحاول الطبيب، جرّب كلّ طبّه، مدفوعا برغبته الكافرة في الحياة، ولكن «جاء السيف الذي سبق العدل»، ومات السّلطان، ولكن وهو يلفظ الرّوح أبى إلّا أن يرى رأس طبيبه تفصل عن جسده... [أنا وبعدي الطوفان!!]؛ والثاني كان مهووسا بالذهب، ولم يترك كيميائيا من كيميائي عصره إلّا استدعاه إلى قصره، وبذل له الرّفد، وأجزل له العطايا... استدعى أحد الكيميائيين يوما وقال له: إنّي أهلك شهورا، فإذا عجزت أن تحوّل النّحاس إلى ذهب، قصفت رقبتك، واعتزل الكيميائي في معمله، هجر النّاس، ترك زوجته وأطفاله، وحاول مرارا، غير أنّه لم يكن قادرا على دفع قدره الذي حدّده له سلطانه!!... تداعيات الذاكرة، الحكايا، وأنت تقف على مبعده منها، تنظر إليها من وراء، توليها ظهرك، لا تحسّ حيالها بالغضب، أو النّقمة على الأشخاص الذين تسبّبوا في مأساة ما، تقول في نفسك: ما وقع وقع، ولن تقوم حاكما على كلّ النّاس!! وفي لمح البصر، تجتاز الدّرجات إلى الهو الداخلي، حرارة الشّمس لافحة، قوّة، تتسرّب عبر المشمع الذي انتشر على طول السّقف، تنكسر الحرارة قليلا حينما تصطدم بالأرضيّة المبلّطة، تنحرف إلى اليسار، تنزل درجات أخرى تفضي إلى تلك البيوت الصّغيرة، الحمّامات الحجريّة ذات الأبواب الوطيئة، وإلى جانبها الصّناير، تتقدّم من الحوض، تفتح الصّنبور وتغسل وجهك وأنت ترى النّاس من حولك، شتاتا من النّاس، فكّرت أنّ أغلهم ليس لهم مأوى، وأنّ الجامع صار هو مأواهم، وبدأ لك السّلطان شخصا آخر، ليس ذلك الذي قرأت عنه، ولكن سيّدا مهيّبا، جليلا، يتقدّم النّاس إلى الصّلاة فيؤمّمهم ثمّ يجلس إليهم فيستمع إلى شكواهم التي لا تنتهي، وينتصف للمظلوم من الظّالم، ويقيم العدل داخل حدود هذه

المملكة الخرافية!!!... لعلنا- أنا و«رامي»- لم نكن في حاجة إلى برنامج، كما لم نكن في حاجة إلى تخطيط لكل خطواتنا، ولكن يكفي أن نترك للأيام أن تأخذنا حيث شاءت!!!... لا قيمة للأسئلة، بل حتى الكلام قد يتحول في أية لحظة إلى قبلة موقوتة من شأنها أن تفسد اللذة والمتعة، الخطوات تتوالى، تعضد الخطوة الخطوة، والفضاء امتداد، ومع كل التفاتة تتوالد الشوارع من الشوارع، وتؤدي العطفات إلى النواصي وتفضي النواصي إلى رحاب، فتغمر أذنك الضحكات الملعلة، وأصوات الباعة، وصياح الصبية، وهمسات تلفك في ثناياها إلى حد الروع والانتشاء، وتحاول أن تستثبها مرة أخرى في مخيلتك، لكن تشعر بالحيرة، وتختلط عليك الأشياء في غمرة الارتباك؛ تساءل هل ما سمعته كان حقيقياً أم كان مجرد وهم من أوهام الذاكرة الكثيرة... تلم بالمشهد كله، تحرص أن لا يفوتك منه شيء، غير أن عينيك اللجوجين، الفاحصتين، الثاقبتين، كانتا تلوبان وراء شيء آخر، تنشالان مسحورتين وراء الملاءات، العباءات السوداء، وتلك المناديل الشفيفة المخرمة، التي كانت تدعو باستمرار، وهي في محاولتها الاخفاء والتكتم على المفاتن المغلقة تغري، تحطم، تدمر، دون رحمة!!!... تشعر، الآن، أنك حر، لا تخشى العيون المحدقة بك التي كثيرا ما اقتحمت عليك وحدثك، راغبة في تعريتك، تحسب عليك حتى الأنفاس، وهي بقدر ما تسرف في إزعاجك تشبع فضولا وتروي ظمأ وعطشا!!

تحتفظ دائما بأسرارك، أشياءك الخاصة الحميمة، تخاف عليها من هبوب النسيم العابر، والأنوف المدربة على تأثر الروائح الغريبة، وأسرارك من النوع الغريب، كان آخر شيء تفكر فيه أن تبوح، أن يغفل لسانك، أن يندلق حلقك بما لا تريد، والنساء- بالنسبة إليك- كالأفيون، كالحشيشة المحرمة التي يزرعها المزارعون في أماكن بعيدة جداً، بمنأى عن أعين رجال الدرك والمتطفلين، كالخمر المعتقة، في سرايب مظلمة، يخاف عليها صاحبها من حمأة الشمس ووهنها،

يتلذذ وهو يشربها، وينتشي وهي تسري في شرايينه، فتأتيه الدنيا الخضرة النضرة على قدمين مرميتين، وتهيب به أن يخلع العذار ويعتنق الجنون الجميل الذي لا يسبح إلا لماما... وتسأل مرارا، في لجاجة، ولا يخلو الأمر أحيانا من تدمر لا شفاء منه: «هل أنا مجنون؟... أم ما أعانيه مجرد التياث فيه كثير من الغلظة؟... هل هو الحب الذي لا مقابل له فيما عرفت من قصص الحب الكثيرة والكبيرة، حب ليس من العفة، كما ليس من الإباحة المعروفة عند أغلب الشعراء الذين لهثوا وراء المرأة حتى تقطعت بهم السبل، وعادوا كما ذهبوا، بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها؟!!»

«كارامازوف» الأب، الثعلب العجوز، المغامر المحترف، القادم من تخوم لذّة مستحيلة، حتى على الأبناء الأقلّ منه سنا- كان يفترض في «إليوشا» الصّغير، و«إيفان»، و«دمتري» أن يكونوا هم نار الصّبايات اللّافحة، لا الوالد الفاني الذي أتخمته السنون، ورغم ذلك ظلّ محافظا على السرّ الأزليّ، ظلّ يعبّ من «الحبّ الملوّث»- أجل «الحبّ الملوّث»، وهو ترجمة أخرى للحبّ، ليست أقلّ شأنا من «الحبّ الآخر»: اللّوعة المفرطة، آثار العشق القاتل، الامتناع عن الأكل والشّرب، وإطالة السّهر...!! هراء! كلّ ذلك كان هراء بالنّسبة إلى الرّجل الذي «أحبّ» جميع النّساء؛ لم يكن يميّز بينهنّ، لأنّه كان يرى في كلّ واحدة عالما أسرا، تحدّه المرامي والتّخوم، ويحلّو فيه الضّيعاء... كنت أحسّ أنّه قريب منّي، ذلك الرّجل! العجوز! يقتحمني دون استئذان، ويوشوش في أذني أشياء معيّنة فأجدي أنقلب كائناتنا آخر، له قدرة لا تحدّ على التّدمير والتّحطيم، أوه!

تعلّمت منه الكثير، وهو الكائن الذي أطلّ برأسه من بين الصّفحات، أراه حقيقيّا، المتخيّل الرّوائيّ الذي أبدعه «دوستوفسكي»، يثير دائما، في القارئ، شيئا من القرف وعدم التعاطف، ومع ذلك أشعر حياله بشيء من الافتتان، يسكنني، يلحّ عليّ

في أوقات بعينها، فأستسلم له، أمدّ إليه يدي فيأخذني عبر دروب غير مطروقة، وأرى بأمّ عينيّ عالمه السّاحر، أرى الكون الذي طالما تكتمت عليه، وأغلقت عليه، في داخلي، بمراتيخ ثقيلة: «لا فرق بين امرأة وأخرى!». كنت أسمعه يقول: يتأتّى في كلامه، كان يريد لكلّ كلمة أن تأخذ موقعها الثّابت في القلب، يريدّها أن تستقرّ هناك ولا تفارقه أبداً، كنت أجد فيه فيلسوفا بالفطرة، لم يدرس الفلسفة، ولكن تتجسّد فيه كلّ فتنة العصر الإغريقيّ وفلاسفته الذين قدّسوا اللّذة التي كانت طريقاً مفتوحاً إلى سعادة بلا حدود، «أبيقوريّة» ترتقي إلى صوفيّة حلوليّة تنعدم فيها الفواصل بين الأشياء والأسماء، وتغدو قيمة في ذاتها، بعيداً عن «القيميّة الأخلاقيّة»!! هل كنت أكذب على نفسي؟! هل كنت أداريها؟! هل كنت أحاول أن أبرّر ما يمكن أن يسمّيه البعض «عدم القدرة على السّيطرة على الغرائز»، أو «الغلمة المفرطة»، أو «الالتيث الجنسيّ»، أو... أو...؟! لم تكن الأسئلة ما يهمني، ولم أكن معنياً بها، الصّوت، الصّوت وحده، ذات الصّوت الذي كان يجهد أن يسكت جميع الأصوات الأخرى في أعماقي ليعزف سمفونيّة اللّحن والكلمة، ويقوم بعد ذلك مقام «المايسترو» الذي ما يعتم أن تأخذه لوثّة الخطف... «كلّ امرأة عالم بأسره!!»، يضحك فيفتّر فمه عن أسنان صغيرة متأكلة صفراء، ويجرع من كأس «الفودكا» الموضوعة أمامه: «ليس هناك قبج على الإطلاق... والمرأة تظلّ امرأة، تثير فيك الفتنة، وتشعرك بالخدر، ما دامت تمتلك القدرة على الإغراء»...

أحياناً يختفي من أمامي، أجهّد أن أستحضر صورته كما رسمها «دوستويفسكي»، لكن عبثاً، كأنّ الأرض انشقت وابتلعت، أبحث مرّة ثانية عن الكتاب، أذهب مثاقلاً إلى الرّفّ الحجريّ، وأضع إصبعي على حوافّ الكتب، ماراً على العناوين في حركة مضطربة حتّى أصطدم فجأة بـ «الإخوة كارامازوف»... أعود إلى السّريّر، فأضيء الأباجورة ثمّ أطفئ النّور، وألبس عويناتي، وأشرد ساعات وساعات مع العجوز

الغائب... يتذمّر، يشكولي، يقول لي أشياء وأشياء، ثم أنظر إلى طرف بعيد، في العتمة، في الزوايا المظلمة من البيت، فتأتي الضحكات المكتومة، وأسمع أصوات قبلا متأججة، أتحدّث، أشعر بالاستثارة، وأتقدّم رويدا رويدا، متأثرا خطي الرجل الذي كان يبدو عليه أنه يريد أن يتخلّص مني... ينجح في المراوغة، وأصمّم مع ذلك على التحدّي، متسلّحا بأعنى أسلحتي وأصلبها على الإطلاق: الصبر، الصبر، ومزيد من الصبر، وهل كانت حياتي في الحقيقة إلا سلسلة لا تنتهي من الإصرار على اعتناق مازوكية وجدتها مع الأيام تلج بي دهاليز الألم الذي تضخّم وتفاقم حتّى صار رديفا للصبر عندي؟!... إلى أين يأخذني؟ أيّ المسارب يمكن لعجوز مثله أن يتّخذها للذّته ومجونه؟ وماذا يمكن له أن يفعل مع فتيات ربّما فيمنّ من تصغره في السنّ والملاوعة؟... قال لي إنهنّ يأتينه الواحدة تلو الأخرى، بناء على رغبته، يطلبنّ فيلبيّن، ولا يأخذنّ منه شيئا، ويغادرنه وعلى شفاههنّ تلك الابتسامات الخبيئة التي سرعان ما تكتشف فيها دلالات لا يمكن أن تخطئها العين، وتعرف أنّ أولئك الصغيرات المدلّات قد حصلن على ما كنّ يرغبن فيه من النشوة والامتلاء؛ أسمع، أقنع نفسي بمدى صحّة ما كان يحدثني عنه، ثمّ ينبع صوت ما، يساورني الشكّ في صحّة كلّ شيء، وأجابه بالسؤال الحرج: وكيف فعلت ذلك؟... كنت أنتظر منه دائما أن يحسّ بالارتباك، أن يخجل، أو يمتنع عن الإجابة متمسّكا بحقه في الاحتفاظ برأيه، ولكنّه كان يخيب أمني في كلّ مرّة، يضحك، تتحوّل ضحكاته مع الوقت إلى قهقهات عالية، يتحدّثني: وماذا تعرف أنت عن المرأة؟! وأعترف له أنّي لا أعرف شيئا، فيستغلّ ضعفي، ويواصل حديثه، وأجدني مضطّرا إلى تصديقه لأنّي لم أكن أملك تجربة كتجربته، أو ما يمكن أن يقوم برهاننا على تكذيب ما يدّعيه...!!!

البيت الكبير، الممرّات التي تقود إلى الغرف الصّغيرة المظلمة، الضّوء الباهت الذي يتسرّب من أماكن يصعب على العين اكتشافها

للهولة الأولى، والبرد، صوت المطر في الخارج، وتساقط الثلج، الأبيض،
الحريريّ الملمس، يبعث كلّ ذلك فيك رغبة ملحّة، يجعلك تطلب
الدفع، لحظات الكنّ، وتتبادر إلى ذهنك الأطياف والخيالات، تقول،
في سرّك، إنّه لا يوجد أروع ولا أحلى من البحث عن جسد نافر في
تلك الظلمة، تفكّر في الالتئام وأنت المتشظّي، المستوحش كقوقعة،
المتهالك كجثة مرميّة في عرض البحر، حتّى الحيتان الكبيرة الهلاميّة
تستنكفت من أكلها لنتانتها!!

عند حدّ معيّن، تضيق الأثر، ويغدو المكان بأسره أشبه بالمتاهة،
وترفض أن تعترف بالهزيمة بعد كلّ تلك الملاحقة، تستنفر موهبة الشّم،
وتركّز كلّ حواسّك فيها، تغمض عينيك، وتخطو الخطوة الأولى، ليس
هناك شيء مضمون، واللّعبة بأكملها قد تقود إلى الهاوية، إلى الشّفير
الذي لا يمكنك تفاديه، رائحة القميص، الخمر القويّة، وتلك الرائحة
التي صرت تعرفها أكثر ممّا تعرف نفسك... وماذا أيضًا؟ ربّما هناك
أشياء أخرى قد تشي به أكثر من غيرها، مجرد صوت قد يفصح عنه،
صرير ظلفة الباب القريبة، أو حركة خفيفة بجانب مصراع النافذة،
أو أهة ما، تنبعث في لحظة ألم ممزوجة بلدّة كاوية، أو وقع خطي؛ أين
أنت، أيّها الثّعلب العجوز، يا «كارامازوف»؟! أين أنت، أيّها الأثم الذي
تحسن غواية الإثم؟!

- تعال!

أتلقت من حولي، أعود القهقري، أنقلب على عقبيّ، أنعقب
المشهد المعتم بكلّ الحواسّ التي أملكها ولا أمتلكها، أوازي بين
المسافات، أحمّن، أضع افتراضات، أقول لنفسي ربّما كان في الغرفة
التي على يميني، أو في بيت الاستحمام، يتخلّص من آخر بقايا عشق
خلفه وراءه في مكان ما، أو يخمخم في المطبخ، أو ربّما اعترته، ساعة
صفاء، مسحة رومنسيّة ألقت به إلى الفضاء العابق برائحة المطر
والجليد!!!... تخيلته يرقص، بلى؛ يرقص ويغنيّ، فينسى أنّه بلغ من

العمر عتيًا، وأنّه قد يقضي في أيّة لحظة، ربّما على صدر فتاة، في عمر أصغر حفيداته اللّواتي لم يرزقهنّ!!!... وتخيّلته يبكي، وفي الحال تبادرت إلى ذهني جملة قرأتها مرّة ونسيت من قالها: حين يبكي الرّجال!! ووجدت نفسي إذ انطبعت صورة الشّيخ العجوز في ذهني أقول وأنا أبتسم ابتسامة فيها نشوة ومرارة، نشوة الأمل في إمكانيّة أن أجده، ومرارة فقدته: حين يبكي العجوز!!

أحببت «كارامازوف»!!

أحببته، لأنّي كنت أجد فيه كلّ الأشياء الّتي لا أجدها عندي، سيّما صراحته الّتي تصل إلى حدود الوقاحة، لا يؤمن بالفواصل والحدود، ويمقت المسكوت عنه، يتحدّث في كلّ شيء، وعن أيّ شيء، ويعشق «المرأة»... بفجور وسفور!!

كنت أنا و«رامي» نتحدّث كثيرا، ورغم أنّنا كنّا نخوض في كلّ المواضيع، إلّا أنّي لم أذكر له شيئا عن «كارامازوف»؛ وكان «رامي» يبعث فيّ، ونحن نتحدّث، إحساسا بـ «المثليّة»، بالتّماهي والتّقمص، أرى فيه «شيخي العاشق»، وتنفّج أساريري، تسيل ملامحي دفعة واحدة، وأضحك نصف ضحكة، ولا أخبره عن السّبب، ويلجّ عليّ، يحاول محاصرتي، يقول: ألسنا أصدقاء؟ فأجيبه: بلى!؛ ويسألني مرّة أخرى: فلماذا تحاول أن تخفي عنيّ بعض الأسرار؟!... فأصمت ولا أجيب، ولكن أرسّم من جديد تلك الابتسامة الغامضة على شفّتي، وقد التبتست بكمّ هائل من المرارة!!

أخاف، من كلّ شيء، ومن كلّ الأشخاص، وليسَت السّنوات الّتي قرّرت فيها أن أجابه العالم من حولي تكفي لجعلي أثق بمن حولي كلّ الثقة، رغم المحاولات، ورغم الجلسات الحميمة المتكرّرة في المقهى، هناك، عند السّكة الحديد، في المدينة المحتجبة بظلالها الكثيفة؛ لا أخفي أنّي أحببت «رامي»، وأنّي أثق به، اليوم، كما كنت أثق فيه دائما، وبمجرّد مرور فترة قصيرة من تعارفنا، وكان تعارفنا أقرب إلى ذلك

الحبّ العصيّ، الذي لا يفصح عن نفسه، وهو حبّ كبير، لامحالة،
لأنّه يترجم عن نفسه بالنّظرات أكثر من الكلمات التي جفّتها المعاني
والدلّالات منذ زمن بعيد!!... كانت هناك مشكلة ما، والمشكلة مشكلتي،
وليس مشكلته، أنا الذي أخاف من الإفصاح، أو الفضيحة، كما
كانت تصوّرها لي رغبتني في التّخفّي عن الأعين والضّوابط الهائلة التي لا
ترحم، والتي شدّها «الأنا الأعلى» إلى أقصى الجمجمة، وربطها بألف
قيد وقيد!!

... ذات مساء يوم بعيد، أذكر أنّ شيئاً أكثر من الدّفء كان يلفّ
المدينة التي احتجبت عنها الشّمس منذ ساعة أويّز، لسعة برد في عزّ
الصّيف، وكنا في المقهى، نتجاذب أطراف الحديث، ونحن نستمع إلى
الموسيقى تأتي من أقصى الميالدّاخلي... أو ما ليّ «رامي»، وحين التفتت
إليه، عرض عليّ أن نتسايّر قليلاً... كنت أحسّ بالملل، وبشعور غير
مريح، هاجس ما فتى يتضخّم بداخلي، منذراً بالانفجار؛ رأيت العالم
تحت قدميّ عندما طأطأت رأسي ونظرت إلى البلاط، وكان شاغراً، لا
أثر فيه لحياة على الإطلاق، أصابني إحباط، ودهمني خوف ممزوج
بحسرة وغير قليل من الاكتئاب... انتشرت روائح دخان، وانهدت
الجبال، وانشقت الأرض فابتلعت آلاف الجثث التي كان البحر يلقي بها
إلى اليابسة... تكوّنت سحب بعيدة في المدى، وأومض البرق من ناحية
الشرق، وسمعت الرّعد كأنّه الزلزال، يندربالكارثة والمأساة... خشيت
الأسوأ، وقامت أمام عينيّ غمامة سوداء، فخفت أن أصاب بالعمى،
سحبت الكرسيّ إلى الوراء، وأشرت إلى «رامي» فقام بدوره، وسرنا معا
شطرا من الطّريق، صامتين...

الشّوارع مقفّرة، وخيوط من الضّوء الشّحيح تنتشر في أرجاء
المكان الشّبه الخالي، أصوات النّهار اختفت كأنّها لم تكن، ما عدا
بعض النّداءات التي تنبعث بين الحين والآخر من أحد الدّكاكين في
طرف السّوق، أو آثار ضحكة وانية تأتي محمولة على كفّ الصّدّى من

أحد المنازل المحاذية للجادّة التي تقود إلى قلب المدينة... رأيت «رامي» يمدّ طرفه بعيدا، إلى الجهة اليسرى، نظرت لإراديا حيث ينظر، ولم أنفاجأ كثيرا، كان المنظر المائل أمامنا منظرا اعتياديا لكثرة ما طالعنا... التفت إليّ كأنه يريد أن يقول شيئا، ثمّ طأطأ رأسه ورفعته مرّة ثانية، وواصل سيره، لم أشأ أن أزعجه رغم أنّه كان لديّ الكثير من الأسئلة التي كانت تفرّخ في رأسي دون هوادة والتي كنت أودّ أن أطرحها عليه... قلت لنفسي لا بدّ أنّه سيتكلّم، وإلاّ لما اقترح عليّ أن أصبح به، «رامي» دائما هكذا، منذ أن عرفته، يحتفظ ببعض أسرارته، مثلي، يداريها في أعماقه، إلاّ أنّه لا يصمد حيالها طويلا، ينتظر، يتعذّب، ثمّ لا يلبث أن يبحث عن شخص مؤتمن، يتحدّث إليه، يبثّه لواعجه، أحزانه الكثيرة، وطرفا من حكاياته التي كانت تتخذ خصوصيّة ما، سيّما إذا تعمّد أن يدسّ بين أتونها نكتة أو طرفة، سرعان ما تسري إلى القلب، فتدسيك الحديث الأوّل، وبدل أن تبكي، تجد نفسك تضحك، وبدل أن تجعلك الهموم تذكرهمومك القديمة، تبحث عن العزاء، ولو كان ذلك العزاء ملوّثا بدماء حالت ألوانها واستحالت حمرتها القانية إلى بياض باهت لا يغني شيئا...

- لا شك أنّك عرفت الكثير من النّساء!-

توقّفت عن السير، وتفاديت أن أنظر في عينيه، ولكّني قلت، بصوت حرصت أن يكون هادئا:

- ليس أكثر ممّا تظنّ!!-

لم يقل شيئا، لم يعلّق، وخطا إلى الأمام، فاضطرت أن أتبعه، وقد تعمّدت هذه المرّة أن أصمت، رغم أنّي كنت أنتظر أن يتكلّم، فتتحلّ عقدة لساني فأكلّم أنا أيضا؛ كنت بمعنى ما أريد أن يتخذ المبادرة، كنت بحاجة إليه، وعلى عكس مرّات سابقة، كان لديّ كلام كثير لشدة ما أثقلني كنت أتعجّل أن ألفظه كما تلفظ الحبّة النّواة... - أما أنا، فقد عرفت كثيرات...

وقطع كلامه فجأة كأنه ندم، ثم حين لم يجد مناصبا من المواصلة، قال، وفي صوته شيء من المرارة لا يكاد يبين:

- منذ فترة- (واستدار مشيرا إلى الوراق، إلى رحبة أمام أحد المنازل، حيث كانت إحدى الفتيات تمسك بيدها مكنسة وهي لا تني تنتقل من مكان إلى آخر فينعقد فوق رأسها خيط رفيع من الغبار يجعلها تبدو كأنها ساحرة من ساحرات القرون الوسطى)- وأنا أحاول...

كان واضحا أنه يريد أن يغيّر مجرى الحديث، ولم أشأ أن أتدخل، قلت لأدعه يكمل:

- كلّمّا رأيت امرأة أوفتاة، لم أنس أنّي كنت على وشك أن أتزوّج... وكلّمّا تذكّرت ما حصل لي نقيمت على جنس النّساء، وودت لو حوّلتهم جميعهنّ إلى...

لعلّي حدست الكلمة، الصّرخة، لمحتها تكتب بمداد النّقمة واليأس على ملامحه الّتي لم يكن يظهر منها في ذلك اللّيل إلّا حلّكة شفيفة هي إلى اللّون الرّمادي أميل، «بغايا»...

- تعرّفت إلّهما في المعبد، وكانت وادعة بشكل مثير، هادئة، وربّما ذلك بالذّات ما أغراني بالحديث إلّهما، سألتها إن كانت مرتبطة فأكدت لي أنّها ليست مستعجلة، وقضينا أيّاما مع بعضنا، حدّثتها عن نفسي، عن عائلي، عن كلّ شيء تقريبا، إلى حدّ تلك اللّحظة، كنت أقول لنفسي إنّها لن تذهب بعيدا، وعاجلا أو آجلا، ستكون نهاية عزوبتها على يديّ؛ للأسف، لم ألحظ، حينذاك، أنّي عندما كنت أتحدّث إلّهما كانت هي تلتزم صمتا أخرس، كما لو كانت صخرة صمّاء، والأشياء الّتي عرفتها عنها، لم تروها لي، وإنّما توصّلت إلى معرفتها حينما ذهبت مع العائلة لخطبتها، ما يحزّني نفسي الآن...

شابت نبرة صوته مسحة من الحزن، وكاد يتوقّف، تفرقت الكلمات وخيل إليّ أنّي أسمع نشيجا خافتا ينطلق من مكان ما، غصّة في الحلق، شيء مثل الصّخرة انحطّ من عل فسدّ مجرى الشّرايين،

انحبس الهواء، وتلوّث المشاعر بعفونة مقبلة... تابع:

- ما يحزّ في نفسي أنّي افتقدت والدها كثيرا حين تركتها، كان نوعا آخر من الرجال، أحبّتي كما لو كنت ابنه؛ لكنّ النّعل أخاها هو من ألهمها ضديّ، كان يسخر، يريد أن يزوّجها شخصا آخر متذرّعا بأشياء لا يقبلها العقل، تصوّر أنّه كان يقول لها كيف تتزوّجين رجلا لا يشرب! ويضيف هازنا حتّى يزهدا فيّ تماما، نحن عائلة اشتراكيين، وصهرنا لا بدّ أن يكون مثلنا...

عند هذا الحدّ، تذكّرت شيئا فضحكت رغما عنيّ، كنت حزينا لحزنه، وآلمني أنّ الأشقياء يزدادون شقاء، وكان «رامي» منهم، ولمّا كنت صديقا لـ «رامي»، فقد اعتبرت نفسي شقيّا أيضا، ورثيت له ولنفسي...
سألني:

- ما الذي أضحكك؟

رددت، وقد بدأت الضّحكة تخبو كما يخبو بصيص من النّور
ينبعث من شمعة أشفّت على الاحتراق:

- شيء في البال؟

- هلاّ تفضّلت فأخبرتني ما هو؟

قلت:

- لاشكّ أنّك سمعت بتلك الجملة المأثورة: الرّعيّة على دين

الملك!!

ثار فجأة، وعربد، إلى درجة أنّي استغربت وانتابني حيرة فقدت تحت وطأتها أيّ قدرة على ردّ الفعل أو الكلام، نادرا ما كان يغضب، وقليلة هي الأشياء التي كانت تفقده صوابه وتجعله يفقد رباطة جأشه وبرودة أعصابه... صرخ:

- خسنوا!! الأوباش، أين هم من الملوك!!...

ثمّ:

- لا يمكن أن أنسى أنّها أهانتني... عرّيتي، جعلتني أحسّ كأنّ ماء

باردا ينصبّ قطرة قطرة على جلدي، فيحوّلني إلى قوقعة، دمّرتني
وتربّعت على الخراب الذي هو جسدي... أه، أه!!

كان المشهد، في مجمله، في ذلك المساء، كما لو كان مشدودا
إلى حافتي أرجوحة، يميل تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، والحركة
اعتباطيّة إلى أقصى الحدود، لا تحكمها ضوابط محدّدة، ولكن مجرد
نزق صبيانيّ، يبحث عن الامتلاء خارج قواعد العقل والمنطق... وكان
«رامي» صبيّا، أو ربّما تحوّل، عن غير قصد منه، إلى صبيّ، غدا نزقا
شكسا لأنّ أحدا جاء فافتكّ منه شيئا كان يعتبره عزيزا على نفسه...
وحيال ذلك كلّه، لم أكن أملك أن أفعل أيّ شيء، إلّا أن أنتظر، رغم
شوقي إلى معرفة الحكاية كلّها، تألفت مع الوضع الجديد، وكنت
أحدس، إلى حدّ بعيد، متى سيتوقّف عن الكلام، ومتى سيواصل من
جديد، اعتدت كلمات بعينها، كيف تقال، ولماذا تقال، ولماذا تلك
الكلمات بالذات وليست كلمات أخرى!! الجرح المنكوء، يزداد عمقا،
ويستدعي جراحا أخرى، لا تقلّ عنه ألما، سيّما أنّه اضطرّ إلى الاستدانة
والاقتراض، وباع بعض أشياءه الخاصّة حتّى يتمّ الخطوبة، وفي النهاية
يفاجأ أنّ خطيبته قد تركته دون إعلام مسبق لتتزوج شخصا آخر
يدرّس بنفس المعهد الذي كان هو يدرّس فيه... أيّة مهزلة!!

- كأني كنت أحدس النهاية... نظراتها المترقّعة إلى كلّ شيء،
إحساسها بالتفوق، لا أدري على ماذا...

كان يتكلّم دون أن ينظر إليّ كأنّه يخاطب شخصا آخر في عالم
آخر، وكان صوته بعيدا، يتشرشر أحيانا فيغدو حادّا كاويا، ويخفت
أحيانا أخرى فأحسّه كالرجع يأتي من جميع الأمكنة أو اللامكان...

- على كلّ حال، أنا أشعر أنّ الذنب كان ذنبي، أنا الذي عودتها على
تصرّفاتنا تلك، لم أكن أعلم أنّ فتح باب الحوار، والاستعداد لتقبّل
رأيها كأية آدميّة متحضّرة يمكن أن ينقلب في أيّة لحظة إلى قنبلة
موقوتة من شأنها أن تدمّرني وتقضي عليّ...

وخيل إليّ كأني أسمع ضحكة صغيرة أو ما يشبه الضحكة،
وشعرت لذلك ببعض الراحة، وأنّ الشّد الذي كان مسيطرا على
امتداد الفترة التي غادرنا فيها المقهى قد آن له أن يتلاشى، مفسحا
المجال لبعض الأمل والسلو... وتدخّلت قائلا، في محاولة لأن أخرجه
من جوّ المأساة الذي كان مواربا فيه:

- ومع ذلك، يا صديقي، فالحياة لم تنته بعد، والقافلة تسير...
قاطعني ساخرا:

- وما الفائدة أن تسير القافلة دون حاديه!!

لم أرد أن أفوّت الفرصة. وكنت متأكّدا أنّي إذا نجحت في جعله
يسايرني فمعنى ذلك أنّه سينسى الحزن، وأنّه كان على وشك أن يتزوّج،
وسينسى تلك الفتاة وأخاها «النّغل» الذي ألقى به القدر في طريق
سعادته... قلت بدعابة:

- إذا كانت المشكلة في الحادي، بحثنا عن شخص يمكنه أن
يقودنا إلى نهاية التّيه بسلام!!

وجدنا أنفسنا نلج بوابة كبيرة، ونقترب من بهو أحد المقاهي،
واستقبلتنا أصوات متداخلة مشوّشة تأتي من الدّاخل مختلطة
بروائح شتّى، بنّ محروق، تمباك، وشذى يعبق من أطباق صغيرة مليئة
بالياسمين يحملها أطفال مازالوا في ميعة الصّبا ينادون عليها بنعوت
مغرية وكلمات طنانة حتّى يرغبوا الرّبائن المنتشرين على المناضد
حول كؤوس الشّاي والقهوة والأراكيل في شرائها... ألقبت نظرة شاملة
على المكان الصّახب، ولبت بناطريّ في الرّوايا، كنت أبحث دائما عن
الفراغ، الشّعور، الخواء، ومن جانب المهور الأيمن، كان سكون، تباعد
وهدوء، كان يكفي «رامي» أن أشير إليه، أن يتأمّل خطوي، حركاتي وأنا
أمشي حتّى يدرك مقصدي؛ اتّجهنا إلى أحد النّضد وجلسنا، وما عثم
أن جاء النّادل فطلبنا كأسا من الشّاي وفنجانا من القهوة- على قدر
ولعي بالقهوة، كان «رامي» لا يعدل بالشّاي شيئا، وعلى قدر اشتياقي

إلى رائحة السجائر وهي تلثم بين الشفتين، ثم والدخان ينعقد بعد ذلك فوق الرأس في حلقات أسرة مغرية، كان «رامي» يمقت السجائر كما لو كانت طاعونا...

جاء النادل بعد حين يحمل صينية عليها فناجين وأكواب، وضعها فوق النضد ثم غادرنا إلى الدّاخل... لم يمض وقت طويل حتّى انبعث في أرجاء المكان صوت موسيقى، هفيف يحاكي النّسيم رقّة، مداعبة «البيانو» وهو يوقّع أوائل «أرك عصى الدّمع شيمتك الصّبر...»، سرحنا مع الموسيقى لبعض الوقت، ورشفنا من الفناجين أولى الحسوات، وحملنا الشّروود، ربّما إلى مناطق قصيّة محايدة، كنت أشعر أنّي في وادي وهو في وادي آخر، وأنّ الوقت الذي يمكن أن نلتقي فيه مع بعض ما زال طيّ الغيب، ومع أنّه وارد إلّا أنّه لم يحن بعد...
- يا حادي العيس عرّج كي نوّدّعهم...

ورمقني كأنّه يمتحنني أو كأنّه يريد أن يعيد الأشياء سيرتها الأولى، وأنّ يربط مفتتح الحديث الجديد بنهايات الحديث القديم، فقلت منها الشّطر الثّاني من البيت:

- يا حادي العيس في ترحالك الأجل.

ما كدت أنتهي حتّى سألني:

- إذن تظنّ أنّ إمكانيّة العثور على الحادي في هذا المتاه ممكنة!!
قلت مؤكّدا:

- بلى.

قال:

- أمّا أنا فلست متفائلا إلى هذا الحدّ...

ورفّت على شفّتيه ابتسامة ذات مغزى، وتحرك في مكانه منحنيا على النضد واضعا مرفقيه على القاعدة؛ قال:

- الحادي الوحيد الذي يمكنه أن يخلّصنا من الشّتات الذي نحن فيه هو المرأة، يا عزيزي!!

لم أتمالك نفسي من الضحك، وعدلت جلستي حتى واجهته
وقلت بشيء من الغموض الذي تعمّده حتى أسبرنيته:

- ربّما تقصد المرأة الزوجة، التي ما أن تصبح ملك يمينك حتى
تملّها فتترهلّ، وتعتاد المطبخ فيفقدّها المطبخ ذوقها، وما أن يمرّ عليك
عام أو عامان حتى تكتشف أنّك كنت تعاشر...

سرعان ما قاطعني، كنت بصدد أن أقول: تعاشر مسخا، إلا أنّه
لم يمنحني الفرصة، وحتى لا أسيء فهم مقصده قال موضّحا:

- لقد ذهبت بعيدا هذه المرة! أنا لا أطلب زوجة بعد الذي حصل،
وقد تمرّ سنوات وسنوات حتى أفكر في الزواج من جديد- (كان «رامي»
في نفس سنيّ تقريبا أو يكبرني قليلا)...

واصل بعد قليل:

- ربّما حزرت الآن المرأة التي أعنيها!

وفي الحال عادت بي الذاكرة إلى تلك الرّحبة، وتلك الفتاة التي
كانت تكنس، ولا أدري لماذا تخيلت أنّها لم تكن تكنس بقدر ما كانت
تستعرض مفاتها، في ذلك القميص الضيّق القصير الأكمّام، وشعرها
الأشقر المسترسل، وتلك الجوارب التي انحسرت عن ساقها مؤطّرة
ردفها ومفتّحة فخزين ريانين داعيين... تركت لنفسي أن ألمّ بأطراف
المشهد كلّ، وقلت بعد حين، وأنا ما أزال تحت تأثير إحساس بنشوة
راحلة:

- لن تعدم النّساء إذا أردت...

قال، وعربدت في حلقه أصوات مترققة:

- سيّما النّساء الصّغيرات!!

قلت مدّعيّا الحياد:

- كصاحبتنا.

وأشرت إليه إشارات محدّدة إلى تلك الفتاة التي رأيناها، بحيث لا
يمكن أن يخطئ مقصدي، فقال:

- أرى أنّ ذاكرتك أصبحت تشتغل بشكل جيّد...
وانتظر قليلا ريثما شفط من كأس الشاي بصوت مسموع، وقال:
- لكن للأسف، ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه...
سألت، وقد بلغ الاهتمام عندي أقصى درجاته:
- وما المانع؟!!

أخذ كأس الشاي بين يديه. وبقي ممسكا بها في منتصف المسافة بين فمه والصينية، ولم يتفوّه بكلمة واحدة، ولكن عندما تطلّعت إليه كانت نظراته غائمة، والشّروذ يغلف ملامحه كلّها، كان من الصّعب عليّ في تلك اللحظة أن أكتشف الهواجس التي كانت تداعب خياله، أو أحزر الأفكار التي حطّت عليه فجأة، فجعلته يضيع دفعة واحدة إلى ممالك بلا أسماء ومتاهات ليس للمخوّض في ثناياها من عودة... رفع الكأس أخيرا إلى مستوى شفّتيه، وحسا منها في صمت. وطال الصّمت بيننا مليّا حتّى ظننت أنّه لن يتكلّم ثانية، ولكنّه تمللمل في مكانه، وقال فافتّرفمه عن أسنان صغيرة نضيدة، وطلع صوته حنونا رائقا تكتنف جوانبه لمسات ذكرى نائية:

- لنقل إنّ الرّذيلة تحتاج في أغلب الأحيان إلى مبرّر... أو بمعنى أصحّ، حتّى تكسب الرّذيلة شرعيّتها في عالم يدينها- نفاقا- في الظّاهر، وهو أحرص ما يكون على حمايتها في الخفاء، تسعى الرّذيلة إلى إيجاد غطاء لنفسها...

تدخّلت عند ذلك الحدّ، وقد هالطني تلك المقدّمة التي لا تتناسب مع الموضوع الذي يفترض أنّه أبعد ما يكون عن النّفس الفلسفيّ الذي انخرط فيه. قلت:

- أرى أنّك أصبحت فيلسوفا الآن، يا عزيزي.
ربّما أراد أن يتجاهل كلامي، لكنّ عنّ له في آخر لحظة أن يدسّ نكتة أقرب إلى الدّعابة بين طيّات الحديث حتّى لا يتحوّل كلّ إلى جدّ ونكد، تنحنج، وهو يضع أصابع يده المعقودة على فمه كأنّما يروم أن

يجلو صوته، وقال بسخرية أقرب إلى الابتذال:

- وماذا في ذلك! من الأجدى للمختلّين أمثالنا أن يتخيروا أيّاماً معيّنة من السنّة يتقمّمون فيها أدوار الفلاسفة، لأنك إذا تأملت جيداً وجدت أنّ الفلاسفة في الحقيقة لا يختلفون عنا كثيراً سيّما إذا نسوا أنّهم فلاسفة، وأنّ الفلسفة ليست في أهون مفاهيمها إلّا البحث ليس عن الحقيقة كما يزعمون، ولكن عن العاهرة التي تخبّي تلك الحقيقة بين نهديها، و... «هناك» حيث تعلم ويعلم الجميع!!

ثمّ وهو يعود إلى رأس الخيط الذي أفلته أكثر من مرّة:

- أتدري ماذا قالت الأمّ المصون حين فاتحناها في شأن إبنتها؟!

حين لاحظت أنّه كان ينتظر ردّاً قلت بعدم اكتراث:

- منكم نعرف الخبر اليقين!!

قال وهو يروّضني ليرى مدى تهيّئي لاستقبال ما يريد أن يقوله:

- قالت انتظروا حتّى نبحث لها عن زوج أولاً، ثمّ نتناقش في

المفيد...

كان كأس الشّاي قد أشرف على الانتهاء، شفت آخر حسوة، وقام

مستعدّاً للمغادرة فقامت بدوري، وسمعته يقول كالهامس:

- وهكذا ضاع الصّيد وخاب المسعى؛ لكنّ شأن الأحياء أن يلتقوا

دائماً، فإن لم يكن اليوم، وفي بيت تلك الأمّ الحريصة على مستقبل

إبنتها، ففي يوم آخر، وفي أيّ مكان يمكن أن تصطاد فيه النّساء...!!

حضرني في تلك اللّحظة قول قرأته لأحد المؤرّخين، فلم أجد أبلغ

منه، وجدت نفسي أقول دون وعي، وأنا أخطو إلى الأمام حتّى ألحق به:

- نسأل الله حسن العاقبة!!

(...) السَّاعَةُ الَّتِي أَعْتَقَدُ أَنَّهَا فِي مَكَانٍ مَا مِنَ الشَّقَّةِ، لَا تُشَبِّهُ فِي شَيْءٍ السَّاعَةَ الْآخَرَى، سَاعَتِي، أَوْ كَمَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا بَعْضُ الْمَغْرَمِينَ بِالْقَوَالِبِ الْجَاهِزَةِ، «السَّاعَةُ الدَّاخِلِيَّةُ»: الْأَوَّلَى تَتَكَ عَقَابِهَا رَتِيبَةً، مَمْلَأَةً، وَمَزْعُجَةٌ أَيْضًا، حَيْثُ يَكُونُ عَلَيْهَا أَنْ تَطْنَ بِعَنْفٍ بَعْدَ مَرُورِ كُلِّ سَاعَةٍ. وَكَلَّمَا أَزْدَادَتِ السَّاعَاتُ، تَزَايَدَ الْإِزْجَاجُ أَيْضًا، سَتَحُلَّ السَّاعَةُ الرَّابِعَةُ، وَسَتَسَارِعُ ضَرْبَاتُ الْبَنْدُولِ، وَسَتَتَالَى أَرْبَعُ دَقَّاتٍ، وَسَيَدُورُ الْعُقْرَبُ الْكَبِيرُ فِي مَدَارِ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ، وَكَذَلِكَ سَتَمَرُّ كَسَابِقَتُهَا، وَسَتَنْسَى إِلَى حَيْنٍ، تَشْغُلُ نَفْسَكَ بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى غَيْرِ السَّاعَةِ، وَحِينَمَا تَعُودُ إِلَى عَالَمِ الشَّقَّةِ بَعْدَ تَهْوِيَمَاتِكَ وَشُرُودَاتِكَ سَتَجِدُ أَنَّ السَّاعَاتِ قَدْ مَرَّتْ دُونَ أَنْ تَحْسَبَ بِهَا، تَعُودُ مِنْ رَحْلَةِ الْقَلْقِ إِلَى الْقَلْقِ، وَتَحَاوُلُ أَنْ تَسْلِيَ نَفْسَكَ بِأَيِّ شَيْءٍ، وَبَيْنَ الْفِينَةِ وَالْأُخْرَى تَنْتَظِرُ أَنْ يَدُقَّ جَرَسُ الْبَابِ الْخَارِجِيِّ، أَوْ يَرْنَ التَّلْفُونُ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى، تَمْتَدُّ يَدُكَ إِلَى الْفِرَاقِ، فَتَتَعَثَّرُ دُونَ قَصْدٍ بِالْحَقِيقَةِ «السَّمْسُونَايْتِ» الَّتِي اشْتَرَاهَا «رَامِي» مِنْذُ أَيَّامٍ، وَتَفْتَحُهَا فَتَزُورُ عَيْنَاكَ بَيْنَ الْعَنَاوِينَ الْعَدِيدَةِ، تَسْتَعِيدُ فِي الذَّاكِرَةِ غُلَافًا، وَصُورًا، وَحُرُوفًا صَغِيرَةً جَدًّا، وَأَمَاسِي صَيْفِيَّةً، عَلَى سِرِيرِكَ فِي طَرَفِ السَّوْرِ الْبَعِيدِ، كَمَا تَذْكُرُ الْحَرَارَةَ الْقَاتِلَةَ. فِي أَوَاسِطِ أَغْسَطُسَ، أَلَمَّا فَاجَعَا لَوْطَاتِهِ تَشْعُرُ كَأَنَّهَا تَمْتَصُّهُ مَسَامَكَ قَسْرًا، بَلَا خِيَارٍ؛ الْقَاهِرَةُ، الْآنَ، وَفِي كُلِّ وَقْتٍ، كَبِيرَةٍ، بَلْ مَتَاهَةٌ يَحْلُوفُ فِيهَا الضِّيَاعُ، بِكُلِّ الْمَقَايِيسِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ مَدِينَتِي الَّتِي أَهْرَبُهَا مَعِي، أَحْفَظُهَا فِي سَوِيدَاءِ الْقَلْبِ، صَحِيحٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَبِيرَةٌ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةُ، وَلَكِنْ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْتَوْعِبَ الْقَاهِرَةَ، حَوَارِيَهَا، الْأَصْدَاءَ الْمُنْبَعَثَةَ مِنْ بَيْنِ نَوَاصِيهَا، وَالْمَقَاهِي الْعَابِقَةَ بِرَائِحَةِ التَّارِيخِ، وَقَصَصَ الْحُبِّ الَّتِي لَا تَعْرِفُ مَتَى تَنْفَجِرُ فَتَجَرَّ فِي طَرِيقِهَا كُلِّ شَيْءٍ، اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَهْرَبَ الْأَصْوَاتُ وَالْأَمَانِيُّ الرَّكَادَةُ فِي الْأَعْمَاقِ الْمُظْلَمَةِ، وَحَلُمَا بِالسَّيْطَرَةِ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ...!! «الزَّيْنِي بَرَكَاتٍ»، لَيْسَ هُوَ فَقَطْ، كُلُّ الَّذِينَ قَرَأَتْ عَنْهُمْ، كُلُّ الَّذِينَ عَاشَرْتَهُمْ فِي دِهَالِيزِ الذَّاكِرَةِ، كَانَتْ تَرْتَسِمُ لَهُمْ صُورٌ

لديّ، والحقيقة أنّ تلك الصّور كانت تأتي وحدها، تتنثّى، في إغراء، وتنطرح مثل الحيّة الفتية، تتلوّى، وأحسّها تلتفّ على الحروف وتسري مع الكلمات، ربّما لست مثل غيري، وربّما كنت محروما من أشياء كثيرة تميّز غيري، لكن كنت أقول أنّ ذلك لا يهمّ، ما دامت المدينة التي في رأسي تعمل دون هواده، ومادام هناك إمكان الهروب في أيّة لحظة، من الواقع الملوّث بألف حكاية وحكاية مبتذلة إلى مبتدأ التّاريخ، أصل الحياة، عند مفترق طرق، تشعر في البداية بروع وخوف حيالها، ولكن ما أن تخطو الخطوة الأولى حتّى يغدو كلّ شيء غاية في الوضوح، بداية من المسار، وجغرافيّة المكان، إلى النّهائيات، والأفكار العظيمة، الأحلام، الأوهام، التي أصبحت في يوم ما، إنجازا من ألف إنجاز كان الإنسان ينظر إليه على أنّه ضرب من هلوسة العقل!!... كثيرا ما فكّرت في الضّياع، الانغماس في تجربة قصوى، فكّرت في النّسيان، وإمكانية أن أجد حروفا جديدة، حروفا لم يقلها الآخرون، حلمت أنّي أوّسس لكون آخر خارج حدود الزّمان والمكان، واتّخذت صنائع، لها حركة الدّمى المتحرّكة على المسرح الخشبيّ، لكن لها أيضا أصالة الإحساس بوجوب بعث آخر من بين أكناف الملل الذي يلفّ الكون والنّاس، ثمّ أضحك من نفسي، ويتلبّسني شعور بالهوان والعجز، من أنا، وبأيّ حق أفكّر في الأشياء التي فكّرت فيها، أيّ بعث وأيّة أصالة؟! وأيّ إنسان جدير بأن يحيا، خلافا لما يعيشه الآخرون؟! لكن لا أصمد طويلا، تتوارد بنات الأفكار، فتمحو الهواجس السّابقة، وأجد أنّ نفس الأحلام تداعبني، تغريبي بمتعة التجربة، محاولة التّشكيل من العدم الذي كان منه كلّ شيء، أهرب إلى الحروف والكلمات، أجعل منها منطلقا لصياغة أخرى، لهيئة غير الهيئة، لأمل غير الأمل، وأحلام غير الأحلام!!... وكما تلوذ البنت الغريرة بالصّق الأشياء إليها وأقربها منها، دميّتها، ألوذ أنا بعشرات الروايات التي كنت انتقيتها بعناية شديدة، من مكتبات أعرفها وأخرى لا أعرفها، بعضها عتيق موغل في العتاقة وبعضها الآخر

أضاف إلى أسماء العناوين الجذابة جاذبيّة الفترينات الرّجاجيّة، تتوزّع على امتدادها الكتب في لمسة فنيّة لا تخطئها العين... وكما تنشد تلك البنت الألف والأنس عند دميّتها كنت أنشد راحة عصيّة، أتعثر عند العتبات والمداخل، وأوشك على السّقوط في كلّ مرّة، كنت أتوخّى طرقا غير الجادّة المحدّدة بآلاف الحواجز المنصوبة بعناية على حوافّ المسالك، وشيئا فشيئا تستقيم السّبل وتهزم جرّاتي التي كانت تقرب من التّهور العوائق جميعها، وما ألبث أن ألمس في داخلي قوى مجهولة، فينقلب كياني كلّهُ، أنسى للحظات أنّي الإنسان الذي كنته منذ المنشأ، أنسى الضّعف الذي فطرت عليه، والإرهاق الذي توارثناه في العائلة، منذ جدّي الأوّل، إلى الأبناء الذين كنت أفكر في إنجابهـم دائما، ذات يوم، عندما يحين الوقت كي أتزوّج!! متفائل!!؟!...

منذ البدء، كنت أعرف أنّ ثمانية أيّام لا تكفي، وأنّ نشوة بهذا العمر من غير الممكن أن تعمّر طويلا في الذاكرة؛ والأصعب من كلّ هذا العجز عن خلق حميميّة ما مع المكان، عدم القدرة على خرق اعتياديّة الحياة في تفاصيلها الجزئيّة إلى حسن عميق بما وراء الأشياء، اكتشاف المعاني الكبيرة التي تختفي، دائما، تهر العين فتحجب الرّؤية، كأشعة الشّمس تنصبّ على العينين، فتنسينا-وسط الإحساس بالألم المفاجئ- رغبة غامرة في ممارسة الوجود... هذا ما ولّد لديّ مشاكسة ضارية في مواجهة الزّمن، وضاعف من تسارع ضربات السّاعة الأخرى، التي كان من السّهل عليّ أن ألمس دقاتها في داخلي، حتّى لكأنّي أشعر بها تمتزج مع دقات قلبي!! كان من عاداتي أن لا أصحو مبكرا، وأن أطيل فترة نومي إلى ما بعد الضّحى، سيّما أيّام العطل، أو في نهايات الأسبوع، أتعلّل أن لا شيء يمكن أن يشغلني على الإطلاق، فلا مسؤوليّات ولا التزامات من أيّ نوع، ولعلّي قبل أن أصحو كنت أطرح عشرات الأسئلة على نفسي، أستشرف رتبة اليوم، ورتابة الأحداث التي تتكرّر، والقلق يدبّ ويبدأ، فينشأ أظفاره في الدّماغ، وتتوارد الخواطر والأفكار، وتبدأ الرّحلة

التي لا تنتهي، من التشتت إلى الضياع، ومن الشرود إلى التلاشي، كنت أجدب الغطاء إليّ، وأدفن رأسي في المخدة، وأغمض عيني، ممتنًا نفسي بالعودة إلى النوم، وما أسرع ما كنت أغرق فيه من جديد، انسداد الستائر، والباب المغلق، والهدوء، والظلمة، العتمة وهي تلف الغرفة، كل ذلك كان من شأنه أن يعجل بأطياف الأحلام، أحلام غير مترابطة غير أتمها لذيدة، لحظية، بارقة في سلسلة زمن خلبي غير منظور، ترى أثرية ولا صورة، أرواحا هفهافة، أشياء تعتقد إذا أفقت أنك ربما تكون فعلتها أو رأيتها ذات مرة ونسيت، وأنتك تتذكرها الآن، وتغيبط لذلك، إلا أن بعض التفاصيل، الجزئيات البسيطة، واللازمة في الوقت نفسه حتى تكتمل الرؤيا، تفلت منك، تنمى إلى حد الغموض، كانت لا تخلو ليلة من الأحلام، ومع أتمها كانت في أغلب الأحيان تترافق مع كوابيس سوداء مخيفة، إلا أنها تظل مطلوبة ومرغوبة... أول ما أبتدى به النهار، والمزاج رائق، بعد التغريبة الكونية، ميول سيظل ملاصقا إلى الأبد، في عداد المشروع الأبدي، القراءة إلى ساعات وساعات، وإلى جانبي فنجان القهوة، وعلبة السجائر، لم أكن معنيا بالوقت الذي يمر، كما لم أكن أبه بالحياة التي كانت تضطرب من حولي، الأصوات داخل البيت، والأشخاص العديدين وهم يدخلون أو يخرجون، وحتى مؤامرات جدي المحسوبة لاصطيادي، والزج بي في خضم حديث لا أول له ولا آخر، عن الماضي الأثيل، وأوسمة الشرف، ورؤسائه في العمل من إيطاليين وفرنسيين، اشتغل معهم ففرض عليهم احترامه كأول وطني التحق بشركة السكة الحديد في وقت مبكر جدا... عن خيباته المتلاحقة، ومهانته، بعد العز والدوال الكثيرة التي كانت له على الزوجة والأبناء، ثم بعد أن خانت الحياة، فألزمته الفراش بعد العمليات العديدة التي أجراها في غفلة من الجميع، وعلى أمل استعادة شباب ضاع منه في المنعطفات والسراديب الباردة الخطرة، ينحط بثقله على الأرض، يجثو على ركبتيه مرغما، ويضطر إلى ملازمة الفراش بادئ

الأمر والتبؤل فى كفس بلاسلىكى؁ وأآباع نظام ءمفة صاءم والامآناع عن الوءباف الءسمة المالمءة؁ ثم فى مرءلة آالفة؁ وقد اقآناع أن الذى فاف لن فعود أبءا؁ وأن الإنسان فعفش ءفاه مرءة واءءة؁ وأن القوءة لا مءالة إلى الضعف راءعة؁ أصبء فسآفن بعصا تمفل إلى الاعوجاء لآساعءه على بلوغ السرفر الخشبى الموضوع فى رءبة ءوش؁ فى ظلال «الفرنءا»؁ فصء الءرءاف الآلاف؁ ببوء شءفء؁ وقبل أن فآمءء على ءشفة فكون قء ألم بكل ما فءور فى البفآ بمءرء أن فرمق المشء بآرف عفنه؁ فطمئن إلى وءوء ءءف ما أن فسمع صوفها فآففه من المآبف؁ فءمءم بكلماف؁ فبرطم بأءرف فر مفهومة لكن فىها آبرما واضءا ومقآا وزرافة؁ لا شك أنه فذكر آلك الأيام الآف كان فىها السفء المآلق على كل شفاء؁ لفس المنزل فقط؁ وإنما فضا الأآاف الذى فى المنزل؁ والأءساد وءى الأرواء؁ فعرف كل كبفره وصفره؁ ولا فآورع عن الضرب؁ فسب؁ فشم؁ فصرء... فءرص أن ففعل كل شفاء بنفسه؁ رغم المرض؁ فآامل على ففكله الفانى؁ لا لشفاء إلا «لفسءل نقاتا فضا ففة» له على ءمفع؁ بءافه من ءءف الآف كانت صوفرآها مقآرآه فى ءهنه بصورة شفطان ذف أنفاب ءاءة؁ إلى ءالفى المسكفنه الآف- رغم طلبافه الكآفره والمآكررة- كانت آءارفه كما لو كان طفلا صفراف؁ وآءرص ءهء طافآها على رضاه!!... كنت أءافه؁ أففافى اللقاء به ولو عرضا؁ ءفى لا أنورط معه فى ءءفء؁ وءءفء معه إذا ابآءا لا آعرف مآ ففآف!!... آءلو القراءه بعفءا عن المنفصاف؁ كما آءلو ءسواف القهوءة؁ ومع القهوءة آرآسم ءءوء وءطوط؁ وآءهار فوافل لآقوم مقامها فوافل لممالك ءففءة؁ أنت آشكلها وفق رغبالآ ونوازءك؁ فؤسسها كما فؤسس الفارس القاء ءصنا من ءصون الآف كانت فوما ما شفنا ذا بال؁ وما زالت إلى ءء الآن أآرا من الآثار؁ ربما قءرا مءءرا؁ وشاهءا من شوافء العماره اسآطاعث أن آءلء؁ لا لشفاء إلا لأن بها ءسا من ءمال روح لم فكن فعن لها إلا أن آهب

نفسها، كاملة، بتمامها، كريمة مسماح، معطاء واهبة...!!
كأني في سباق، كأني كنت أخشى أن تضيع الفرصة مني دون
أن أحقق ولو جزءا بسيطا مما كنت أنتوي أن أحققه، أماكن للزيارة
أخلف مواعيدي معها، وأعبر دون أن أتعرف إليها في الخضم، أماكن
بعينها عرفتها من قبل، قرأت عنها وشدّتي إليها كما يشد المغناطيس
الأشياء ذات الرنين، شوارع ذات روائح خاصّة، ودهاليز معتمة لا
تصلها إلا بعد أن تتعثر بها خطواتك بين الحارات والأحياء، وهينة ما،
خيال يتهادى أمامك، من موقفك في المقهى البعيد الذي ولجته، وقد
أفضت إليه عطفة السلطان «الظاهر بيبرس». تراها فكأنك لأول مرة
تري امرأة، لا لم تكن شابة، ولكنها ناضجة بتلك المشية المترججة،
وذلك الكفل الخرافي وهو يتمايل كما يتمايل الغصن الأملود ذات
مساء ربيعي وقد هفت من المدى هبة نسيم عابرة، حاملة معها شذى
كشذى المسك، الضرب وسط الميادين، وعيناك تلوبان، رغبتك في
استثبات العلامات، أو ربما مجرد لون أو شكل، واجهة باب، مدخل
شارع، عتبة، أو بوابة مسجد، أو نصب من النصب المتوزعة هنا
وهناك، أو دكان على الناصية، كان ذلك يغني عن الأسماء، ولم أكن
بحال قادرا على حفظها لكثرتها، كان التاكسي آخر ما أفكر فيه، حل غير
مرغوب، فإذا ما بدأ التعب على «رامي» قدته إلى أحد المقاهي، هناك
نجلس ونطلب شايًا وفنجانا من القهوة ونتطلع إلى الفضاء الخارجي،
نتوارب وسط الأصوات المتداخلة والحياة التي لا تكف لحظة واحدة
عن الاضطراب، في «السيدة زينب»، و«بولاق»، و«سيدنا الحسين»،
و«خان الخليلي»، ومرة عبرنا إلى «الجيزة» مشيا على الأقدام... كان
التهارفي بدايته عندما أفقنا، اضطرت اضطرابا إلى التخلي عن عادة
النوم إلى الضحى، وما أن ذهبنا إلى الحمام وغسلت وجهي وغيّرت
ثيابي، الحذاء الرياضي، القبعة والقميص، حتى غادرنا الشقة، من
العمارة انعطفنا إلى اليمين، وانطلقنا باتجاه الكاتدرائية ذات اللون

الأحمر المميز إلى مفترق الطّرق، ومن هناك إلى محطة الحافلات، عبرنا المحطة ومشينا مهتدين بالتّوجيهات التي كنّا نتزوّد بها في كلّ مرحلة من مراحل الطّريق، وبلغنا «الجيزة»، وذهبنا إلى حديقة الحيوان... ومرة أخرى زرنا «الجيزة» بالحافلة، في بواكير الصّباح، كان المكان ساكنا، والحافلة مركونة في مكان ما، مازالت تنتظر الرّكّاب الّذين لم يأتوا بعد، دخلنا فلم يعترض سبيلنا أحد، جلسنا، كنت أنظر من خلال النّافذة الرّجّاجيّة إلى النّاس وهم يروحون ويجيئون، إلى واجهات الأماكُن المتباعدة، وإلى الخطوط الواضحة مرفوعة بشموخ إلى هام العمارات معلنة عن عيادة الدّكتور فلان أو علّان، وإلى بعض الأشخاص على دراجاتهم الهوائية يحملون فوق رؤوسهم صواني عليها كمّيّات لا تعدّ من الخبز، يجوبون بها الأحياء والدّكاكين ولا يعودون إلّا وقد باعوا كلّ شيء، لم يمض وقت طويل حتّى غصّت الحافلة، وجاء السّائق و«الكمساريّ» وماهي إلّا لحظات حتّى هدر المحرّك، استدّار رجل طويل في اتّجاهنا، ملامحه محايدة لا تشي بشيء، كان يحمل دفترًا، ولمّا اقترب منّا، قلت له بلهجة قاهريّة واضحة: تذكرتان إلى «الجيزة»، قطع التّذكّرتين ومدّهما إليّ، فأعطيته أربعين قرشًا، عندما اقتربت الحافلة من الوصول، غادرنا أماكُننا إلى باب الخروج، كان علينا أن نغادروثبا، ولم أكن قد حسبت حسابًا للحذاء، انطلقت خارجًا وما أن وطئت قدماي الأرض حتّى سقطت، لممت نفسي بسرعة ووقفت وأنا أشعر أن كلّ النّاس من حولي قد التفتوا إليّ، أنّهم ضحكوا في داخلهم لهذا الغريب الّذي ما يزال غريبًا في عالم متحرّك، لا يهدأ!!

العقارب لا تكفّ عن الدّوران، والسّاعة في صراعها الجهنميّ تطوي الدّقائِق والثّواني، تختصر الزّمان، وتولّد من داخل المكان أمكنة لا حصر لها، تبدأ هلاميّة، ثمّ، وعلى غير موعد، يمتلئ بها رحم الفراغ وما تعتم أن تظهر أمامك، عرائس، في أبهى حللها، تزيّن من أجل اللّيلة الفاصلة، وقد ضربت موعدًا مع النّيل، يرسمن صورًا عن الفرسان

والأفراس، ويتبخترن، في خطى العذروات اللّواتي لم يطمئن بعد، ما ينتظرهنّ لا يهمنّ كثيرا، غير أنّهنّ متأكّدات أنّه بعد مراسيم الحبّ، والحمى الجارفة، واللّواعج الّتي لا تسكن ستستقرّ النّطفة في العمق الغامض، وستخصب البويضة غداة اللّقاح، وما هي إلّا أسابيع حتّى تبدأ الرّحلة الجنينيّة، العلقة فالمضغة فالعظام فالكساء لحما، ومع الشّهر التّاسع، بين أتون عوالم مائيّة، بين الخضرة العارمة، وحقول المرجان والأحلام البحريّة، والحكايات، تلك الغائبة الحاضرة في أصل ذاكرة لا تملّ من المعاودة والتّكرار، ستظهر إلى الوجود عرائس أخرى، لها ملامح العرائس الأوّليات، الضّفائر المجدولة، القوام الرّشيق، النّظرات القاتلة، دورة كاملة، هي الحياة بأسرها، محفوفة بعشرات الأهرامات، ينتصب على غير مبعدة منها الملاك الحارس، أبو الهول، على الرّغم من الجرح في الأنف، والرّطوبة والحرارة وتقلّبات الطّقس في العراء المنسيّ إلّا أنّه لم يفقد حاسة الشّم بعد، يراقب الوجوه، الشّواهد الّتي يأتي بها النّاس، فيشهدونها على الشّواهد القديمة، وقد تركت بصماتها عليها آخر الملكات البطليميّات الّتي لا يعرفون عنها سوى أنّها كانت أجمل امرأة في العالم، لم يتولّه بها «ماركو أنطونيوس» وحسب، وإنّما أيضا الإمبراطور الرّوماني «أكتافايوس» قيصر- أو «أغسطس» قيصر، كما صار يعرف فيما بعد... يا «كليوبترا»، الصّمت- البداية- النّهار- الحرارة- المدخل إلى المكان الّذي أراد أن يسجّ التّاريخ، فهل سيّجّه فعلا؟- من يضع يده على كلّ شيء- المركبات الغربيّة- الأفراس- في كلّ مكان- الصّيّادون المحترفون- وهم يفتحون لك الجنّة على مصراعهما- يستغلّون رغبتك الجارحة، جموح رغبتك إلى البداية، في الوادي، بين قبور الملوك، «رمسيس الثّاني»، «أحمس الأوّل»، «تحتمس الثّالث»، «نفرتي» الجميلة، من أجلها طلق «أخناتون» العالم، تزوّجها، وكسبها إلى صقه، شخصا آخر، يعتنق ديانة الشّمس، يتخلّى عن التّعديّة الدينيّة، ويبني معبدا لإلهته

الجديدة في تلّ العمارنة... كان من السهل علينا أن ننطلق إلى الجانب الآخر، مجرد أن نتوخّى الجادة، وما هي إلّا لحظات حتّى نصل إلى الأهرامات، ولكن وجدناه أمامنا، كالقضاء الذي يأتي على غير موعد، بكرشه السمينه وجلابيته الزرقاء غير النظيفة، وضحكته الصفراء، من النظرة الأولى كشفته، بدا عاريا أمامي، قال إنّه من غير الممكن الوصول إلى الأهرامات من تلك الناحية التي كنّا ننوي الذهاب فيها... قلت: كاذب، وتعمّدت أن تظهر آثار الكلمة على ملامحي، غير أنّه كان ينوي الصمود إلى النهاية، كان يعتزم الانتصار في المعركة، لا شكّ أنّه يعتبرها معركة لا بدّ فيها من تحقيق الفوز، فأربعون جنيا تستحقّ أن يخوض من أجلها حربا ضروسا...

قال، وقد اقتنعت تماما أنّه تحوّل إلى تاجر، بحركة يديه، وشفطه الدخان من سيجارته على مهل، وابتسامته، وهيكله الذي حرص أن يجعله رشيقا رغم أنّه ليس من الرشاقة في شيء؛
- إذا أردتم المركبة، أو أن تركبوا فرسين، وسيصحبكما دليل...
كلّ ذلك بعشرين جنيا للشخص الواحد...

تمهّل، تباطأ قليلا، وهو يرمقنا بعينيه الذئبيتين، ربّما لاحظ شيئا ما على وجهي، فقد ضبطته وهو يحاول أن يتفاداني وعلى شفّتيه ما يشبه الامتعاض، «رامي» كان طلبته، ولعلّي اكتشفت ذلك، في الوقت المناسب، أخذت بيد «رامي» وانتحيت به جانبا، قلت له قبل أن نتورط:

- أفضل الذهاب مشيا على الأقدام.

قال «رامي» معترضا:

- ولكنّ الرجل قال إنّ ذلك غير ممكن...

تصدّيت مقاطعا بغضب، ولا أدري لماذا فعلت ذلك:

- وهل صدّفته؟ إنّه كاذب!

كان «رامي» مصمّما على خوض التجربة، فقال حاسما الأمر:

- لنفرض أنّه كاذب، ما يمنعنا نحن من التّجربة، والمبلغ، على كلّ حال ليس كبيراً، فقط أربعون...

وافقت على مضض... وجاء الدّليل بفرسين ساعدنا على امتطائهما، المرّة الأولى الّتي نركب فيها أفراساً، كنت أحسّ بشيء من الخوف، ولكنّه طمانناً قائلاً، إنّ الأمر لا يستحقّ كلّ هذا الخوف، كانت الفرسان سلسيتين، طيّعتين، ومضينا ثلاثتنا نشقّ بعض الممرات الضّيقة، لاحظت أنّ الدّليل قد انتقاها مسبقاً لأنّ له فيها أشخاصاً يشتغل معهم، بائعي بطاقات بريديّة، ومصوّرين، وبائعي أفلام فوتوغرافيّة... نداءات مغرية، جرس معتاد منذ اليوم الأوّل الّذي نزلنا فيه القاهرة، الألقاب الّتي تخرج من الأفواه جزافاً:

- أفلام، يا بيه!!!...

بلا مبالاة:

- بكم؟

- بعشرين فقط.

- كثير جدّاً!

- بخمسة عشر.

- كثير أيضاً.

- بكم تريده إذن؟

- بعشرة فقط.

- خليها اثني عشر وشيل.

- آخر كلام بعشرة...

مشهد مبتذل من فصل تعمّده كي أغيب الدّليل، أتحيّن فرصة مراقبته، أظاهر بالنّظر إلى الجهة الثّانية، ولما تقع عيناى في عينيه أتماسك كي أجعله يظنّ أنّها مجرد مصادفة، يتقلّص وجهه، يحطّ عليه حزن مفاجئ، يتماسك بدوره كي لا تبدو لعبته مكشوفة، صيد أخريضيّع، ولربّما لم يعتد في حياته أن يضيّع منه صيد بهذه السّهولة،

يتكلم طوال الوقت، يجهد أن يتغلب على اضطرابه بالكلام، ويبدو أنه كان متمكنا من عمله جيدا، يعرف الأماكن مكانا مكانا، المواد التي صنعت منها المشغولات والتماثيل، كنت بجانبه وكنت أظاھر بسماعه، وما كان يشغلني حقًا نهاية الرحلة... هاجس يهتف بي أنه سيطلب نقودا، مع أنه أكد في البداية أنه لن يأخذ شيئا منا... كنت أقول لنفسي لا يمكن أن يكون هذا الدليل أفضل من ذلك الرجل السمين «الذي ضحك على ذقوننا»... وكان الأمر الذي كنت أخاف منه، قال «رامي» غاضبا:

- لا تدفع له شيئا!

أحبته وأنا أحاول جاهدا أن أكظم الغيظ:

- الآن تقول ذلك... لا تنس أنك أنت الذي كان يصبر!!

- ولكنّه قال إنه لن يأخذ مالا!!

قلت وقد بدأت نبرة صوتي تعلو قليلا:

- وهل تصدّق كلّ ما يقال لك، خصوصا ما يقوله هؤلاء

المتحذلقون!

غدت بباسة رأس «رامي» لا تطاق وهو يقول:

- لا تدفع...

التفت إلى الدليل، قلت بازدراء:

- كم تريد؟

بدت على شفّتيه ابتسامة مأكرة خبيثة، تنحنح ثم قال:

- أربعون!!

لم أتمالك نفسي وانفجرت في وجهه:

- أنت مجنون...

وبعد قليل:

- لن أدفع شيئا.

قال بمسكنة وقد بدأ يقتنع أنه ربّما خسر كلّ شيء:

- ادفع ما تريد.

كان لا بدّ من أن أشفي غليلي، وقلت محتدّا:

- هذه الطّرق الملتوية لا تعجبني، لا شيء كان يجبرك على الكذب؛

ومع أنّك لم تكن واضحا معنا سأعطيك خمسة جنيهات!!

وأخرجت الورقة النّقديّة من الحافظة ورميتها تقريبا في وجهه،

وانصرفت فتبعني «رامي»، وقد سمعته يقول «مع السّلامة» ولكّني

تجاهلته كما لو كان شيئا من الأشياء الّتي خلفناها وراءنا، ولو أنّها

كانت أخفّ حملا وأغلى ثمنا!!

لماذا كان انشغالي بالتّاريخ أكبر ممّا عداه؟! أكبر من كلّ شيء

آخر، الأحياء الرّاقية، والفنادق، والمحلات ذات الواجهات العملاقة

وهي تزهب بشقّى البضائع النّادرة، وحتّى المكتبات الّتي كنت منذ اليوم

الأوّل شديد السّؤال عنها، والأكشاك، حيث الإسطوانات القديمة لـ

«السّت»، وأشرطة كاسيت لفنانين مازالوا في البال، وتنكّر لهم الزّمن،

فاختفت أسماؤهم من الأسواق كما لو كانوا بقايا مرض عضال يخشى

على النّاس من فتكه، وهم الّذين كانوا ملء العين والبصر، في مكان غير

المكان، وفي زمان كان يعرف كيف يقدر الموهبة ويحتفي بها... لكنّ ذلك

حديث آخر، وشوق يلمّ بين اللّحظة واللّحظة، في حالات من الصّفاء

والتّجالي، عند الخلوّ، لا جليس سوى الصّمت والوحدة، والأصوات

الصّادحة تأتي من الحاكي أو المسجّل القائم غير بعيد منك!!

في القلعة جنون آخر، انسيابية لا أدري كيف أصفها، مع

شدّة تمنّع أقرب إلى الحياء، تبدو في استحالتها وكأنّها تأبى أن تتلوّث

بأصداء الحياة الآتية من الجهات السّت، حتّى الطّريق إليها، خارطتها،

مواربة في طيات لا يمتدّ إليها إلّا بالسّؤال، حيث تقطع مسافة من

الطّريق ثمّ تتوقّف عند حدّ ما، وقد تملّكتك الحيرة والاضطراب وأنت

ترى ذلك الخليط من النّاس، من أهل البلد ومن سيّاح، يمضون في

أرتال متتابعة، إليها، لكن تسأل نفسك: من أين يدخلون؟! والأسوار

قائمة أمامك في شموخ القرون الدّابرة، والبوّابات الّتي ترتفع عن الأرض عشرات الأذرع كأنّها تذكّر بمنعتها وسلطانها... نمضي في شارع كان يرتفع قليلا قليلا، وكلّما مضينا مسافة من الطّريق كنّا ننظر إلى الحيّ الّذي أخذ إسمه من القلعة، تطالعنا الحافلات، والبنائات الكبيرة الكثيرة، والوجوه العابسة الضّاحكة، في ذلك اليوم الممطر، نغذّ المسير، وبعد لأي نصل إلى بوّابة الدّخول، تعبق رائحة المكان في أنوفنا، ومن أكناف القرون السّحيقة، كما لو كان في الحلم، يجيء الغلمان بملابس التّشريفه فيستقبلوننا مرحّبين، ونتبعهم، نحسّ إحساسا غامضا أنّ المكان بأسره هو طوع أمرنا بما فيه ومن فيه، ونرتقي الدّرجات إلى المسجد، إلى القباب الّتي تكاد ذوائها تعانق أجواز الفضاء، الأعمدة، النّقوش، والسّجّاد الأحمر، وفي الأعلى من كلّ جدار أبيات «البردة» للشّيخ «البوصيري»، كنت أرى «محمّد علي باشا»، أراه حتّى من قبل أن تنطبع صورته في مخيلتي، يهبّ من مرقده بشاربيه ولباسه السّلطانيّ وسيفه وقد تخلّص من كلّ الممالك، وقام في النّاس معلنا بدء عصر جديد، لكلّ ركن رائحته الخاصّة، وفي كلّ زاوية من الزّوايا ينتابك شعور جديد، تتمنّى لو يعود بك التّاريخ إلى الوراء، إلى العتاقة الضّاربة جذورها عميقا في خصوبة الأرض المعطاء، أرض ولود تشيل الهموم سنين ثمّ تنتفض فجأة فيتغيّر وجه العالم... ومن المسجد نمضي إلى المتحف، إلى المقصورة، الّتي لا شك أنّها أنشئت وفق تصوّر ماضويّ كان يستوحي من روح الزّمن الدّابر، ولكيّ كنت تحت تأثير إحساس لا يقاوم أنّ كلّ ما كان يحوطني هو في الحقيقة واقعيّ إلى أبعد حدود الواقعيّة، وأنّ أولئك الأشخاص، الّذين لم يكونوا إلّا دمي قد ألبست الطّرابيش العثمانيّة والملابس المنشأة بالقصب والأحذية الّتي تستقيم ثمّ تنعقف في النهاية، إنّما هم كائنات تسمع وترى، وتحسّ بنا ونحن ندخل، إلّا أنّها لسبب ما كانت تتجاهلنا وتخوض فيما كانت تخوض فيه، الوالي على كرسيّ السّلطنة، ومن ورائه الحراس، وعلى

يمينه وعن شماله الوزراء والمستشارون، وفي الوسط الأركيلة الطويلة، وقد انتهى خرطومها في فم «محمد علي»... نخطو إلى الأمام، نوغل في عمق المكان، ألتفت إلى «رامي» فأضع إصبعي على فمي دلالة الهدوء، أنصحه بالحذر، أقول له إنَّ للحيطان أذنان وإنَّ للمنازل حرمان، وهل لمكان آخر حرمة أكثر من حرمة المكان الذي انتهينا إليه، حيث الكسوة الشريفة، التي كان يذهب بها المحمل إلى الكعبة المشرفة؟ تعبق روائح زكية، سرعان ما تسطع الأنف، ويسري الخدر والانتشاء إلى المسام، وتردد الأعماق في تبثّل وخشوع: «أمن تذكر جيران بذي سلم...!!»

أشعر بجمي في الرأس، تتشوّش الأحداث ويمتزج الحاضر بالماضي، ويغيم المستقبل في مخيلتي، وحينما أطلع إلى صورتني في المرآة، أفاجا باللباس الذي كنت أرتديه، الترس والخوذة والسيف والسرّاويل الفضفاضة واللاسّة التي تهدّل فتغطّي الأذنين، أسأل نفسي بعد أن يعاودني الهدوء ثانية: - ما شأني أنا بالجيش والإنكشاريّة؟! ما شأني بهذه الأسلحة التي لا يحصيها العدّ، الخناجر والسيوف، والمدافع وهذا البارود الكثير، وكلّ هذه الغدّارات؟! ما شأني بالهزائم والانتصارات، ومن مات ومن ظلّ على قيد الحياة؟! ما شأني بكلّ ذلك ما دمت هنا، وبعد رحلة القرون أشاهد ما أشاهده دون أيّ شعور بالذنب أو الخطيئة. يلفني حياد، وأستشعر متعة أولئك الاتين خصيصا ليروا الأشياء عن قرب، وعندما ينهون جولتهم الختامية لا تسمع منهم ذلك الصوّت الحيّ الصادر من القلب، الذي يشي بالتعاطف والمشاركة، ولكن فقط تلك الصّرخة غير الواقعيّة، الخياليّة كخياليّة أفلام «الكابوي» الأمريكيّة:

- مدهش!؟!

وأنا أخرج، سمعت صوتا، كنت أعتقد أنّه أت من ورائي، التفت، فلم أرى شيئا، واصلت سيري، فسمعت الصوّت ثانية، ولكّني لم ألتفت هذه المرّة، طأطأت رأسي، لابت عينايا في صدري، بدا لي كأنّه كان يرتفع

وينخفض باستمرار، وتسارعت دقات قلبي، بدا الصّوت واضحاً، وهو يقول:

- رحم الله محمّد علي!!

لم أصمد طويلاً، وجدت نفسي أسأل دون وعي:

- وهل مات؟!

أجاب الصّوت بنبرات اكتنفها تأثّر فترقرقت:

- نعم.

ذهب الحياء دونما رجعة، وفي لمح البصر وجدت نفسي معنيًا بكلّ ما كنت أروم التّنصّل منه، السيّوف والغدّارات والبنادق والمدافع والخوذ والتّروس والرّماح والالّاسات والبوقات والمنجنيقات والولادة والإنكشاريّة العثمانيّين والأمويّين والعبّاسيّين ومن مات ومن عاش ومن كان ومن لم يكن، ووجدت نفسي معنيًا بالماضي والحاضر العاثر والمستقبل الذي لا يبشّر بغير المأساة... طفرت دمعة حرّى من عيني، تركتها تنزل على خديّ، أحسست بها في ذقني، كنت أبكي في صمت، قلت هامسا كأني كنت أريد أن أشهد الفضاء على ما أقول:

- رحم الله محمّد علي، فقد كان أكبر من حلمه!!

أفقت على رنين جرس المنبّه ووقع خطوات «رامي» تعبر الممرّ إلى الحمام، نحّيت اللّحاف جانبا وقصّدت النّافذة فأزحت السّتائر عنها، ثمّ اشرأبت بعنقي إلى الخارج فطالعتني العمارات المقابلة وهي تشمخ بطوابقها العديدة، ونظرت إلى الأسفل، إلى الشّارع الذي ما يزال نائما، والظّلّمة تنحسر عنه رويدا رويدا: لم تكن هناك أصوات باستثناء تلك الّتي تصدرها أبواب المقاهي وهي تصرّصيرها حادّا كان يمزّق جوف السّكون، وبعض السيّارات، وبعض الأشخاص وهم يحثّون الخطى إلى مكاتهم ودواوينهم...

نازعتني نفسي إلى تدخين سيجارة، ووجدت قدمي تقوداني إلى المطبخ... ملأت الركوة ماء ووضعتها فوق النار، وسحبت علبة السجائر فأخذت منها سيجارة أشعلتها ورحت أدخن، وأنا أفكر في الدعوة والغداء، والضيوف الذين لن يلبثوا طويلا حتى يقدموا... كنت على وشك الشرود ولكنّ وشيش الماء أعادني مرّة ثانية إلى الركوة التي كانت على النار، أخذت ملعقة وفتحت علبة القهوة فملأتها من الطحين الأسود ذي الرائحة الذكيّة النفاذة وصببتها في الركوة ورحت أحرّكها بهدوء شديد؛ سمعت خطوات «رامي» في طريقه إلى غرفته فسألته إن كان يريد فنجانا من القهوة، إلّا أنّه اعتذر في البداية لكونه لا يفضل شيئا على الشاي، ولكن يبدو أنّ الرائحة القويّة المغرية التي تسرّبت من المطبخ إلى الشقّة كلّها جعلته يغيّر رأيه فجأة؛ جهّزت كلّ شيء وأخذت الصينيّة إلى الصّالة، قرّبت نضدا من الأريكة الكبيرة المستندة إلى الجدار وضعت فوقها الصينيّة... وتراجعت إلى الورا ففتحت باب الشرفه وبقيت متكئا على الإفريز أتطلّع إلى العالم الذي استفاق دفعة واحدة كأنّه صبحا من سبات قرون... جاء «رامي» فجلس، وعدت القهقري فجلست بقربه وشرعت أرشف من الفئجان وأدخن...

لم نقل شيئا، وظللنا صامتين؛ وإذا كنت أنا ذا نزوع متأصل إلى الصمت سيّما في الساعات الأولى من الصّباح، فإنّ دوافع «رامي» التي أجمت لسانه- وهو الذي لا يني يتحدّث ويتحدّث، بسبب أو دونما سبب- فلربّما تعود إلى تفكيره بالدعوة وما يمكن أن تجرّه من هرج ومرج ووجع رأس... لم أنس أنّه هو الذي اقترح، وهو الذي خطّط لكلّ شيء، وكنت أنا مجرد تابع خلال اليومين السابقين، حيث نزلنا إلى ميدان العتبة، فعرجنا على سوق الخضار حيث اقتنينا مستلزمات السّلطة وغلالا كثيرة، واشترينا اللحم، وبعض المشروبات، وعندما عدنا إلى الشقّة بعد جهد ومشقّة، مضى «رامي» إلى التّلفون فاتّصل بأحد المطاعم المعروفة، التي تفضّل العمّ «أحمد» بإمدادنا بعنوانه لسرعة

خدماته ولكون أسعاره في متناول أمثالنا من السيّاح غير المحترفين؛ حرصت أن أكون قريباً منه، وهو يتحدث بلهجة محطّمة، لا تشبه في شيء لهجة أهل البلد، وأحسست بعد فترة أنّ صوته يتلجلج وهو يؤكّد على زجاجة الويسكي وقناني البيرة... أقفل الخطّ، ووضع السّماعه، ثمّ ضمّ يديه إلى بعضهما وبدأ يفركهما وهو يبتسم. في وقت ما بدأ يرقص، كان رقصه مرتجلاً، متلکّناً وكأنّه لم يرقص في حياته أبداً... قال:

- مضت فترة طويلة لم أشرب فيها...

قلت مسائراً، فيما يشبه الشّroud:

- ولكنك ستشرب الآن!!

وبما أنّ الحديث يجرّ حديثاً غيره، وبما أنّ الشّجون تستدعي إلى الدّهن شجوناً أخرى، فقد عادت بي الذاكرة إلى أحداث بعينها، وألفيتني أفكر في «روحية» وفي ضحكاتها العالية، في اليوم الثّاني من حلولنا بالقاهرة، وهي تضرب على كتف «رامي» وقد كادت تلتصق به... كانت متألّقة إلى أبعد الحدود، وكنت في نهاية الصّالة بالقرب من الشّرفة مستلقياً على ظهري أنظر إليهما من حين لآخر، ثمّ ما ألبث أن يجمع بي الخيال بعيداً؛ فجأة صحوت على قهقهات معرّبة، ولمّا نظرت إليهما رأيت «روحية» ترفع نهاية فستانها بحركة سريعة عن ساقها إلى أن انحسر عن فخذ مرّبة عظيمة، رفعت كفّها إلى الأعلى وضربت الفخذ ضربات فيها إغراء وملاوعة، اهتزّ اللّحم وتماوج، استدارت إلى «رامي»، أنعمت فيه التّطربحسّ الأنثى الذي لا يخيب، وحوّلت نظراتها إليّ، ثمّ عادت إلى «رامي» تتأمّله، للحظات كنت عاجزاً عن التّفكير، أصبت بما يشبه العطالة، وانحبست أحاسيسي انحباساً تامّاً، لقني المشهد فتواربت بين ثناياه، وشطّبت هواجسي؛ أيّة امرأة هذه؟! أيّة شيطانة ألقت بها الصّدف في طريقنا؟!... بعد لأيّ، عدت إلى ما فرط من أمري، وقلّبت في رأسي احتمالات شتى، لعلّها كانت تجسّ النبض،

لربّما أرادت أن تلقي بشباكها، وتجرب، فنحن في نظرها مثل كلّ الرجال، ومن غير المعقول، بالنسبة إليها، وقد شهدت بأمّ عينيها ما جلبناه من نقود، أن نفلت منها كلّها ذلك ما كلّفها... إلى ذلك الحين كان ما فكّرت فيه مجرد تخمين ليس له ما يبرّره، لكن ما حدث بعد ذلك، والجوّ الذي حاولت خلقه، أكّد إلى حدّ بعيد ظنوني، كانت تورد النكات النكتة تلو النكتة، وكانت كلّ نكتة أسوا من صاحبها، تضوع منها رائحة مشبوهة، ليس فيها خفراً أو حياء... وكان «رامي» فارساً من الفرسان الضالعين بالنكت، عرفته محدثاً لا يضاهي، حتّى ونحن نخوض في مواضيع لها علاقة بالفنّ والأدب والحداثة والمعرفة وتاريخ العلوم والإبستمولوجيا لا يعدم وسيلة يورد فيها نكتة بذينة، وما دامت الفرصة قد جاءت تسعى إليه فقد اغتنمها بحسّ الصياد، وراح يكيل لـ «روحية» من نفس مكياها...

قالت:

- تزوّج رجل امرأة، ولكن لسوء حظّه حدث أن مات أحد أقاربها، فتألّمت ولبست السواد حدادا عليه... ولمّا كانت حزينة، فقد منعته من نفسها وكلّما حاول أن ينال منها وطرا كانت تصدّه، إلى أن ذاق الرجل بها ذرعا وأصبحت حياته معها لا تطاق... ولمّا كان الرجل صاحب كيف ومزاج فقد كان يذهب إلى القهوة وهناك يجلس مع أصحابه ورفاقه يتبادلون الحديث والصنّف، وفي يوم من الأيام زلّ لسانه فحكى لهم حكايته من البداية إلى النهاية وهو مهموم مغموم، أسقط في يد الجماعة وأسفوا له أشدّ الأسف، لكنّ أحدهم قال له لا تقلق، فما بعد الشدة إلاّ الفرج، ودلّه على امرأة من اللواتي يضرّبن الرمل ويخرّبن عن البخت؛ وذهب الرجل إليها وأخبرها بقصّته، فاستمعت إليه وقلّبت مسألته من جميع جهاتها، ومدّته بالخبر اليقين... ورجع الرجل إلى البيت فلمّا كان اللّيل، وضع شريطاً أسود على ز(...)) واقترب من امرأته قائلاً: ما تعال ننز(...))!!

أغرق «رامي» في الضحك حتى كاد ينقلب على ظهره، وشعرت أنني أخذت على حين غرة فارتسمت على شفتي ابتسامة بلهاء غبية... قالت «روحية» وهي تعود إلى هدوئها الأول، وما تزال تلقي بيدها على كتف «رامي» تداعبه:

- ما فيش أحلى من الضحك...

وبعد قليل:

- وأنتم بعدكم والحمد لله شباب!!

«روحية»- لغز- بقدر وضوحها أجدها في الكثير من الأحيان غامضة، في رأسها الصغير لا شك أنها ترى أفكارا لا حصر لها، وتتعدد أحلاما شتى، ولئن ما زالت لم تعلن بعد عن نواياها الخفية فقد نجحت على الأقل في أن تجتذبا إلى فلكها ومدارها... كل يوم، وفي مواعيد ثابتة لا تتغير، تأتي دائما ولا تخلف موعدها، تجيء في الصباح قبل الجميع، وإذا جاءت السّت «زينب» بعد ذلك، والعم «أحمد» فإنهما لا تجلس معهما باعتبارهما شغالة مثلهما، وإنما ترابط معنا، في الصّالة تحكي وتلمح، ولا تتوقف عن الحديث البتّة، ولسبب ما كنت أحمّن أن السّت «زينب» ربّما كانت تكرهها أو تغير منها، سيّما إذا رأيتها تتّجه إلى المكان الذي نكون فيه!!

ومهما يكن من أمر، مهما يكن من الدّفع والجذب، وبعض الأحيان من الغموض وعدم الوضوح في تفسير بعض الأشياء، أو تجاهل بعض الأشياء الأخرى، أو المجازفة التي غدت بالنسبة إلى «روحية» ملحّة يومية لا يخطر ببالها أبدا أنّه يمكن أن يترتب عنها ضرر ما، أو سوء فهم يمكن أن يؤدّي إلى ما لا تحمد عقباه، إذا أخذت بعين الاعتبار الأعين الكثيرة في العمارة، الأعين التي تراقب باستمرار دون كلل أو ملل، وربّما كانت تنتظر أي شيء، أية فضيحة، حتى تلوّكها الألسن... مهما يكن فإنّ «روحية» كانت مفيدة إلى حدّ كبير، سواء عن قصد منها أو غير قصد، فمنذ اليوم الأول، وما أن زارتنا في المساء، وجلست إلينا في الصّالة

بعد أن هيأت لنا كؤوس الشاي وأخذت كأسها وراحت ترشف بصوت مسموع، توصلنا إلى معرفة أسرار وحقائق كان أولى بنا أن نعرفها، كي نتفادى أية مفاجأة أو أي حادث من شأنه أن تكون له مضاعفات غير محمودة... أكدت على إغلاق الباب وعدم فتحه لأي كان، اللهم إلا أن يكون ذلك لأحد الشغالين الموجودين بالعمارة أو العم «أحمد» الذي قالت إنه سيكون موجودا دائما، وتحت الطلب، وإذا ما احتجناه يجب أن لا نتردد في مهاجمته، لمحت إلى نساء ربما اتصلن بالتلفون، أو دققن جرس الشقة، وقالت إنهن ربما رابطن ساعات أمام الباب ينتظرن أول بادرة أو فرصة يفتح فيها الباب حتى يهرعن إلى الداخل، وهناك لا مفر... لا بد مما ليس منه بد!! ضحكت بعريضة، صهلت وهي تغمز وقد تحولت كل ملامحها إلى ساحة للتلميحات، كان يبدو أنها تريد للرسالة أن تصل بشكل غير مباشر، أن تشرح في كلمات ملتبسة غامضة الوضع في العمارة، المواعيد غير المنتظرة، الشبكة الواسعة التي كان الكل متورطا فيها وتدار بداية من البوابة، على كرسي البواب، وانتهاء بأخر دور في العمارة ربما وراء مدخل باب حيث يقبع شخص متنقذ يضرب أخماسا في أسداس، ويجمع ويطرح، ويستعرض وجوه «نسائه» ويقدر الأثمان ويحسب أخيرا ما يمكن أن يضعه في جيبه في اليوم، ثم في الشهر، وهكذا.... وكخطوة عملية لتجنب أي طارئ من تلك الطوارئ قالت إنه يفضل أن ننظر من العين السحرية قبل أن نفتح الباب، أو نفتح الشراعة الكبيرة للتأكد من هوية الطارق، وبعد ذلك لنا الخيار أن نفتح أو لا نفتح...

وفي نفس اليوم، وبعد أن غادرت حوالي الساعة السادسة والنصف، رنّ التلفون، فقام «رامي» للردّ عليه، وبقيت أمام التلفزيون القديم الذي تصوّرت قبل أن نؤجر الشقة أن أيا من الشقق التي سنؤجرها لا بد أن يكون بها هوائي، ولا بد أن تكون هناك قنوات عديدة نستعين بها على تزجية الوقت، ولكن عبثا، فحتى

الجهاز الذي كان موجودا ما أن وقعت عيناى عليه حتى تذكرت جهازنا القديم، منذ حوالي عشر سنوات، في منزلنا بالمدينة، وقد قررنا أخيرا التخلي عنه مقابل تلفزيون جديد بالألوان... حينئذ، لجأت إلى الخيار الأسوأ، انهارت عزيقتي تماما ودفعت إلى التدخين دفعا بعد أكثر من خمس سنوات من الانقطاع، كان جهاز التحكم عن بعد بيدي أضغط على أزراره دون وعي، وذهني منصرف إلى المكالمات المفاجئة، وأنا أشفط من السيجارة، كنت أفكر في هذا «الشخص» الذي كلّف نفسه عناء الاتصال من يكون ومن أخبره برقم الشقة والعنوان، ولم يمض على إقامتنا إلا ساعات قليلة، خطرت لي البواب، أو عمّ «أحمد» نفسه، وربما «روحية» على الرغم من كل الكلام الكثير الذي قالته... تناهى إليّ صوت «رامي» من المدخل، ومن طريقة كلامه، وضحكته الرائقة، وبعض العبارات الهامسة، والوقت الطويل الذي قضاه في المهاتفة حدثت أنّه يكلم امرأة، وأنّه كان يحاول معها، كان يساوم على شيء لن يكون من السهل المساومة عليه!!

لما عاد، وأخذ مكانه على الكنبه لم أسأله وظللت أتفرّج على التلفزيون وأدخّن، ومن حين لآخر أنظر من باب الشرفة إلى السماء في الخارج وهي تتلبّد بسحب سوداء كثيفة...

تنحنح، وامتدّت يده إلى الصينية على النضد القريب فأخذ كأسه وحسا حسوة منه وقال وهو يتهدّ تهدّة ذات معنى:
- هل تستطيع أن تحزر من الذي كان يتكلّم؟

اتجهت نحوه دون أن أنبس ببنت شفة، وتعلّقت نظراتي به، وقد كان ذلك كافيا لإعطائه مبرّرا لمواصلة الحديث، أخذ الكأس من على النضد دون أن يشرب منه وأعادته ثانية إلى مكانه، وكأنّما كان غرضه من تلك الحركة أن تساعد على ترتيب أفكاره أو الكلام الذي ينوي أن يقوله... سمعته يقول وقد تغيّرت نبرته، غدا جرس الكلمات أقرب إلى هسهسة الأوراق وهي تسقط عن شجرة بفناء منزل غداة قدوم

الخريف:

- لا شك أنك حزرت أن المتكلم كان امرأة...
والثقت نظرانا دون أن أكلّف نفسي عناء التعليق أو التعقيب،
وواصل:

- العجب كلّ العجب كيف عرفت رقم التلفون... ورقم الشقة!
وكأنما قصد أن يزيد في الإثارة وأن يحرك بأصابعه وحكايته
جميعا أوتارا لكثرة خمولها وخمودها تصلبت وصارت غير قادرة حتى
على ترجيع الصدى، لذلك قال:

- هل تعرف أنها عرفت أننا اثنان في الشقة؟
ولعلّ صمتي قد بدأ يضايقه فقرّر أن يقحمي مثل الجملة
الاعتراضية في سياق الكلام، اتّجه بكلّيته نحو سائلا:
- من تعتقد أنّه أخبرها؟!

بلا مبالاة قلت، وقد شعرت أن الكرة ما تزال بعيدة عن المرمى
الحقيقي:

- لا أدري!!

وبعد قليل:

- قد تكون محض مصادفة، وقد يكون أحدهم سأل فعرف؛
وعموما هذا الأمر ليس بالمشكلة الحقيقية...

فقاطعتني قانعا مّي بما تفوّهت به ومدركا أنّ عليه أن يمسك
بالزّمام من جديد:

- أتعرف... (ورمقني بطرف عينه): من كلامها بدا لي أنّها محترفة
من الدّرجة الأولى... سيّارة ومحمول ومواعيد ثابتة والأجر مقدّما...
انتظر قليلا، وأخذ كأسه فرشف منه ثمّ أعاده إلى النّضد، ولعلّه
أراد للمباغطة والمفاجأة أن تكون مضاعفة، وأن يحكم قبضته على
خناقي، فقال لي:
- أعطني سيجارة!!

نزل طلبه عليّ نزول الصّاعقة وهو الَّذي لم يدخّن في حياته،
وقد استغرقت بعض الوقت حتّى أفيق من الصّدمة، وفي اللّحظة الّتي
امتدّت فيها يدي إلى العلبة وجدته يسبقني فيأخذ سيجارة ويشعلها
ثمّ يأخذ نفسا عميقا وقد أغمض عينيه كما لو كان يستعيد ماضيا
أوتاريخا بأسره.

- قالت لي خمسون...

وصمت مرّة أخرى، ريثما أخذ نفسا ثانيا، ولكنّه هذه المرّة أخذ
يسعل فابتسمت وأدركت أنّ التّجربة الأولى بدأت تفعل فعلها، قلت
مداعبا:

- لا تقلق بضعة أيّام فقط وستتعوّد!

- فأل الله ولا فألك... إنّما كانت تلك مجردّ رغبة عارضة وسيذهب
كلّ شيء في حاله.

واعتدل في جلسته على الكنبه إيدانا بعودته إلى «المهم» كما
قال لي وهو يطفئ السّيجارة في المنفضة، ثمّ واجهني تماما وبدا صوته
حالما وهويتكلّم وكأنّه يتخيّل المشهد الَّذي لم يقع بعد غير أنّه يمكن أن
يحدث مع ذلك إذا توصّلنا إلى معالجة بعض التّفاصيل ووضع بعض
النّقاط النّافرة على حروفها المتباعدة:

- قالت إنّها على استعداد أن تبيت، وحاولت معها في الثّمن غير
أنّها أصبرت.

بدا لي أنّ الموقف على ما هو عليه في حاجة إلى بعض الحزم؛ فقد
كانت الرّغبة الجامحة الّتي لمسّتها في كلامه منذرة بضعفه، قلت:

- لا تحزن؛ ستجد غيرها...

ثمّ:

- ولاتنس أنّ المجيء، وفي اللّيل لا يخلو من مخاطرة، ربّما استغلّت
فرصة وجودها في الشّقّة، وفي غفلة تأخذ كلّ شيء!!

ولم يطل الانتظار!

ففي ما بعد ظهيرة اليوم الموالي، أذكر أنني كنت منشغلا بفعل شيء ما، في غرفتي، لما رنّ جرس البيت، ولا أدري لماذا بدا لي أن أترك ما كنت فيه وأفتح الباب رغم أنه كان بالإمكان أن أدع «رامي» يفتحه... اجتزت الممر إلى المدخل، وفي المدخل انهارت كل نصائح «روحية» أمام قدمي، وبدل أن أنظر من العين السحرية أو على الأقل أفتح الشراعة لأرى من القادم، كانت يدي أسبق إلى المفتاح الذي ما أسرع ما أدركته، فأحسست بالباب يدفع في اتجاهي دفعا وإذا بفتاتين تجتازان العتبة في شبه هجوم جعلني عاجزا حتى عن مجرد الكلام... وعندما أفقت من آثار الدهشة كانتا قد تجاوزتاني إلى المدخل تريدان الصلاة، بدا لي أن المكان كان مألوفا بالنسبة إليهما، لا ليس المكان فحسب وإنما الشقة بأسرها، وفي لحظة ما غاب عني أنني رأيتهما ربما كانتا قد جاءتا إلى هنا من قبل، وأن اقتحامهما المbaugh وتجربتهما لربما لم يكونا في نهاية المطاف اقتحاما سافرا وتعديا إلا في نظري...!! صحت بهما وأنا أكاد أجري وراءهما حتى ألحق بهما قبل أن تبلغا إحدى الغرف أو تباغتتا «رامي» دون أن يدري:

- انصرفا من هنا فورا!!!

قلت ذلك بغضب ومازالت الدهشة لم تزاليني تماما... فكّرت أن كل شيء كان غريبا، وأن دخول أحدهم إلى أي مكان بتلك الطريقة الخرقاء ليس لائقا، ويبدو أن ذلك الهاجس كان طاغيا إلى درجة الانسحاق حتى أنني لم أدقق جيدا في ملامحهما وفاتني أنني رأيتهما كانتا على جمال كبير، ما تمكنت من تمييزه للوهلة الأولى الابتسامتان الجريئتان على شفتي كلّ منهما، ابتسامتان جريئتان ووقحتان، رغم المظهر المحتشم: كلّ واحدة لفّت شالا حول رأسها بحيث كان يغطي شعرها، وعباءة سوداء كانت تغطي كلّ شيء، كانت إحدهما طويلة، تميل إلى الامتلاء، والثانية أقصر منها، وكان يبدو عليها الامتلاء والبضاضة!!!... كنت مصمما على طردهما، وركبني شيطان لعين،

فوجدتني أمتلئ بالتّحدي والرّغبة في المجادلة، صحت، أوبالأحرى كنت أصبح منذ البداية، وأنا أحاول أن أسبقهما لأقطع عليهما الطّريق، ذهني كان منصرفا إلى الحقائق، إلى حافظة النّقود والدّولارات في داخلها، انتصبت أمامهما وجزء ذلك كان من غير الممكن أن تتقدّما ولو خطوة واحدة، بدأتا تتراجعان وتحوّلت تانك الابتسامتان إلى امتعاض خفيف، واستدارتا وأنا وراءهما، وكم كانت فرحتهما طاغية لما سمعتا صوت «رامي» يسأل من القادم، إذن هناك شخص آخر، صوت آخر، وفي هذه الحالة سيكون من اليسير عليهما أن تتجاهلاني وتتعلّقا بتلايب «رامي» كما يتعلّق الغريق بقشّة... رأيته يدخل، وفي الحال تعلّقت عيناه بالقادمتين، همدت، عندما رأيته في تلك الحالة، والدّم الذي كان إلى حدّ تلك اللّحظة فائرا أخذ يتراجع عبر الشّرايين إلى الأعماق الخفيّة المجهولة، السّحر، المغناطيس وحده الذي يملك القدرة على فعل الأعاجيب، وما رأيته كان بالفعل أعجوبة، سحبي من يدي، قال لي الأفضل أن تتوقّف عن الصّياح والصّراخ، فالأمر عاديّ ومألوف وإذا كنت أنا لا أرغب في «ملاعبته» فالأولى أن أترك له أن يختارواحدة!!!...

مضى إليهنّ ثانية، وسمعت همسا، وانطلق الثّلاثة إلى الغرفة الملاصقة لغرفتي، وما هي إلّا لحظات حتّى لمحت «رامي» يقودهنّ إلى الحمّام...

مشهد أشبه بالبانوراما، تتتابع صوره وأحداثه بسرعة عجيبة جدّا!!!

ألقيت الفتاة الممتلئة البضّة تعود إلى الصّالة، واعترضتني الأخرى في الممرّ وقد خلعت ملابسها وتجرّدت إلّا من غلالة حمراء، شقّافة، طويلة، تصل إلى كاحليها وتكشف عن قدمين رائعتين بيضاوين... أحسست بكتفها يلتصق بكتفي وبزنديها الرّيانين يخترقان مجال رؤيتي فيشعلان نارا ذات أوار... وددت لو أنّ الأمر تمّ بطريقة عاديّة مألوفة،

وددت لو أنني لم أغضب، لكن ما حصل حصل!!! البطن الضامرة،
والنّهدان الشاردان اللذان توتّرت حلمتهما حتّى كادتا تخترقان
الغلالة، والكفل، الخصر والامتداد، كانت تبتسم وهي تصطدم بي،
تتحرّش بي، وكان ذلك أهون عقاب بالنسبة إلّهما!!!... غيّها باب غرفة
«رامي» الذي لحق بي في الصّالة، قال:

- ابق مع فتحيّة ريثما أفرغ، ولن ألبث أن أعود. (كان إسم
الطويلة التي تميل إلى الامتلاء «نعمة»، والأخرى الممتلئة «فتحيّة»)
جلست على الكنبه مقابلها دون أن أتكلّم، وقد سحبت سيجارة
رحت أدخنها في صمت؛ وشيئا فشيئا بدأت أنسى ما حدث، وأكثر من
ذلك اكتشفت كم كنت أخرق أرعن، وحينما استعدت شريط الأحداث
في ذهني، منذ دخلت الفتاتان إلى تلك اللّحظة التي كنت أجلس فيها
مع «فتحيّة» وجها لوجه اقتنعت أنّ ما فعلته لم يكن له مبرّر على
الإطلاق، لذلك قرّرت أن أكسر حاجز الصّمت بيننا فقلت بخبث:
- من دلّكما على الشّقة؟

الخبیثة لم تجب على السّؤال وأرادت أن تستغلّ الفرصة،
فبالنسبة إلّها ما يزال كلّ شيء قائما، ولربّما لن تغادر حتّى «تؤدّي
واجبها» وتقبض الثّمن، قالت وهي تضطرب في مكانها وتزيح العباءة
قليلا فانكشف عنقها ومنبت نهديها:
- الظّاهر أنّك تزعل بسرعة...

وصمتت وعلى ملامحها بواذر مؤامرة، وبين شفّتها يتدفّق كلام
غير كلامها الأوّل... قالت في إغراء:
- تعال جني.

قلت وأنا أشفط من السّيجارة، وكنت مازلت أفكّر في الشّقة،
والحقائب، واحتمال مفاجأة ما:
- أفضل أن أكون حيث أنا!

ولكنّها لم تستسلم؛ خلعت الشّال عن رأسها فاسترسل شعرها

وتناثر على عنقها وكتفها، وقالت وهي تحدّ في نظرها بجرأة أقرب إلى الوقاحة:

- تعال... سنتكلّم فقط!!

وقفت، توجّهت نحو الشّرفة وقبل أن أبلغها مدّت يدها وأرادت أن تمسكني، وبينما أنا أستعدّ لتفادي قبضتها فوجئت بأصابعها تنزلق إلى أسفل، إلى ما تحت السّرة. صددتها فضحكت وقالت:

- ما بك؟ أأست رجلا؟!

أردت إغاضتها فقلت وأنا أفتح باب الشّرفة وأستند إلى الإفريز:

- أحيانا يعنّ لي أن أنسى أنّي رجل!!

... بعد «نعمة» و«فتحيّة»، جاءت فتاة مع طفلة صغيرة فتح لها «رامي» الباب وقادها إلى غرفته، وماهي إلّا برهة حتّى فتح الباب وخرجت الطّفلة إلى الممرّ وحينما اقتربت من باب الصّالة دخلت وهي تحمل لعبة في يدها... كنت ميّالا إلى مداعبتها، وحرّكت يدي في اتجاهها إلّا أنّها عادت فخرجت... بقيت وحيدا أنتظر، أتعلّل بمشاهدة التلفزيون، لم يلبث «رامي» أن عاد، وشاهدت الفتاة تحمل طفلتها وتخرج مسرعة كأنّها ارتكبت ذنبا لا تريد لأحد أن يكون شاهدا عليه. شممت رائحة غير عاديّة، واستنتجت من الوجه المغلق عدم

الرّضى... قال:

- لعنة الله على الحظّ!

ثمّ بعد لأيّ:

- بعد نعمة تجيء هذه!!

قلت متضاحكا:

- كلّهنّ سواء؛ والمرأة تظلّ امرأة مثلما أنّ الكلب يظلّ كلبا ولو

وضعت حول عنقه طوقا من ذهب!

بدت له المقارنة فجّة، والحديث نثرًا إلى أبعد الحدود، فانتفض في مكانه وقال غاضبًا:

- ليس الأمر كما وصفت، ولورأيت نعمة لزهدت في كلّ شيء، فتاة تعرف كيف «تتجَهّز لذلك الشّيء»... إنّ لها «شيئًا» رائعًا لم أر مثله من قبل، ونهداها كأثْمَهما رمحان مصوّبان...

وبدأ غضبه يسكن وصوته يغدو أكثر هدوءًا:
- لست راضيا اليوم، ولكّني كنت مضطّرًا؛ والأدهى أنّي دفعت أكثر، قالت لي إنّها جاءت من طنطا، وإنّها أرملة، وإنّها اضطرت إلى هذا العمل من أجل إبتهاها...

فتح الباب ثمّ أغلق مرّة أخرى، ودخل عمّ «أحمد» والسّت «زينب» و«روحية»... ظللنا نحن في الصّالة مدرّكين أنّنا لن نلبث إلّا قليلا حتّى نراهم أمامنا، وما هي إلّا هنيئة إلّا والجميع يتّجهون نحونا في رتل منتظم، «روحية» في المقدّمة، ثمّ عمّ «أحمد» تتبعه السّت «زينب» كعادتهما صامتة ساكنة كأنّ على رأسها الطّير، تبادلنا تحيّة الصّباح، وسألتنا «روحية» إن كنّا تناولنا فطورنا فأخبرها «رامي» أنّنا شربنا القهوة وأنّنا نفصّل أن تبقى معدّتنا خاويتين استعدادا للمأدبة المرتقبة، أطلقت المرأة العجيبة ضحكها الرّائقة المتألّقة وقالت معلّقة على ما قاله «رامي»:

- وهي ستكون مأدبة فقط، إن شاء الله ستأكل حتّى تنسى الأكل إلى الأبد!

وأشارت إلى السّت «زينب» وراءها فاتّجهت كلاهما إلى المطبخ، واختفى عمّ «أحمد» في الممرّ وسمعنا خطواته في الغرفتين كأنّه يرتّب شيئًا ما أو يبحث عن شيء ما، وعندما ظهر أخيرا كان يحمل أطباقا متعدّدة في يديه، وكانت الأطباق مليئة بالخضار، ابتسم وهو يجلس

إلى جانبنا، ثم أخذ سكيناً وراح يقشّر في أناة وصبر، ولمّا كنّا ننظر إليه في حيرة لا ندري ماذا نفعل تحديداً، وكلّ منّا يتساءل إن كان من اللائق أن نكتفي بالنظر إليه دون أن نساعد، رنا إلينا وكشفت له ملامحنا مدى الورطة التي كنّا نعانها فقال مخفّفاً:

- يمكنكما مساعدتي إذا لم يكن لديكما ما تفعلانه!

بادر «رامي» إلى الاقتراب، وقرب إليه طبقاً من الأطباق وشرع في فرز عيدان البقدونس الرفيعة، ومن حين لآخر يتأمل الرجل الكهل كأنما يريد أن يرصد حركاته كي يتعلّم منه... ولم أتأخّر أنا أيضاً، فاقتربت منهما، وأخذت سكيناً بدوري وجعلت أقشّر حبّات البطاطا الكبيرة وأقطعها...

من المطبخ تناهت إلينا أصوات غناء مختلطة بأصوات متداخلة شتّى، غير أنّ صوت «روحية» وهي تغني وترفع طبقها شيئاً فشيئاً كان أوضح الأصوات وقد ارتفع على ما عداه... كان الصّوت جميلاً، مطرباً، وفيه بحّة أسرة، جعلتني أتساءل بيني وبين نفسي كيف يمكن لامرأة ربّما تجاوزت الأربعين، وقد بدأت تترهل وتمتلئ أن يكون لها مثل ذلك الصّوت...!!

هبت نسمة من الخارج فجعلت الستائر تحتكّ وتهسّ، وتوالت موجات الهواء المتدافعة دون انقطاع حتّى غدا الجو داخل الصّالة بارداً، وتلاشى الدّفء الذي كان مسيطراً منذ الصّباح... شعرت بقرصة البرد، فتأخّرت قليلاً إلى الوراء، مبتعدة عن الشّرفة، وقد عنّ لي من موقفي الجديد أن أنطّلع إلى سماء القاهرة التي تصوّرت أنّها كانت، في تلك اللحظات، في متناولِي، وأنّه يكفي أن أمدّ راحتي حتّى تنتشر فوقها زرقعتها التي بدأ يمازجها سواد كثير: رأيت السّحب تتجمّع في المدى، تتلاحم وتحجب الشّمس، تتضامّ ويعضد بعضها البعض كأنّها تستعدّ لحرب متلاطمة، كانت كثيفة، ثقيلة تنذر بالمطر والعاصفة، ومن البعيد، في المدى الغير المنظور دمدم الرّعد وظهرت ألسنة من

البرق في جهات عدّة، كانت سريعة، خلّابة، مباغتة، بعثت في نفسي مشاعر متنافرة من النّشوة الممزوجة بالخوف؛ هذا المنظر المفاجئ، بأبعاده الكونيّة الطّاغية، بعناصر الطبيعة الّتي أرادت أن تثور، على حين غرّة، وتحطّم أفق انتظار طالما ظلّ ثابتا متحدّيا، يمنح الشّتاء ثورة وغضبا ويعطي الصّيف حرارة لافحة تطيقها الأجساد حيناً وتضجّ منها أحيانا أخرى فتختار الهروب إلى الأماكن القصيّة، تهجر المنازل إلى الشّواطئ البعيدة، حيث البرودة والبحر الغافي المسافر مع ألف أمنية وأمنية... هذا المنظر لا يتكرّر دائما، وفي مثل هذا الوقت من السنّة، على خلاف كلّ السّنوات الماضية، لم تشهد القاهرة صيفا كهذا الصّيف، والحرارة الّتي كانت تأتي مبكرا فتلف كلّ شيء بين أتونها تأخّرت على غير المعتاد، ممّا جعل الحاضرة تبدو وكأنّها في ربيع دائم، والميادين لا تخلو من الرّائحين والغادين في ليل أونهار، والشّوارع تزهو بواجهات المحلّات والأكشاك المتناثرة على طول النّواصي والأزقة تعرض الصّحف والمجلّات والكتب، والأشياء الأخرى الصّغيرة الّتي كان النّاس يقبلون عليها، في الغالب للشّراء، ولكنهم في أحيان أخرى يلمّون بها من باب الفرجة والفضول...!!

قمت فأغلقت باب الشّرفة، وأزحت في نفس الوقت الستائر حتّى نتمكّن من مراقبة المشهد في الخارج، توالى صوت الرّعد مدمدما وبدأت حبّات المطر تنزل، حيّة في البداية، ثمّ ما عتمت أن تكاثفت تلك الحبّات لتصير وابلا هائلا كان يضرب زجاج الباب دون انقطاع... قال عمّ «أحمد» دون أن يرفع رأسه عن الطّبق والخضار:

- صيف هذه السنّة غير عن السّنوات الماضية...

وأخذ حبّة من البطاطا راح يقشّرها في حذق ومهارة، وتطلّع إلى السّماء من خلال الرّجاج، وقال كالحالم:

- صار لي زمان لم أمطرا بهذه الكثافة، وفي الصّيف!

كان الحديث إلى تلك اللّحظة أحاديّا، من طرف واحد، وكان «رامي»

ينصت كعادته إذا أدرك أنّه من الأفضل له أن يكتفي بالاستماع حتّى لا يقطع على نفسه لذّة الحديث... عهدته دائما مستمعا من الدّرجة الأولى، إذا أحسّ أنّ الحديث ذا فائدة حرص أن لا يفوته منه شيء، وقد يضطرّ في الكثير من الأحيان إلى إخراج قلم كان يحتفظ به دائما في جيبه ومفكّرة لتدوين بعض الملاحظات، كان يقول إنّّه لا يريد أن ينسى، وإنّه إذا بدأت الذاكرة التي في الرّأس تضعف وتتلأشى لا بدّ أن نستعيض عنها بذاكرة ثانية... الأحداث... التّواريخ... أمثال... أسماء أشخاص: شعراء، مؤرّخين، علماء اجتماع أو علماء نفس، فلاسفة، وغيرهم... أبيات شعر... أزجال!! كلّ ذلك كان يسجّله، وبعبارة فائقة، الشّاردة والواردة يكتبها، ثمّ إذا رضي أعاد القلم إلى جيبه، ودسّ المفكّرة في مكان ما...

شيء وقر في نفسي منذ التقينا بعمّ «أحمد»، سيّما إذا تحدّث، لا يتكلّم كما تتكلّم «روحية» أو السّت «زينب»، وفي لهجته ميل إلى أصول جنوبيّة ضاربة في القدم، قدّرت أنّه من الصّعيد، وبدت لي الفرصة الآن مناسبة كي أسأله، سيكون من الأجدى أن نخلق أوأصرثقة بيننا وأن نوّكد الألفة التي فتحت طيبة قلبه وبراءته الطّريق أمامها دون عوائق أو معوّقات!!

سألت:

- أعتقد أنّك لست من القاهرة؛ أليس كذلك، يا عمّ أحمد؟! توقّفت يده عن الحركة، ورفع رأسه متطلّعا إليّ، وقد علت وجهه كلّه مسحة من التّسامح والتّشجيع. وقال:

- يا بنيّ، إنّها قصّة طويلة جدّا، تعود إلى ثلاثين سنة إلى الوراء... ولما لمست رغبته في الحديث، واستعداده للكلام، مددت له يدي بعلبة السّجائر التي سحب منها سيجارة، أشعلت عود ثقاب فأشعلت سيجارته وسيجارتي، وأشرت إلى «رامي» وأنا أقرب منه العلبة إلّا أنّه هزّ رأسه دلالة الرفض... سحب عمّ «أحمد» نفسا عميقا، وغامت

عيناه، ارتدّت ذاكرته إلى مجاهل غدت جزءاً من ماضٍ تليد، وقال مواصلاً:

- جئت إلى القاهرة وأنا ابن تسعة عشر، تركت سوهاج، كانت والدتي قد توفيت منذ زمن بعيد، ووالدي الذي كان متزوجاً لم يقل خيراً أو شراً، ويبدو أنّ زوجته هي التي دفعته إلى الصّمت. قالت له دعه يسافر حتّى نتخلّص منه...

سحب من السيّارة ثانية... ترك السكّين تسقط في الطّبق، واتّجه نحونا:

- في تلك الأيام، كان مجيئي إلى «مصر» مجازفة، وليس لي من أقارب فيها... لا بيت، لا معارف ولا يحزنون!! الشّيء الوحيد الذي كان يشفع لي شبابي، لذلك لم أجد صعوبة في إيجاد شغل: عملت في مقهى، ثمّ في فرن، وشهدت الحروب، الحروب كلّها، سنة ٥٦ كنت ما أزال شاباً فتياً، وفي ٦٧ كان قلبي يعتصر ألماً... وفي ٧٣ قلنا الله فرجها، لكن يا ولدي، مثل ما يقولون، الحلوما يكملشي، والنصر الذي قلنا عنه نصرنا راح أدراج الرّيح، اليهود باعوا واشتروا فينا، وعدنا مثلما كنّا، تيتي تيتي، مثل ما رحلت مثل ما جيت، يد إلى وراء والأخرى لقدام... آه، يا ولدي، ذاك زمان!

قلت:

- لكن كيف انتهى بك المطاف هنا، بعد المقهى والفرن؟
شاهدته يمسك عقب السيّارة بين إصبعيه السّبابة والإبهام ويدعكها في المنفضة، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً واستقام بجذعه على مقعده، قال:

- للضرّورة أحكام، والواحد ممّا لا يظلّ شاباً طول حياته... تركت الفرن، وكان الله في عوني فسخر لي أولاد الحلال، دلّوني على هذه العمارة، وهي لثريّ من لبنان، يجيء في كلّ سنة لتحصيل الإيجار ثمّ يعود إلى بلاده، والآن صار لي أكثر من عشرة أعوام وأنا أشتغل هنا...

ثم، كخاتمة للقصة، وكتعبير عن رضاه بما قسم له:

- الحمد لله رضى!

كان بإمكان الحديث أن يطول، وأن يتواصل إلى ما لانهاية، والدنيا من حولنا تلتئم على نفسها، وتلتف بطبقة شفيفة من الدّفء، تماما مثل الدّودة الّتي تتشبّث بالشرنقة كلّما حان موعد إفلاتها منها... كان المطر ما يزال ينزل وابلا، وزخّاته القويّة تضرب زجاج باب الشّرفة دونما هوادة، وكنا إذا انقطع بيننا فيض الكلمات اشراّبت أعناقنا إلى الخلف، وتطلّعت أعيننا خلال السّتائر إلى المدى في الخارج، على ارتفاع أربعة طوابق عن الأرض، هناك أصوات تصل إلينا وانية، ضعيفة، رتيبة، هي الأصوات المعتادة على تخوم الشّوارع، وفي نهاية التّواصي، ومن الحارات البعيدة، أصوات زبائن المقاهي، الّذين يأتون في أوقات بعينها، فيهرع إلهم النّدل بالأراكيل، وفناجين القهوة السّادة والشّاي، وأصوات نساء متلقّعات بالسّواد يصحّمن بناتهنّ الصّبايا وهنّ يطفن بالدّكاكين ويقلّبن البضائع بأناة وعناية كبيرتين، وأصوات حادّة تنادي من أبواب «الميكروباصات» المفتوحة على أماكن بعينها: العتبة. الموسي. محمّد علي. السيّدة زينب...

حمل عمّ «أحمد» أطباقه، وانطلق إلى المطبخ، فساد لبعض الوقت جوّ أليف من الفوضى، وتناهد إلينا ضحكات «روحية» مشفوعة بأوامرها إلى السّت «زينب»... أشعلت السّيجارة السّادسة أو السّابعة ورحت أدخّن، وفي فترات السّكون، عندما تهدأ الحركة، وأنفث الدّخان، أشرد، عيناى تحملقان في أشياء الصّالة بغباء، ونظراتي عليها غشاوة تراكمت طبقاتها من سنوات كثيرة أصبحت في عداد الماضي؛ إلى متى سأظلّ أعيش دون هدف؟! إلى متى الفراغ الّذي أتلّف كلّ شيء بداخلي، وقيدني بنتائج تجارب ما أزال واقعا تحت وطأتها إلى الآن؟!... السيّدة «ث»، والقصة القديمة، وزمن الرّوائح المزهرة العطرة، بين الرّوايا المتباعدة، والأماكن الّتي لا تمتّ بصلة إلى

الواقع الملوّث، ونفحات الشّعر القادم من أغوار الذاكرة العصيّة، تبشّر بالكنّ والألفة، وتزرع الطّريق إلى السّعادة بزربيّة قشبيّة من الورد، بمختلف الألوان... ياه!! الويل لي من الذّكريات الّتي لا تنسى، من الماضي الّذي ما تزال رائحته في أنفي، تبعث في القلب المتيمّ عشرات الأحلام الّتي لا تصدق حتّى في المنام!! ويأتي الصّوت، صوته، وهي تقرأ؛ لم تكن تقصّدي وحدي بتلك القراءة، أبيات الشّعر الّتي تنساب على شفّتها الرّقيقتين الحزینتين، وعيناها المتعبتان دائماً، تنسكبان على النّضد، وأمواج البحر في الخارج، والرّمال الذهبیّة على امتداد الشّاطئ اللامتناهی... وهي، كما هي، منذ عرفتها، حتّى عندما كنّا في ذلك الحیّ، على مشارف تلك المدينة الجنوبيّة: آننذ، كنت أراها بعيدة، بعيدة إلى درجة الاستحالة، رغم القرب، التّداني في المكان، رغم الألام المشتركة، والقراصة الّتي تجمّعنا؛ وفي المعهد، حيث درسنا، وكنت أسبقها بسنة. كانت تذكّرني بكلّ التّراث القديم، تذكّرني بالعصور الّتي بادت، والتّمائيل الرّائعة في أمّهاء الأولمب الزیوسیّ، والعقود الكورنثیّة، والشّعر والشّعراء، وقصائد «بندار»، وخطباء الإغريق المفوّهين... اقترنت في ذهني بالإلهة «فينوس»، بفتنة، ربّما لم تكن موجودة إلّا في ذهني، ومع ذلك كنت مكفّياً بذلك الإحساس، سعادتي حين أكون بجانبها، أنشرب صوته، وأحاول أن أخزن رنة الحزن، أتزوّد بها في ليالي الصّمت الطّويلة، وأنا أناجیها، بمفردها، أطرح عليها كلّ الأسئلة الّتي كنت أخاف أن أسألها إياها أمام أصدقاءنا المشتركين: «هل تحبّيني كما أحبّك؟!»، «هل تبادليني نفس المشاعر، نفس العذاب والرّهبة وأنا أتملّك كما يتملّی النّاسك حقيقة يراها بأمّ عينيه بعد رحلة الإدراك والخلّاص؟!»، «هل بإمكانك أن تضعي يدك، هاتين اللّتين كلّما فكّرت أنّهما على وشك أن تلمسانی اجتاحتني قشعريرة الحمّى وأشفیت على الإغماء، على ידי؟!»، المعذرة! المعذرة! لا أستطيع أن أتخیل أنّ آية يدين، ولو كانتا ידיّ، تجرّان على التّطفل على بشرتك

الرقيقة الهفافة دون أن تصابا باللّعة الأبدية؛ ليحلّ عليهما
الوبال، وليذهب كلّ شيء إلى الجحيم، إن كان يقصد النّيل منك،
أو مضايقتك! ولتظليّ كما أنت، في البال، حلما عصيّ المنال، بنفس
الملاحم والقسمات، ونفس الصّورة التي انطبعت بداخلي، ونحن في
القطار، في الطّريق إلى المدينة من جديد، بعد حرب أخرى خاسرة...
كنت أرقبك، وكنت خائفا حدّ الانسحاق وأنا أتصيّدك بعيني،
وأنت وحيدة في المقعد؛ أظنّ أنّك كنت مشغولة بشيء ما، ربّما كنت
تقرئين، أو تكتبين، واستغلّيت أخيرا الفرصة، انتصرت، وبأعجوبة
هزمت الضّعف والوهن اللّذين كنت أستشعرهما ثقيلين، جاثمين
على صدري كالكابوس، وجئت فجلست بقربك، دون أن تكون لديّ
الشّجاعة الكافية. دون أن أخطر بالنّظر إليك، وأنت النّار، أنت الثلج
والبرد معا، يخضّان دمي خضّا، ويشرفان بي على الحدود والمتاهات،
والصحارى، والمهامه؛ وأنت [«جباليا»: مكنونة الرّوح، من بريق
اللّمعات المرجانية تطرّز قفاز الشّوك، وتحملها الأجنحة إلى الأبهاء
ذات الصّلصلة- أنت «مينرفا» الشّوق، تكريس النّبع لترنيمة عشق
أولى، الرّماد العاثر ماثرة لسبل الصّمت، مدى آخر، أطياف متعالقة
من زمن الشّروود... أنامل الشّوك تنغل بين اللّحم والعظم، وأزمنة
السّفر اللاّزوردية الأنيّن، سلسيل هو الحزن الجاثم في صمت الآلهة
على الأرائك والحشايا، الأمواج محصّلة خوف أثيل أت من خلف
سراب غير البحر... أنت مياه البحر الحريرة الملمس تحملها خمائل
السّوسن على أجنحة السّنونو الصّغيرة المسافرة إلى أزمنة اللّاحد،
وأزاهر «التّوليب» من طينة الأرض النّفحة، تغريد تصوغه الأيادي
الإلهية بأصابع العازفة على أوتار «الهارب» في أبهاء الأولمب الزّيوسي،
من المرامي، خلف الأبعاد، بين اغتيال المسافات، على وجع النّبع
المسافر، تتميّع الأشياء، وتنطفئ الأسماء، اللّغز الشّارد، أحاجي الرّمن
الغابرات الرّائحة المزكّمة، والنّفس الجنائزي، والمراتيح السّبعة من

بين شغاف القلب تزرع مأتم الميّتين الرّاحلين إلى منابع الرّهو الخفيّ...
موت يقلع بأظافره الرّحيمة سويداء الفكرة الملول، فتنبعث العنقاء
من أغشيتها الميّتة منذ انقراض الإنسان الأوّل، ومبعث الأرواح في
عالم البرزخ...

التّجلج، الغصّة في الحلق، ولو وهبني أحدهم في تلك اللّحظة
حرفاً، لو أمسك بيدي وقادني إلى شطآن أمان، وأعطاني بداية الكلام
لمنحته نصف عمري، لتنازلت له عمّا يريد... هبط الصّمت كالبركان،
متخفّراً قاسياً غير محتمل، ران بكلّكله، تضخّم حتّى أوشك أن يكون
مرئياً بأياد عديدة ومخالب دمويّة حادّة؛ قلت، ولا أعرف كيف خرجت
الكلمات من بين شفّتي:
- أحبك!!

كلمة لها فعل القنبلة، وآخر ما ينتظره الإنسان، في مكان
كذلك المكان، وزمان كذلك الزّمان، زمن الحرج والاندحار، والعالم
يغلي غليانا ويقذف من جوفه حمماً ولهيباً، أن تسمع عبارة مهريّة
من قصائد العصر الرومانسيّ... هزّت رأسها بحركة لا إراديّة، فهالني
الفراغ في عينها والعمّة السوداء التي لفّت كلّ ملامحها؛ أيّ انغلاق!
والجمال، أو ما كنت دائماً أعتبره جمالاً ملغزاً، أين اختفى فجأة؟
قالت، ولم أجد تفسيراً لما قالت له إلّا أنّها كانت ترغب في إقصائي،
ولكن دون أن تجرحني:

- وإلى ما يمكن أن يؤدّي هذا الحبّ؟
اندفعت، ولم يكن أمامي إلّا ذلك السّبيل، للدّفاع حتّى أخرمق
عن حلمي المهدّد في أيّة لحظة أن يصبح كابوساً:
- أنا مستعدّ للزّواج منك، وفي أيّ وقت تشائين!

الابتسامة الصّفراء على شفّتها، والغشاوة على العينين،
ومساحة الصّمت التي تعمّدت أن تتركها تطول قبل أن تتكلّم أو تعلّق،
قطعت آخر الخيوط الواهية التي كانت تربطني بها؛ سمعتها تقول دون

أن أعي كلماتها كلها:

- ليس الأمر بالسهولة التي تراها... أنا لا يمكن أن أتخلى عن عائلتي، وبعد التخرج سأستغل لأسدد بعضها من ديني لوالدي ووالدتي اللذين ضحيا من أجلي...

قاطعتها، في آخر محاولة لإقناعها:

- هذا لا يمنع أن...

ولم تركني أكمل الجملة إلى النهاية فقاطعتني بدورها:

- لا وقت لدي للحب!!

وبقينا أصدقاء على الرغم مما حدث، ولعلي في قرارة نفسي كنت سعيدا أننا لم نرتبط، عللت نفسي بالحريّة التي لم تهدر، والخلو من أية مسؤولية من شأنها أن تكبلني وتشدني إلى أوتاد الزوجة والأبناء والجري في الليل والتهارحتي أتمكن من سدّ الأفواه المفتوحة!!... أه، لكم تعاميت!! لكم تجاهلت أتمها فيما بعد ربّما كانت مستعدة لفتح الباب مرة أخرى، وأتمها كانت تنتظر مني أن أعيد على مسامعها ما قلته من قبل، وأن نبداً كما يبدأ الناس عادة؛ ولكن أيّ شيطان كان يتلبّسني، وأيّ إحساس باللامبالاة كان يستبدّ بي كلّما رأيتمها!! هل كرهتها، لمجرد أتمها لم تقبلني في يوم ما كشريك محتمل لحياتها؟ هل زهدت فيها، أو ربّما تمنيت أن تخوض تجربة فتفشل لأتشقّى فيها على طريقي؟! كلا، على العكس، لقد وجدت أنه إلى جانب الحب، كان شيء آخر ينمو في نفسي تجاهها، مزيج من الاحترام والتقدير، وشعور ما فتى يتزايد بتمنّيات التوفيق لها، مع رجل غيري!!... أنا الذي ضيّعته، أسلمتها لمصير مجهول فاختارت، انتظرت، ثم قرّرت أن ترتبط، وسمعت، ليس منها، ولكن عرضاً، في لقاءاتنا المتوالية في المقهى، أنها ستزوّج قريباً... وخز، ألم حادّ مثل شكة الإبرة أحسست به ينغل في القلب، ثم يصعد إلى الدماغ، شعرت أنني على وشك الانفجار، وكرهت أن أضعف،

فهربت إلى المجاهل، كانت الدّموع تنزل دون وعي مَنّي، والحزن يلقيني
إلى أخمص قدمي... حينئذ، اقتنعت أنّي خسرتها، أنّها ضاعت مِنّي إلى
الأبد!! ولكن، هل سلوتها حقاً؟!

(صديقتي العزيزة الرائعة:

كنت مخطئاً جداً حين اعتقدت أنّي تخلصت منك

مرة /

والى الأبد!!!!!!؟؟؟؟!!!!!!)

... حلّقت بعيداً، وراء خيالاتي؛ وتساءلت عشرات المرات، بين
أتون التّيه والخراب، عن جدوى التّشبّث بأحلام أجهضت وأخرى في
طريقها إلى الإجهاض؛ الأنسة «ث» صارت سيّدة، ومع الأيّام أخذت
بطنها تتضخّم، والصّوت الّذي طالما أسرني انكتم إلى الأبد، فماذا
تبقّى لأتعرّى به؟ أم هي مجرد أوهام بدل أن تطامن المشاعر وتوترها من
جديد، تشحذها بشفرتها الحادة القاطعة؛ أحيانا، في صمت غرفتي،
وحيدا، بعيداً عن العالم الرّحيب، يلدّ لي عذابى إلى أقصى الحدود،
أستدعي الألم إلى الذّاكرة، وأتحوّل إلى كائن مازوكي!!!... أتعامى،
أتصامم عن الأصوات الآتية من أقطار الكون السّتّة، وهي تنذرني
بالفجيعة والإفلاس القادم، وأنا لا أصدّق أنّها تزوّجت، وأنّها ستنجب
طفلا، وبمرور السّنوات ستصير امرأة عادية، متعبة، مترهّلة، همّها ما
ينذر به المستقبل المظلم المعتم، لا ما يعود إلى الوراء، ليلهب الذّاكرة
المتأجّجة، ويبعث من رماد السّنين قصائد الشّوق وتمائم القربى.
أعرف أنّي أتتبع سراها، أنّي أتعهد مسحاً أخذ في التّشوّه منذ وقت ليس
بالقصير، لكن ما حيلتي؟ وأين المخرج من المأزق الّذي وقعت فيه؟!! لا
أمل البتّة! لا مخرج، ولا حتّى بصيص من الضّوء يبشّر باحتمال وجود
مخرج في أيّ مكان!!

أفقت، كما لو كنت مثقلا بساعات طويلة جدًا قضيتها في النوم، وحتى أتخلص من الإحراج، ومن عيون الأشخاص الذين ازدادوا بينما كنت محلقا على بساط شرودي وضياعي، لويت وجبي باتجاه الشرفة، وتطلعت إلى السماء التي بدأت تنقشع عنها السحب شيئا فشيئا، وقد خلف ذلك جواً من الانتعاش والبهجة أضافت إليه أشعة الشمس المتلكنة حيوية فتانة... في الصالة، كان يجلس «طارق» و «هيكل»- الشخصان اللذان عرفتنا عليهما «روحية»، وهما من نفس بلدنا، وكنا يتحدثان إلى «رامي»، فأقحمت نفسي، وتعمدت أن أندس بينهم، رغم أنني لم أكن أعرف فيما كانوا يخوضون، وذلك حتى أحرر نفسي من بعض ما أعاني منه من الإفراط في لعبة التباعد والتداني، في وقت كنت فيه أحوج ما أكون إلى حضور البديهة والتركيز، إذ ليس من اللائق، والناس يحتفلون من حولك ويضحكون ويشربون ويطربون، أن تكون «عذولا» بينهم، أو تصبح النغمة النشاز في لحنهم الرائع الطروب...

في تمام الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، كان كل شيء معداً جاهزاً، وقبل ذلك بنصف ساعة أرسل المطعم زجاجة الويسكي والبيرة، والتأم الشمّل، مكتمل النّصاب؛ على إلفته، إلا أنه يبعث في النفس مهابة ووجلا، لكل تلك الوجوه التي تبدو غريبة إلى حدّ ما، وهي لم تتعارف إلا خلال أيام قصيرة... أخذت «روحية» مكانها على رأس الطاولة، وهي تعلن بفخامة أنها ستكون هي سيّدة الشّرف، وكانت تقصد من ذلك تخليصنا من الحرج، وعلى اعتبار أنها هي القاسم المشترك المحتمل بيننا جميعاً؛ كانت هي التي تحرك كل الخيوط، وتمسك بكل شيء بين يديها، كما كانت هي التي وزّعت الأماكن، بطريقة أكّدت بها أنها صاحبة باع لا يضاهى في مثل هذه المناسبات!! جلس «رامي» إلى يمينها، وأخذت أنا مكاني على اليسار، و «طارق» و «هيكل»، جاءا بعدنا، وإلى جانبيهما جلس عمّ «أحمد» والسّت «زينب»...

قالت «روحية» وهي تأخذ طبقا مليئا بالسلطة وضعت منه في
صحنها ثم مرّزته إلى «رامي»:
والله، يا جماعة، ليس لهذا اليوم مثيل في الأيام... كأننا في زمن
السلّاطين!!

فضحك «رامي»، وقال يريد مجاراتها:
- وماذا ينقصنا عن السلّاطين؟!

كان الجميع يأكلون، وبين الطّبق والطّبق، كان ينتظم الحديث
متّصلا حارّا، يخرج من أفواه مليئة بالطّعام، وهي تثني وتمتدح المرأتين
على الجهد الذي بذلته في إعداد المأدبة الكبيرة التي كانت تزخر
بشّى أنواع الأكل... ملوحيّة بالأرناب، بطاطا محمّرة، والسلّاطات
بأنواعها، وفراخ. وما لذّ وطاب من فواكه في موسمها وأخرى في غير
موسمها!! ومزّ الوقت سريعا، والدّفء يكتنف المدخل، والظلمة تغزو
المكان رويدا رويدا منذرة بقدوم المساء مبكرا... كان المطر قد عاد إلى
الهطول، وعلى فترات متباعدة كان يأتينا صوت الرّعد مزجرا مهيبا.
استأذن عمّ «أحمد» وتبعته السّت «زينب» وبقينا نحن، ولم
نلبث أن انسحبنا إلى الصّالة، ومضت «روحية» إلى المطبخ لإعداد
القهوة... تطوّع «رامي» فأحضر طبقا كبيرا عليه كؤوس صغيرة،
وصحون مستديرة بها لوز وفستق وجوز وفشار، وفتح الكيس، وأخرج
زجاجات البيرة أوّلا، فوضع أمام كلّ واحد منّا واحدة، ووزّع الأطباق
بشكل ملائم فوق نضد صغير... امتدّت يدي إلى أحد الأطباق، في حين
شرع البقيّة في فتح زجاجاتهم، ثمّ صبّوا في كؤوسهم، ورفعوها فسمع
صوت طقطقتها، وبينما هم على وشك أن يشربوا دخلت «روحية»
فجلجلوا بالضّحك وأهدوا أوّلى الأنخاب إليها... كانت تحمل صينيّة
بين يديها فوضعتها على النّضد وأخذت مكانها إلى جانب «رامي»، الذي
قرب إليها زجاجة من الزّجاجات المتبقّية، إلّا أنّها اعتذرت قائلة إنّها
ستكتفي بشرب فنجان من القهوة... كنت أراقب المشهد بتمعّن، وفي

كل مرة كانت تلوب فيها عيناى أكتشف أننا ما نزال في حاجة إلى شيء ما، أن هناك شيئاً ناقصاً كي تكتمل الصورة الّتي قرّرنا أن نهيّئها بغير ألوانها المعتادة... انسحبت إلى غرفتي فجئت بجهاز التّسجيل، وجميع الأشرطة الّتي جلبتها معي، ووضعتها في زاوية من الصّالة... أخرجت «رباعيّات الخيّام» من مغلفها ودسستها في الجهاز، وما هي إلّا ثوان حتّى انطلقت بدايات الموسيقى... عدت إلى مكاني الأوّل، وامتدّت يدي إلى زجاجة البيرة ففتحتها، لم أكن في حاجة إلى الكأس، كما لم أكن مضطراً إلى شرب نخب أيّ من النّاس، وإنّما نخب «سيّدي» الّتي كانت أنسة في يوم ما... كنت تقريباً قد انتهيت من الزّجاجة الأولى، في حين كان «رامي» يروي إحدى نكاته البذيئة، وقد شدّ إليه انتباه البقيّة... فتحت الزّجاجة الثّانية، وصببت هذه المرّة في الكأس وأخذت جرعة كبيرة، ولا أدري لماذا استبدّ بي خاطر مشاكس في أن أقول شيئاً، فأشرت إلى «رامي» بالصّمت، وقلت:

أعطني بيتاً...

وكأنّما كان الكلام على شفّتها، وكانت تنتظر فقط أن أقول ما قلت حتّى تتدخّل، حيث اشرأبت بعنقها إلّيّ قائلة في زهو ومرح:

- أبسط، أنت عندك أكثر من البيت، ما شاء الله شقّة يرمح فيها الخيال!!

لم أتفطّن أنّي وقعت في خطأ فادح إلّا حين تكلمت «روحية»، فاعتذرت، وكانت الأغنية على وشك أن ينتهي جزؤها الأوّل، وذهبت إلى غرفتي فأغلقتها، واتّجهت نحو السّرير فاندسست بين اللّحاف، ورحت في نوم عميق لم أصبح منه إلّا في حدود الثّانية صباحاً تقريباً... أحسست بعطش وبجفاف في حلقي، وبمثانتي توشك على الانفجار... عندما دلفت إلى الممرّ كان النّور مضاء، ولمّا خطوت بضع خطوات تفاجأت لأنّ باب غرفة «رامي» كان مفتوحاً، فامتدّ بصري إلى الدّاخل

دون إرادة مَيّ، وكم كانت دهشتي كبيرة حين لمحت «روحية» على فراشه، وقد انحسر عنها اللّحاف فكشف عن ساقها وبداية فخذيها... شعرت بتأنيب الضمير، وبالندم يتأكلني، ففررت، لم يكن ذلك التّطفل من حقّي، ولا ذلك التّطلّع الفاجر إلى ما ليس لي؛ وحينما بلغت الحمام كان الباب مغلقا فعدت القهقري إلى المطبخ، وفتحت البزّاد فأخرجت زجاجة مياه معدنية أقحمتهما بين شفتيّ ورحت أكرع منها كما لو كنت ظمآن لم يعرف الماء في حياته قطّ.

في الصّباح، حكى لي «رامي» كلّ شيء، وختم بقوله، في نعمة حزينة تكتنفها شجنة:

- صدّقني لقد عرضت عليها المال دون أن تضطرّ إلى ذلك الشّيء الذي فعلته معي... قالت لي إنّها لا تريد أن تأخذ شيئا دون أن تدفع مقابل له، فحاولت أن أعذر، قلت لها ابحي عن غيري، فقالت لي لا بدّ لنا ممّا ليس لنا فيه حيلة، لأنني أحببتك منذ اليوم الأوّل الذي رأيتك فيه!!

.٧.

[إنّ الكلام على الكلام صعب. التّوحيديّ]

** الثّامن من تشرين الثّاني ٢٠٠٢

هل كان في نيّتي منذ البدء أن أكتب سيرتي، أو شيئا شبها بالسيرة؟! وهل ما كتبتّه إلى حدّ الآن يمتّ إليّ بوشائج قربي، وهو من الصّدق والجرأة بحيث يشير إليّ. يومئ إلى الشّخص الذي ولد يتيما،

وما يزال إلى الآن أعزب، حرونا، معرضا عن الزّواج، مضربا عن أيّ كلام أو نقاش فيه؟! هذا الشّخص الّذي ولد في الرّابع والعشرين من آذار سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف في مدينة صغيرة كانت في يوم ما قرية من القرى المغمورة في جنوب بلد صغير هو بدوره على إحدى ضفاف المتوسّط... هل كان الّذين يكتبون سيرهم، أو على الأقلّ الّذين يعترفون أنّهم كتبوا أو سيكتبون سيرهم، يفعلون ذلك حقّا؟! أم أنّهم يموّهون، رغم صدق نواياهم في أحيان كثيرة، واستعدادهم أن يسجّلوا كلّ كبيرة وصغيرة في تاريخ حياتهم الطّويل، ولكن ما أن تلامس أقلامهم صفحاتهم البيضاء، ويتوتّر الخيال حتّى يغدوا أشخاصا آخرين، بدل أن يكتبوا ما عاشوه بالفعل يجدون أنفسهم يكتبون ما يحلمون به، أو ما كانوا يتمنّون حدوثه في غفلة من الزّمان؟!... ربّما لو جوبهوا بكلّ تلك الأسئلة لقالوا، وما يضيرنا لو تداخل الموجود بالمنشود، وغدا الحلم والواقع وجهين لعملة واحدة: أو لقالوا إنّ الكتابة كانت دوما مخرجا من مأزق محرّجة في حياة كلّ فرد منا، فنحن نكتب كي ننسى، ونقول على الأوراق ما لا يمكن أحيانا أن نقوله بأفواهنا، ونكتب أخيرا كيما نقيم بأقلامنا جنة على الأوراق، أو... إنّما نكمل النّقص الّذي فينا بالكتابة، وما دمنا كائنات من لحم ودم مجبولة على كلّ ما هو سلبيّ، فإنّنا نرفع الإنسان بالكلمات إلى مصافّ الأبطال أو أنصاف الالهة الّذين كانوا في يوم ما ملح الميثولوجيا القديمة وسادة التّاريخ غير المكتوب!!

أنا الرّاوي!!

الحقيقة الوحيدة القابلة للتّصديق في خضمّ الأحداث المتسارعة، والحركة الجهنّمية الّتي تجرّ وراءها كمّا هائلا من الأشخاص، والأسماء والأشياء، والاحتمالات والتوقّعات، والمستحيل والممكن... إنّها الحقيقة القادرة على جعلني أتكلّم وأعترف، دون

خجل، رغم التَّحَفُّظِ الأخلاقيِّ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى نَفْسِي، أَنِّي لَسْتُ كَمَا كُنْتُ أَرْعَمُ. كَانُوا يَتَعَدَّدُ فِي شَخْصِهِ وَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ صِفَاتِهِمْ وَيَتَوَارَبُ دَاخِلُهُمْ حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يَقُولَ مَا يَرِيدُهُ بِكُلِّ حُرِّيَّةٍ، وَدُونَ قِيودٍ، وَإِنَّمَا أَنَا، بِاخْتِصَارٍ شَدِيدٍ، الشَّخْصَ نَفْسَهُ الَّذِي قَرَّرَ فِي لَحْظَةٍ ضَعْفٍ أَنْ يَقِيمَ مَشْرُوعًا، ابْتَدَأَ فِكْرَهُ ثُمَّ تَحَوَّلَتِ الْفِكْرَةُ إِلَى سُلْسَلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَخْيَلَةِ وَالْأَحْلَامِ وَالْهَوَاجِسِ... وَلَمَّا تَشَابَكْتَ كُلَّ الْخِيوطِ، وَتَلَاخَمْتَ كُلَّ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ مَعَ بَعْضِهَا الْبَعْضَ صَارَتْ أَقْرَبَ إِلَى نَسِيجِ رَوَائِي، لَا تَعُوْزُهُ إِلَّا الْأَوْرَاقُ وَالْأَقْلَامُ، وَالْوَقْتُ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى لَمِّ الشَّتَاتِ الْمُتَنَاشِرِ وَتَقْرِيبِ الْمُتَبَاعِدِ فِي شَبَكَةٍ مِنَ الرَّمُوزِ وَالِدَّلَالَاتِ... بَعْدَ تَفْكِيرٍ، وَأَخْذٍ وَرَدٍّ، اسْتَهْوَانِي «رَحِيلَ فِي بَدَايَا الْأَلْفِيَّةِ»، كَعُنْوَانٍ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ التَّمَحْيِصِ وَالِاسْتِغْرَاقِ وَالتَّأَمُّلِ بَدَأْتُ أَنْ أَقْسِمَ الرِّوَايَةَ إِلَى أَقْسَامٍ، وَوَجَدْتُني مَدْفُوعًا بِقُوَّةٍ لَا تَقْهَرُ أَنْ أَجْمَعَ أَشْيَاءَ كُنْتُ كَتَبْتُهَا مِنْ قَبْلِ بَأْخَرَى جَدِيدَةٍ... وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ اعْتِبَاطًا، بَلْ لَقَدْ عَثَرْتُ بَعْدَ الْمُقَارَنَةِ وَالْبَحْثِ عَلَى عُنَاصِرٍ مُشْتَرَكَةٍ، رَاعَنِي عُنْصُرُ السَّفَرِ الَّذِي يَحْكُمُ كُلَّ الْأَجْزَاءِ الَّتِي كَتَبْتُهَا، هَالَنِي الْهَرُوبُ الدَّائِمُ وَالرَّحِيلُ اللَّامْتَنَاهِي فِي أَصْلِ زَمَنِ هَلَامِيٍّ، بَدَايَا وَنَهَايَا، وَأَقُولُ قَرْنَ وَبَوَادِرِ الْفِيَّةِ جَدِيدَةٍ، وَإِحْبَاطَاتٍ مَا فَتَنَتْ تَتْرَاكُمَ مَعَ السَّنِينَ، جَارِفَةٍ وَرَاءَهَا حَتَّى الْأَحَاسِيسَ وَمَا بِهِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا، وَضَرْبَاتٍ قَاصِمَةٍ تَهْوِي عَلَى الْجَسَدِ الْمُنْهَوَكِ، فَتَحْدِثُ بِهِ كَدَمَاتٍ وَرَضُوضًا لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ شِفَاؤُهَا، لِأَنَّ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَهْتَمُّ بِهَا، حَتَّى الَّذِينَ طَالَتْهُمْ تِلْكَ الضَّرْبَاتُ وَحَرَمَتْهُمْ حِلْمَ الْوُقُوفِ مِنْ جَدِيدٍ، وَالْعَيْشَ كَأَيِّ كَائِنٍ لَهُ هَدَفٌ، أَصْبَحُوا غَيْرَ مُبَالِينِ، سَقَطُوا الْوَاحِدَ تَلَوَ الْآخَرَ، وَانْشَدَتْ رُؤُوسُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَكَثْرَةٍ مَا أَلْفَوْا لَوْنَ التَّرَابِ الَّذِي مَرَّغُوا فِيهِ أَنْوْفَهُمْ فَقَدُوا إِحْسَاسَهُمْ بِلَوْنِ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ... «أَوَاخِرُ الْقَرْنِ». إِيْغَالٌ فِي أَعْمَاقِ الشَّخْوصِ، كَانُنَاتٍ اصْطَدَمَتْ بِهَا فَجْأَةً، عَلَى غَيْرِ انْتِظَارٍ، وَكُنْتُ مُجَرَّدَ «مَسَافِرْ زَادِهِ الْخِيَالِ»، يَبْحَثُ عَنْ مَحْطَّةٍ آخِرَةٍ يَتَوَقَّفُ عِنْدَهَا، فَيَسْتَرِيحُ قَلِيلًا ثُمَّ

يواصل السّفر، إلى أيّ مكان، مهتديا بشيء أكبر من الخريطة، وأوثق من البوصلة، شعور باطنيّ، لا يخطئ أبدا، ينبع في الدّاخل، محتميا برطوبة التّراب وخصوبته، وما يلبث إلّا يسيرا حتّى يشقّ له طريقا عبر الظّلمة، ويورق فيأخذ الأبصار بجماله الأخاذ وفنتته الّتي تجلّ عن الوصف!!

لا أدعيّ أنّي أوجّه الأشياء والأحداث وفق إرادتي، كما أنّه ليس لديّ ما يكفي من الجسارة كي أقول إنّ كلّ ما تحدّث عنه، وما أنا بصدد الحديث عنه الآن، قد مرّ عليه وقت طويل، وإنّه ما دام كذلك فقد أضحيّت قادرا على تدوينه وتسجيله في تفاصيله وجزئياته الدّقيقة باعتباره ملكا لي، ولكونه قد غدا جزءا لصيقا من ذاكرتي...!! ما تزال الصّورة رجراجة أمام عينيّ، وما تزال المشاهد غير مكتملة، كما أنّ الشّخوص أنفسهم، الدّوات المتحرّكة، أحسّ في أغلب الأحيان أنّها تسعى إلى الإفلات من بين يديّ، وأنّها ترغب في التّمرد؛ تحسّ. وهذا ما انتهيت إلى الاقتناع به أخيرا. أنّها أكبر آلاف المرات من مدار الرّؤية الّذي شددت نفسي إليه وتقوقعت فيه؛ طاقتها على الزّوغان لا تحدّ، وحلمها في الانعتاق أشعر به يزداد يوما بعد يوم، من خلال السّطور الّتي أكتبها، وفي طوايا الحروف، وعلى امتداد الفقرات الكثيرة؛ شخوص لا تراني سيّدها وصاحب مصيرها بقدر ما ترنو إليّ في ازدراء، وقد تملّكها القرف والغثيان، فما أنا بالنّسبة إليها إلّا شخصيّة أخرى لا يميّزني عنها شيء باستثناء غفلي المفرطة وعدم قدرتي على التّأقلم معها... أبحث عن المعنى، وأنشغل بالمغزى وراء الأقوال والأفعال، يداعبني أمل العثور على ما أنا في إثره من المنطق الّذي يتحدّد به كلّ شيء، ولكن عبثا، لا التّأويل ولا التّفسير، ولا حتّى التّخفّي المستحيل في ثنايا الظّلمة الضّاربة، وتأثّر الخطوات المحاذرة وهي تتفادى الاصطدام بي، في طريقها إلى الممرّات السّريّة، والدّهاليز المخيفة، بإمكانها أن تنجيني

من السَّقوط المكتوب عليّ منذ البدء!! فهل لذلك علاقة بالضعف
الذي جبلت عليه؟ بتساهلي إزاء صنائعي التي تشكّلت على يديّ، فلمّا
استقامت بشرا سويّاً كان أوّل ما عضّت اليدين اللّتين امتدّتا إلّهما؟
هل لذلك علاقة بتنازليّ، ونزوليّ من القمّة إلى الأرض، إلى الثّرَى الذي
تعفّرت فيه حتّى عافتني الحياة والنّاس، وعفت نفسي، وزكمت أنفي
روائح أشبه بتلك الرّوائح التي تصدر عن الجيف المرميّة في عرض
الطّريق؟!

قدماي تخيسان كلّما تقدّمت إلى الأمام، والقلم يرتدّ عن الورق،
وذبالة النّور تصارع الديجور فيصرعها... وأتقدّم نحو السّرير، وما
أن أبلغه حتّى ينازعني الحنين إلى الكتابة، تجتذّبي الأوراق والقلم،
ويمهرب النّوم، وتنبعث في جسدي حياة لا أدري كيف لمثلها أن تتواري
داخل جسد مهدود قد ألفه المرض وسكنته العلّات: أم أنّ الكتابة لا
علاقة لها بالمرض والعلل، وإنّما مصدرها سرّ غير مرئيّ في الدّماغ؟!...
النّكوص والارتداد، والجسارة والإقدام، صار ذلك كلّه ديدنا، وتأصّل
عادة أخرى من العادات التي لا حصر لها، انضافت إلى الشّروذ
والهيمان، وشعور مرضيّ بعدم القدرة على التّآلف مع الحياة، عدم
القدرة على رؤية الأشياء كما هي، في واقعيتها، في أسمائها المختلفة،
ورتابتها، وسكونها؛ الكائن القديم، والسّنوات المتباعدة المتقادمة،
والأخرى المتسارعة دون رحمة، وفي جريها لا توقّر شيئا وتسحب كلّ
شيء يعترض سبيلها، أشكّ أنّي كنت ذلك الكائن أو عشت تلك السّنين؛
ولكنّ الشكّ نفسه لا يمكن أن يرحمني، وأن يرشدني إلى الحقيقة، لا
يمكن أن يتحقّق الوجود الذي ضيّعته بمجرد أنّي أشكّ، أو أنّي أحاول
أن أقف ضدّ العالم كلّ...!! الكلّ يضحك منّي، يشير إليّ، ولو كانت
لديّ مرآة في تلك اللّحظات من الخطر الحرج لتطلّعت إلى منظري فيها،
فلربّما كنت منكوش الشّعر، أو حافي القدمين، أو زانغ البصر أتطلّع إلى

مسخ مشوّه لا يجدي شيئا؛ لربّما كنت أجري ووجبي إلى الخلف يرصد السديم القادم من أبواب الجحيم، ولا أحد غيرك يهتمّ بالجحيم، والنّهاية الّتي لا محيد عنها، ولا حتّى «بدر»، أو «عبد المنعم»، أو الشّيخ «محمّد السّويسى»، أو السّت «توحيدة»، أو... أو...: الّذين أحببتهم، على الرّغم من كلّ الألم والتهافت، على الرّغم من الخيال، وشطح الفكر، وحتّى لو كانوا أشخاصا وهميّين، من صنع أوهامك، إلّا أنّك بمجرّد أن بعثتهم إلى الحياة صارت لهم معرّة خاصّة في قلبك.

أين الحقيقة؟ واللّهات وراء ذرات الواقع الغير المرئيّة، والتّعثر إلى النّهاية دون التّسليم بوجود ما يمكن تسميته بالسّقوط الأخير، هل من شأنهما أن يجليا أوّل الخيوط إلى النّور المتعالى؟ هل يستطيعان أن يمحو كلّ ما هورجراج ومموّه، ومن عدم يستنبتان كلّ ما هو ثابت، وغير وهمي؟! إنّّي أتساءل عن حدود الثّبات فيما أكتبه؛ أتساءل عن حدود الوهم، ومقدار هذا الوهم من الحقيقة، أو مقدار الحقيقة من الوهم المزروع بداخلي!!!

أقول لنفسي مرارا:

. هل من إمكانيّة للمواءمة بين التّناقض؟! هل من سبيل إلى تجميع الشّتات، ورأب الصدع، لتحقيق ولو جزء يسير من الهناء الموعودة، والعيش في سلام مع الذات دون الإحساس المتواصل بالذّنب والخذاع؟!... وأستسلم لقناعة ما، تستبدّ بي فكرة النّضال فتزرع بداخلي نشوات القرون الماضية، وتنهار كلّ الفواصل الّتي اعتقدتها عصيّة على الامحاء، لأنّها كانت تراعي دائما أسّ المنطق الّذي لا يفلت منه شيء، ولو كان ذلك خيالا جامحا يرفض أن ينضبط بالقواعد والحدود!! بإمكان الواقع أن يشحذ الخيال، وبإمكان الخيال أن يغيّر رتابة الواقع، وأن يؤسّس من لاشيء كلّ الأشياء، وأن يعطي أسماء الكون القديمة أسماء جديدة بعدد العناصر الّتي فيه، وأن يفيض

عليها... صحيح أنّ البحث عن مرجعية من فراغ ربّما يكون صعبا جدًا إن لم يكن مستحيلًا، وهو يتطلّب توضيحات جساما ربّما لا قبل للخليّ بها، وصحيح أنّه إذا اكتفي بالواقع وحده، وانشد الطّموح إلى الأرض، إلى العراء القاتم، تحوّل الوجود نفسه إلى بؤرة من الجحيم لا تصلح لغير الموت والانتحار، ولكن إذا تألفنا مع الواقع ونحن نفكر في الحلم، أو إذا عشنا على الأرض ونحن نفكر في السّماء كان بإمكاننا أن نصنع من الحياة جنّة فيها تتناغم كلّ العناصر الكونيّة. وأن نحيا دون أدنى إحساس بالنقص أو القرف أو الغثيان... ستسقط المعادلات من وعينا، وستفتت الترسّبات في ذواتنا لنولد من جديد، وقد ارتدّدنا سيرتنا الأولى، نتوق إلى تجانس اللامتجانس فينا، ونسعى إلى إقامة الوحدة المنشودة من أشياء كان يفترض فيها أنّها لا تلتقي أبداً، وأنّها تتناقض حتّى يقضي أحدها على الآخر... يغدو الفرح والحزن سواء، والليل والنهار، والغضب والحلم، والألم واللذة، والأهواء والأحلام، وزمن الثّروزمين الشّعور، والبداية والنهاية، والماضي والمستقبل...

كان من المحتمل أن تأخذ الأشياء والأحداث وجهة أخرى لو لم أشاهد ما شاهدت، ولو لم أسمع ما سمعت! كان محتملا أن أشعر بفداحة الحواجز التي ربّما كانت ستواجهني على مفترق الطّرق، في دروب الغيب الشّائكة، فقبل كلّ شيء وبعده ليس من اليسير أن نستند إلى وهم دون أن تكون لنا مقوّمات ذلك الوهم... «بدر» كان ممكنا أن أنظر إليه بطريقة مختلفة رغم أنّي لست متأكّدا إلى حدّ الآن أنّي ما كتبتّه عنه يمت إليه فعلا، وهو في جزئياته البسيطة وأدقّ دقائقه ذلك الكائن الذي رأيت ملامحه ترتسم شيئا فشيئا كلّما تقدّمت في الكتابة؛ لا أنكر أنّي رأيته، وأنّه منذ البدء، حتّى من قبل أن أسافر إلى القاهرة قد رسمت له صورة محدّدة في خيالي، وأنّي كنت أعرف أنّه في الوقت الذي سأغادر فيه لا بدّ أن أذهب إلى الوكالة التي كان هو يشتغل فيها لأحجز تذكرة العودة؛ ليست الصّورة نفسها وإن يكن فيها بعض

الشَّبه، والكلام الَّذي وضعته على فمه، والخواطر الَّتِي جعلتها تحلَّق في خياله، قد تكون افتعالا، أو زيفا، ومع ذلك يظلّ الاحتمال سيِّدا مطلقا، وما كنت أتصوِّره وهما ربَّما يكون هو الحقيقة نفسها بلا زيادة ولا نقصان!!!!... ربَّما تكون لـ «بدر» قصَّة أخرى، غير الحكاية الَّتِي قيَّدته بها، ولكن بدا لي أنَّ الرُّؤية الَّتِي أطرته ضمنها إنَّما هي الوجه الآخر لكائن أردت لصورته في الواقع أن تتعاضد مع صورة أخرى وجدتني مندفعاً إليها... لعلِّي كنت أبحث عن البطل الموعود، بطل الخيال، وخلال رحلة البحث الطَّويلة عثرت على بطل الواقع، ولما كان لا يختلف عمَّن رأيتهم في خضمِّ الحياة جنحت به إلى تجربة قصوى هي أقرب إلى المغامرة... الكائن الَّذي لا يرضى بشيء، أو أنَّ إحساسه بلا جدوى وجوده دفع به إلى التَّيه على أمل أن يجد ذاتا غير الذات، وأن يؤسَّس وجودا غير الوجود، بعيدا عن دنيا النَّاس، في فراغ سيكون من الأنسب له أن يعيد حسابات الماضي الأقلة وأن يقيم تجربة السَّنين المنصرمة على أمل السَّموِّ والتَّعالِي المطلقين!!

لم أشأ أن أعزله، وأن أجرده من الانتماء القديم، وإنَّما كان دافعي لا يقاوم في جعله فردا «متعدِّدا»، متعدِّدا في علاقاته، الأشخاص الَّذين رأيتهم في الوكالة معه، «مفتاح» و«عبد المنعم» أخوه، و«فتحي»، وشخص آخر لم أره، أحالي لقبه على جغرافيا مكان موعَّل في البعد، «السَّويس» وذكريات ولَّت على رجع الحنين المتردِّد في كلِّ الرِّوايا الَّتِي شدَّتني إليها وأنا في الدَّاخل، جالسا على الكرسي، أنطلُع إلى الصَّمْت والفراغ، والطَّرِيق المؤدِّية إلى «خان الخليلي»... والسَّت «توحيدة»، امرأة لم أسمع عنها ولم أرها في حياتي البتَّة، و«نعمة»، و«درِّيَّة»، و«زينب»، أسماء تؤطِّر المشاهد وتكمِّلها، وتعضد الأفق الرِّوائي، وتؤكد رغبة في الهروب والرحيل!!

[يا ليت لي قلبك... محمود درويش]

** الحادي عشر من تشرين الثاني ٢٠٠٢

لا أحد يختار قدره!

لعلّي لم أكن أبه كثيرا من قبل، ولعلّ الجملة لم تجري عليّ بال،
لأنّه لم يكن هناك داع لها؛ فلماذا أجد الكلام كلّ يذوب في مخيلتي،
ويتزعزع كيان اللّغة في هذه اللّحظة جازًا خلفه إلى الهاوية جميع
الحروف والكلمات، ولا تبقى إلّا هذه الجملة، وهذه الجملة بالذات... لا
أحد يختار قدره؟! بلى، أن تتفاجأ، وتقضي هزيعا لا بأس به من عمرك
أشبه بالأعمى، تتوهّم أنّ ما رأيته وما سمعته نهاية المطاف، ولا إمكان
لحدوث أيّ عارض غير متوقّع، والأرض، ليست كلّ الوجود والكون
الّذين لا حدود لهما، وإنّما مساحة بحجم الجزيئ تتحرّك ضمنها
وتحسبها العالم الأثير الّذي لا معدى عنه؛ والسّماء خيمة أقمتها على
الأوتاد ذات ليل ساج وقد ألقى بك الأرق إلى التّيه خارج البيوت المغلقة
والنّوافذ الّتي أسدلت عليها ستائر شديدة الكمود، بحثا عن أمل ضائع
ربّما في اللّقاء «بها» أو «به»!! شيطان الشّعرا يحسن دغدغة المشاعر
وحسب، ولكن أيضا له القدرة على جعلك تحتجب فتدسى أنّك الكائن
الّذي سيظلّ كائننا على الرّغم من كلّ شيء، يحده الزّمان ويقهره
المكان... ونتيجة لذلك، حتّى تحسم الصراع المؤرّق وتحقّق سلاما مع
نفسك، ألغيت الكون الّذي لا قبل لك باستيعابه، تناسيته عن قصد،
ولمّا طال الأمد عليك انتهيت إلى نسيانه؛ واختصرت الزّمان في ذاتك
واستعصمت عنه بالذّرات الّتي تشبه الأنفاس في شفافيّتها، ولو واتاك

الحظّ وأسعفك بـ «شلة أنس» واندغم خيالك في حلقات الحشيش،
والجوزة تتبادلها الأيدي تباعا لتهافت إلى عوالم السكون التي لا تحدّ
وشكّلت أفقك وفضاءك من الأسرار والألغاز التي تحملها بداخلك،
وأنت المتعب، أنت سندباد وقد قرّر أخيرا أن يتوقّف عن الرّحيل، من
فرط إحساس غامض بالغبن، والكبر، والحنين الذي ما فتئ يتضخّم،
إلى مدن كانت في معيّته في الحلّ والتّرحال، فهل كان بوسعه مثلا أن
ينسى البصرة، أو بغداد... أو مدنا أخرى لفرط ما ألمّ بها تماهت مع
المدن الأخرى، مدن الميلاد والذّاكرة الطفولية والماضي بين الحارات
والأزقة والتّواصي العديدة والميادين التي تفضي بدورها إلى ميادين
أخرى أوسع وأرحب...!!

ليس تجمّلا ما أحسّه، أو متعة منشودة من القلب، ما أن تنساب
حتّى تنبعث فرحة الخلود ويعمّ سلام الأبطال العائدين من المعركة
مظفرين؛ لقد كان عجزا ثقيلا لا يحتمل، ويأسا، لا دواء منه سوى إيهام
النّفس بالاحتضار والموت... من أنت؟! من أنت، أيّها القميء كحشرة،
المنتفخ كبالون على وشك الانفجار؟! وتراودك الرّغبة في تضخيم
ذاتك، وأن تكبر في التّوّلتغو خامس الذين امتلكوا العالم، وللحظة
تداعب في خيالك الغضّ صورة «الضحّاك»، وتخيّل «النّمروذ»
العملاق يسقي النّار من العرق الطّافح في جبينه ويحدّث مريديه عن
الحياة بعد الموت...!! لعلّها نكتة أخرى، أو لعلّي أريد أن أتعرّى بهذه
الأفكار التي تلقي بي إلى الجهات كلّها، فأتناثر كما تتناثر الأوراق الصّفراء
في الحقل المتروك مع بدايات الخريف العابس الغاضب؛ أو لعلّي كنت
أوجّل الصّدمة إلى ما لانهاية، فلا أكتوي بالنّار والجليد، ولا ينتهي رأسي
محطّما على أحد الجدر الكثيرة التي أراها في الحلم واليقظة على حدّ
سواء.

أقول:

العالم ينتهي هنا!

لا يمكن للعالم أن يكون أكبر ممّا تخيلته! وحدوده كآني أراها أمامي، لا تتجاوز مدى بصري، وأبعاده، مسافاته، أسرارهِ، الغازه، أنا المتحكّم بها، والكفّ التي بعنايتها اللامتناهية تنضبط الأشياء ويستوي المنطق هي كفي؟! فمن أين جاءت العوالم الأخرى إذن؟ والأميال اللامحدودة؟ والبلدان؟ كيف ألقى بي القدر في لمح البصر إلى تيه أكبر من كلّ المتاهات... هنا، عند هذا الحدّ من المفاجأة والانشداه، غامت الأحرف جميعها، وتهافتت اللّغة، لتبقى جملة واحدة فحسب: لا أحد يختار قدره!!

منذ سنوات، ألفتني العزلة وألفتها، وتقمّصت أدوارا لأشخاص عثرت على أسمائهم فيما بعد، في كتب عديدة، ودراسات، ووثائق انتهت إليّ بالمصادفة، وعجبت آنذاك أشدّ العجب، لأنّه ذهب في ظنيّ أنّي أبتدع ما لم يسبقني إليه أحد، وكانت تلك أولى الخيبات، وخيباتي. فيما علمت، حين ارتدّدت كائننا كما ينبغي لكائن أن يكون. كثيرة لا يدركها الحصر: خيبة ليتها أعادتني إلى الواقع، وإلى الحياة التي تضجّ من حولي وتغلي كالبركان الثائر، ولكنّها بدلا من ذلك أُلقت بي إلى الوهم مرّة ثانية، وإلى الموت أبحث عنه آلاف الأميال بعيدا عن الأرض... تصوّرت المدينة، وهي كلّ ما لديّ، والغرف الصّغيرة التي استأثرت بها في البيوت التي ضمّمتني إليها على امتداد السّنوات الأولى من عمري، المنتهى، وهي مدار الحركة والسّكون، والحياة والموت؛ والحياة رأيتهما بعينيّ وسمعت أصواتها الخافتة بأذنيّ في الحوش الكبير الذي ما يزال جدّي يذكّرنا في كلّ مرّة إذا اشتدّ التّزاع بينه وبين أحد أخوالي أنّه حوشه، ويشير إلى الباب الخارجيّ في تحدّ أنّ من لا يرغب في احترامه والاعتراف بسلطته ما عليه إلّا أن يحمل أغراضه وينصرف إلى «الجحيم»؛ في الحوش ذكريات الصّبا الأولى وذكريات الميلاد، وأنا الذي لم أتخلّص بعد من الحنين إلى الالتنام ولمّ الشّتات، والزّيارات

التي تتكرر بين الفينة والأخرى، فتأتي خالتي وأبناؤها، وزوجها، وتأتي خالتي الأخرى من طرف الحي هي وأبناؤها أيضا، وننتظر الليل فنتحلق في تلك الغرفة الكبيرة وتبدأ الحكايات التي لا تنتهي، والسمر العتيق؛ وروائح الماضي من يعيدها وكيف لما انقضي أن يستعاد؟! كيف أنسى أن خالتي سيدور عليها الزمان دورته وسأشهد ميلاد طفلتها. تلك من كان إسمها تحديا لوالدها بعد أن صمم على الطلاق رغم المحاولات ، وبعد أن تدخل العقلاء ومن يفترض أنهم حكماء العائلتين، وعاد الزوجان المنفصلان إلى بعضهما، لم ينس زوج خالتي أن الإسم سيظل رمزا لا ينسى للإهانة التي ألحقتها به خالتي فأعاد التسمية، وضحك طويلا حين فعل ذلك... الزمن يدور، وتنقلب الأشياء كأنها لم تكن في يوم من الأيام، والحالات أشك أنها تتواتر، وتحل الواحدة محل الأخرى في حركات محسوبة، وفي أوقات بعينها، فما بعد الحزن إلا الفرح، وتذهب الحرارة ليحيى البرد، والحلاوة شيء والمرارة شيء آخر، وما داما كذلك فلا غنى لنا عنهما، فالحياة تحتل المتناقضات جميعها، وهي لا تستقيم إلا بتلك المتناقضات نفسها... كانت عزلي تصور لي الأشياء بخلاف ما هي عليه، وكانت تزين لي الوجه وتخفي دائما الخلفية، أو العكس؛ حتى السعادة كنت أرى سوادها فحسب، ولا أنزعج إذا حطت عليّ الكآبة أو الصمت، ولا أبالي بالمسرات أو المناسبات السعيدة، وهي تقام بالليل أو النهار على بعد خطوات، بل لقد كنت أضج وأضجر، وأحتقر نفسي لأني لم أستطع أن أحررها من رثاء الحياة التي أعيشها؛ أبحث عن الصمت في الأماكن جميعها، وأتوحي إلى السكون سبلا مستحيلة، وأهرب مع أصوات العالم الآخر، تأتي في أواخر الليل من المذيع، في أزمة قد تكون مجرد احتمال، وأمكنة هي الأخرى قد تكون أماكن افتراضية، ولكني لا أعلم لماذا كنت مشدودا إليها، كحيوان أليف حتى لو أطلقه أهله في الصحراء لا بد أن يرجع إلى منبته ومرتع صباه!!! بلى، شهدت الحياة وهي تينع وترعرع، والصبيان والبنات

يكبرون، ويلتحقون بالمدارس، والأقارب الذين كانوا يلّمون بالحوش في زمن قديم، فيأكلون ويشربون، وتقوم على خدمتهم جدتي، فلا تدع شيئاً إلا أتتهن به، ولا رغبة من الرغبات إلا حققتهن لهم، ولا عوناً إلا بذلته، هؤلاء حين أقبلت عليهن الدنيا كان أول ما فعلوه أن عضوا اليد التي امتدت إليهن حين العسرة، وسخروا، وتهكموا، وزادوا فأسمعوا أصحاب الفضل ما يكرهون وأمعنوا في الإساءة حتى فاض الكأس وبلغ السيل الزبى؛ وكما انطبعت صور الميلاد في البال كذلك كان الموت، والموت قاس، جبّار، شبح يترصّ في الأزقة والمنعطفات، أخذ جدي أبا النجا؛ عرفته شيخاً وقوراً، ذا شارب أبيض، وجمة بيضاء، يرتدي طاقية متألّكة ويلبس جبّة، وقد اعتاده أهل الحيّ لمهارته في حياكة ألبسة صوفيّة كانوا يحتاجونها في فصل الشتاء، أراه في فراشه في الغرفة الأيلة للسقوط، وقد بناها بيده تساعده جدتي، هويشدّ الحجر إلى بعضه وهي تأتيه بالمونة، شارد الذهن، مخطوف النظرات كأنه كان يرى موته، أو يتواصل مع كائنات غير أرضيّة تفضي إليه ويفضي إليها، وتسارّه ويسارّها... وفي أحيان أخرى، كنت أرى جدتي إلى جانبه، عند قدميه تمسك له الخيطان، وهويشفع بالإبرة إلى الصّوف في حركة لا يجيدها إلا من تمكّن من الخياطة والحياكة مثله... بعد موته، ودفنه في المقبرة بظاهر الحيّ، وفي أيّام الجمع من كلّ أسبوع، كنّا نذهب جميعاً إلى هناك بمعيّة أمّهاتنا وجدّاتنا، فنقوم على القبر، ونقرأ الفاتحة وبعض سور من القرآن وندعوه بالغفران، أتطلع بعينيّ الطّفليّتين إلى أعين الكبار وقد سقطت عنها بعض الدّموع الكبيرة، وأسمع لازمة كانوا يكرّرونها بكلّ خشوع: «رحمه الله، لقد كان رجلاً طيّباً!... هل أحببته؟ وهل كانت سنواتي الأربع أو الخمس تكفي لجعلي أحسنّ بعاطفة الحبّ نحوه؟ وهل شعرت بفداحة موته؟... هل تمنّيت لو بقي جديّ على قيد الحياة؟! هذه الأسئلة أطرحها الآن وأنا مدرك أشدّ الإدراك أنّه ما كان لي أن أطرحها في تلك السنّ... صحيح

أَتِي لم أكن أثيرا لديه، وربما إمامه بالكبار من نفس سنّه، وترقّعه عن مصاحبة الصّغار في سنّنا، أبعدنا عنّا وأبعدنا عنه، نحن أحفاده، ولكن لا أكفّ عن التّفكير فيه، بل إِنِّي أترقرق كلّما ذكرته، وصورته القديمة الّتي ربّما لم تكن تروق لي في صباي، وهوزائغ البصري تطلّع إلى البعيد، غدت هي أقرب الصّور إلَيّ، أستعيدها في صمّتي، وأداري بها ظلمة العزلة الّتي تلفّني!!!...

لعلّ تاريخ الموت في العائلة قديم، يعود إلى سنوات إلى الوراء، وربما عقود، ولعلّه ترك بصمته في القلوب قبل الأشياء والأماكن، وخلق جوّاً من التّحفّز والتّحفّظ، والخوف أيضا، ومزيجا من الرّهبة والتّوجّس، وهذا ما جعل الكبار سرعان ما يثوبون إلى أنفسهم عند الاستئناس والقربى، فلا يتركون لعواطفهم أن تأخذهم إلى عوالم النّشوة القصوى، وتقودهم إلى إحساس مطلق بالسّكينة غير مشوب برائحة الخشية والرّعب، إذ تتلاشى سكرتهم في طرفة عين، وتحلّ بهم صحوة جارفة كما يحلّ قضاء نازل على قرية من القرى البائدة الّتي حكم عليها بالعذاب في قديم الزّمان؛ يستغفرون وأيديهم تتخلّل وجوههم، ويدعون أن يديم الله عليهم الصّحة والعافية وأن يتداركهم وموتاهم بالصّفح والعفو...!! الخوف، خوفهم، عالمهم الغامض، إيمانهم، وحثّى أساطيرهم وخرافاتهم لا تملك أن تقول إنك تخلّصت من كلّ ذلك، وإنك لم تحسّ الخوف الّذي كانوا يحسّونه، وإنك لم تخش الموت، وإنك لم تبك طويلا حين توقّيت جدّتك لأبيك... استعصى عليك الدّمع وأنت بالمقبرة، جفّت العينان، وغدت كلّ مشاعرك محايدة، حتّى ظننت أن ذلك الكائن الّذي واره التّراب لم تربطك به أيّة رابطة في أيّ يوم من الأيام، وأنّ الحبّ الكبير الّذي احتضنك، وتعهّدك صبيّا ويافعا وشابّا، ليس في الحقيقة إلّا قبض ريح عابرة هفت على معبر من المعابر المقفرة ثمّ ولّت من حيث أتت كأنّها لم تكن... وفي العودة، تقودك الخطى الثّقيلة إلى مجثم الموت، وما أن تهالك على

السّرير حتّى تفاجأ بدموع الكون كلّها تسحّ من عينيك، البكاء الّذي لم تعرفه في يوم من الأيام، والغصّة في الحلق كأنّها الصّخرة يلقي بها السّيل، والحسرات، والنّكبة الّتي لم تستشعرها إلّا في تلك اللّحظة بالذّات، كائن عزيز على القلب، عوّضك الحنان والدّفء والطّمانينة ونأى بك عن شبح التّشرد، واستعضت به عن فقدان الأمّ وجفاء الوالد وإعراض الحظّ، وداريت به الغربة، ها هو ذا يختار أخيرا أن يمضي بمفرده إلى المجهول، فلا شيء يحلو بعد ذهابه، ولا خلوة حبيبة في كنفه، حيث تختصر المسافات إلى مداها، وتمتلىء بسرّ الوجود كلّ، ولا شيء بعده... لا أمل يمكن أن ينسبك أنّك أصبحت يتيما، ليس يتم الأمّ أو الأب، ولكنّه يتم الجدّة، وما أقساه من يتم!!

«حيّ بن يقظان، والطفّل المتوحّش، وبين النّاس، في الكثرة تتفاقم الغربة، ويثقل القلب فيخرس اللّسان، ولا شيء ينجّي من الموت موتا، ولا حتّى طلبه الكهف المتباعد في طرف من أطراف العالم البعيد، نشدان الرّاحة، والخلوّ إلى النّفس، والغريب من النّسب أقرب، والنّسب بعيد بعد السّماء عن الأرض؛ وذلك ما أدركته بالعقل دون أن تسعى إلى النّأي، سيّجت به نفسك، وأغلقت بالمراتيخ من الدّاخل على الهدوء والانضباط فانبعث الصّياح فوضى شاردة، بيدك تصنع أفكارك وتخاصمها فتشاكسك، وتقول لماذا أنا هكذا، وماذا ينقصني حتّى أرضى بقدرتي؟! ولما تستعصي عليك الإجابة تمعن في السّؤال إلى ما لانهاية... حلمت أن تكون صوفيّا، وتجعل من غرفتك صومعة ومحرابا وتطلب الحقيقة في باطن الأرض وذرات الهواء، ورميت بكلّ حياتك وماضيك التّليد وراء ظهرك، غير أنّك عدت بعد طول التّرحال، وبعد أن ضيّعت عصاك، وفقدت عمرك في أوّل منعطف على طريق غير الجادّة... كنت حين تلتفت وراءك تهريج عينيك دنيا النّاس، وترنّ في أذنك كلماتهم، في بيوت مغلقة ذات مساء شتائيّ، ووشيش الشّاي ينطلق مسترسلا من الأبواب على المواقد، وعشرات الأيدي تمتدّ في

نفس الوقت تطلب الدّفء... ومن الفراغ ينبعث صوت الرّاي: «كان يا ما كان في قديم الزّمان، ملك ولا ملك إلّا الله...!!»، تذكر أنّك سمعت شيئا كهذا في صباك، وحلمت بالشّقاء الذي سيأتي، والصّيف الذي ولّى، والأصدقاء من أترابك، والصّيوف العزيزين يأتون من الموسم إلى الموسم يحملون معهم البركات ورائحة الزّمن والأولياء... ياه! الزّمن! وعشق من يعشق، وعشقك لا تحيط به الكلمات ولا يحده وصف الواصفين، وما ضاع منك على أطراف الكشف أدركته في ذاتك، إلّا أنّك ما اكتفيت يوما، وما كفّ عنك الرّحيل، عشت في الزّوايا المظلمة، المعتمة، وبنيت هيئة على شكل غير مسبوق، تضع اللّبنة فوق اللّبنة، وتنتظر ضيفا أعياك انتظاره...!!»

ماتت والدتي!

لم أكن أوّل من ماتت عنه والدته، ولكن قلائل هم من تركتهم أمّهم في سنّ لم تجاوز الخامسة إلّا قليلا، وأقلّ من ذلك بكثير من ابتلوا بمعاشرة المريض، مرض طويل، رتيب، أنشب أظفاره في القلب دون رحمة، فالزم والدتي الفراش، حكم عليها بشيء هو أقسى من الموت بكثير؛ وهل أقسى من مرض ترى الموت فيه كلّ يوم، يطيف بك ضاحكا على شفّتيه ابتسامة تشفّ ماكرة... لم تبق إلّا الذّكري، وذكري الكبر غير ذكريات الصّبا، وما لم تفهمه صغيرا تضفي عليه وعيا قد تضخّم مع السّنّوات فتغدو المأساة بألف وجه، وما تعتم أن تشير أصابعك في كلّ الاتّجاهات إلى الجنّة، وأولهم والدك!!... تزوّج بعد موتها، وقبل موتها كان يتردّد على بيت من ستكون زوجته الثّانية، كأنّ والدتي لم تكن تعنيه في شيء، وكأنّ الزّمان قد توقّف عند رغبته وآماله العراض في أن يجب وراءه كلّ ما يحيل على طفل أنجبه، لم يكن راغبا في إنجابه منذ البداية، وزوجة ستموت إن عاجلا أو آجلا، فإن لم يكن بالمرض، فبالحزن الذي شاخ وهرم بداخلها، شبّح عملاقا أكبر من سنواتها الأربع والعشرين بعشرات الأعوام!!

. أريد أن أنسى!! وأفاجأ أنني أفكر في الذي أريد نسيانه؛ وخبر
الوفاة، واللطوّ في عتبة الغرفة المتهدّمة، والإحساس المائع باللاشيء،
كان الصّباح والنّدى القادم من الحوش الكبير، واضطراب الجدّة
الوالهة الثّاكل، كلّ ذلك ليس له من معنى في دماغك الصّغير... ولم
تكن لتعلم لماذا بكيت حتّى لو نزلت على خديك الدّموع، والموت إلى
تلك اللّحظة، لا يختلف عن الحياة، والحياة ربّما هي نفسها في الخضمّ
ستفقد معناها، كما يفقد كلّ شيء معناه مع الأيّام والسّنوات... هي
صورتها ما ظللت محتفظا بها، صورة بالأبيض والأسود، في طيّات
جواز السّفَر، شاهدنا على أنّ الموت لا يملك أن يحرمنا من الحنين!!

شيئا فشيئا تكبر الرّفعة من حولك وتنساح الدّنيا، ومن المدينة
إلى الحاضرة، ومن العزلة والتّفوق في الشّرنقة إلى الرّحابة والامتداد
على الجهات كما لو كنت كائنا أخطبوطيّا قادما من الأعماق المجهولة
لبحر ظلّ منسيّا في مجاهل الأقيانوس ثمّ سئم وحدته فاختر أن
يجد له متنفسا في فوضى الأحياء... سنواتك العشرون أو الواحدة
والعشرون تشعر بها كأنّها الثّقل ترزح تحته، أو القدر المشؤوم الذي
أن له أن يتراجع إلى الظّلّمات المتكاثفة في مكان ما من المملكة التي
أسّستها في صباك المتأخّر وبداية شبابك!! والحاضرة ليست كغيرها،
لا تشبه مدينتك في شيء، وأناسها كائنات أخرى، وأشياؤها تغري
بالضياع وتحمل على الاستكشاف، فتندفع بالليل والنّهار، لا تهدأ، ولا
يقرّ قرارك، وفي كلّ يوم ترى جديدا، وتسمع أصواتا أخرى ذات أجراس
غير جرس اللّهجات التي نحتت لهجتك وصقلتها في الحيّ العتيق بالمدينة
الراحلة...

قناعة بوجود منطقة كامدة متحلّلة، وفقر قاهر إلى النّور،
وإمعان الزّمن في التّأمر عليك طوال السّنوات التي ولّت، وشعور

حارق أنّ هناك، من حولك، ما يستعصي على الفهم، وأنّ المقاييس التي كنت ترى بها الأشياء من قبل لا يمكن أن تسعف بالمطلوب وتوفّر الراحة والطمأنينة وتضعك في نفس الكفة مع بقية البشر من بني جنسك... ترمي بنفسك إلى المدى المتعاضم، بين اتّساع الدائرة والتّيّار الهادر وهو يجرف في طريقه كلّ أمل بالنّجاة، والنّجاة نفسها لا تهمّ، بعد أن صحوت، وصار كلّ شوقك أن تتدارك ما فات، وتتعلم في أقصر مدّة ما ظلّ ينقصك سنوات وسنوات!! دائما كان هناك من يهتمّ، من ينظر إليك في ارتياب، ومن خلال نظراته تتبيّن ازدياد وتهكّم، ولولا بعض من الحياء، لما عدت من يطلق ضحكة كاوية مشيرا إلى ما تتحلّى به من الجهل في عصر الدّرة والصّوارخ العابرة للقرارات وأزوار التّحكّم عن بعد: لا فائدة من الشّعور، وتاريخ التّصوّف الذي وقفت عليه حياتك مجرد هراء، وما لم ترض بالصّخب في الحلقات المفتوحة على الشّوارع، وخيار التّخلّي عن التّفكير بصوت مسموع حتّى لا يصنّفوك في عداد الممسوسين بلعنة الباطن، وتبسط يدك لتتشابك مع بقية الأيدي، ولسانك يلوك الأحاديث المعادة المكرورة عن كون شاخ، وهو على وشك الإفلاس، حكم عليك بالإبعاد: وما دمت قد اخترت طائعا أن تتقمّص حكمة الأحياء، حتّى تغدو حكيما مثلهم، فلا حيلة لك، ولا ضير، فأنت تكون وسط الحشد، واحدا من بين آلاف، خير من أن تكون بمفردك، تعاشر خيالات مخيفة، وتتلبّس بك رهبة النّهاية... لتجر كما يجرون، ولتقف حيث وقفوا، لا تخاف أن تزلّ بك قدماك، فتخيس وتبتلعك الأرض الرّخوة، ولتتكلم كثيرا عن الأحداث البسيطة، والأشياء المبتذلة، والرّجال الذين يحبّون النّساء، والنّساء اللّواتي لا همّ لهنّ إلّا أن ينتظرن الرّجال على أحرّ من الجمر، يمتنّين أنفسهنّ بالعشّ السّعيد، والحياة التي يملؤها الصّغار الذين سيأتون ذات يوم فينسوهن التّعب والنّصب!! لتسابق الزّمن، ولتكن لديك القدرة والشّجاعة والاستعداد لمسايقته والتّغلب عليه،

فلا حاجة بك قبل كل شيء إلى الجري وراء سراب قاتل... الموت!! وماذا لو مت؟! ماذا لو انطبقت عليك حيطان القبر الوطيئة ولقّتك ظلمته، على الأقلّ ستخلو إلى بعض الراحة، وستنسى أنّ الإنسان ولد ليموت، وأنّ الحكمة تستوجب إذا هرم أحدنا فأحرى به أن يكون مستعدّاً ليلبغ أقصى درجات الكمال ويتحوّل إلى بطل يستهين بالفناء من أجل الخلود!! والحياة!! هل بمجرد أن نكون مفطورين بالغريزة على حبّها نتشبّث بها إلى آخر رمق؟! أم أنّنا نخشى مفارقتها لأننا لسنا متأكّدين ممّا ينتظرنا بعد الموت؟! أفّ للحسابات، ومطلق العادة في اختبار حميميّة ما نلبث أن نتحدّ بها ونتماهى، فتصبحنا يوماً بيوم، ولكنّا نشيخ ولا تشيخ، ولما يحين الذّهاب ويحمّ القضاء، يصير لا همّ لنا سوى أن تخلص لنا في مفارقتنا، فإذا ما رفضت أو حرنت دعونا عليها، أو تخيلناها وقد أصيبت بمصاب مثل مصابنا فنشمت ما طابت لنا الشّماتة، ونموت إذ نموت هائنين مرتاحي البال والضّмир...!!

«الحاضرة!!»

أكبر منّي بالقطع، وكوني قبلها لا يتجاوز حدود مدينتي، ومع الأيام اعتقدت أنّ البداية والنهاية متناهيّتين، ولم يخطر ببالي أبداً أنّ هناك عالماً آخر، عالماً أكبر من عالمي، وأنّ العالم الذي لم أعرفه بعد هناك عالم آخر أكبر منه، وأنّ هناك عوالم لامتناهية، أكبر من عوالم أخرى، وأنه كلّما كبر أحدنا استطالت أمامه الأماكن بشموخ تتحدّاه وتربكه، وتذكّره بعظمتها إزاء ضعته وقمائه...

لا أرغب أن أظلّ صغيراً، وما دامت الفرصة سانحة أن أختبر وأن أجرب، وأن أحيأ وأن أموت، وأن أعيش السّموّ وأن أتمرّغ في الوحل المبيّث أمامي، وأن ألقى بنفسي في الزّحام الشّديد، تراحمني الأجساد المتلاحمة وأزاحمها فأستعيد الصّلة بانتمائي إلى الإنسانية، وأن أخطئ، وأن أشمّ رائحة عرقهم فأذكّر أنّي لست بحاجة إلى الطّهارة وحدها، وإنّما الطّهارة هي الأخرى تحتاج إلى شيء من القذارة من حين

لآخر، وإلى كلام لا ينتهي، لا يحذف أحرفاً أو كلمات بعينها، ولكن يحتفي باللغة في كل أبعادها، فكما كانت اللغة القديمة تجيز الكثير من الصّراخ والصّيحات المهمة والإيماءات والإشارات، فكذا يجب أن تكون اللغة الجديدة، فلا تتحرّج وأنت تستمع إلى الأصدقاء وهم يصخبون، أحيانا يلقّون المعنى البسيط في حلقات لا تنتهي من الحكايات، حكايات لا أوّل لها ولا آخر، تتوالد من بعض، وتقود الحكاية إلى أخرى أغرب منها، وأحيانا أخرى يختصرون نفس المعنى، فيشيرون مجرد إشارة، على اختزالها تحيل على مجاهل، وتومئ إلى مفاتن، وتتجرأ في سفور!! لتشمّر إذن، ولتخلع نعليك وعذارك، فهذه البنائيات في الحاضرة تستقطبك كما لو أنّها مغناطيس، والوجوه، عشرات الوجوه، بل مئات منها، تراها ولم تكن قد رأيت مثلها من قبل في طيّات العزلة، تغريك فتنجذب إليها، تستغرب لآلاف المشاعر والعواطف التي ترسم عليها باستمرار، تحمل هموما وأمالا في الخلاص، اختارت الواقع فاختارت معه الصّراع إلى النّهاية، وأن تسعى كما لم تسع؛ تستغرب أن يضحكوا ولكثرة ما عاشرت الخيالات والسّكون، واعتدت الحزن والخوف كدت تنسى أنّ هناك شيئا يلجأ إليه الإنسان في أوقات الفرح والطّرب، هو الضّحك، يطلقه من صميم فؤاده فيتطهر من الأدران بداخله، ويعود إلى الحياة وإلى دائرتها المهولة متفائلا، مندفعاً بتصميم إلى هدف ما لا شكّ أنّه يربض في مكان ما؛ وتستغرب إذا رأيتهم يبكون كيف يمكن لذلك الضّحك المعرّب، والقهقهات المنطلقة، أن تنطفئ فجأة كالسّراب ويحلّ محلّها نشيج، وتباريح وعذابات؛ هذا الإنسان، وهؤلاء هم النّاس، عشت بعيداً عنهم، في السّماء الرّحيبة، مع أطيايف أشبه بالأرواح الهائمة، عاشرتها حتّى كدت تصبح واحداً منها، أصابتك عدواها وانطفأت عيناك عن كلّ ما يمتّ إلى عالم غير عالمها... اعتنقت الحزن فأنساك الفرح، وتعوّدت الألم والعذاب فنسيت اللذّاذات وأوار النّشوة والحلول، وارتضيت أن تضع على طرفي عينيك كمّامة سوداء

كي لا تنازعك نفسك إلى التّطلّع إلى اليمين وإلى الشّمال، وتصاممت
عن كلّ الأصوات، فلا ترى إلّا شفاها تتحرّك، أو شفاها تنطبق على
بعضها البعض في حركات لا معنى لها... آمنت بالموت، وحتى الحياة التي
استهوتك ظلّت مؤجّلة إلى أجل غير معلوم، ضبابيّة في سكون الغيب
الضّالّ في الصّمت!!

ست سنوات، في الحاضرة، ما بين الدّراسة والسّهر المؤرّق،
إلى التّشرد، والضّياع، والتّحوّل في المكان، من المقاهي، والمسارح،
ودور السّينما، إلى العلاقات الجديدة، وفي كلّ يوم علاقة أو صديق،
وفي كلّ يوم، هروب إلى الأقاصي، إلى أحياء لم ترها من قبل، إلى
أشخاص عرفتهم عن طريق أشخاص آخرين، والسّماء من فوقك
جهمة غاضبة، والأرض حبلى لم يبق لها إلّا أن تتلقّى القطر القادم،
فتستعدّ للفوران، وتلتئم، تتطلّع إلى الجبال في الطّرف الآخر، في
الأبعاد، وإلى اللّون الرّمادي الذي كان يتسرّب إلى كلّ شيء، وتضرب
في الشّوارع، ويروق لك أن تتجوّل هائما على وجهك تحلم وتحلم،
وتنسج خيالات وترسم صورا تتزوّد بها في أوقات الفراغ والوحدة...
وأنت رغم محاولاتك للإفلات من برائن الانطواء والارتداد إلى الباطن،
ظلّت تهمني عليك في أوقات بعينها أحاسيس دافقة، تحوطك فتستسلم
لها، وتؤخذ بشفافيتها ورقّتها، وما أن تغمض عينيك عليها حتّى تمتزج
بسراب الغمومة فيهما، فتتمتّى لو تحلّلت كما يتحلّل الجسد الفاني،
وتنطلق الرّوح فيك إلى المجاهل الغير المدركة... تسعى إلى الاحتجاب،
تروم الاختفاء في العالم الذي كنت اخترت طائعا أن تطلّقه، ولكن هذه
المرة سيكون عالما مؤثّنا بالآلاف الصّور والأسماء والأشياء؛ سيكون
وطنا، وستكون هويّة وظلاّ لا ينقطع إلى الأبد!!

وفي الحاضرة، التقيت بـ «مي»، وفيها أيضا صحوت على نبأ

سفرها بعد أن تزوّجت، فتأثّرت قليلا، استرجعت في ذاكرتك المرات القليلة التي كنت تقرأ لها فيها من شعرك، وهي تضع على عينيها عوينات سوداء ربّما كي لا تتوصّل إلى الاهتداء إلى الطّريق المؤدّية إلى قلبها؛ هل أحببتها؟! وهل كان حبّا ما كنت تحسّ به تجاهها؟! وهل أحبّتك هي؟! إنّهُ الوهم، الوهم الجميل، وخدر سرى في مفاصلك حتّى أنساك أنّ المكاشفة. ولو كانت حميمة. لا تكون دائما أقصر المسالك إلى الحبّ!! رحلت «مي» كما رحلت كثيرات غيرها، ولم تبق إلا عصا التّرحال، في سفر دائم لا يكفّ، عبر الأميال الرّتيبة، ستحملك معها، بعد كرور السّنين، بمنأى عن الحاضرة الأسرة، إلى الغزو وأسرار جديدة، مبنوثة، على امتداد البحار والمحيطات، في أقيانوس ساحر بقدر ما هو مخيف، مريك بقدر ما هو واعد...!!»

. ٩ .

[أماويّ إنّ النّاس غاد ورائح... حاتم الطّائي]

** الخامس عشر من تشرين الثّاني ٢٠٠٢

لم يترك لي «شانيل» فرصة للتّراجع، وهو ينطق كلماته في تصميم: ولم نؤجّل الرّحلة للعام القادم؛ سيكون ذهابنا هذه السّنة مناسبا جدّا...

ولكي يبدّد بقايا تردّدي، وما كان يساورني من رهبة إزاء فكرة الدّهاب إلى «هندستان»، مرّز يده على شعري، وكنت جالسا بجانبه في دكانه بالسّوق التّجاريّ، وقال بأنجليزيّة متعذّرة إلّا أنّها مفهومة: لن تكون هناك أيّة مشاكل على الإطلاق، وسنقضي معظم

الوقت بمنزلنا، فلا تقلق...

وبعد حين:

ثم لا تنس؛ إنها فرصة لا تتكرر في كلِّ يوم!!

من حيث أنها فرصة، فقد كنت أدرك ذلك تمام الإدراك، ومن حيث المصارييف، والترتيبات، وما يمكن أن ينجرَّ عن اتِّخاذ قرار السَّفر في وقت لاحق، فلا وجود لمشاكل من أيِّ نوع من هذه الناحية؛ كما أنَّ المسافة. كما علمت من مصادر محدَّدة ودقيقة، حيث قصدت العديد من وكالات الأسفار وسألت وتأكدت. تعتبر قصيرة نوعاً ما، ثلاثة آلاف ميل على أقصى تقدير، وهي مسافة لا تقارن فيما لو فكَّرت في الانطلاق من بلدي، ذاك القابع على ضفَّة المتوسَّط، من الناحية الأخرى...

وافقت، ولم أكن مقتنعاً بقدر ما كنت مفتوناً، وندمت بعد أن أعطيت كلمتي، والمال المطلوب لحجز التذاكر؛ أحاسيس شتَّى كانت تجتاحني بالليل والنَّهار، ومشاعر متناقضة، أقبل وأرتدَّ في نفس الوقت، وتأتي أوقات أحسَّ فيها بسعادة لا توصف، عندما أفكَّر في ذهابي إلى مكان لم يخطر على بالي أبداً أن أزوره، ثمَّ ينقلب الإحساس الأوَّل إلى خيبة، بل إنَّ الخيبة في أحيان ليست بالقليلة تمتزج بخوف لا أدري مصدره، وكآبة. وشعور غريب أتَّى خدعت، وأنَّ «شانيل» لم يكن بريئاً تماماً حينما اقترح عليَّ أن أقضي بعض الوقت في منزلهم بـ «تريشور»، وإنَّما كان يقصد من وراء ذلك أن أتكفَّل بالقسط الأكبر من المصارييف الَّتِي تخصَّ الرحلة، سيَّما أنَّه أعلمني بذلك منذ البدء، وبطريقة فيها صراحة تقرب من الوقاحة، ومغلَّفة في الوقت نفسه برجاء لا يخفى أن لا أخذه، فهو. كما قال لي. لم يسافر منذ سنتين، وهو مشتاق لرؤية والده ووالدته...

لو كنت فقط قادراً على النَّسيان والتَّأسي! لو أنَّ الدِّماغ يهدأ قليلاً، ويسعف ببعض النَّوم دون منغصَّات! لو يتزاح الثَّقَل عن القلب، والزَّيف الَّذِي يعبر الشَّرايين هادراً في ثورة عارمة يبلغ الشَّاطيء

في أمان ويسكن، فأسكن معه وأخذ إلى الراحة! لكن، كيف لي بالهدوء والسكون، وقد أسلمت كل شيء، ومنذ البداية، إلى «شانيل»: لعلّي كنت أثق به، ولعلّ ثقتي فيه كانت بلا حدود، وذلك قد يكون خطأ، إذا اعتبرت أنّ الفترة القصيرة التي تعرّفت فيها إليه لا تكفي حتّى يركن أحدها إلى الآخر، وأن يثق أحدها في الآخر... ولتعرّفني به حكاية، ولصداقتي معه حكاية أخرى، لا تخلو من طرافة وغرابة في الوقت نفسه، وقد تعرّفت إليه عن طريق أخيه الأكبر: «شايين لوهيداكشان كوتالا»، هندي آخر من الهنود الكثيرين الذين يضطربون في مدينة «صور»، يقومون بأعمال لا تخطر على البال، ويفاجئونك بتمكّنهم من حرف وصنائع غريبة، ومعقّدة، ممّا يجعلك تتساءل كيف تعلّموها، ومتى وجدوا الوقت الكافي لإتقانها...

وقبل أن يشتغل في الدكان، ويسلّمه «شايين» زمام العمل كلّه، بعد أن أصبح على إلمام بكلّ شيء: تركيب الحواسيب وتفكيكها، والبرمجة وإصلاح الأعطاب، كان يتردّد على المكان من حين لآخر، وكنت أظنّه صديقاً من الأصدقاء، أوزبونا مثل بقية الزبائن. ولذلك لم أكن أحبه، وقد تمكّنت في قلبي كراهيته، إلى درجة كنت أتمنّى فيها خروجه وانصرافه كلّما جاء إلى الدكان حتّى يكون بإمكانني أن أخلو بصاحب المحلّ، الذي كنت أتردّد عليه في تلك الفترة لسؤاله عن أشياء كانت تتعلّق بالحاسوب الذي اشتريته منه منذ أشهر... وفي يوم من الأيام سألت «شايين» عنه فأخبرني أنّه شقيقه، وأنّه يمتلك محلاً لبيع الملابس الجاهزة، ولم يخف اشمئزاه وتأفّفه من أنّ «الأمور ليست على ما يرام، وأنّه يدفع المال دون طائل: فواتير التّلفون، والكراء، والصّيانة...»، وفي الأخير قال لي إنّهُ يفكّر جدّاً في استقدامه كي يعمل معه؛ حينئذ، بدأت أنظر إلى المسائل من زاوية مغايرة، وأصبحت على قناعة أنّ «شانيل» ما دام سيأتي كي يبقى فلا بأس من الوثوق به، ولا بأس أيضاً من الاعتماد عليه واستدراجه إلى الحديث كلّما

سنحت الفرصة، فبتلك الطريقة وحدها يمكن أن أسبر غوره، وأن أعرف عنه ما يمكن أن يفيدني في وقت لاحق... آنذاك، كان كلّ همّي لا يتعدّى الإلمام ببعض الأعطاب وإمكان إصلاحها، كما كنت أحاول أن أتزوّد ببعض المعارف الّتي من شأنها أن تساعدني وأن تجنّبني الدّهاب إلى الدّكان كلّما حصل عطل بالحاسوب، وقد نجحت إلى حدّ ما في الحصول على ثقة أصحاب المحلّ بعد جهد جهيد سيّما أنّ كلّ الهنود الّذين عرفتهم في مدينة «صور» ليس من اليسير أن تتعلّم منهم أيّ شيء، وأنك مهما حاولت لن تجعلهم يتنازلون فيعلّموك أو يرشدوك ولو إلى جزء بسيط جدّا من أسرار صنائعهم وحرفهم...!!

«شانيل» و «شايين» ليس من السّهل أن تلاحظ الشّبه بينهما كأخوين للوهلة الأولى، رغم أنّه من الممكن أن يساورك تساؤل ملحّ عن العلاقة الّتي تربطهما كلّما نظرت إليهما حينما يكونان مع بعضهما في نفس المكان؛ وما يلبث التّساؤل أن ينهار دون رجعة إذا انتهت أنّ العلاقة الّتي تقصدها لا تجمع بين الأخوين باعتبارها ميزة من الصّعب إنكارها وإنّما هي شيء يجمع بين كلّ الهنود في مدينة «صور»، وحاضرة البلاد، بل وكلّ حواضر الخليج؛ الغموقة الدّاكنة الّتي تحيط بالبشرة كما لو كانت علامة فارقة، والهياكل القميئة الّتي تحسب أنّها لن تصمد طويلا أمام الأعمال الّتي تتطلّب جهدا وقوّة، وأنّها عرضة للعطب في أيّ وقت، وتفاجأ، من حيث لا تدري، أنّ تلك الكائنات، وكنت تنظر إليهما في بعض الأحيان بشيء من العطف، ليست كبقية الكائنات الأخرى، تقاوم الحرارة القائلة، وتصرف إلى أعمالها المختلفة في السّاعات المبكرة من الصّباح ولا تنهيه إلّا في المساء المتأخّر، لا تسمعهم يتأفّفون أو يحتجّون، وتستغرب كثيرا لنبراتهم الهادئة الّتي لا تكاد تتغيّر البتّة، يعترضونك في الشّوارع، وتراهم في المقاهي أيّام الجمع، أو في المحلّات المنتشرة هنا وهناك، يشربون الشاي ويتحدّثون طويلا، أو تلمحهم في «كابينات» التّفون، يخاطبون على الطّرف الآخر من المحيط زوجات

مجدودات أو أطفالا صغارا يحنّون إليهم رغم بعد الشّقة ولاتناهي المسافات...

الشّقيقان قصيران، ولهما نفس الطّول تقريبا، إلّا أنّ «شانيل» يميل إلى السّمنة قليلا؛ وهما شديدا السّمرة، وما يميّزهما عن باقي الّذين عرفتهم من الهنود أنّهما كانا يميلان إلى التّأنّق، تسريحة الشّعر، القمصان الثّمينة الغالية الثّمن، الأحذية الملمّعة، وبعض الأساور الذهبيّة والعقود... عادات وسجايا لا غرابة فيها، بالنّظر إلى سنّهما؛ شابّان أحدهما في الثّلاثين من عمره والآخر أقلّ منه بقليل؛ و«شايين»، الأخ الأكبر متزوّج وله بنت صغيرة. «باروتي»...

إنّها الصّدفّة، أو القدر المترصّص، وهو يخطّط ويضعك أمام الخيارات المتعدّدة ويحدّد لك المسارات، وما عليك إلّا أن تمضي دون تردّد، ستلتحدّ الجهات في لحظة ما، ولن يكون هناك من داع إلى التّشكّك والتّفكير الطّويل حتّى تهتدي إلى الجادّة الّتي ستلقي بك حتما إلى مجاهل المحطّة الأخيرة... وحينئذ، قد يهتزّ وجدانك بفرحة غامرة، فرحة الوصول وانتهاء مشقّات السّفر، فتترقّق لهاتك بالغناء وتصدق بألاف الأغاني؛ ترى الكون مختصرا، مجرد نقطة غير مرئيّة في فضاء هلاميّ لامتناه، فتحتقر الأمكنة وتودّ لو كنت آخر بلا حدود، تمتدّ على المسافات والأبعاد، طائرا له ألف جناح، كلّها تندف في نفس الوقت عابرة كلّ الأزمنة السّحيقة فترى ما لا يرى، وتشتفي من ظمأ طال حتّى كاد يودي بحياتك... واللّغة الّتي تسمعها رغم أنّك لا تفهم منها شيئا، أشبه بأصوات تفتقر إلى المعنى، تلتوي بها اللّسنة في سلاسة، فإذا ما رام لسانك تقليدها وجدت نفسك تضيف إلى الإلغاز إلغازا جديدا وإلى اللّغة اضطرابا لا يفتقد المعنى وحسب وإنّما الشّبه نفسه الّذي يجعل كلّ اللّغات تمتّ إلى بعضها البعض... وإزاء الاضطراب والحيرة، والهوّ العميقة وانعدام المعنى، تسعى ما استطعت أن تستبعد المؤامرة، وذلك طبيعيّ، لأنّ اللّسان غير اللّسان، والملاحق قلّما تسفر وتفصح،

وأقول لنفسي: «انظر إلى الوجوه... إلى السّحّات... التقط بعض الأشياء، بعض الأحرف حتّى الكلمات الّتي قد تحيل... وبالقدر الّذي يمكن أن يصيرا فيه شخصين ملغزين يجب أن تكون أنت أيضا ملغزا، تحدّث إليهما، لتبعدهما قدر المستطاع عن منطقة الظّل، ولتخاطبهما بلسان محايد: الإنجليزيّة، لا العربيّة ولا لغة «المليالي»...»

كانا مجرد إسمين، انتماء إلى شبه القارّة الواسعة: أرض واحدة، إلى حدّ تلك اللّحظة، بعيدا عن اللّغات والأديان والاختلافات جميعها، والأعراق والطّبائع، وما به يكون الإنسان مواطنا، لا يحمل جواز سفره في جيبه وملامحه على وجهه، ولكن يحمل معهما آمالا تأخذ طبيعتها من الأرض والبيئة الغامرة... واستغربت، منذ لقاءاتنا الأولى، في الدّكان، وقد كنت ألّم به فيما بعد الظّهر، حوالي السّاعة الرّابعة، وبعد انتهاء الدّوام، إلى حدود السّاعة التّاسعة أو العاشرة، أنّ بعض الهنود ممّن كانوا يقصدون المحلّ للسّؤال عن بعض الحاجات لم يكونوا يتكلّمون نفس اللّغة، وأنّهم كانوا يلجأون إلى التحدّث بالإنجليزيّة، وأنّهم لا يطيلون الحديث، كما هو الشّأن بالنّسبة إلى أغلب الهنود الآخرين في المدينة حين يقصدون المقاهي أو بعض الأماكن الأخرى الّتي يقصدونها للتّرويح عن النّفس والتّريّض... ولم يكن هناك بدّ من سؤال «شانيل» فسألته، فتنتطق أساريره ويواجهني تماما، وهو الّذي كان يضيق بصمتي واستغراقي، فيقول ويسهب ويظلّ ساعات يتحدّث، إلى درجة أنّ حديثه قد يتحوّل في بعض الأحيان إلى مزيج من لغات شتّى، عربيّة محطّمة وإنجليزيّة تفتقر إلى بعض الوضوح والسّلاسة و «المليالي»... قال لي إنّ اللّغات في «هندستان» بعدد الولايات، وإنّه من «كيرالا» في أقصى الجنوب!!!...

«دلهي». حاضرة البلاد، عرفتّها منذ صغري!!

وكأنّ الاتّساع والكبر كانا مجرد مفاهيم نظريّة لا علاقة لها بالواقع، والجغرافيا خطوط وأشكال على الورق ليس إلّا، إذ تصوّرت

أَنْ كُلَّ هِنْدِيٍّ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ زَارَ «دَلْهِي»، وَأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ أَنْ يَكُونَ أَيُّ شَخْصٍ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى هُنَاكَ لِسَبَبٍ أَوْ لِأَخَرٍ...!! وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَا ضَاعَفَ مِنْ اسْتِغْرَابِي وَجَعَلَنِي أَصَابَ بِصَدْمَةٍ لَمْ أَفْقَ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَالَ لِي «شَانِيل» وَهُوَ يَشْرَحُ لِي بَعْضَ الْأَشْيَاءِ:

لَا يَفْكَرُ الْوَاحِدُ فِي الذَّهَابِ إِلَى دَلْهِي إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ أَكِيدَةُ هُنَاكَ...!!

ثُمَّ:

نَحْنُ نَعِيشُ فِي قَارَةِ لَامْتَنَاهِيَةِ الْحِجْمِ... مَتَاهَةً!!

وَابْتَسَمَ، فَانْفَرَجَتْ شَفَتَاهُ، وَهُوَ يَوَاصِلُ مَغِيرَا الْحَدِيثِ وَالنَّبَرَةِ كَلِمَهُمَا:

سَنَسْتَغْلُ الْفُرْصَةَ وَسَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ!!

فَقُلْتُ وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَتِي ابْتِسَامَةٌ غَيْبِيَّةٌ لَا تُشَبِّهُ ابْتِسَامَتَهُ

الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَعَانِي:

هُنَاكَ أَيْنَ؟!

قَالَ، وَبَدَأَ لِي أَنَّهُ كَانَ مَتَرَدِّدًا، كَأَنَّهُ يَخْشَى مِنْ شَيْءٍ مَا، أَوْ يَتَحَسَّبُ مِنْ رَدَّةٍ فَعَلِي:

لَقَدْ فَكَّرْتُ مَلِيًّا... أَعْنِي لَقَدْ قَلَّبْتُ الْمَسْأَلَةَ عَلَى وَجْهِهِ عَدِيدَةً.

وَرَأَيْتُ أَنَّهُ يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَقْضِيَ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي دَلْهِي...

لَمْ يَشَأْ أَنْ يَتِمَّ كَلَامُهُ، وَالتَفَتَ إِلَيَّ كَأَنَّمَا يَجِسُّ وَقَعَ كَلِمَاتِهِ عَلَيَّ:

وَقَدْ كُنْتُ مُضْطَرِبُ الْبَالِ، مَشْوَشُ الذَّهْنِ، لِعَجْزِي عَنْ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ الْمُنَاسِبِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ... وَ «شَانِيل» كَانَ يَعْرِفُ مِنْذُ أَنْ سَلَّمْتَهُ الْمَالَ وَفَوَّضْتَهُ فِي تَرْتِيبِ الْخَطَوَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالرَّحْلَةِ أَنَّهُ بَاتَ يَسِيرُ عَلَيَّ، وَلَا يَتَوَرَّعُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَنْ يَفْرُضَ عَلَيَّ أَشْيَاءَ فَوْقَ احْتِمَالِي...

كُنْتُ أَجِدُ رَغْبَةً فِي التَّصَدِّي لَهُ، أَوْدَ لَوْ أَثُورَ عَلَيْهِ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي أَزْمَعُ فِيهِ مَجَاهِزَتَهُ أَجِدُ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَقْتَرِحُهُ عَلَيَّ يَجِدُ هَوًى لَا يَغَالِبُ فِي نَفْسِي... أَمَلٌ مَا، ائْتَدَاعٌ إِلَى اكْتِشَافِ الْمَجْهُولِ هُوَ مَا يَدْفَعُنِي إِلَى

التَّسْلِيم، وهو نفسه الَّذِي يَزِينُ لِي إِغْرَاءَاتِ «شَانِيل» ومشاريعه، فيَحْتَنِي عَلَى دَفْعِ الْمَالِ وَأَعْطِيهِ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ يَتَصَرَّفُ فِي الْمَبَالِغِ الَّتِي أَمْنَحُهَا إِيَّاهُ، فَظُرُوفُهُ الْمَادِيَّةُ كَانَتْ تَسِيرُ مِنْ سَيِّءٍ إِلَى أَسْوَأَ، وَمَعَ ذَلِكَ اضْطُرَّ إِلَى السَّكُوتِ، أَبْتَلَعَ الْقَهْرَ وَالْمِهَانَةَ وَالْإِحْسَاسَ الْمَخْزِيَّ بِالْخَدِيعَةِ، وَلَا أَتَجَرَّأُ عَلَى الْمَقَاوِمَةِ... هُنَاكَ أُمُورٌ، بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَمْنَعُنِي مِنْ اتِّخَاذِ الْخُطْوَةِ الْحَاسِمَةِ بَيْنَنَا، أَنْ نَقْطَعَ الْعِلَاقَةَ وَيَمْضِي كُلٌّ فِي حَالِ سَبِيلِهِ، لَيْسَ الْمَالُ وَحْدَهُ، رَغْمَ أَنَّ الْمَبْلَغَ كَانَ يَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيَبْلُغُ أَرْقَامًا خَيَالِيَّةً، فَبالإِضَافَةِ إِلَى ثَمَنِ التَّذَاكُرِ وَالرَّسُومِ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَدْفَعَ لَهُ أَيْضًا. بِنَاءً عَلَى طَلْبِهِ. مَصَارِيفُ الْفَنْدُقِ وَالْأَدْلَاءِ الَّذِينَ سَيَصْحَبُونَنَا خِلَالَ إِقَامَتِنَا إِلَى الْأَمَاكِنِ الْأَثَرِيَّةِ، وَكَذَلِكَ صَاحِبُ السَّيَّارَةِ السِّيَّاحِيَّةِ...!!! الْكَثِيرُ مِنَ الْأَسْئَلَةِ يَنْطَلِقُ إِلَى رَأْسِي، وَتَسَاوَرُنِي خَوَاطِرُ أَشْبهَ بِالْإِجَابَاتِ الْغَيْرِ الْمَكْتَمَلَةِ، سُرْعَانِ مَا تَهَارُ، وَأَعُودُ إِلَى نَقْطَةِ الْبَدَايَةِ، إِلَى الشَّكِّ، وَالصَّرَاعِ الدَّائِمِ، وَهَزَاتِ النَّدَمِ، وَمَوْجَاتِ مَتَوَاتِرَةٍ مِنَ النَّشْوََةِ الْمَشْهُوبَةِ بِالْقَلْقِ: مَا الَّذِي يَجْبِرُنِي عَلَى الْقَبُولِ، وَالتَّسْلِيمِ بِهَذَا الشَّكْلِ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أَرْفُضْ اقْتِرَاحَ «شَانِيل» مِنَ الْبَدَايَةِ، وَبِشِدَّةٍ؟... لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الضَّعْفِ؟ وَهَلْ كَانَ بِإِمْكَانِي أَنْ أَجْعَلَ الْأُمُورَ تَسِيرُ وَفْقَ رَغْبَتِي وَإِرَادَتِي؟! وَلَكِنِّي رَفَضْتُ التَّدْخُلَ وَأَصْرَرْتُ عَلَى الْانْسِحَابِ، وَزَادَتْ الْأُمُورُ تَعْقِيدًا، وَتَشَعَّبَتْ الْمَسَارِبُ وَغَدَتْ الطَّرِيقُ الَّتِي كَانَتْ وَاضِحَةً الْمَعَالِمِ مِنْ قَبْلِ مَجَرَّدِ مَتَاهَاتٍ تَوْدِي إِلَى مَتَاهَاتٍ أُخْرَى، وَتَفَرَّعَتْ الْجَادَّةُ إِلَى مَفْتَرِقَيْنِ مِنَ الصَّعْبِ الْاِخْتِيَارِيَيْنِهَا...!! بَدَأَ لِي أَنَّ فِي عِلَاقَتِنَا شَيْئًا مَحِيرًا يَسْتَعْصِي عَلَى الْفَهْمِ، وَأَنَّ الْقَدْرَ تَدَخَّلَ بَعْنَفٍ لِيَجْمَعَ بَيْنَنَا، وَيَقْبِدُنَا بِأَوَاصِرٍ سَيَكُونُ مِنْ غَيْرِ الْيَسِيرِ عَلَيْنَا أَنْ نَتَحَرَّرَ مِنْهَا؛ فَإِذَا أَتَخَيَّلْتُ أَنَّهُ سَيَأْتِي يَوْمٌ أَطْلُقُ فِيهِ الْمَحَلَّ دُونَ رَجْعَةٍ، وَأَنْتِي سَافِتَقْدُ جُلُوسَاتِ الشَّيْءِ الْيَوْمِيَّةِ، وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي رَغْمَ تَفَاهُتِهَا وَالْكَثِيرِ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ فِيهَا لَكُونَهَا خَلِيطًا مِنْ لُغَاتِ وَالسَّنَةِ وَلِهَجَاتِ وَلَكُنَّاتٍ مَتَبَاعِدَةٍ مَتَنَافِرَةٍ إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتْ كَفِيلَةً بِتَخْلِيصِنَا مِنْ مَسَاءَاتِ

مدينة «صور» الرتيبة الثقيلة... إذ أتخيل ذلك أصاب بالدوار،
ويتلبّسني الغثيان، وأستشرف الفراغ الآتي، فيحملني إلى مشارف
الأرض البعيدة، وإلى الحكايات الأثيلة التي لا تنتهي...

التراجع... أيّ تراجع بعد الذي كان!! ولم يبق أحد في المدينة إلّا
وعرف، لم يبق هنديّ إلّا بتّ معروفا لديه، بالهيئة والشكل والملامح،
أشخاص لم أرهم من قبل، يقتحمون عليّ وحدتي في المقهى أو السوق،
ولا يستشعرون ذلك الحرج الذي غالبا ما يباعد ما بين الغرباء،
يقتربون، دون إطلاق التحيّة أو السلام، وكأنّما كوني سأسافر إلى
بلدهم يعطيهم مبرّر امتلاكي، إن لم يكن على سبيل الحقيقة فمجازا
.يطرحون السؤال حتّى من قبل أن أفيق من أثر الصدمة، بفضل:
هل سافرت؟

وبدل أن أشعر بالغضب والثّورة على هذا التّطفل الوقح، أجدني
منساقا إلى الإجابة، فألتفت إلى محدّثي وأقول:
ليس بعد!!

«اللّعة على «شانيل»! لتحلّ عليه اللّعة والطّوفان والطّاعون!
ليجرفه السّيل إلى مهاوي الموت والخراب!!... تلوّث مشاعري،
وكان هو السّبب، اضطربت الأحاسيس بداخلي، والتبس الغموض
بالوضوح، ولم أعد أميّز بين المتناقضات... «هل سافرت؟». على
ضيقى وعدم ارتياحي أن أحدا، أيّا كان، قد تسلّل إلى محرابي وقطع
عليّ استغراقي وأوقيات صفائي، إلّا أنّ سعادة عارمة كانت لا تسعني
كلّما اقترب أحدهم منّي، وبدأ يطرح عليّ سيلا لا حدّ له من الأسئلة؛
ربّما رأيت نفسي بحارا مغامرا، يستكشف بحارا جديدة، ويطلّ على
جزائر الدّنيا، وفي اللّيل حين يطلع القمر، وتنتشر النّجوم على السّماء
مثل البرقع، وتهدأ أصوات الكون النّائم، تجيء الحوريّات الجميلات
من الأعماق السّحيقة فيعزفن موسيقى الشّوق، ويسيل الخيال،
وفي هيئة من الرّمن الرّاحل وغفلة منه أتخلّى عن السّفينة والقارب،

وليس من نجاة، بل الهلاك اللّذيق، وممتعة مجهولة تتجرجر على أديم البحر، وكلّما اشتدّ العزف وارتفع الغناء تأكّدت أن لا مفرّ من الموت، وأنّ الحياة ما تحمله الحوريّات... أغمض عينيّ وأرحل، وأنزل إلى العمق وأنا لا أحسن السّباحة، ولا أبالي، ومن حولي تلتفّ الدّوامة ويخضّني الماء فأفرد يديّ، وأحرّك قدمي... كانتا ثقيلتين لدنتين، مثل الرّصاص، تشدّاني إلى تحت، وتدفعني رغبة الحياة إلى المحاولة. وإلى الصّراع، فأجذّف وأجذّف، وتراءى لي شيطان الأمان، فأصرخ، وتصخب الكلمات في حلقي وتطلّ الدّموع على مشارف الجفون... في وقت ما تمّحي صورة البحّار، والبحريّتحول إلى صحراء رحيبة، وأراني من موقعي، في الظّلّمة السّاجية، تاجرا أورحّالة على برذونه أوبعيره. ابن بطّوطة، يأتي من ذاكرة الزّمن المنسيّ، فلا أملك إلّا أن أحلّ فيه وأتقمّص، ومدنه الكثيرة والكبيرة تصير مدني، وملوكه، سلاطينه المشهورون، من السّند إلى الهند، إلى مصر وبلاد الشّام، وفيما وراء النّهر، وجزائر الواق الواق، وما كان معروفا من العالم القديم وما كان مجهولا، والأمس البعيد، والزّمن الرّاهن، وأسرار الموجودات، وما كان منطويا في بطن الغيب، كان كلّ ذلك خارطة في ظاهر كفّي، أعرفها بتقاطيعها، ورسومها، وخطوطها الرّقيقة والغليظة، والمستدقّة. أعرفها بأنهارها ووديانها، ونجادها ووهادها، وسهولها وهضابها... يا الله!! ما أروع الخاطر! وما أحلى أن يتشظى الجسد عن روح توّاقة إلى الهيّمان، فتعتري البدن خفّة لا مثيل لها، ويحلّق في المدى، في جنان فيها الأنهار جارية، والعصافير صادحة، وكلّ الكائنات راقصة، والوجود لا يسع نفسه من فرحة اللّقاء وفورة الأحبة، وهم يتعانقون ويتناجون ويتعاتبون...!!»

مهما أمعنت في الهروب، فلا مفرّ؛ ومهما ضربت في أرض الوهم اللّذي ما يعتم أن يتبدّد ويتلاشى، فصوت «شانيل» يحاصر ويطارد، ويشدّ بأنامله السّاحرة على العنق مباشرة، ولا فائدة بعد ذلك من

الصّراخ أو الاحتجاج:

.أرى أن نذهب إلى دلهي؛ هناك سنقضي ستّة أو سبعة أيّام...

وواصل بعد قليل:

.ثمّ بعد ذلك نستقلّ الطّائرة إلى مومباي... أعتقد أنّ قضاء يومين فيها يكفيان، وما تبقى من المدة نقضيها في كيرالّا. وهناك سيكون أماننا متّسع كافٍ من الوقت للقيام بالعديد من الأشياء وزيارة العديد من الأماكن...

[لا يقترح، وحاجته لم تكن إلى الاسترشاد برأي، أو دراسة الفكرة من أساسها، بقدر ما كانت إشارة أنّه حان وقت الدّفع... وما ألبث أن آتية بعد يومين أو ثلاثة بالمبلغ المطلوب!!]

...أمنت بالصدّفة، ولم أعد أتوقّع، وبين يوم وآخر، وفي لحظات بعينها تكون مفاجأة في الانتظار، وخبر يقال بحياذ، بعد أن سقطت جميع الأقنعة، وغدا التّردّد القديم أثرا بعد عين!! فات الألوان الّذي كان يمكن فيه أن أحتجّ أو أرفض، وآخر محاولة في التّراجع ضيّعتها، انعقد لساني، وزايلتني الرّهبة والخشية وأنا أسمعه يقول إنّ صديقا من أصدقائه على استعداد أن يصحبنا في الرحلة، وبالتالي نكون قد أزحنا عقبة أخرى من طريقنا:

.«نايجوفيداسي»، لم يكن غريبا بالنّسبة إليّ، وقد تعرّفت إليه، من بين هنود آخرين: يميل إلى الطّول وله شاربان، ويعمل سائقا خصوصيّاً لأحد الأشخاص المتنفّذين بالمدينة: رقيق الملامح، واضح القسمات، عفويّ، سهل المعاشرة: أمضى فترة لا بأس بها في مومباي، وهناك تعلّم لغة البلاد الرّسميّة وأتقنها...!!

داخلي ارتياح لصحبته، لكنّ شيئا ظلّ غير مفهوم، و«شانيل» حين تحدّث عن احتمال مرافقته لنا ربّما كان يتعمّد عدم الإفصاح، وقد ظللت أعتقد إلى آخر لحظة أنّه ما أن نصل إلى «مومباي» حتّى نقصد منزل زميلنا ونمكث فيه المدة المقرّرة لإقامتنا، كما فهمت، من

خلال كلامه، أنّ بعض أقاربه كانوا يقيمون في المدينة الكبيرة، وأنهم على استعداد لاستضافتنا... هكذا فهمت المسألة، ولم يساورني الشكّ أنّه مع نهاية شهر يوليو سيكون كلّ شيء جاهزاً: التأشيرة والتذاكر، وكذلك الحجز في الفندق!!!...

لكن، أكتشف. لسوء حظّي. أنّ الأشياء ليست بالسهولة التي أتصوّرها، وأنّ ما كنت أفهمه لم يكن بالضرورة ما يفترض فيه أن يكون!! فـ «شانيل» كانت لديه دائماً مبرراته التي تجعله غير واضح وصريح، سيتعلّل بحجج، وسأكون مضطراً لتصديقه، وقد أجد نفسي مدفوعاً إلى إيجاد مبررات لم يكن هو نفسه ليفكر فيها، فاللغة عائق بيننا، ونحن معرضان لسوء الفهم كلّما تحدّثنا، كما أنّ بعض ظروفه الصعبة، التي كان يطلّعي على بعضها ويخفي عني أكثرها، هي أيضاً من الحواجز التي تفصلني وتبعدني عنه...

«النسيان الملاذ!» والانتظار قدر آخر، منذ طفولتي المبكرة وحتى الشهر الأخير قبل السفر، كأنّما كتب عليّ أن أنتظر إلى الأبد وأنّ أتعذب، وإذا كان غيري ينتظروني يتحمّل لأنّه يدرك أنّه في يوم كذا على الساعة كذا ستنتهي آلامه وعذاباته، وسيحصل على ما كان يأمل فيه ويتوق إليه، فأنا كنت أنتظر، ولا أدري ما الذي كنت أوّله: أبحث عن جدوى ما أفعل، وأوهم نفسي بأشياء، أداريها، وأخترع أسباباً ومسببات... وأطرد هواجس ما فتئت تتزايد وتتضخم، حتّى أنّها بين الفينة والأخرى تصبح مثل عملاق أشعر مستعدّاً لالتهامي وابتلاعي!!

أسأل، ألحّ في السؤال، و«شانيل» يتظاهر بسماعي، وابتسم، يكتفي بالابتسام ولا يجيب: مجرد كلمات كان يلقي بها إليّ، ولا يزيد: اطمئنّ، سيكون كلّ شيء على ما يرام! سيتمّ كلّ شيء في حينه!! وأنا أعلم أنّه لم يحجز بعد، وأنّ الكثير من الأشياء ما يزال معلقاً، والمبالغ المالية التي كنت أدفع بها إليه من حين لآخر كان يتصرّف فيها، لا أدري كيف... وعندما يبلغ اليأس مبلغاً لا متقدّم بعده، ويجتاحني الانهيار،

وأحسّ ذلك الهبوط والانتكاس العدائيين. أتمنى لو كان ما أعانيه مجرد كابوس أو حلم ما أعتَم أن أفيق منه، ويعود الحال كما كان؛ أتمنى لو آتني لم أعرف أحدا من الذين عرفتهم، «شايين»، «شانيل»... و«نايجو»، و«ديداش»، و«ناندن»!!!...

مازلت أتذكر كلمات «شوبنهاور»، أستظهرها عن ظهر قلب وكأني أقرأها في كتاب مفتوح، أستشعر مرارتها ونفسها اليائس، ورائحة الموت فيها، وكلّ ما حولي يذكّرني بالموت والنهاية... المكان، الوحدة، الظلمة القاتمة، والفراغ، بين جدران صمّاء، وبين حرارة قاتلة لا مفرّ منها إلا إليها: «حتّام نصبر على هذا الألم الذي لا ينتهي! متى نعرّف أنّ حبّ الحياة أكذوبة وأنّ أعظم نعيم للنّاس جميعا في الحياة هو الموت!!» هل كنت متشائما؟! ربّما؛ ولو آتني أفضل استبدال «متشائم» بـ «متطوّر»؛ وما كنت أراه يحدث أمامي، بعض الأحداث الصّغيرة الّتي قد تمرّ دون أن يعيرها أحدهم أيّ اهتمام، وبعض التّصرّفات، وأنماط من السّلوّك، أكّدت لي، وبفضاعة، أنّي لم أكن على صواب، وأنّ قراراتي الّتي اتّخذتها دون أن أمنح نفسي وقتا للتّفكير فيها كانت أقرب إلى الجنون، بل هي ضرب من ضروب الجنون؛ «شانيل» لا يمكن أن يكون مثل «رامي»، أو مثل أيّ صديق من الأصدقاء الّذين أعرفهم، لا في طباعه، أو سلوكه، أو أيّ شيء آخر، ولا ألومه بقدر ما ألوم نفسي!! أقول: لا شيء يربطني به، كلّ شيء فينا مختلف، فارق السّن، وهو الشّاب الّذي ما يزال في ميعه الشّباب، يبحث عن الامتلاء، والحياة الفائرة، والمتعة السّافرة، في الزّوايا الّتي تنعكس فيها الأضواء الكامدة، وتتوزّع على جنباتها المناضد والزّجاجات الفاخرة وأكواب الشّراب، وأنا الشّيخ الفاني، الّذي يحسّ أنّه ينوء تحت السّنوات الأربع والثلاثين الّتي يحملها على ظهره... قد ملّ الانتظار والاضطراب بين الأمكنة، بحثا عن الضّجيج والأصوات الكثيرة الّتي لا تهدأ، والانتقال بين الرّفوف لاقتناء مستحضرات التّجميل والعطور الباريسيّة وآخر

تقليعات الأزياء... ويجذبني الشعر، أودّ لو أقضي الساعات في القراءة والاحتجاب في غرفتي الصغيرة بالمركز، على ضوء المصباح السّهماري، يهزّني الحنين إلى مدن الصّمت والسّكون، وتغريني المسالك الملتوية المؤدّية إلى تلك الكوى الشّبيهة بالكهوف أو المغاور حيث للحياة طعم آخر، ولذاذات أخرى، وحيث بإمكان الإنسان أن يتحوّل إلى كائن خالد لا يهدّده الموت ويحتويه الخلود ويكتنفه؛ و«شانيل». كائن نثريّ، صورة عن الضّياح القاتل في متاهات المدينة الضّائعة برائحة الإسفلت المذاب، لا يتوقّف طوال اليوم عن الحركة، من التّاسعة صباحاً إلى العاشرة ليلاً، في انتظار زبائن محتملين، سيرهقونه وهم جلوس إليه أمام الحاسوب، يؤشّرون إلى آخر النّغمات، وإلى «أسماء» غدت مثل الفطرتنّحل أصواتاً وصوراً كي تحتلّ لها مكاناً على تخت الغناء والطّرب!! هراء... هراء... هراء!!
اللّعنة!! اللّعنة عليك يا «شانيل»!!

. ١٠٠ .

[بِم التّعَلُّ لا أهل ولا وطن... المتنبّي]

** الواحد والعشرون من تشرين الثاني ٢٠٠٢

(دلهي.)

... ليست البواكير كالتّهايات وهي تتلّكاً منذرة بالزّوال والأفول؛
وليست الأحداث وهي تعبر دون إرادة منّا، وتتخطّفها أيدي الماضي
الجبّارة بعد ذلك، إنّما تزودنا بذاكرة للتّأسيّ، وتاريخاً يهدّد ظلام
الوحدة وعزلة الشّيخوخة، ولكن عذاباً يضيف إلى العذابات الأخرى.

وجرحا بدل أن تلتئم به جراحات القلب ينكأها من جديد... ومنذ ثلاثة عشر عاما، على متن الطائرة في طريق العودة، كنت أتماسك حتى لا أبكي، وكان أصدقائي ممتن سافروا معي إلى لندن يضجون من فرط السعادة والفرح، وهم يعودون إلى الوطن بعد غيبة، الحقيقة أنها لم تطل غير أنها تركت في أعماقي إحساسا لا يوصف أنني لم أعش يوما واحدا من السنين الكثيرة التي كانت تسيج حياتي، وتحاصرني مورطة إيتاي في متاهات عمر لا سبيل إلى الخلاص منه: الإحساس ذاته. وشعور أن الأماكن ليست كلها مثل بعضها، وأنه سيان أن تعيش في بلد صغير أو في بلد آخريكره، فالانتماء قدر، كالولادة والموت، ذلك الإحساس هو ما دفعني إلى التفكير في البقاء، والمحاولة رغم المعوقات، والصعوبات التي وإن فكرت فيها منذ البداية برومنسية مفردة، وخيال حالم، إلا أنني انتهيت إلى القناعة أن الواقع بفظاظته وفضائعه يقوم على طرف نقيض من الآمال؛ كان ذلك بعد أخذ وردّ، وزيارات عديدة إلى إحدى العائلات الإنجليزية، أيام الأحاد من كل أسبوع، زيارات غيرت الكثير من الأفكار التي كنت أتعهد بها بالرعاية في مؤخرة رأسي، وأكدت عزمي على الصراع إلى النهاية من أجل إيجاد موطن قدم في «بليوموث»...!! «غراهام»... «غراهام بالأمي». رب الأسرة، وقس بإحدى كنائس المدينة، ظنني أندونيسيا أول ما رأي، وسألني إن كنت مسيحيا، ولم أنتظر طويلا، إذ منذ اللقاء الأول أخبرته أنني أرغب في البقاء بإنجلترا، وأني على استعداد أن أفعل كل ما يطلب مني أن أفعله... ضحك، كانت ضحكة صغيرة محتشمة، فيها الكثير من دبلوماسيّة رجال الدين، ولم أستطع أن أفهم منها فيما إذا كانت علامة موافقة أم ضحكة أراد أن يغطي بها على حرجه ومفاجأته أم إشارة كان يقصد منها أن يدعني في منتصف الطريق إليه، فلا يخسرني، وأرتد عنه من حيث أتيت؛ نظراته، ودماثته، والرقة المتناهية التي حرص أن يشملني بها طوال الوقت، لم تكن لتفوتني دلالتها، وهو يراني الضال الذي ضيع طريقه،

ولن يطول عليه الأمد حتّى يصير أحد رعاياه!!... وظللت أتردّد على الكنيسة والبيت، وتعرّفت إلى «ريتشارد»، النّجل الطّيّب، و«فيفيان»، و«جورج» العجوز، وتواصلت بيننا الأحاديث وامتدّت، وكانت الأيام خلال ذلك تمرّ، ومع كلّ يوم ينقضي، تزداد الهوّة اتّساعاً، ويتضاءل أمل البقاء، والحلم الذي ظللت السّاعات الطّوال أدغده في خيالي، وأمّي نفسي بتحقيقه يوماً ما، كان يتلاشى ويتبخّر ويوّدأ...

والآن، بعد كلّ تلك السّنوات، أنتظر أن تنزل الدّموع، وتأبى الدّموع أن تسقط، وأتلّفت من حولي، فلا أجد أحداً، رغم أنّ المطار، لازدحامه، ليس فيه موطن قدم واحدة... كبرت، بل شخت، ونخر الزّمان جسدي، والحياة أواجهها بمفردي، من دون سلاح، والحلم الذي طالما داعبني، أن تكون لي زوجة وأبناء، فيوقف كلّ ذلك نزيف اليأس الدّامي بداخلي، ويأخذ بيدي إلى الضّفّة الأخرى، لا أثر له، وهو كلّما تقدّمت منه عبس في وجهي مكشّراً، واختفى في ثنايا الوجود الوعرة، دونما رجعة... ماذا بقي إذن، غير السّفَر؟! ماذا تبقى غير التّرحال، والهروب من تيه إلى تيه آخر، ومن صحراء إلى صحراء أخرى؟!... وحتّى السّفَر أقاد إليه برسن، أجبر عليه، ومع أناس لم أعرفهم من قبل، وألقى بهم القدر في طريقي؛ أنا لم أعتد الانتظار، وكان يروق لي أن أمضي، دون رفقة، أننّذ أكون حرّاً، كأننا يواجه مصيراً بلا قيود، فإذا ما حدث ما ليس في الحساب، كانت المسؤوليّة مسؤوليّةتي!!

في صالة الانتظار، كلّ الوجوه التي أراها تضطرب هنا وهناك غريبة، خارطة من الغمومة، واللّهجات والنّبرات، والكلّ في عجلة من أمره...

لا، لم أكن سعيداً، والمكان بأسره استحال عدوّاً، واللّيل عدوّ آخر، يتخضّب بالسّواد والغضب والتّحسّب، ولا شيء تبقى لي لأدافع به عن نفسي، والدّقائيق تمرّ، والسّاعات تختصر، والأشخاص القادمون والرّائحون همّ آخر يضغط على أعصابي، فأنكمش كالقوقعة: أشعر

أني أصبحت مكشوفاً للجميع، وأجهد أن أنغلق حتى لا يراني أحد فيرى على ملامحي ما يمكن أن يشي بعواطفني...

تحوطني الجهات، وتتداخل الأزمنة وتتشابك، وأرى الماضي البعيد، البعيد جداً يستعاد، المطر وهو ينزل، والشقة الرحبة، والأصدقاء، وصديقاتنا البنات، وأحاديث الليل؛ والسمر ما ألدّه! أتسامر مع نفسي في الغرفة الصغيرة، والسيجارة بيدي؛ السيارة الأولى وقد أعطتنيها «كايتي» فلم أرفضها، وآليت أن أحتفظ بها كذكرى عزيزة منها. وذات ليلة، كان الحزن يترص بي في كل الزوايا فقررت أن أدخّن، ولم أجد غير سيجارة «كايتي»... فتحت درج الدولاب، وأخذتها، وبحثت عن القداحة فأشعلتها. أزحت الستارة عن النافذة وقرفت فوقها. أخذت نفساً عميقاً وأنا أتطلع إلى الطبيعة في الخارج، مرتفع من الأرض يسبح في عالم من الخضرة الداكنة، والثلج يتساقط متلكنًا، مذكراً ببداية الكون في طفولته الأزلية!!

رحلة الغرب النائي، في مدن الجليد والضباب، على الأرض تحت السماء، وبحر الشمال يحاصر الجزيرة من بعض جهاتها، وكل ما رأيته كان يبتّ إحساساً بالكنّ ورغبة في الدوبان والتماهي...

لم يبق غير الأثر، الخطى التي إن عاجلاً أو آجلاً ستمحي، وذكرى قاتلة بأنّ كلّ شيء في طريقه إلى النهاية؛ والغرب يظلّ غرباً والشرق هو الآخر سيظلّ شرقاً، وبينهما تتباعد المسافات وتقوم الحدود كالمباريس، أعمدة ثقيلة بالغة الطول، وجليظة، كلّما حاولت تجاوزها تحدّتك، وتبعثك أينما ولّيت وجهك!!!...

لا أعرف كم كانت الساعة عندما بدأت الطائرة بالنزول في مطار «إنديرا غاندي الدولي»، ولكيّ كنت أعلم أنّ الفجر بدأ يسفر، والظلمة الحالكة لليلة السابقة غدت شفيفة رقيقة، وقد زادها رذاذ الصباح المبكر فتنة لا تقاوم؛ لم يلبث أن سرى في الدّاخل صوت المضيفة معلناً نهاية الرحلة، ومذكراً بدرجة الحرارة في الخارج، والساعة حسب

التّوقيت المحليّ... نهضت من مكاني ففتحت الصّندوق فوقى وأخذت حقيبتي، وتقدّمت مع بقيّة المسافرين إلى باب الخروج؛ لم أنتظر «شانيل» و«نايجو»، كنت متأكّدا أنّهما في مكان ما من الطّائرة، وأنّهما بمجرد أن ينزلا سينضمّان إليّ...

عند الخروج كان التّاكسي في انتظارنا...

سلّمنا على السّائق وشخصا آخر قال إنّه يعمل بوكالة أسفار في العاصمة، وإنّهُ المسؤول عنّا طوال مدّة إقامتنا، وأفهمنا أنّه على استعداد لحلّ جميع المشاكل الّتي يمكن أن تعترضنا... كانوا طوال الوقت يتكلّمون بلغة لم أفهمها، وقد استغلّيت فرصة انشغالهم، فسرّحت طرفي في الفضاء المتراحي الممتدّ أمامي؛ في تلك اللّحظة كنت حرّا، غير مبال بالخرج، وبدا لي خلال استغراقي أنّ «دلّهي» ليست المدينة الّتي رسمت لها صورة أقرب إلى الخيال في ذهني، وإنّما هي مدينة في طريقها إلى الموت؛ كان القدم يكتنفها من جميع جهاتها، عتاقة متأصّلة في الزّمان، وكلّ ما فيها يثير الشّفقة، ويبعث على الحزن؛ شوارع متألّكة في أطرافها، ولا أثر للنّظام وسط الفوضى الصّامّة... أناسها متعبون، مرهقون، ولكثرتهم تتساءل من أين جاءوا، وكيف استطاعوا أن يقاوموا الموت كلّ هذه المدّة... يطاردهم الجوع، والفاقة والحاجة والعوز، ويشغلون بالليل والنّهار، يعملون كلّ شيء، ولا يخلّجون... كنت أراهم من شرفة غرفتنا بالفندق يجزّون عربات يد عليها أنواع مختلفة من الغلال أو الخضروات، يبدو عليهم التعب، والإرهاق، ولكنّهم كانوا يقاومون كلّ ذلك بعزيمة لاتفلّ؛ لعلّهم كانوا يحملون تاريخ «هندستان» وحضارتها في عقولهم وقلوبهم، وهذا ما كان يساعدهم على الحياة...

إنّي غريب!!

وكشأن الغرباء، تألّفت مع الوضع الجديد، تركت لغتي ورائي، طردتها من خيالي، وذات ليلة ظلماء، لا قمر فيها، حفرت لها عميقا

وردمتها في التّيه؛ واللّغة المتوقّرة لديّ الآن، هي نفسها لا تفي بالغرض، نادرا ما أستعملها، وبقية الوقت أخلو إلى الصّمت، أو أسترق النّظر والسّمع إلى «شانيل» و«نايجو»، وهما يضحكان أو يتحدّثان، وكأنّه لا وجود لي بينهما... أنظر إليهما فكأنّهما شخصان غريبان عني، لم أتعرف إليهما في يوم من الأيام، ولم نتجاذب أطراف الحديث بمدينة «صور»!! أهرب منهما، أشيح بوجهي عنهما، والغرفة الوحيدة المشتركة بيننا، عذاب آخر، لا أطيقه، وأخاف منه إلى درجة القرف؛ كانت لي دائما غرفتي الخاصّة، وأشياء الخاصّة، وأسراري الخاصّة، ولم أعتد في يوم من الأيام أن يقاسمني أحدهم نفس المكان... وتتضاعف مخاوفي وهو جاسي، ويغزوني التّحسّب والرّهبة من صديقيّ، ولم أتأكّد بعد من احتمال وجود علاقة غير طبيعيّة بينهما؛ الشّدوذ؟! انحراف الميول؟! اشتباه له ما يبرّره، ولكن لماذا لم أنتبه إلى كلّ هذا من قبل؟! لماذا الآن فقط؟!... لن يعجزني إيجاد الأعذار لنفسي فيما لو حاولت ذلك، ولكن ما جدوى الأعذار!!

أنأى إلى الزّوايا، أتباعد، وبمهارة أجرّ حشيتي إلى أقصى حدّ في الغرفة، ألف نفسي في الغطاء حتّى لا اضطرّ إلى رؤية المشهد الذي لم أتوصّل إلى تحديد طبيعته... يتعمّد «نايجو» أن يتحرّر من ثيابه. كلّ ثيابه، ويكتفي بمنشفة يضعها حول وسطه، وبرعونة، وصبيانيّة، يلقي بنفسه فوق السّرير؛ يقترب من «شانيل»، يتماسّان، تنطلق ضحكاهما، فيرنّ صداها داخل الغرفة، يتداعبان، والحديث إذا بدأ بينهما لا ينتهي البتّة؛ وإذا كان «شانيل» قليل الكلام، فإنّي كنت أستغرب لـ «نايجو»، فما أن يفتح فمه حتّى تندلق من جوفه الكلمات والحروف والأصوات، ولا يتوقّف أبدا؛ ماذا كان يقول؟! وهل من معنى لكلّ تلك الفوضى؟! سيكون عليّ أن أستمع وحسب، وأن أظاهر بالنّوم، وأن أبقى صاحيا إلى ساعة متأخّرة من اللّيل، وأن أعيش الصّراع بداخلي كلّ يوم، وأن أسال نفسي: لماذا تورّطت؟ ثم أقول: هل

كان بإمكانني أن أفعل خلاف ما فعلت؟!!

كنت أضع قناعاً على وجهي طوال حياتي، وازداد القناع كثافة في فندق «ريجنت كونتيننتال»... فندق من الدرجة الثالثة أو الثانية، في حيّ عتيق، أسلم نفسه للسكون والهدوء، في شارع ضيق، يتفرّع في جميع الجهات، ولولا السائق وإلفته للمكان وتمكّنه من صنعته كصاحب سيارّة سياحية، له خبرة بمسالك المدينة وشوارعها وأحيائها لاستغربت أن يكون مثل هذا الفندق في مثل هذا المكان... أين صمته من صخب «كارول باق»؟ من الضجيج الذي لا يهدأ، وملايين البشر من مختلف العنصر والأعراق، لا تعرف ماذا يفعلون أو ماذا يشتغلون، فسيفساء من الأديان والأجناس، وفسيفساء من المطاعم والمقاهي المنتشرة كالهمّ على القلب، عشرات منها للنباتيين، بعض أصحابها يمارسون هوايتهم على قارعة الشوارع، أو انهم وأدوات طبخهم وأباريقهم، وأيديهم التي لا تكفّ عن الحركة، وأفواههم المغلقة، كأن لا وقت لديهم للحديث أو الثرثرة... الماء! لا حاجة بي للطعام! فقط قطرة من الماء وسط هذا الضياع الذي ليس له حدود؛ والظمأ يقطع أحشائي، والماء مغليّ، حارّ، تعافه نفسي فأجتّر خبتي في داخلي، ولا أملك إلا أن أتبع خطى صديقي في رحلة بحثهم عن شيء يؤكل... سبعة وعشرون يوماً، ثمان وعشرون ليلة، نسيت خلال كلّ تلك المدة طعم الماء، ونسيت ما معني أن يأكل الواحد رغبة في الطعام، فيرى الأشياء من حوله، على النّضد الموضوع أمامه، أصناف من الأطايب، فتحرّضه وتزيد من شهيته... كنّا نخرج سوياً من الفندق، ونمشي في الشارع المقابل، ونعرج بعد ذلك يمينا أو يسارا، ونضرب في الأرقّة، فيستغرقنا الوقت دون أن نشعر به... وكان «نايجو» دائما في المقدمة، ارتضى لنفسه أن يقوم بدور الدليل، بحكم عادة متأصلة لديه في الاقتحام، وهو الذي أمضى سنوات بأكملها يعمل بإحدى الشركات في «مومباي»؛ وندخل أحد المطاعم، ويأتي صاحب المطعم، فأدرك أنّ

المشهد القادم لا يعني، وبعد أخذ وردّ سيختار صديقاى بدلا عني؛ والكلام صعب، واللغة التي يتكلمون بها أصعب، والوحدة، الغربة بين الجماعة مرارة، وانتحار بطيء؛ فلو كان فقط بإمكانني أن أبتعد عنهما، أن يرتد الزمان إلى الخلف، وأن أكون صاحب القرار!! يلتفت إليّ «نايجو» ويقول:

هل تريد «برياني»؟

أحسن بالإخراج، وبتفاهتي، إزاء كلّ ما يحدث حولي، فإن تختصر حياة المرء في نقاش حول المأكّل والمشرب، يجعل كلّ شيء يفقد قيمته ومعناه... أبتسم ابتسامة صفراء أغطّي بها على كلّ المشاعر السيئة في داخلي، وأقول بنبرة أجهّد أن تكون هادئة مسالمة: وما هو «برياني»؟

يحدّثني كأنّ لي معرفة بكلّ ما يقوله، وعلى علم بكلّ أصناف الطّعام المحليّة، والمشروبات؛ وابتسم بدوره، ويقول: أرزّ... هناك أرزّ لحم، وأرزّ دجاج...

أقاطعه بجفاف، وأنا أشعر أنّ رغبتني في الطّعام وسط تلك الروائح القويّة. ومنظر النّدى، ورثاة الأمكنة، والعالم الذي يضحّ في الخارج وسط برك من الأنوار الضّعيفة الخابية، والقذارة المنتشرة في الشّوارع وعلى أطرافها... أشعر أنّ رغبتني تتلاشى، وأنّ جوعي قد تحوّل إلى شبع:

لا أريد.

فماذا تريد إذن؟

وماذا هناك غير الأرزّ؟!

يصمت لبعض الوقت، يلتفت إلى «شانيل» فيتبادلان كلاما لا أفهمه، كانا يتحدّثان «المليالي» فيما بينهما، ورغم أنّي لم أفهمهما إلّا أنّي حدست أنّهما يتدارسان أمري... يذكران أسماء طعام، والنّادل حذوهما يتطلّع إليهما في انتظار الأمر...

ربّما كنت تريد أن تأكل «مسالا»؟
يا إلهي! عن آية «مسالا» يتحدثان؟ وهل كنت أتوقع أن أكل في
يوم من الأيام شيئا لا أعرفه...
«المسالا» مع بعض رقائق «الروتى».

ترتسم الدهشة على وجهي دونما إرادة مني، وأضطرب في مكاني،
أتململ قبل أن أسال، وكلّ سؤال أطرحه أحسّ كأنّ روحي خرجت
معه... كان الأفضل أن يتركاني، أن يدعاني لصمتي وأن يحضرا ما
يريدان، سأكل شيئا إن وجدت الطّعام طيّبا، ولا يضير أن أبقى بلا
طعام... أعرف أنّهما سيأكلان معي أو لوحدهما، وسيطلبان مزيدا
من الطّعام إن لم يكتفيا، فما بالهما يصبران على إزعاجي؛ الشّعور
بأنّهما مسؤولان عني؟ وأنّ الواجب يقتضيهما أن يحرصا على راحتي؟!
لا أعتقد ذلك، ولا أظنّ أنّهما كانا يقيمان لي كبير وزن، فأنا ما أزال
غريبا عنهما، مجرد زائر، دفع بعض المال، وتكفّل بتذكرة «شانيل»
ومصاريف رحلته!!

«مسالا»... «روتى»؟

إنجليزية «نايجو» لا تشبه الإنجليزية في شيء، فوضى كلمات
وحروف، وأصوات بلا معنى، لذلك لم نكن نتبادل الكلام إلّا في القليل
النّادر وعند الضّرورة، وقد وجد نفسه الآن في حالة لا يحسد عليها،
فمن أين له الكلمات ليشرح لي ويفسر؟ وكيف يهتدي إلى حلّ الألغاز،
وتفادي المأزق الذي وقع فيه؟... لحسن الحظّ أنّ «شانيل» كان مستعدّا
دائما أن يلعب دور الوسيط، ليس لأنّه يحسن الحديث بالإنجليزية،
أو لأنّ إنجليزيته أفضل من الإنجليزية التي يتكلّم بها «نايجو» ولكنّه
يمتلك موهبة التعاطي مع الغرباء، الأجانب، وهو في تلك اللحظات قد
استعاد صفته باعتباره مواطنا، أو بالأحرى نصف مواطن... ربّما تبدو
العبارة غريبة حقّا، أو مستهجنة، فما معنى «نصف مواطن»، إن لم
يكن مواطنا قلبا وقالبا؟ إنّها المرّة الأولى التي يزور فيها «دلهي»، وكذلك

«نايجو»، ومن هذه الناحية لا فرق بيني وبينهما، فكما يقال في الأمثال: «كلنا في الهم شرق!!»، غير أن المسألة تتشعب وتتشابك بعد ذلك، إذا سقطت الأقنعة جميعها، وارتفع ذلك الجدار الحصين، لتنصب على واجهته دفعة واحدة أشكال وخطوط لغة عجيبة، أشبه بأثار النمل على الرمل: رسوم أقرب من الرسوم الهندسية، فيها فنية وجمالية، ما في ذلك شك، بل إن السامع قد يميز بعض الكلمات العربية في أتون الكلام، ومع ذلك لا إمكانية لفهم ما يقال... حكم عليّ بالإقصاء من البداية، العزلة، والانعزاء، فإذا ما رمت أن أتحدث فيجب أن أعود على الحديث مع نفسي في صمت، لا أحد هنا يتكلم العربية، والإنجليزية لا فائدة منها في شبه القارة التي يربو عدد سكانها على المليون مليون نسمة: أحاول أن أتعامى، وأن أتصامم، في الغرفة وفي جميع الأمكنة التي تضمنا، ثلاثتنا، ولكن لا أستطيع الصمود طويلا، فسرعان ما يملكني الغضب والقهر، كل همسة تجري بين «نايجو» و «شانيل» أحسها موجّهة إليّ، كل ضحكة أو ابتسامة، كل حركة، مقصودة أو غير مقصودة، وفي بعض الأحيان أتوهم أنهما يتعمدان مضايقتي، حينما نخرج إلى بعض المحلات، حينما نتجول في السوق، يبطئان أمام الواجهات، يتعاطيان مع الباعة، ويساومان، كأن الزمن لا يعني لهما شيئا، أو كأنني لست معهما، ومن حقّي عليهما أن يحسبا لي ولو بعض الحساب!!!...

حتى في «صور» كنت غريبا، وكناهما، بشكل ما، جزءا من العالم الصغير للمدينة: كانا نغمة في توليفة الأنغام التي تدرّبت الأوركسترا عليها طويلا حتى اعتادت عزفها دون هفوات أو أخطاء؛ يشعران بحرية من يملك الأرض، ويتكلم اللغة التي يريدها، فإذا ما اضطرّ أن يتكلم بعربية أهل البلاد، لأنه رغم كل شيء لن ينسى كونه جاء ليعمل ويتكسب، تكلمها دون خجل، ولاك أحرفها بلسانه فخرجت الكلمات ممزوجة بعجمة بيّنة... ومع الأيام، انقطع الناس عن الضحك

والسَّخَرِيَّةُ كُلَّمَا سَمِعُوا أَوْلَئِكَ الْقَادِمِينَ مِنْ وَرَاءِ الْمَحِيطِ يَتَحَدَّثُونَ
بَتِلْكَ الطَّرِيقَةِ، بَلْ صَارَتْ تِلْكَ اللَّغَةُ الدَّخِيلَةُ وَالْكَلِمَاتُ الْمَحْطَّمَةُ لُغَةً
يَتَكَلَّمُهَا أَهْلُ الْبِلَادِ أَنْفُسَهُمْ، وَتَلَاشَتْ الْعَرَبِيَّةُ، ذَرَّتْهَا رِيَّاحُ الْخُمَاسِينَ،
فَبَاتَتْ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ!!

قال «شانيل»:

«مسالا»...

أَرْتَجِ عَلَيْهِ، لَمْ تَسْعِفْهُ الْكَلِمَاتُ، فَعَادَ يَنْظُرُ إِلَى «نَايجو»، كُنْتُ
أَرَى الدَّهْشَةَ فِي أَعْيُنِهِمَا، وَالضَّجْرَ، كُنْتُ أَحْدَسُ مَا يَدُورُ بَدَاخِلَهُمَا،
جَوْعًا إِلَى الطَّعَامِ، إِلَى الْأَكْلِ، فَبَعْدَ الْمَشْيِ، وَالضَّيَاعِ فِي الْمَدِينَةِ
الْكَبِيرَةِ، وَالْمَيَادِينِ، وَالْفُوضَى الْعَارِمَةِ، وَأَصْوَاتُ زَمُورَاتِ السَّيَّارَاتِ،
وَالْحَافَلَاتِ، وَ«الْأَتُورْ كِشَا»، كَانَ بَدِيهِيًّا أَنْ يَحْسَا بِالْجَوْعِ...

عاد «شانيل» يَقُولُ لِيَحْسِمَ الْمَوْقِفَ:

سَتَرَى إِنَّهَا لَذِيذَةٌ، وَسَتْحَبُّهَا...

وَتَوَقَّفَ قَلِيلًا، وَامْتَدَّتْ فَتْرَةٌ صَمْتُ قَصِيرَةٍ تَطَّلَعَ خِلَالَهَا إِلَى
النَّادِلِ كَأَنَّهُ يَسْأَلُهُ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمَا «نَايجو» أَيْضًا، وَطَالَ الْحَدِيثُ بَيْنَهُمْ
لِبَعْضِ الْوَقْتِ، وَفِي النِّهَايَةِ التَّفْتَا إِلَيَّ، وَهُمَا يَسْتَعِدَّانِ لِلْوُقُوفِ، وَقَالَا
بَصُوتٍ وَاحِدٍ:

لِنَبْحَثَ عَنْ مَطْعَمٍ آخَرَ، فَهَذَا الْمَطْعَمُ لِلنَّبَاتِيِّينَ!!

إِنَّهُمَا سَيَكُونَانِ نَبَاتِيِّينَ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرُ! وَسَيَكُونَانِ غَيْرِ نَبَاتِيِّينَ!
وَمَجْرَدُ كَلِمَةٍ مَنِيٍّ قَدْ تَحْسَمُ الْأَمْرَ كُلَّهُ، وَمَعَ ذَلِكَ أَثَرْتُ الصَّمْتَ، لِأَسْتَمْتَعَ
قَلِيلًا وَأَنَا أَرَاهُمَا يَجْرِعَانِ مِنْ نَفْسِ الْكَأْسِ الَّتِي كُنْتُ أَنَا جَرَعْتُ مِنْهَا،
الْعَذَابُ وَالِانْتِظَارُ وَالْمُعَانَاةُ، وَمَشَاعِرُ أُخْرَى؛ فَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَبَعْدَهُ،
وَإِذَا كَانَتْ الرَّحْلَةُ تَسِيرُ فِي الْإِتِّجَاهِ الْمَعَاكِسِ لِلنَّوَايَا وَالرَّغَبَاتِ فَلَا أَقْلَ
مَنْ أَنْ أَجْعَلَ الْمَأْسَاةَ مَشْرُوكَةً، وَأَنْ يَتَحَوَّلَ الْمَشْهَدُ كُلُّهُ إِلَى مَهْزَلَةٍ عَلَى
طَرِيقَةِ «الْكُومِيدِيَا الْإِلَهِيَّةِ»!!

النُّومُ... الطَّقُوسُ الرَّوْتِينِيَّةُ الْيَوْمِيَّةُ... الْحَمَامُ... وَعِقَارِبُ

السّاعة تدور... الانتظار... والتلّكؤ... والدّشّ اليوميّ، وحلاقة الدّقن
وتشذيب الشّارب، والتّجملّ... العطر النّفاذ والكريما الّتي يدهن بها
الجسد كلّ، والثّياب الّتي تظلّ طويلا على السّرير، كأخر مشهد تختم
به المأساة!!

أنهض قبلهما، أتعمد أن أفعل ذلك، وقبل أن أذهب إلى الحّمّام
وأغلق الباب بالمفتاح ورأني، أرنو إلى الخلف غير بعيد عن حشيتي،
منظر فيه الكثير من رومانسيّة القرون الخوالي، على نفس السّرير،
كما الحبيبين الصّغيرين، وبدا «شانيل» تطوّقان جيد «نايجو»،
والأرجل تتضامّ في انسيابيّة رائقة، والجذعان العاريان يكادان
يتماسّان، ووسطاهما ملفوفان في تلك الفوط المحليّة... كان «نايجو»
طويلا، رقيقا، هشّا، وكان «شانيل» قصيرا ممتلئا، لا يفتأ يتحدّث عن
النّساء ويتصيّدهن كلّما خرجنا لقضاء شأن من الشّؤون...

«نايجو» كان يحتفظ بالألبومات صور معه، عشرات الصّور
أخذت في «صور» و «هندستان»... في غرفته، في السيّارة، في المقهى
المفضّل لديه، هو وأصدقائه، بمفرده، كان مهووسا، لا يدع شيئا إلّا
سجّله، وكأنّه يريد أن يقهر الفناء والموت، كأنّه يريد أن يترك رصيда
يتزوّد به لأيّام الاكتهال والشّيوخوخة؛ ومن بين الألبومات الّتي رأيتها
ألبوم شاهدته على النّضد، في الغرفة بالفندق، وكان معزولا عن
البقيّة، أخذته وتصفّحته، صور أخذت لفتاة في أوضاع مختلفة، فتاة
ما تزال في مقتبل العمر، على جانب من جمال، لكن ليس ذلك الجمال
الّذي يجعل كلّ الرّجال يتعلّقون بها... رأني «نايجو» عندما أخذت
الألبوم فاقرب منّي، انحني عليّ وهو يتابع حركتي وأنا أقَلّب الصّور
دون أن يقول شيئا، وحينما انتهيت، قال وهو يبتسم ابتسامة خجول:
صديقتي.

ما أن نطق تلك الكلمة حتّى رنّت من الطّرف الآخر للغرفة ضحكة
عالية، فاضحة، وتلاها صوت «شانيل» وهو يقول مخاطبا «نايجو»:

لماذا تكذب؟ لماذا لا تقول الحقيقة، فنحن أصدقاء ولا أسرار

بيننا؟

التفت إليه «نايجو» وأجاب على أسئلته بسؤال آخر:

ماذا تقصد؟

«شأنيل»:

إنها خطيبتك، أليس كذلك؟

كنت ضائعا بينهما، لا أدري أيهما الكاذب ومن يقول الحقيقة، أو أن المشهد في مجمله كان نكتة القصد منها إثارة فضولي أو إضحائي: ربّما كانت خطيبته، أو زوجة المستقبل التي اختارها، وخجله كان يمنعه من أن يفضح نفسه أمامي... لم أسأله، لم ألح عليه، واكتفيت بالصمت، تظاهرت أنني أنظر صوب الباب، وعندما أحسّ بألم في رقبتى أستدير ناحية التلفزيون، صور تتواترو يتلو بعضها بعضا، والصوت لا أفرقه منه شيئا، ولكن ذلك أفضل بكثير من توريط نفسي مع شخصين قد أحتاج إلى وقت غير قصير كي أقتنع أنني لم ألتقيهما في الواقع وإنّما جمعني بهما كابوس مرعب، ألمّ بي على إثر مادبة نازعتني نفسي فيها للأكل حدّ التّخمة...

كان «نايجو» ما يزال بجاني حين قال كأنه يهمس لي:

تعمل في فندق صور...

قاطعته متفاجئا:

من؟

الفتاة التي رأيتهما في الألبوم.

قلت في نفسي ما دام قد تكلم من نفسه فسأحاول أن أجاريه، وهي فرصة على كلّ حال للخروج من حالة الاكتئاب، وجعله يفصح عما يختلج بقلبه من المشاعر والعواطف.

ولكن قل لي هل هي خطيبتك فعلا؟

تسرّعت قليلا، ولم أدر ما الذي جعلني أغدو فضوليا هكذا.

تجاهل سؤالِي، وجلس على كرسيّ بجاني، وقال:

.تعمل راقصة...

ثمّ بعد قليل:

.إذا أردت أعطيتك رقم تلفونها حتّى إذا ما رجعت خابرتها، وأنا

بدوري سأحدّثها عنك...

«لماذا يتحدّث بتلك الطّريقة؟ كان يبدو جدّيّا إلى أبعد الحدود،

وتلك الجدّيّة نفسها حدث بي إلى التّساؤل من جديد، دفعتني إلى

الشّكّ أن تكون خطيبته، بل إنّني شككت أن يكون يعرفها أصلا، فلم

ألتق أحدا في حياتي يسعى إلى إيجاد «أصدقاء» لخطيبته، سيّما إذا

كان هؤلاء الأصدقاء غربيين ومجهولين مثلي، ويتكلّمون لغة غير لغتها

وقد لا يفهمونها ولا تفهمهم حتّى إذا التقى أحدهم الآخر!!»

لا، إنّني أفكّر، وبقدر ما أطرّد صورة «نايجو» من ذهني أجدها

تلحّ عليّ دون هوادة؛ هذا الرّجل، أو هذا الشّابّ، الذي كان يدير الدّقة

في الخارج بكلّ مهارة، حينما نغادر الغرفة مع الدّليل إلى المدينة أو

الأماكن الأثريّة التي تزخر بها «دلهي»، فهو الذي يقودنا دائما، وما أن

نغادر السيّارة حتّى يتقدّمنا، ويتحدّث بطلاقة، ويضحك كثيرا، ودون

خجل، ويتصرّف بكلّ تلقائيّة، ويشتري لنا البارد والمياه المعدنيّة من

الأكشاك الكثيرة التي نمرّ بها في طريقنا، سرعان ما يستبدل جلده ما

أن نعود إلى الغرفة مرّة ثانية، يحطّ عليه خجل، ويمهد، فإذا ما بدأ

«شانيل» حديثه المفضّل عن النّساء اللّواتي كان يراهن في الفندق أو

اللّواتي يلتقيهنّ صدفة في الشّارع أو المقاهي أو المطاعم التي نذهب إليها

رأيته ينكمش كما القوقعة ويكتفي بالسّماع كأنّ الحديث لا يعنيه أو

لا مهمّه؛ يتظاهر بالانشغال بأيّ شيء، ويلطو على السّريّر، كان وجهه

يحمّر ويتلون، وينتظر طويلا حتّى يتكلّم، ولا يتكلّم إلّا إذا تغيّر الموضوع،

وأمن أنّ «شانيل» لن يعود إلى النّساء...

كانت تأتي عليّ أوقات أشكّ أنّه رجل؟ وألعن نفسي ألف مرّة

أني صحتبهما، وإذا كانت التّهارات تنقضي بحلوها ومرّها، وأحاول أن أحافظ خلالها على توازني وهدوئي، فإنّ اللّيل كان يؤرّقني؛ كنت على استعداد أن أفعل أيّ شيء، أو أن أدفع أيّ مبلغ مقابل أن تكون لي غرفتي الخاصّة؛ صحيح أنّي لم ألحظ شيئاً غير طبيعيّ، لكنّ الشكّ كان يدمّرني، وينغل في أعماقي، ما الذي كان بينهما، وتلك الحركات الغريبة التي يتعمّدان إتيانها، وإصرارهما على النّوم فوق نفس السّرير، وخلع ملابسهما دون شعور بالخجل أو الحياء؟...

لعنت نفسي ولعنتهما!

ولعنتهما ورثيت لنفسي!

كانت «دلمي» تودّع كلّ شيء:

الأشياء والأسماء؛

وكانت تودّعني أنا.

كانت تودّع آخر الحمقى!!

«طلبت المستقرّ بأيّ أرض!!»... في البراح، والوجوه المتعبة، وفي الأطراف الدّامية، وخلفيّة الحياة الأخرى، حيث الفقر والجوع، ووهم الانتماء إلى مجتمع، ووطن، وأرض لا تميّز لونها الحقيقيّ. وسط المستنقعات والشّوارع المترية، والأدخنة التي ترتفع إلى هام السّماء... تلوّث قاس يخرب الطّبيعة، ويخرب النّفس، ويأتي على كلّ شيء جميل، الأشجار والأطيار، والأزهار، والأودية والبحار... والإنسان المغلوب على أمره، كتب عليه أن يتحمّل، دون ألم أو ضجر، يبيت في العراء، ولا يستنكف من قضاء حاجته البشريّة أمام آلاف العيون التي لكثرة ما ألفت المشهد اليوميّ صار لا يعني لها شيئاً على الإطلاق، ولا يهتمّ أن يعرى أو يمسي كاسيا، حتّى لكأنّ اليوم ما يهتمّ، والحياة الضّاجة الصّاخبة سوف لن تكون ذات أهميّة بالنّسبة إليه إلّا فيما

توقّره له من فرصة للحصول على الرّغيف، يكدح من أجله، ويستفيق في السّاعات الأولى من الصّباح، ويضرب في كلّ شبر من المدينة الخلبّ، يتحرّك في كلّ الاتّجاهات، حيث عليه أن يكتسب، إضافة إلى الحواسّ المعروفة، بعض الحواسّ الأخرى الّتي قد تمكّنه من التّحايل على قدره الّذي لا يرحم... مئات الخيام المهلهلة جنباً إلى جنب مع البيوت الفخمة والعمارات ذات الأدوار المتعدّدة، والفنادق على اختلاف مستوياتها، وحيثما وليّت وجهك كانت تسطعك الرّوائح العطنة، وأكوام القمامة، والكلاب السّائبة، وعشرات الأطفال، بعضهم عار تماماً كما ولدته أمّه، والبعض الآخر عليه بعض الخرق المهلهلة، وكثير منهم استوطن الدّباب وجوهمهم والمرض أجسامهم الصّغيرة... ومع ذلك، وعلى الرّغم من كلّ شيء، لا يخلو الأمر كلّ من لدعة سخرية كاوية، في الإحساس بأنّ الحياة على قساوتها تظلّ على جانب من الجمال الّذي يستحقّ أن يناضل من أجله... جمال تطلبه تلك الكائنات الفانية، وهي تتحامل على نفسها، فما يزال هناك أمل، وما تزال هناك لقمة تنتظر في مكان ما...

وفي كلّ شارع، في المرتفعات والمنخفضات، في الأزقة والنّواصي، وأمام البيوت، وفي الغابات، وعلى مقربة من الأكواخ الحقيرة، ترتع الآلهة الحارسة، أبقار وثيران ذات قرون معقوفة، وأذيال لا تكفّ عن الحركة، وعيون عميقة، هادئة، ألقت الأرض وألفتها الأرض، وإذا كان وطن الواحد مدينته أو قريته، أو باديته أو الرّيف الّذي جاء منه، فإنّ وطنها شبه القارة بأكملها، تخترق الأسواق، فتلتقط كلّ ما يعترضها وتلوكه بأشداقها الكبيرة، يدرك الجميع قيمتها، لذلك تركت لمصيرها، وحرّيتها ذات قداسة لا سبيل إلى المساس بها... ليست على ذمة أحد، ولا تباع ولا تشتري، وهوايتها المفضّلة السّير لعشرات الأميال يوميّاً... ربّما ببركتها تمكّنت المدينة من مقاومة الوباء والمجاعات والفناء والفقر، والموت والأمراض، وفساد السّاسة الّذين لا يكفّون عن الصّراع على

جثث القتلى والموتى، والفانين!!...

**** بانوراما.** نشيد إنشاد، يبعث في النفس شجي وحزنا، وموطن
قدمي قد أخطئه، وتكتنفي الهوة العميقة، على الطريق الشاهقة،
إلى القلاع والحصون، والمساجد والمآذن والمعابد، وذكريات المغول،
والقرون الدابرة، منذ أن توقّف الفرات والدجلة عن الفيضان،
ونهب بغداد، وألقي بالمكتبة العظيمة إلى القاع حيث اختلط لون
المداد بالدماء، و«هولاكو» الأمس صار حكيما فيلسوفا حينما خلف
أبناء حكماء بدل أن يحرقوا ويخربوا ويدمروا اكتشفوا أنّ الحضارة
هي القوة، وليست القوة هي التي تصنع الحضارة!!... فماذا جرى؟!
وهل هي عقدة الذنب التي تلمّ بصاحبها فلا تتركه حتى الموت؟!... هل هو
احترام الإنسان لإنسانيته المهدورة وبحثه عن الخلود بأيّ ثمن؟!...
أصرخ، وأخاف أن تتمرد عليّ الأصوات فتدوي في الخارج، وأذكر
أسماء الذين ماتوا، وأنسى ثأري معهم، وأراهم يتحولون من أعداء
حقيقيين إلى أجداد لي: «بابور»، و«أكبر»، و«الشاه جهان»، وأثارهم،
بعظمتها وأبنتها وجلالها، وألوانها، وزخارفها، وما منها أثر إلا ويبعث
في النفس رهبة وقشعريرة... «تاج محل»... «هوا محل»... والمرصد
العظيم... وحصن «أقرا»... ومئات المساجد... «وجيبور»، المدينة
الحمراء، بأسواقها، وأناسها، ومطرها، ورذاذها، ورائحتها الخاصة،
في المساءات البعيدة، وتلك السيّدة التي رأيته في بهو أحد الفنادق في
الاستقبال، كأنها أوّل امرأة أراها في حياتي، وأنست إليها لا أدري لماذا،
شعرت حيالها بانجذاب، وراودتني نفسي إلى محادثتها ولكّني تردّدت في
اللحظة الأخيرة؛ فما فائدة الحديث؟ وما جدوى الكلام، والرحيل يطلّ
بوجهه الكريه، ويكشّر عن أنيابه الفظيعة السامة؟!...

**** يطيف بي الاستغراق حين أحزن، فأفتح شراعة القلب،**

وأضيء شموعاً بيضاء سوف يكون عليها أن تقاوم الاحتراق، وتدوم من أجلي، وسوف يكون عليّ أن أداريها، وأن أحتفظ بها وأحفظها من هبات النسيم الرقيقة التي ما تنفك تهسّ بين الفينة والأخرى؛ وفي الخارج، على مبعده يسيرة ذات النخلة الفرعاء، ذات الجداول والشماريح الصفراء، وهي تزهو برطبها المستدير الفتان، وينعكس عليها ضياء القمر في الليل، فتنسب الشجون على خواء القلب، وتساقط الدموع كالزاريب؛ لا معنى للحزن بلا دموع، ولا دموع تأتي إذا لم يستثرها الحزن، ولا قيمة للدموع والحزن معا، إذا لم يكن هناك إنسان، مثلي، يحزن ويبكي... كان هناك أصدقاء، وفي الذاكرة عشرات الأسماء، والملاح، والأحاديث التي ما زلت أستظهرها عن ظهر قلب، كما قيلت أول مرة، بنفس النبرات، ونفس الحروف والكلمات، زادا للأيام والليالي العجاف، نثرثرونضحك، ونتطّلع إلى البعيد، لحظة سكون، حيث يخلو كل واحد منا إلى همومه اليومية وأشياءه الحميمة، بعضها يقال، وبعضها الآخر ينتظر دوره، حتى تتضح الرؤية، ويتحدّد المسار؛ كم مرة اكتنفنا المكان، وامتدّ الزمن فينا؟ كم مرة شقت أرواحنا، وتماسّت، وتقاربت، فبات لزاما علينا أن نمزّق جميع الأقنعة ونرميها أرضا استعدادا لتلك اللحظة التي لاتعاد ولا تتكرّر، لحظة صدق أمام النفس قبل أن تكون أمام الآخرين؟! هل نخبي حقيقة أسرارنا بداخلنا أم هو مجرد وهم بامتلاك خصوصيّة ما؟! أو الهروب من عار الفضيحة؟! لكن آية فضيحة يمكن أن تعدّ كذلك في عالم، على سعته ورحابته، لا شيء يظلّ خافيا فيه، فما بالك بإنسان قميء حقير، من السهل خداعه والضحك عليه!... تضجّ الرأس، وتتحلّل تلافيف الدماغ، جزاء الحرارة القاتلة، والرطوبة، وبلل الثياب، والعرق الذي جفّ على الجسد فغدا الجسم كلّ دبقا، وصوت الدليل الهندوسيّ وهو يتحدث عن سلالة المغول بلغة إنجليزيّة متماسكة أعادتني قليلا إلى الإنسان باعتباره «حيوانا ناطقا»؛ كنّا جميعنا في السيّارة، السائق

في الأمام خلف عجلة القيادة وبجانبه دليلنا، وعلى المقعد الخلفي حشرت أنا، و«شانيل» و«نايجو»، في وضع غير مريح... تجمعنا رغبة في الانسياح، والامتداد على الأطراف، وبين الجهات، يصمت السائق طوال الوقت، ووجهه مغلق، عيناه منزعتان في المدى البعيد، ويده لا تتوقف عن الضغط على الزّمرور، وما لا يمكن أن تتصوّره في أيّ مكان آخر، يتداخل هنا في شوارع «هاريانا»، و«راجستان»، نوق وجمال تجرّ وراءها عربات ثقيلة ملئت بأكياس الأرز والقمح، وشاحنات ثقيلة كتب على مؤخّرتها: «اضغط الزّمرور رجاء!»، وصبيان ونساء وشيوخ ورجال على قارعة الطريق أو في طريقهم إلى الأسواق، أو في المزارع المترامية تغطس أقدامهم في حقول الأرز المروية...

مناظر معتادة، لا شيء يتغيّر فيها، وعندما تتعب عيناى من التركيز أغمضهما، وأستند إلى المقعد ورائي في محاولة للنّوم... وأحسّ بثقل في ركبتيّ، وبالحذاء يضغط على قدميّ، وبساقيّ «شانيل» أو «نايجو» تضايقاني...

كنّا نتوقّف في بعض المقاهي أو الاستراحات بعد ساعات طويلة من السيّاقة، فنشرب القهوة أو الشّاي؛ والمقاهي في أغلب الأماكن التي مررنا بها عبارة عن فضاء مفتوح بلا باب أو نوافذ، قد أُلقيت فيه الأواني والأباريق هنا وهناك، وفي الوسط موقد الغاز، ووراء القائمة كان يقف صاحب المقهى...

كثير من المدن، انطبعت صورها في ذاكرتي، ولكن ظلت بلا أسماء، تغيم حيناً، وتطفو على السّطح حيناً آخر... كانت غريبة بالنّسبة إليّ، وما يربطني بها استراحة المسافر الذي يقف شطراً من الطّريق، يتناول شيئاً ليسدّ مسغبته ويروي ظمأه، ويذهب إلى دورة المياه، ثمّ يدفع الحساب، لتتواصل الرّحلة، إلى أماكن بعيدة لا يعرفها، ويترك مصير يومه بين يدي دليل محترف وسائق يحسن الاستماع طوال الوقت ولكنه يحسن الصّمت أيضاً...

ستّة أيّام، وكان من الممكن أن تكون سبعة، إلّا أنّ اليوم الذي وصلنا فيه إلى المطار، وقضينا معظمه نائمين في الفندق، كان محسوبا علينا، وحينما اتّصلنا بوكالة الأسفار وأعلمناها أنّنا دفعنا أجر سبعة أيّام وليس ستّة أفهمنا أحد العاملين بها أنّ اليوم السّابع هو نفس اليوم الذي وصلنا فيه إلى «دلهي»، وكان مفروضا أن يأخذنا الدليل خلاله في جولة عبر المدينة إلّا أنّه تعذّر ذلك، بعد أن أشعرته إدارة الفندق أنّنا كنّا نياما...!!

«دلهي» كانت المحطة الأخيرة في كلّ مرّة، نغادرها لنعود إليها من جديد، وفي اليوم الثّاني حملنا حقائبنا وتوجّهنا إلى «أقرا»، وهناك بتنا ليلتنا، وفي الصّباح ذهبنا إلى «تاج محلّ»... وفيه انهار كلّ شيء، وحطّ التاريخ بكلّ كلّكه على قلبي فجاء الحزن وكانت المأساة!!

وفي «أقرا» التقيت مصادفة بشخص لا أعرفه، سألتني عن نفسي فأجبته، وكنت أنتظر أن يدعني لعزّلي أنتظر صديقي اللّذين اعتذرا لإجراء مكالمة هاتفية مع بعض أصدقاءهما في «مومباي» غير أنّه صمّم على البقاء، وكانت رغبته في الحديث تحمل وراءها محاولة مستميتة في جعلني أدفع مبلغا من المال مقابل قيامه بجولة يحملني خلالها إلى بعض الأماكن في المدينة الّتي كانت تبدو لي في اللّيل عالما أسرا من السّواد الّذي كان يفصح ويفضح أكثر ممّا يخفي المعالم ويواربها... قال:

إذا قبلت سيّارتي في الانتظار...

وتقدّم منّي، كان يعرف أنّي أنتظر بعض الأشخاص من خلال تطلّعي باستمرار إلى أحد محلاتّ الهواتف العموميّة... أمعن في التّقدّم حتّى صار في مواجهة تامّا، وحجب عني رؤية الباب المفتوح الّذي كنت أنظر عبر فتحته إلى «شانيل» و«نايجو»، وواصل قائلا:
يمكنني أن آخذك إلى أيّ مكان تريده، والثّمن لن يكون باهظا.
قلت بفتور، وأنا أحاول أن أتفادى النّظر إليه:

.شكرا.

لم يكن يريد أن يسلم بسهولة:

.ادفع المبلغ الذي تريد.

أردت أن أسد عليه طريق المحاوراة والمداورة، فشرحت له الأمر

قائلا:

. هناك سيارة على ذمتنا، وسائق ودليل، ولسنا في حاجة إلى

سيارة أخرى...

كنت أعتقد أنني كنت واضحة معه، وأنه ما يعتمد أن يذهب في

حال سبيله، ولكن دون جدوى، إذ بدأ لعبة من نوع آخر حينما سألتني:

.هل أنت متزوج؟

بدا لي السؤال غريبا نوعا ما، رقت على شفتي ابتسامة فاترة،

ومع ذلك أحبته بعفوية وصراحة، وكان يمكن أن أكذب عليه:

.ليس بعد!

.غير معقول...

وكأنما أراد أن يعطي لانطباعه ذاك مسوغا فقال:

.كم عمرك؟

قلت وقد واجهته ونظرت هذه المرة في عينيه لأجعله يحس أنني

كشفت لعبته أولا، وأني على استعداد لأن أطيل معه الحديث من باب

الفضول وقتل الوقت ثانيا:

.ثلاثة وثلاثون عاما... قل أربعة وثلاثون عاما.

أشار إلى سيارة كانت مركونة غير بعيد عنا، وقال بفخامة وزهو:

.تلك سيارتي؛ إنها مريحة، لو فقط تطاوعني وتقبل عرضي، إنه

لن يكلف كثيرا من المال.

وقبل أن أعلق بأي شيء قال مغيرا مجرى الحديث:

.أنا في الثانية والثلاثين من عمري، ولي بنتان...

قلت مجاملا:

ما شاء الله!!

قال وهو يحاول أن يخمن، ويرتبّ في نفس الوقت لإقناعي
بمحاولة الذّهاب معه:

غير متزوّج، جميل...

وضحك ضحكة صغيرة، وواصل:

بإمكاني أن آخذك إلى أماكن أعرفها بها الكثير من النّساء... وبها

الكثير من الشّراب!!

كنت في ذلك اللّيل حزينا، ومكتئبا، وكان إحساس العطالة الذي

يضيق الخناق عليّ قد قتل في كلّ رغبة للصّخب والملهة!!

قلت وأنا أتركه في طريقي إلى المحلّ للالتحاق بـ «شانيل» و

«نايجو»:

شكرا، ربّما في مرّة قادمة!

(مومباي)

الوشم الأخضر في خضرة التّباتات الطّرية الهشة في فصل الرّبيع،

في أعلى الجبين، أو على الوجنتين، أو أسفل الدّقن، فتنة لا تدع مجالا

للتّفكير بالألم، والمشرط الصّغير يحفر في الجلد، ويوغل حتّى ينزف

الدّم، وتتقلّص الملامح، وينكمش الوجه... وشم هي المدينة الممتّدة

الفسيحة، يمتزج فيها الألم بالنّشوة واللّذة، عاهرة أرهقت الزّمن،

وتربّعت على ركّام السّنين، تتشقى في من ولّوا، وتحتضن القادمين،

بين ذراعها الدّاميتين فتبعث رائحتها في الأنف أنفاس المرض والموت...

لا ترتوي من شبقها وبكلاّبتهما تنتزع سرّ الحياة من الأجساد الفتية،

الأجساد الفارحة الهاربة من المجهول إلى مجهول آخر: عمّ تبحث

في التّيه، المخلوقات المجدودة الصّامتة؟ وما الذي يعجبها في عالم

الخوف المريع؟... الفقر، والطّواوير الطّويلة... طلبة المدارس، والنّساء

والرّجال، والأطفال... الشّيوخ، والبنائات القائمة كما الأشباح،

قديمها الآيل للسّقوط، وحديثها، الشّامخ المتسامق، تراصف جنباً

إلى جنب...

لا مكان لي بين الأحياء، والأموات ماتوا وشبعوا موتا!!
وجوه بلا ملامح... مطموسة، وآثار الخوف أزالَتْ كلَّ مسحة
للجمال أو الوسامة، والإرهاق باد على الأجساد المتعبة... والأرجل
تتجرجر في حركة رتيبة لا تنقطع أبدا، على الأرض التي التأمت على
نفسها، انغلقت على أسرارها العصية، تاركة للخيال أن يحلم وأن
يحدث، بمرارة، ما توارى في باطنها؛ والموت المفاجئ الذي فرد جناحيه
على المدينة، وأنشَب أنيابه وأظفاره في التَّخوم القصية والحدود
البعيدة التي لا ترام ليس شيئا آخر غير الموت...

قد يحسّ المريض بالألم، يشكو، ويتعذّب أيّاما وليالي، يتقلّب
على جنبه، وهو يدفع اللّحاف عنه برجليه فوق السرير... يحسّ الألم
ولا يعرف عن مرضه شيئا، ما أعراضه، ما تطوّراته، وعلاجه المناسب،
مجرّد شعور بالألم، معاناة تحمل بين طيّاتها دائما أملا بالمعافاة
والشفاء...!! لكنّ المدينة تموت، أراها بعيني الآخرين، وقد أصابها
الوباء والجذام؛ اجتاحتها الطّوفان، مدوّيا، غاضبا، منتقما، وخلف
وراءه وديانا وبركا ومستنقعات، وما عثمت الرّوائح النّتنة العطنة
أن انتشرت بين الرّوايا والأركان... ومات من مات، ومن بقي على قيد
الحياة أصيب بلعنة المرض الذي لا براء منه... المجذومون، الموبوءون،
وأصحاب العاهات، والرّمنى، والرّجال والنّساء والشّيوخ... والصّبيان،
والمنازل والأبواب المفتوحة، والشّراعات، والشّوارع، والكورنيش،
أرى كلّ ذلك فأصاب بالدّعر، النّظرة الجامدة في العينين، والشّعور
المشعث، والصّفرة التي اعترت الوجه، صفرة الموت، واليدان اللّتان
تجمّدتا، والرّجلان الثّقيلتان: مراسيم احتفال ما، والأيدي تتشابك
مع بعضها البعض، والخطوات توقّع حركتها في انتظام وتناغم،
ومن مكان ما يفرقع دويّ، وتسمع أصوات... متداخلة، منذغمة،
مشوّشة، فيها حرقة وصخب وشجن وفرحة لا تكاد تبين... وفي وقت

ما امتلأ الفضاء بالترتيل والدعاء، وارتفع على الهام والأعناق عشرات النعوش، وقد ألقيت عليها ستائر مزركشة، خطت على جنباتها وفي وسطها بأحرف متداخلة آيات بخط كوفي رائع... كانت الستائر خضراء شديدة الخضرة، وكانت أحرف الآيات تكبر وتتضخم حيناً، وحيناً آخر تتضاءل وتصير قمينة، حتى لكانها تصير غير منظورة!!... والأصوات لا تتوقف والدعاء يرتفع ويعلو فيردده الصدى، وتذريه النسمات في كل الاتجاهات:

اللهم إنه عبدك...

ابن عبدك...

ابن أمتك...

فاعف عنه...

وارحمه...

وأدخله فسيح جناتك...

اللهم إن له جلدًا رقيقًا

وعظمًا دقيقًا...

فترقق به...

واحشره مع الكرام البررة،

وأهل الحظوة ممن قسمت لهم.

في جنات نعيمك.

الفواكه والرمآن.

والحور العين الحسان،

والملك الذي لا يبلى...

اللهم إنه عبدك...

ابن عبدك...

ابن أمتك...!!

وفجأة تستحيل السماء عيناً كبيرة فتسح منها الدموع، وما

تعتم تلك الدَّموع أن تصير فراشات بمختلف الألوان، ورفيفا من السنونوات في حجم راحة الكفّ، تندف بأجنحتها الصّغيرة باتجاه البحر الغافي... وتنفّر تلك الجموع الّتي كانت تهينم وتدعو وترتل، وتختفي، فتسقط النّعوش، ويحمل الهواء السّتائر من فوقها... وتلاشى الخضرة، وتختفي الآيات كأن لم تكن، ولا أثر للموتى كأنّ الأرض انشقت وابتلعتهم جميعا!!!...

مجرّد هياكل، ركام من العظام الّتي شدّ بعضها إلى بعض بمسامير صدئة، وهي تسير باتجاهي، على شفاهها العظمية ارتسمت ابتسامات بلون الدّماء، يحوطها الذّباب القاتل والبعوض؛ ولا مفرّ!! كانوا أعداء، وكان البحر سياجا عظيما يمنعي من الهروب أو الحركة!!!... هل أصرخ؟ هل أتمنّى أن يكون لي جناحان رائشان ناعمان؟ أم أغدو هيكلا كالهياكل الّتي أراها فأمن شرّها وأكسب ودّها؟... هل أنسى؟ أم أتناسى، والموت لا يعتقني ولا يمكنني من الخلاص من نيره!!؟

وما تلبث الأصوات أن تعود، والجموع الّتي احتجبت منذ قليل يلقي بها باطن الخواء إلى وجود الموت الأزليّ، على صدورها المسوح، وهي متجلببة بالسّواد وتضع على رؤوسها لاسات صغيرة قد نفرت من بينها جدائل وخطها الشّيب وعبثت بها أيدي السّنوات وأناملها... كان موكبا مهيبا يتقدّمه القساوسة والبطاركة، ويلهم الرّهبان والرّاهبات، ثمّ رعايا الكنيسة المكرّسون، وهم يردّدون بصوت واحد فيه شجّة:

أبانا الّذي في السّماء...

ليتقدّس اسمك...

ليأت ملكوتك...

لتكن مشيئتك...

حشود في إثر حشود... يضيق بها المدى، وترتجّ تحت وطأة أقدامها الأرض الغافية السّاكنة!!

أصواتهم معرّبة، حادّة، لشدّتها تكاد تتخذ هيئة، وتتحدّ

بأشياء الكون، فتتعلّق بذوائب الأشجار العارية، وتنساب مع سيول الماء، وتتمدّد على صفحة المستنقعات التي اكتنفت جوانبها حقول من الخضرة العفنة، ورفيف من الكائنات الصّغيرة، واليرقانات التي تتداعب في لامبالاة. غير آبهة للخطر المترصّص في مكان ما... كان الدّعاء يختلط بالنّحيب، والنّحيب إذ يمتدّ ويطول يصبح أقرب إلى النّشيج، أو ربّما فحيح أفعى... والجموع تتقدّم، نحو اللّاتّجاه، تقصد اللّاحد، وكلّما تقدّمت تناهت في الصّغر، يرنو إليها النّاظر فيحسبها سربا من الحساسين أو الخطّاف، والنّعوش المرفوعة على الرّؤوس كأنّها ألسنة لهب ما تفتأ أن تأتي على الأخضر واليابس...

قد يفيق الميتون من سباتهم، ويلتحقون بالأحياء: بل إنّ الميتين أنفسهم قد يكونون أحياء، وإنّما تظاهروا بالموت، لينقذوا أرواحهم التي تلوّث بالدماء، وتعقّنت جرّاء الجري وراء طبقات السّراب المتكاثفة وقد صوّرتها لهم أخيلتهم سفنا تضرب في أتون العباب باتجاه جزائر الذهب والحرير، حيث لا تعب ولا نصب، وحيث يكفي أن يتميّ أحدهم أو تهفو نفسه حتّى تنقشع ظلمات الغيب وينجلي المستور!!... مدينة النّحاس، وسرنديب الحافلة بآلاف الحكايات، والأساطير، والأصداغ، وقواقع اللؤلؤ، والسّحرة والمملوكين، والجواري اللّواتي تحرّرن من اللّعة وغدون زوجات لملوك ملوك الأقاليم والبلدان... وقصر المهرجا، تيجانه المزركشة بالديباج والزّبرجد، وملابسه التي موهّت بالذهب والقصب، تشبه إلى حدّ كبير ألبسة النّساء في عصر غير العصر، ونضده القائم كالدرّة وسط العقد عليه أنية شرابه وأركيلته ذات الخرطوم الطّويل، وعدة الشّطرنج، وشفتاه وهما تنفرجان على نصف ابتسامة توحى بأنّ الحكاية التي ابتدأت منذ قليل لم تنته بعد، وأنّها في انتظار المهرج الأحذب، كي يضع الخاتمة الملانمة للأحداث التي تشعّبت حتّى أصبحت كما لو كانت أذرع أخطبوط هرم على استعداد أن يلتفّ على فريسته حتّى الموت!!

الغريب أنا أم المدينة؟ المتكتم، الصّامت، وهو يضرب بنعليه الدّاميين أديم الأرض الرّطبة، والشّوارع الإسفلتيّة، يجهد أن يحثّ الخطى كي لا يضيّع آثار المجهولين السّاعيين وراء مجهول... الكاظم غيظا يوشك أن ينفجر في أية لحظة، يداري غضبا وألما ما انفكّ يزداد، منذ اللّيلة الأولى، وقبل أن تقلع الطّائرة الّتي تأخّرت أربع ساعات عن موعد انطلاقها... مومباي، مدينة المطر والدّخان، والجهمة، والأزقة الضيّقة، والمنازل القديمة، والأمال المحبطة لآلاف الأشخاص المنبئين، عائلات بلا عائل: تعرّفنا على إحداها، مات الأب، واختفت الأمّ على إثر حالة ولادة متعسّرة، ولم يبق إلّا الولد، وهو بعد لم يجاوز العشرين من عمره إلّا أنّه تعلّم كيف يتحمّل مسؤوليّة صبيّة لم يأت بختها، وأولاد صغار، ما يزالون في سنّ الخطر، يتشبّثون بتلابيب الفضيلة الّتي قد تسقط في منتصف الطّريق على حافتي هوة تظّل فاتحة فمها بالليل والنّهار كي تبتلع كلّ شيء... المأوى؟! البيت المترف، والحديقة الغنّاء، وآثار النّعمة، الحمام العصريّ، والتلفزيون الرّقمي، والسّخّان المستورد، والبانيو، والملابس الّتي تشتري خصيصا للمناسبات، والأغاني الّتي تظّل صادحة في كلّ ركن من أركان البيت، والأب الّذي يظّل بجناحيه على أفراد الأسرة، والأمّ الرّؤوم الّتي تبدو أقلّ من سنّها بكثير وقد تزوّجت، وأحاطت معصمها وجيدها بأعلى اللّآلئ ثمنا وأبهاها رونقا؟!... من أين لهم بتلك السّعادة؟ والفرحة البادية على الشّفاة، وحرارة اللّقاء، رغم رداءة الطّقس في الخارج؟ والكلمات الّتي تخرج بريئة، تسأل عن الغريب، ما اسمه، ومن أيّ بلد هو، وهل يرغب في كأس من الشّاي...

يفتح الباب فتفتاجاً، فلا ممرّ، ولا غرف، ولا ستائر ولا أروقة، ولا أسرار تنغلّق عليها الصّدور الفتية، ولا نوافذ تحجب ما دونها عن الأعين الطّفليّة؛ هي غرفة وحيدة، فسيحة، ينامون فيها ويستقبلون فيها الضّيوف، ويذاكر فيها الابن الأكبر، وتلي تلك الغرفة غرفة أصغر

منها كان يظهر من خلال الأواني التي صفت بعناية داخلها وتنور الغاز
أنها المطبخ، وربما قامت في أحد أركانه دورة للمياه!!

مومباي:

اللّغز، الأحياء الفقيرة المتداعية، والأماكن التي لا تستطيع أن
تحزر ما هي، والفوضى الضاربة، عيادات ومستشفيات قد تجدها
أينما توجهت، ومطاعم لولا الطّوابير الطّويلة التي ألقت بها المكاتب
والمؤسّسات في أواخر المساء، وأثار الأكل التي تحلّقت حولها عشرات
القطط المتشرّدة القذرة على الأرض، وأصناف الطّعام الأخرى التي
كان يلقيها البائع في أكياس بلاستيكية وأخرى من الورق، لشككت
أن تكون تلك العربات المهلهلة الحائلة الألوان، بمظهرها غير اللائق،
واحتمال أن تكون مرتعا لكائنات خفية غير مرغوبة، مطاعم يختارها
الآلاف لأكلهم وشرابهم، فقط لأنها رخيصة الثمن، وهي لا تكلف
الجيوب الشّبه الخالية سوى القليل من «الروبيات»!!... و«مومباي»
لغز، امتداد، وفندق «مينالي»، والدّكاكين التي تبيع كلّ شيء في السّوق
التّجاريّ، ومحطّة القطار على الطّرف الأيسر من الفندق، والقطارات
الكثيرة ذات الصّفير والدّويّ، والجفون التي تبقى ساهرة طوال الليل
لا ترف ولا تنام، والرّطوبة التي استوطنت الجدران في الغرفة بالطّابق
الرّابع، والمطر الذي يتسرّب من حواف النّوافذ الرّجائية، فيبلّل
جواربي، وحذائي، وسروالي، والمرضى... «الإنفلونزا» المزمنة، والسّحب
الثّقيلة البليدة التي لم ترح سماء المدينة على امتداد يومين كاملين،
فتداخل الزّمن في ذهني، وضيّعت جميع أسطرلاباتي!!

** على السرير، تنسدل على العينين غشاوة كثيفة، والمرضى
الذي حطّ على الجسم كلّ جعله خفيفا، أثريّا...

الباب مغلق بالمفتاح، ولا صوت يسمع من الخارج، لا نائمة...
كان فضاء الغرفة معتما، كئيبا، والنّور المنبعث من ذبالة المصباح

الكهربائي بالكاد يعطي للأشياء معنى وهوية... إلى يساري، سرير يشبه
السرير الذي تمددت عليه، وورائي سريران آخران كبيران، وفي أقصى
الغرفة دولا ب كبير، والحقائب، والتلفزيون المطفأ...

وحدة... عزلة... واستيحاش، ومن لا صديق له يصبح المرض
صديقه... تخيلته حزينا، وهو يجلس بجاني ناحية قدمي... كان وجهه
يشي بسيل لا ينضب من المعاني والكلمات، وعيناه تسافران في البعيد،
تخترقان الستارة الزرقاء وتنساحان في المدى الغير المنظور...

لن تموت بي!

لماذا؟

لأنني لا أريد لك أن تموت الآن!

فمتى تفكر أن تميتني؟!

(ضحك، ثم صمت)

لا تستعجل...

(وبعد قليل)

ألا تنظر إلي؟

(صمت)

ألا تتكلم؟

سئمت الكلام!

ألا تعرف أننا نتكلم حتى ننسى...

(مقاطعا)

ننسى ماذا؟

الآلام... العذاب... والرغبة والخوف... والمجهول!!

(تململ، وصوت أشبه بالجعير)

فلماذا جعلتني أتألم إذن؟

(في تساؤل)

أنا؟ كيف؟

. إِنَّكَ تحاصرني، وتجعلني أتألم... أنت لم تحرّرني منك، لذلك
فأنا أتألم الآن...

. أنت مخطئ... أنا أريد لك أن تنسى وحشتك وغضبك!
. لا أصدّق!

. بل صدّق، ففي الألم راحة، وبعض الصّحة ألم أيضا!
. كلام غريب لم أسمع بمثله من قبل.

. ستعتاده، وتعتاد مثله... إنّ في بعض الألم أملا جديدا؛ والنّاس
لا يموتون من الألم بقدر ما يموتون من فقدان الأمل، وأنت لم تفقد
الأمل بعد، أليس كذلك؟
. أرجو ذلك!

(يقوم)
. سادعك لنفسك الآن؛ إلى اللقاء!
. إلى اللقاء!

** اللّيل يفرد جناحيه الأسودين... يبسطهما ثمّ يقبضهما،
فتغطّي السّماء وجهها حياءً ببرقع ترصّعت في وسطه، وبين جنباته،
ملايين النّجوم... كانت تبدو للنّاظر وكأنّها تتغامز، أو تترصد عاشقا من
عشاق الحبّ القدامى لتغويه، والقمر مترّص، يختفي، إلّا أنّ طلّعته
التي كانت تفيض على سطح البحر، فيما وراء الضّفاف البعيدة، من
النّاحية الأخرى للمدينة القديمة، فتمتزج بسرّاب الأنوار التي كانت
تحدث خدوشا في دياجير الظّلمة الدّامسة، تعطي انطبعا دافئا أنّه
لن يلبث أن يظهر، فيؤطّر بهالته المتألّئة المشهد المخضرم...
إنّها المدينة الكولونياليّة!

يحرسها البحر من جهاتها العديدة، وتقود إلى شوارعها وعالمها
الغافي البوّابة العظيمة... وعلى طول كورنيشها المسيّج، توزّعت
عشرات المقاعد الخشبيّة، وانبعثت روائح الدّكرى، بهسهسات الحبّ

الدَّافئة... عشاق وعاشقات، إذا أُعِبتهم المناجاة، وسئموا صمتهم
اشْرأبت أعناقهم إلى الأمواج المتدافعة في صخب... في البعيد حيث
الماء الأزلي يصوغ أغانيه على هواء، وحيث الأصوات سمفونية أخرى
تنضاف إلى الكمّ الهائل لسمفونيات ستظلّ طي النسيان ما لم تفتح
مغاليقها يد الإنسان المغامر...

يضيق الصدر، ويختنق الحلق بالعبرات، والمنظر الذي يتكرّر أني
اتّجهت نفسه لا يتغيّر، كأنّه كان منذ الأزل، وكائن إلى ما لانهاية، حتّى
بعد أن يتهاوى الكون، ويتلاشى العالم بما فيه ومن فيه... لون الأوجه
المخطوفة، ترى فيها الموت، فتخافه، وما تعتم أن تغمض عينيك حتّى
لا تراه، على النواصي المنسيّة، والأطلال البائسة، وعتبات البيوت،
ومحطّة السكّة الحديد، التي تنطلق منها القطارات إلى آخر نقطة في
شبه القارّة المترامية... وتلك الخيام المصنوعة من النّيلون وأشباه
الدّور، وحتّى في المزاب!!... أجساد أستغرب كيف اعتادت البرد،
والمطر، وظروف الطّبيعة القاسية، تضرب صفحا عن كلّ شيء ما
أن تلتفّ بتلك الخرق المهلهلة، أو الأغطية الورقيّة، لا تهتمّ ما دامت
ستسافر في المنام إلى جزائر الأحلام المخمليّة!!... هو الفقر، بجميع
ألوانه وكلّ روائحه الكريهة، والجوع، والانتحار الإجباري، والموت
البطيء، يرين على الملامح والقسمات، والمدينة تزداد في كلّ يوم جمالا،
غير عابئة، تزيّن لعريس ليس من البشر، سيأتي ذات يوم على فرس
ذات غرة بيضاء وجناحين ساحرين، ويطيّرها إلى ممالك كلّ أبوابها من
الذهب، وجميع أشجارها من المرجان والياقوت، وأناس ولدوا ليكونوا
أمراء وملوكا وسلاطين!!...

أطفال يولدون في العراء... أمّهات يعانين المخاض، ولا أحد
يلتفت إليهنّ، لا يصدّقن أنّهنّ بقين على قيد الحياة إلا إذا ارتفع صراخ

الوليد الجديد: صرخة لا أحد يدري إذا ما كانت صرخة فرح أم صرخة رعب ألهمت منذ البدء إشراق الأولياء والمقرّبين... وآباء لهم في كلّ شارع زوجة. وفي كلّ مدينة مأساة، يفاخرون بنسلهم كي يتسنّى لهم أن يغافلوا الألم والجوع...!! وفي المدينة موطن قدم للجميع، إلّا أنا القادم من فراغ السنين وأشلاء المتاه...

ناطحات السحاب، والبنائيات الفاخرة، والعربات المجرورة، والعشاق والموسرون، وطلاب اللذة، والباحثون عن العزاء، والمتسوّلون المزيّفون... والبحر...!!

و«راد ستريت»، والغواني اللّواتي ينتظرن آخر الزبائن المتعثّرين، وآخر القادمين، يتطلّعن في رغبة، وقد نسين السّأم منذ اخترن طريقهنّ بمحض إرادتهنّ... يرتكين على السيّارات... يمسكن بأيديهنّ حقائب اليد... ومن حين لآخر يخرجن أدوات زينتهنّ، ويشرعن في إحكام الأصباغ على شفاههنّ ووجناتهنّ، بحنكة اكتسبها مع السنين، يدركن بحسّ الأنثى فيهنّ أنّ آلاف العيون تراقبهنّ من شراعات النوافذ وخصاص الأبواب، ومن داخل المتاجر والمحلات، ومن كلّ مكان، من الشوارع والميادين، من المستودعات، من المخازن... لا يخشين على أنفسهنّ، وأجسادهن مبذولة بموجب قوانين الفضيلة، التي يقوم عليها رجال البوليس الأشداء، بملابسهم الكاكي وعصيم الطويلة...!!

و«موميائي».

أعطتني سرّها وحديثها...

وكنت نزلتها عابرا،

وفي ليلة السّفرجاء من أعطته)

ساقها ومعصمها)

..الأربعاء، الرابع من كانون الأول ٢٠٠٢
(كيرا لا)

[عتبة]

نحن... ولا أقصد أن أتحدث عن ضمير المتكلم، أنا نية الأنا مضافا إليها نكرة من النكرات الموسومة بعار «الأنت» وفضائحه المخجلة، أو هوائية «الهو» المقصى، دائما، في الذّاكرة والوعي، ولا يخرج من زاويته المظلمة وقبره المستديم سوى تفاسيح اللغة، وهي تفسّر نفسها، بغاية البحث عن القوانين الثّابتة والقواعد التي لا تتغيّر... لغة المركز، والانغلاق حول الذات، والعجز عن إنقاذ الإنسان الوالغ، الإنسان الحامل لصفة الإنسان وهو مجرد من إنسيته، وأنسه ونسيانه؛ وإنّما أقصد «النّحن» غير اللّغويّة، «النّحن» التي لو وجدت أداة أخرى غير اللّغة لتعبّر بها عن نفسها لأنست بها ولركنت إليها!!!...

حاجة البوح ملحّة، والقلب موشك على الانفجار، والجسد أشلاء مفكّكة، والدماغ رخاوة، تلافيفه أدمتها الأفكار النّصف، ودمامة الهواجس، وارتباك الاستدراك، كلّما حمّ القضاء، وأزفت لحظة القرار...

فيم نفكر؟ وماذا يمكن أن نقول؟ وهل نحن نفكر حقّا لنقول؟ أم أنّها خطيئة من الخطايا المستعصية، دربة اللّسان وجعله يعتاد الكلام حتّى لا ينسى في لحظة من اللّحظات أنّ الكلام هو وظيفته، وأنّ لسانا لا تجري عليه الحروف، ولا ترتبّه الكلمات سوف لن يكون لسانا بالقدر الذي سيكون فيه أشبه بقصبة هشة في مهبّ الريح!!

نفكر لنقول، نفكر ربّما تحت وطأة إحساس أنّه مهما حاولنا
فلن نستطيع الخلاص من لعنة التّفكير، وما دام التّفكير قدرنا الذي
جبلنا عليه، علينا إذا أخلدنا إلى أنفسنا من صخب الواقع، وضجيج
الموتى الأحياء، أن نهرب من صمتنا وعزلتنا في الصّمت بالتّفكير؛
ونفكر... نفكر... ونفكر... نفكر في المرّة الأولى من باب مداراة الألم
والخوف؛ ونفكر في المرّة الثّانية من باب التّسلية؛ ونفكر في المرّة
الثّالثة لنبتكر أفكارا عظيمة حقيقة بأن تخلدنا في سجلّ العظماء،
حقيقة بأن تقيدنا في خانة الحكماء الذين انتهوا إلى اكتشاف سرّ
الحياة، فتسربلوا بأردية الخلود، وكانوا مرجعا وقدوة لمن يريد أن يتأثر
خطاهم؛ ولكن بعد الجهد، والضّرب دون طائل في مهامه التّيه، ونجاد
صحارى قاحلة ووهابها، وبعد الضّياح والتّشرد، وكتابة قصائد،
بلا عنوان، لمجهولين... لعشاق، وصوفيّة، وقساوسة، وقديسين،
وكتبة، وكذبة، وسوقة، ودهماء، وشطّار وزعّار، وعيّار، ومرضى
وأصحاء، وهوائيين... ويتامى ومسكونين، وقادمين إلى سطح الذاكرة،
وعائدين إلى جنة النّسيان في بساتين بلا أشجار، ومنازل جميلة على
شفا الهاوية، وقادة ومهزومين، وأرقّاء عبيد، وأمراء ممالك، لا تتجاوز
حدود سلطتهم بعض الكيلومترات في كلّ الاتجاهات، وملوك وخلفاء
من عهد الانتصارات، وأمراء أمراء، وقضاة قضاة، ودول تسقط،
وأخرى تؤسّس وتتألق، وإمبراطويّات موغلة في أصل زمن منسيّ تعلن
إفلاسها ما أن تسقط آخر مدنها في أرض العدو، فينتهي تاريخ ليبدا
تاريخ آخر، وتتلاشى أمة وتغدو أثرا بعد عين، لتنهض أمة أخرى، تعلن
في زهو ومجون وقحّة، بداية تاريخ يضيف كتابة إلى الكتابة، بل يشوّهها
بدعوى أنّ من يملك مفاتيح الممالك المفتوحة له الحقّ أن يكون
السّلطان والحاجب والسّيّاف... أن يكون الماء الذي يشربه الجميع،

والهواء الذي يتنفسه الأحياء ويحلم به الأموات... أن يكون الأرض التي تنبسط فلا يمشي فوقها إلا من كان يؤمن، بقلبه ولسانه، أن من يملك النِّفحة لا يمنحها لغير من يعترف أن النِّفحة لصاحب النِّفحة يسبغها على من يشاء، من حلفائه، ومن سيكونون حلفاءه، ومن اضطرّوا أن يكونوا حلفاءه، ومن سيأتون من بعد كلّ هؤلاء ليكونوا حلفاءه، وحملة لوائه في حروب مظفّرة دائماً!!!... أن يكون السَّماء. ليست سماء الرّبّ الرّحيم الذي يهب ويعطي دون حساب، ودون اعتبار للموالاة والتّحالفات والعهود والمواثيق، ولكن هذه السَّماء من صنع الفولاذ والحديد، والأفران العالية، والذّرة، واليورانيوم المنظّم، والصّواريخ العابرة للقارّات، والصّواريخ الباليستيّة؛ ولا تأخذ إسمها من سموّ معاجم المجاميع، وتفوّق الألسنة، والأدمغة والعقول، التي تدرك بسليقتها التي فطرت عليها، أنّ النّاس سواء، وأنّهم كأسنان المشط، لا فرق بين ضعيفهم وقويّهم، وغنيّهم وفقيرهم، وولودهم وعقيمهم؛ وأنّهم سواء في الفراش، إذا تخلّوا عن كلّ ملابسهم، ليفرغوا لنساءهم؛ وأنّهم قوّة بالكمّثرة، يرهبون بها، ويغدّون بها سفّاحين، وقتلة مأجورين، أمّا إذا ذهب الكثرة، وتفرّقت الوحدة، وتحلّلت اللّحمة، لم يبق ليواجه مصيراً مجهولاً إلاّ الإنسان الأعزل، الفرد، من دون كلام كثير، ومن دون فلسفة، ومن دون معرفة... من دون حياة أو موت، ومن دون أيّ شيء، ليواجه الخوف، وخوف الخوف، وخوف الفزع، وخوف الرّعب... وكلّ الخوف بمشتقاته التي اشتقّ منها، والتي اتّحد بها لتشتقّ من اجتماعهما آلاف المفردات والعبارات... والتّرهات والخرافات، وأساطير فتح حصون، وإنشاء دول، وبناء مدن اشتهرت في التّاريخ!!

[أمريكا موسيقى!!]

* درويش:

.أمريكا وراء الباب.

.أمريكا هي الطّاعون

والطّاعون هو أمريكا.]

نفكر... نفكر في أشياء لا يحدها الحصر، ولا نقول ما نفكر فيه

دائما!!

[ترنيمة... من سفر الهينمات والترانيم]

إناء ذاكرتي يرشح من فيض «أونام»، وينير دروب العشاق
المخطوفين الممسوسين، على نغمات الجوق، ما بين مدائن من لون
البحر وطعم الخمر؛ فارقص، يا قلب، من القلب، وغنّ من بعض
مقام لا يأتي، ونشيد إذ أصبحو يجافيني... وليأت الحشد وقصّاد
الواقف في حجب، يعزف للأنثى الغادة، يفصح عن شوق الآتين من
الشّوق، ويراقص آلهة التّوت...!!

اليوم عثاري تعثّر في ضلعي، وطلبت الصّحبة والخلان... أوقدت
شموعي، وتساميت، فلم يأت البوح، وطلبت أطايب عشق العشاق،
تربّعت على هجس الحرف؛ كانت رابعة... وحسين الحلاج... وأبو
القاسم... والشّبلي... وشطح أوشك بي، أو جزت به درجات الفيض،
فرأيت بعيني دروبا، ومجازات، ومفاتيح الكشف... رأيت بعيني
التّور، ومجالس تعبق بالعود، فشكوت لصمّتي يتأثّر في الظّلمة خطو
السّاعين إلى الحضرة...!! يا صحبة دربي، العشق ضناني، وعلائق
شكواي تعلّقت بها، عليّ أعبر نهر الآلام إلى نهر الآمال، علّ الإتراب
يبعث مضغاي، فتمتدّ العلقات إلى واد الحمرة، والطّفل يبوح بحرف

التكوين الأعظم...!!

قلت: مرامي!!

قال: الصّبر، فطريق يعبر في الظّلمة صعب.

قلت: فقط ، مولاي، تداركني بحرف.

قال: تجلّد، فالحرف نهاية عشق، بدؤه، كلّ الحجب المستورة

أبوابها حرف!!

قلت: فعلامة...

قاطعني...

قال: أنصحك أن تصمت دهرًا... وتأمل من حولك، كلّ الأشياء

تقول، واللّيل يقول، والشّمس، القمر، الصّخر، الماء، وعبارة «كن»،

والدّارة، النّخلة، حتّى الهمس الآتي من الهمس، والقلب النّابض... كلّ

الأشياء تقول، فتأمل، ولتصمت، ولتبك كثيرا، فزمان الأوجاع طويل،

وزمان الآلام طويل، وزمان الرّفقة... زمان الصّحبة، والدّمع طويل...

فبكيت، لم ينزل دمعي، لكّني بكيت، وسمعت ترانيمًا... أوشكت

على نهر الفيض، فرأيت الصّوفيّة والقصّاد، ورابعة العدويّة، وحسين

الحلاج، وأبا القاسم، والشّبلي... أوماوا لي، وكان النّهر العملاق يباعد

ما بيني وبين تلاقيهم، لكّني رميت بفؤادي، وطلابي، ورميت بنعلي،

وسوادي، وبياض الشّعر، وهم القلب، وقلب الأحمال... وجذّفت إلى

الضّفّة، كان التّياري عاكسني، وقواي تخور، فصرخت...

قلت: أحبابي...

قال: لا تعجل، فالدّرب طويل...

قلت: متى، فالصّبر يوشك أن يذوي، واشتعل الرّأس بياضا؟

قال: أبك!

فبكيت.

قال: تمدّد!

فتمدّدت.

قال: فلتغمض عينيك الآن، سيأتي الأحباب، فيلقون البركات
بردنك، وذاك لعمرى من فيض العشق، يساعد في الوحدة، وثواني
التّغيير، فالزم دارتك، وشدّ الصّخرة في بطنك، وارقص، ارقص، حدّ
الغشوة، وارقص حدّ الصّرعة، والجدل القادم...
قلت: فأفرغ من فضلك صبرا، كي نحسن لقياك، وخواتيم
الإحلال.

قال: فاجهد، فالصّبر ركب المفضين من الشّطح إلى الشّطح،
ومن إشراق إلى فيض الحالات...!!
(مدد،
مدد،
مدد...)

[*مقام أوّل*]

... أنا الراوي!!

كنت أخاف من الأسئلة، والأجوبة، ولا تعجبني المواجهة... وكان
الصّمت يستبيني: وعلى امتداد الأيام السّبعة والعشرين أو الثّمانية
والعشرين الّتي قضيتها، مشّتاً، في مدن «هندستان» ومقاطعاتها أو
ولاياتها، كان كلّ ما فعلته، وما حاولت فعله، بحثاً متواصلاً عن هذا
الصّمت... كنت أتوق إلى لحظة خلوّ إلى نفسي دون منغّصات، دون أن
تطاردني الأصوات والأوامر، والضّحكات، وصوت المفتاح يدار في الأكرة
على حين غرة، ليدخل إلى الغرفة بعد ذلك «شانيل» أو «نايجو»،
أو كلاهما معا... فتتعالق خيوط أحاديثهما، وتتشابك، ويمعنان في
المضايقة، فيأخذ أحدهما جهاز التّحكّم عن بعد، ويضعاف صوت
التّلفزيون، ثمّ يشرع في الانتقال بين قنوات السّاتلايت دون أن يكون

معنياً بما يعرض... لم أكن الوحيد القلق الذي يحسّ بالضّجروالقلق، بل كانا هما أيضاً يشعران بنفس الشّعور، غير أنّ الفرق ما بيننا كان شاسعاً: كنت واحداً في مواجهة اثنين، وكان قلقي مضاعفاً!!!...

توقّفت عن الحلم... والأحلام الكثيرة التي كنت أراها في نومي بغرفتي الصّغيرة في ذلك البلد الصّغير الجاثم على إحدى ضفاف المتوسط، أو تلك التي كانت تزورني لما في مدينة «صور» تبخّرت هنا، في المدن التي لا يشار إليها إلّا بتلك الاختصارات التي كنت أراها على لوحات السيّارات، وكانت تحيّرنني جدّاً... بعضها أهتدي إليه بالحدس، أحزره، وحين أفعل ذلك تجتاحني فرحة غامرة، كأني «كولومبوس» الذي اكتشف «القارّة الأمريكيّة»، أو «ماجلان»، أو «جاليليو»... أو «كوبرنيكوس»!!!... «د. ل»: دلّهي. «ه. ر.»: هاريانا. «ر. ج.»: راجستان... وحينما كنّا في «مومباي»، كان أوّل ما فكّرت فيه أن أتطّلع في غفلة من صديقيّ إلى لوحات السيّارات، «الأوتوركشا» الخرافيّة، الأتوبيسات، والميكروباصات، والدّرّاجات النّاريّة... وصدمني الحرفان اللّذان رأيتهما، ينظران إليّ في تحدّ... يفرضان عليّ نفسيهما في وقاحة، وذلك ما كان يزيدني عناداً، ويجعلني حروناً... «م. ه.»، أدّرتهما في ذهني مليّاً، واستعرضت إسم المدينة، تمليّت حروفها حرفاً حرفاً، تهجّيتها... م... و... م... ب... ي!! لا مكان لحرف «ه»، لا وجود له بين الحروف، فمن أين جاء؟ وما محلّه من الإعراب؟... لا أنكر أنّ القلق جعلني أبدو تافهاً في نظر نفسي، وأنّ المحاصرة التي كنت أتوهم أنّ «شانيل» و «نايجو» يفرضانها عليّ، كانت تحيد بي إلى اتّخاذ القرارات الخطأ في الوقت الخطأ، بل إنّها كانت تغريني، في لحظات النّقمة والغضب، وكردّ فعل، بالابتذال، والسّخافة... فقد كنت أرى أنّه بالقدر الذي أبدو فيه شخصاً غبيّاً، أو مهرّجاً، سيزعجهما ذلك، وسيلفت نظريهما، وبالتالي سيجدان نفسيهما مجبرين على اتّخاذ إجراء من أيّ نوع، ومهما كان الثّمّن... الانتقام! نعم، الانتقام، ما كنت أصبو إليه... حرمانهما من

الراحة، ومن أن يتصرّفا بكامل حرّيتهما!!
والحقيقة أنّ فضولي كان يغلب على تفاهتي؛ كان يغلب على
الابتدال الذي ركبني...
سألت «نايجو»، وأنا أشير إلى لوحة إحدى السيّارات:
«م.ه»، ما يعني ذاك الحرفان؟
قال ببساطة، وبِعفويّة، جعلت إجابته كأنّها مواصلة للحديث
الذي كان يخوص فيه:
ماهرشتر!

[..نجوى..]

الشّارع خلفي ظلال، وخطاي بلا ظلّ...!
نفسي يرتدّ عليّ، فأزيج عن حلقي هاءات الآلام، وأحاول أن أبحث
في العمق عن كتر ضاع، وتيه آخر، يعطي القافلة الأسرار... وسري!!
أبحث عن قلب يعطي الشّمس حميّاها، ويعطي القمر التّرنيم، ولألاء
الأنسام، ويعطيني بياض الشّمع، وحرقة من مات بظليّ... ويعطيني
دموعي، فالقلب شرايين جفّت... والحلق توائم من طين الأرض
تناستني!!... إنّني مسكين مسكنه النّسك، وأحمال القصّاد، وروحي
تهاويل، لا نور يعلّمها... ولا طرق تفضي من التّيه إلى التّيه... لا رمل
يغرّيني نداءه، فأعرف، يهتزّ لساني الظّمان على البرد القادم من سرّ
الأسرار...!!

جسدي دارات، أبواب تفتح... ودهليز للظّلّمة، أشياء تأخذ أسماء
من صمتي، وأشياء؛ قمر تحجبه الغيمة عتيّ، وسحاب لا لون ولا طعم،
لا ماء فيه، يبشّرني بأنّ النّاجين يوافوني، وبأنّ المفتاح سيعطاني إذا
انتبتت تهاويلي، وسلّمت لمن يكسر صمتي، ويرهقني!!

... أتأثّر خطوي، وخطاي خطوب، أثاري جروح الأرض، فمن يمحو
الخطو وأثاري، فأعطيه مملكتي، وسمائي المسكونة بالبوح، وبالشعر،
وبالخجل المكشوف؟! من يحمي خطاي من الخوف، ومن تعبي،
ويمنّني الأعلام؟!... يا ليت دخانا... يا ليت النار توشّر لي، والكهف
يجلّيني له، والممشى يأخذني بعلاّتي، ويقول: تعلّم!!

فأقول: تعلّمت... سنوات لم أشرب، لم أكل، لم أنطق حرفاً،
وبلادي تذرّت في كفيّ...! أحجار الدار، وبئر الباحة، أمي، وآبائي، ومن
كنت أمّي النفس بهم: أبنائي، لم أحفل إن غابوا بجفني!!... إني
تعلّمت، فتداركني...

ويقول: تعلّم!!

فأقول: تعلّمت.

فيقول: الصّمت تعلّمت.

فأقول: وماذا؟

فيقول: تلبدّ، ساكن ظلمة ليلي حتّى لا يهرب منك، وإن شئت نهّاراً
فاحجب عينيك عن النور، فلا نور يقبك أدواء الخذلان، ولا نور يجلّي
لك المخفيّ!!...

(... وامتدّت بيّني وبين صروح العشق، فذكرت شيوخي،
وتحاملت على بقاياي إذ زادت بي صبواتي، انتظرت السّاقى ليهرق في
القلب كنف التّغيير، ويعطي لساني أولى كلمات النّزع إلى الرّوعة
والترّويع، في شطحي سمعت شطحات الصّوفيّة، وبدأ لي شطحي أشبه
بالسّكنات بلا قلب يكنف قلب السّاعين إلى خبز الرّفد القيوميّ. ذكرت
أولى الحروف قالها شيخي:

وصعدت إلى الملأ، فابتدرتني ملائك ربّي، قلت أنا أنت، وأنت أنا،
إذا حللت حللت، وإذا حللت- حللت، وتناظرت مع مولاي فصرنا، لا
فرق ما بيّني وبينه، أقول فيعطني، ويقول فأعط كلّ ما بين كان الكون
ونونه...)

+ وتجلّت لعينيّ المراقى، فذابت نفسي، وسال القلب من حرّ التّلاقي، أيا ربّ تدانيت تدانيت فما لي عندك من رفد الممسوسين برقياك، وما لي في كينونة إنّيّتك العليا من الإسباغ الممزوج بخمر المفضين إليك ساعة شطح، ما بيّني وبينك بين القرب، فيا ربّ امدد إليّ حبل وصالك كي أرقى وأعتنق العشق هوّى فيك وإليك، وكى يهديني القلب إلى ذوب فيك، وما أشهى أن يفتضّ العاشق عشق المعشوق... ذكرت الصّحبة والإخوان، ومن سكرُوا إبّان النّفحة من طلاب ومن جالّس، ومن عشّاق، ومن سيّاح صوفيّة، فامتلات نفسي، ورغبت . أيا ربّ. بأنّ تعطيني ساعة لقياك بعض أحيان الكشف وسرّ الإعتاق التّورانيّ، فأمتدّ إليك بهم من كلّ الأقطاب، ونعلن آيات الحبّ، وشوق السيّاح إلى الإحلال وموتنا في أفيالك...!!

[*مقام ثان*]

دون إرادة متّي وجدت نفسي أفكّر في «الميتامورفوس»!
في الحافلة، في مكان ما من «مومباي»، في ساعات الصّباح الأولى، وأنا متكوّم في مقعدي، بيدي فنجان القهوة الذي جلبه لي «نايجو»، أنظر من خلال الزّجاج إلى أحشاء المدينة المندلقة!!
لم أعرف بعد أنّ الرّحلة ستدوم حوالي أربعين ساعة إلى «كيرالّا»، والشّعور الذي كان يلفّني طوال الوقت قبل الانطلاق مزيج من إحساس لا يقاوم بالغربة، تشوبه بعض الرّاحة أنّى على وشك المغادرة سريعاً، وأنّ حياة التّشردّ في الفنادق قد انقضت إلى الأبد، والحرّيّة التي افتقدتها، فيما مضى من الأيام والليالي، سأسترجعها عمّا قريب... كنت سعيداً، أو بالأحرى كنت أستشرف السّعادة القادمة: الغرفة الخاصّة، عدم الاضطرار إلى انتحال الأعذار والمراوغة كلّما رمت

الذهاب إلى دورة المياه. كان ذلك من العادات المزمّنة لديّ، أكره دورات المياه، ولا أذهب إليها إلا سراً، واضطّرّ إلى الكذب إذا سألتني أحدهم وأنا ذاهب إلى هناك، إحساسي أن الإنسان مهما بلغ من السّموّ، مهما زكّي نفسه، واخترق المعتاد، سيظلّ كائنًا قذراً، مشدوداً إلى معدته بقدر لا فكاك منه... أشياءي الخاصة، حقيقتي، فرشاة أسناني، لحافي، نقودي، وقمصاني، وسراويلي، ومفتاحي الخاصّ، أضعه في الباب متى أشاء، وإذا عنّي أن أخلو إلى نفسي أدركته في الأكرة مرتين، فلا إزعاج ولا خوف من الاقتحام...

عيناى تضيقان، وما تزال بهما آثار النّوم... في اللّيلة السّابقة عدنا إلى الفندق في حدود السّاعة الواحدة والنّصف، ولم ننم إلاّ ساعة أو أكثر من ذلك بقليل... عند السّاعة الرابعة جاء أحد الأصدقاء بسيّارته، فحزمتنا الحقائق والأغراض، واتّخذنا أماكننا في المقاعد، وانطلقت السيّارة بين دروب مجهولة من المدينة الّتي كانت تعانق الصّباح وتتنفّس روائحه...

دكنة... سحبات ثقيلة ملأت السّماء، كانت سوداء، وقريبة جدّا إلى درجة أنّي توهمت أنّها على وشك أن تلامس الأرض. وأن تنوء علينا بثقلها... كان اعتقادي أنّ أشياء الطّبيعة، وعناصرها، لها أحاسيس ومشاعر، مثلنا، وأنّها تتعاطف، تكره، تحبّ، تحزن، وتفرح، وأنّها تشيخ وتموت، وأنّها في لحظات النّزع تودّ، مثلنا أيضاً، أن تعترف وأن تبوح برغبتها الأخيرة... تودّ أن توصي قبل أن يغيّبها ظلام القبر!! وفي ذلك الصّباح، بدت لي تلك السّحابات غاضبة، وعدوانيّة، وأنّها في آية لحظة قد تحطّ علينا دون رحمة... لم أرشمسا، ولا بصيصا من النّور، وصفحة السّماء مجرّد احتمال، أحسنّ بوجوده وليست متأكّدا منه...

رغم الجهمّة، والحزن، وتراكمات الألم بداخلي، كنت في غاية من الانتشاء، تداعب باطني كفّ ابتسامة أسيّانه، صغيرة رقيقة، تناسب في هيئته، فمرة تنتابني قشعريرة خفيفة إذ تحتكّ بغشاء القلب، ومرة

تتمدد مع الدماء في شراييني، ومرة ثالثة تلتبس بتلافيف الدماغ... ومرة تخضني خضاً، وتكاد تلامس لهاقي، لترسم على شفتي... ابتسامة كانت هي نفسها اختصاراً لأشياء لا أحسن التعبير عنها بداخلي، كما كانت المدينة الكبيرة، في ذلك الصباح الصيفي الملبّد بالغيوم، اختصاراً: مآذن المساجد التي لا تميّز عن باقي المباني، وتتصل بها، ولا تعرف الطريق المؤدية إلى أبوابها، والدكاكين، والبيوت القديمة، والأخرى الحديثة ذات الأسوار والبوابات التي كتبت عليها أسماء أصحابها، مؤشراً إليها بالأحرف الأولى... والمصارف، والعمارات الشاهقة، وحتى الخيام المنتثرة على التخوم والأطراف كأنها التّوءات، أو الدّامال النّاقلة للعدوى في كفّ المدينة وكتفها... والحانات والمطاعم... وكلّ شيء... كلّ ذلك كان اختصاراً للخضرة الدّاكنة، للون الأخضر الذي كان يسيّج العالم بأسره... غابات لا يحدها البصر، تترامى إلى ما لا نهاية، تجرح العينين للوهلة الأولى، ثمّ يتحوّل الجرح إلى هينة مستحبة، تودّ لويتماهى فيها كيائك كلّها...

وما أن تحيط بالمشهد، وتشرّبه، وتغدو جوانبه منطبعة في ذهنك، وتتأكّد أنّ الاختصار لم يترك شيئاً من أشياء الكون الفسيح إلّا اختزله إلى عناصره الأولى، حتّى يستكين القلب إلى هدأته، يهمد، فتثقل جفون العينين بدورها، وتتماسّ الأهداب، في حلم يقظة جميل... ترى نفسك وقد غدوت أنت العالم الخارجيّ الذي كنت تراه، بكلّ عناصره ومكوّناته: وتهتزّ جوارحك، وتنازعك رغبة جامحة في الرقص والدّروان حول نفسك حتّى الغشيان!!!...

كانت الغابات بيتاً لمن ليس له بيت، وكانت المأوى، والسّماء التي تظلل الأجساد العارية... وكانت الكفّ الحانية التي تمسّد على وجنات الأطفال الصّغار في الأعياد، وسائر الأيّام وهم يحملون حقائبهم الهزيلة إلى مدارس ليس لها من صفة المدارس إلّا الاسم... تهجّى ألسنتهم الحروف الأولى في أصل لغة تتسامى على الفقر... والجوع... والألم...

والوطن الذي تتحدّث عنه وترفعه إلى مراق لا ترام وطن لا يحطّ على وجوه أطفاله الذّباب القاتل، ولا يبيت أهله في العراء، ولا يقضون فيه حاجاتهم البشريّة أمام أعين الرّقباء والمتطفّلين... كان وطننا، وكانت أكنافه القشبية قبضة من مسرّات الجنّة في الكتب الإنجيليّة، وأناشيد الإنشاد، والآيات القرآنيّة... وأسفار الرّهبان الهندوس، والحجيج اللّذين أفنوا هزيعا من أعمارهم بين الجبال الشّاهقة، والتلال الّتي تآكلت قممها عبر الزّمن، والسّهول المترامية الخضراء، الّتي كانت مرتعا لآلاف الخيول الجميلة الوحشيّة...!

ليس الجسد وحده الّذي يمرض، وإنّما الرّوح أيضا!! أو أنّ الجسد يعتلّ فتصيب عدواه الرّوح، أو العكس؛ فيتشوّه الإنسان، وتفسّخ أعضاؤه، عضوا عضوا، يغدو جيفة تعافه حتّى الطّيور الجارحة الّتي كانت تتمنّى موته بفارغ الصّبر كي تجعل منه مادّتها المرتقبة... بلى، لقد تغيّرت، تحوّلت، وكان التّغيّر الّذي حصل لي على امتداد تلك السّاعات الأربعين، من «مومباي» إلى «كيرالّا»، أعمق أثرا من كلّ التّحوّلات الفسيولوجيّة والبيولوجيّة والسّيكولوجيّة الّتي عرفتها على امتداد سنواتي الأربع والثلاثين!!

بلى، لقد كان «ميتامورفوسا»!!

ابتداء من العينين المتعبتين وهما ترفّان وترتجفان إذا ارتدّت عنهما بقايا النّوم، وتركتهما تلوبان، تتبّعان أثر الصّديقين الهارين؛ أسند رأسي إلى الزّجاج، فلا أرى إلّا كثافة وضبابا سديميّا، ورؤى متداخلة لا تبين، فأظلل عينيّ بكفيّ، أقرّبها من الزّجاج تماما، وأسعى أن أتعبّ تلايبب الظّلّمة لأطردها... ومن بين تحسّبي والخوف الّذي امتلأت به، من مكاني، أدفع عنيّ نظرات المتطلّعين إليّ، وأتوقع على نفسي، أنشبّ بصمتي، أقيمه متراسا من حولي، وأدعو الله أن لا يقترب منّي الكمساريّ، وأن لا يسألني عن تذكرتي، كنت ألاحق شبحي «شانيل» و«نايجو»...

الأسئلة تتراكم، وتقتحم أفقي فأسكتها، أدفعها عني بكل ما أوتيت من قوة، تتظاهر بالارتداد، تنكص للحظات، وتعود ثانية متمترسة خلف دروعها وتروسها وأكياسها الرملية؛ ماذا لو اختفيا؟ ماذا لو جاء الكمساري في غيابهما، والتذاكر لدهما، ولا شيء عندي يثبت هويّتي، فحتى جواز السفر لم يكن معي، إذ كنت أعطيته «شانيل»؟... أراهما فأقتفي أثرهما، كانا يختفيان حيناً ويظهران حيناً آخر، وكأنهما يعرفان أنني أراقبهما فكانا يوطئان العزم على الاختفاء والهروب مني... في تلك اللحظات كرهتهما... كان كرهى أسود، داميا، غير أنني لم أكن أملك أي شيء حيال ذلك سوى الصبر والانتظار...

ممتلئاً بالقهر، ومتعباً، حزينا، أستدعي الدموع إلى مآقي، خائفاً كجزء يهرب من القط على مبعده منه، ويوشك أن ينقض عليه ويفترسه، مجرداً من أي سلاح، ولا قدرة لي على مقاومة من هم على مقربة مني... أجمع أكياسى من حولى، وحقيبتى، أنظر إليهما، أعدّها... هل نقص شيء؟ هل سقط شيء ما في غفلة مني؟... أراقب الكمساري شزراً، بطرف عيني، وهو بالقرب من السائق يتحدثان، ويدخان، وأحياناً يوسع لبعض المسافرين الجدد... وكان لديّ حدس أنه مع اقتراب موعد انطلاق الحافلة. وكانت الساعة تشير آنذاك إلى الثامنة إلا عشر دقائق. سيبدأ عمله في التأكد من تذاكر المسافرين... كنت أظاهر باللامبالاة، كأني شخص ألقى به المقادير، في ساعة نحس، إلى مكان كل من فيه غريب، خليط من أشخاص يتكلمون ملياً، ويثرثرون بلسان محير لا أفهم منه شيئاً... أتجنبه كلما التقت عيناى بعينه، أحميد، فأرتفق زجاج النافذة، وأنا أراه يكاد يفترسني بنظراته المتسائلة... ومما زاد من خوفى أنني لم أعد أرى «شانيل» و«نايجو» كما لو أن الأرض ابتلعتهما، التفت يميناً وشمالاً، واستدرت إلى الخلف، ونهضت فاشربّيت بعنقي ناحية زجاج الباص الأمامي، ولكن لا فائدة...

في وقت ما، كان الكمساريّ يقف بجانبني، كانت شفّته تتحرّكان، وأسمع صوته، ولكن لا أفهمه، وقد قرّرت أن أتحدّث إليه بالإنجليزية... فتحت فمي، أردت أن أخبره أنّي غريب، وأنّي جئت مع صديقين، وأنّ تذكّرتي معهما، وأنّهما سيعودان بعد قليل، غير أنّ شيئاً في ملامحه، وسحنّته الداكنة، أكّد لي أنّ حديثي معه سيكون أشبه باللّغو... أرتج عليّ، تحرّكت في مكاني في محاولة للتّغلب على اضطرابي، تنحنّحت مرّات عديدة، ووجهي ناحية الباب... أوشكت أن أسبّ، ووجدتني أمتلئ بكلمات كبيرة جدّاً، لولا أنّ الحركة الطّائرة أمام مدخل الحافلة أعادتني إلى هدوئي، وارتسمت ابتسامة فاترة على شفّتي، وأنا أرى «شانيل» و«نايجو» يقتربان...

قلت لـ «شانيل» وأنا أوسع له لياخذ مكانه بجانبني:

لقد قلقت! أين كنتما؟

قال:

ليس هناك ما يدعو إلى القلق... سيكون كلّ شيء على ما يرام،

بعد أن تنطلق الحافلة...

قاطعته، وقد وجدت في حديثه تشجيعاً لأسأله:

كم ستدوم الرّحلة؟

قال وهو يسند رأسه إلى مسند المقعد:

ما زال الوقت مبكراً...

ثمّ:

سنصل بعد يومين كاملين تقريباً!!

العينان ليستا عينيّ، هما عينان لشخص آخر، لا أعرف من أين جاء غير أنّي أحسّه في داخلي، يضطرب كياني كلّهُ بأفكار لم أفكر فيها، لا شكّ أنّها أفكاره، ويجري على شفّتي كلام لم أفكر فيه البتّة، قطعاً

هو كلامه. وفي الوقت الذي أشعر فيه أنني في حاجة إلى النوم، أوبعض ساعات من الراحة أتناسى فيها وضعي الغريب، ووجودي بين غرباء لا أعرفهم ولا يعرفونني، تنشّد جفوني على اتساعها، تتسع، وتظلّ هكذا، ومهما حاولت أن أغلقها مرة أخرى، لا تطاوعني... أستسلم لها، مع إحساس ما فتئ يتضخم بداخلي أنني أرضخ، على الرغم مني، لجفون شخص آخر، أسمع ضحكاته الساخرة تتردّد في أعماقي، وتنغل في دمي مع الشرايين، خلل الدماء!!...

دمي، نعم دمي، تراه ما يزال أحمر كما كان، كما عهدته منذ وعيت في الدنيا، وتفتّحت عيناى المتعبتان على الحياة؟! هل هي نفس الحمرة، التي لم أكن أعرفها، والتي انهمرت بها ذات يوم، وقد جرحت نفسي بسكين المطبخ، فنزّ الدم، أحمر متخثراً، فأتنا؟... أتراه نفس اللون الذي أغراني آنذاك أن أتذوّقه بشفتي، أن يلامسه لساني، فيمتزج بريقي، ويسبح في برك فمي الغافي، صعوداً ونزولاً... أم أنّ الحمرة تذرّت دفعة واحدة، لتبقى حقيقة واحدة، بأنّ الحمرة أصبحت أميل إلى بياض شبحي، بلاروعة ولا فتنة؟! «مازوكي»!!

لا مفرّ من الألم، ولا معدى عن العذاب؛ والمشاعر المرضية التي كنت أحسّها، والهواجس والأخيلة، كلّها استحالّت أمراضاً، دمايل كبيرة رغم أنني لا أراها على جسدي، على رقعة الشّلو الذي أصبحته، إلّا أنّ الوهم كان يصوّر لي أشكالاً متعدّدة لدويبات وكائنات غريبة كنت أراها تتحرّك بحريّة على كلّ شبر من جسمي، تكشّر عن أنيابها المخيفة، وتنشّها على غير انتظار في اللحم الدّامي، في الكتفين، في جمّة الرأس، وفي الصّدر، وفي السّرة، والفخذين، وربلة السّاق، والقدمين، وما بين الأصابع... وأحياناً كثيرة في روحي!! كنت أتلوّث بالدموع، برقرقتها، في فضاء العينين اللّتين لم تعودا عينيّ، ما بين أرخبيل الغدد، التي ينشط

عملها عند لحظات الضَّعف، والإحساس بالغبن والمغامرة... أتماسك
قدر المستطاع، ولا أريد لتلك البرهة الخَلْبِيَّة من الدَّوبان والتَّلَاشي بين
ذَرَات الكون، أن تزول بسرعة...

تألَّفت مع المرض لكثرة ما عاشرني وعاشرته، وحينما أَسْتَشعر
فتوره، وأنَّ قبضتيه الحديديَّتين، وكلاَبتيه المغروزيَّتين في القلب، بدأتَا
ترتخيان، أَسْتدعيه، أناجيه كما لو كان حبيبًا متمنِّعًا، أو عاشقًا قد
سلا معشوقته، ليَجرب حبًّا آخر وعشقا جديداً!!

هل كنت أَلْتَدُّ بتعذيب نفسي، أم مرَدَّ ذلك إلى الإحساس أنَّ
لم أعد أنا، وأنَّ طلبي للمرض ما هو إلَّا سَادِيَّة قاتلة من جانبي، أريد
بها أن أُنْتقم من المجهول الَّذي حلَّ فيّ، فأوجعني حلوله بداخلي؟!...
سوف لن أتاَلِّم بقدر ما سيَتألَّم هو، ولن أَحسَّ بقشعريرة العذاب
الَّذي سَتنتابه هو قطعًا، ولن أسهر اللَّيل بطوله، أُنْتَظر زوال المعاناة،
وذهاب الأوجاع!!

كلَّ شيء كان غريبًا! كنت غريبًا!

فَنجان القهوة الَّذي كنت أُمسكه بيدي في الحافلة، ورددته إلى
«نايجو» فارغا ليرحعه إلى صاحب المقهى، لم أَسْعُر أنَّي كنت أُمسكه،
وأنَّي قد مددت يدي إلى صديقي، بل لقد خَيَّلَ إليَّ أنَّي لم أَشرب قهوتي
المعتادة، في ذلك الصَّبَاح... وَحَتَّى على فرض أنَّي شربتها، وأنَّي أَحسست
بحرارتها تدبُّ في أَمعائي، كما كان الحال دائما في أوقات سابقة، فإنَّ
شفتيَّ وفمي ما زالَا يَسْتَبِدُّ بهما جفاف مضمّن... وجنتاي هما الأخرَيان
يابستان لا رواء فيهما، متصلبَتان مثل قطعة متروكة من الخشب،
قدماي في الحذاء، كأنَّهما ليستا موجودتين أصلا، وأن لا سلطة ولا
سيطرة لي عليهما... هل هو التَّعب؟ الإرهاق؟ أم شيء آخر؟!... أَسْتَحلب
ريقي، أَسْتَحلبه قطرة قطرة لأرطِّب به شفتيَّ، ثمَّ أَسحبه بعد ذلك إلى
فمي لأَجيله فيه، وراء الأسنان، في الحلق، وفي اللِّهَاء... ثمَّ أَقْرِبُه من

الشّفتين مرّة ثانية ولا أفضله ولا أبتلعه، ولكن أظّل محافظاً عليه
أكبر قدر ممكن... كان ذلك القدر من الرّيق الضّئيل حياة بالنّسبة إليّ،
وكانت الحياة عزيزة، ولا غنى عنها للوصول بأمان إلى «تريشور» بعد
يومين طويلين مضنيين!!

ثقل ما يشدّني إلى المكان، يسمّرني في المقعد، ولا أمل في الحركة
يميناً أو شمالاً، ثقل من أعماق سحيقة في وديان مظلمة، على مشارف
هوى انفتحت فجأة بأعلى قمم جبلية غير تلك التي كنت أرى بعينيّ
الحافلة ترحف إليها، في طرقات بالغة الضّيق، تنساب بينها كأنّها كائن
هلاميّ، زنته أطنان وأطنان... كائن يكفي خطأ بسيط أن يلقي به من
سابع سماء إلى سابع أرض... أشبه بدويبة أرض لزجة الملمس، كثيفة،
متخثرة، لها قدرة عجيبة على التّحكّم بجسمها الطّويل، تحرّكة
بطريقة لولبية، ولا تتوقّف البتّة عن الحركة...

شسوع... امتدادات لا تحدّها العين، ولا تدركها الرّؤية أو البصر...
اخضرار دائم، وجغرافيا من الأشكال الهندسيّة التي لم أتصوّر في
حياتي أن أرى مثلها... أسرار في التّيه... تيه لا يماثل المتاهات التي قرأت
عنها، أو تلك التي انطبعت على سطح ذاكرتي، أشتاتا من ماض على
تخوم صحراء لم أولد فيها، ولكن ظلّت تربطنا بها علائق لا تتفكّك،
عبر وسائط، أناس من البدو كانوا يقومون على حرثنا ومواشينا،
ويجلبون لنا شطرا من المحاصيل مع نهاية كلّ موسم... تلال وسهوب،
وسهول مترامية لا يظنّ النّاظر إليها أنّ لها نهاية، تسرح فيها عشرات
الأبقار العظيمة، تجرّ بأشداقها أكوام الحشائش التي كانت تنتشلها
بين فكوكها في لامبالاة... يخيّل إليك أنّها مسافرة في المدى، لا تني عن
الهروب، وملاحقة الحافلة وهي تنهب الطّريق المسفلت نهبا... وبنائات
ترتفع إلى هام السّماء، بيضاء، تحسب أنّها تختال وتتهادى في مشيتها،
إذا تطلّعت إلى السّماء من فوقك، ورأيت جزر السّحاب تخبّ خبّا، إلى

مناطق مجهولة من المدينة التي كانت تصرّ على المطاردة، كانت المدينة عابسة، كأنّها غاضبة، أو لم يرق لها ذلك السّفر المفاجئ، فأدركت أنّه لا يرضيها أقلّ من العقاب... اللّعة الممزوجة برائحة الدّماء، والرّوائح الصّباحيّة الغريبة، وعري أطفال صغار يلعبون غير بعيد عن دورهم وخيامهم، ونساء يحملن فوق رؤوسهنّ أطباقا كبيرة من القشّ في طريقهنّ إلى حقول خضراء على الدّوام...

بأيّ عين كنت أبصر العالم من حولي خلال ذينك اليومين الميرين؟ أو بالأحرى بأيّ عيين؟ وهل هما عينا أم عينا شخصا قد يكون يمتّ إليّ بصلات قربي لا سبيل إلى انفصامها؟ أم عيون كثيرة لأشخاص عديدين كنت أتماهى معهم، في أوقات بعينها، يتبادلون، في مجال رؤيتي ووجودي، الواحد تلو الآخر، لكلّ دوره والعمل الموكل إليه، فهناك من يحزن بالنيابة عني... وهناك من يفرح إذا أنس منّي سعادة ما... وهناك من يبكي... من يرثي لي، في أوقات الأرق، والنّوم مجاف، لا يأتي إلّا لماما، ولم يكن نوما بقدر ما كان ألما وعذابا لا يطاقان... وهناك من يطير بي، من يأخذني معه إلى أجواز السّماء التي كانت تبدو في أحيان عابرة أقرب من كلّ ما عداها، بسحبها الملوّنة، الرّمادية والسّوداء، والبيضاء، وهي تتداعب دون توقّف... وهناك من يخاف، من يصيبه الرّعب، ولا يفصلنا عن الهاوية إلّا أن تخطئ الحافلة مسارها فينتهي كلّ شيء في لمح البصر!!

المحرّك لا يهدأ، يفخّ فحيحا أقرب إلى فحيح الأفعى، وهي على وشك أن تستبدل جلدّها، استعدادا لبيات سرمدّي... والسّائق من وراء عجلة القيادة جزء لا ينفصل عنها، كأنّه ولد ليكون هناك، في رحيل دائم إلى المجهل، بين المقاطعات والأودية، والشّلالات، وسيول الماء الصّغيرة، وهي تتدفّق ببطء، من بين الأحرش والنباتات الضّئيلة، في منحدرات خرافيّة، ومضائق، وأنفاق، أبادت الزّمن!!... ومدن رغم

أني لم أعرف إلا أقلها بأسمائها، إلا أنها ظلت عالقة بذاكرتي، أشبه بالجروح أو الخدوش التي سوف تستغرق زمنا قبل أن تلتئم على نفسها من جديد... «بانغلور»... «كرندغا»... تملنادو»!!...

سماء غائمة لا ترى الضوء، يزيلها النهار لتغرق في ليل أبدي، وأيد تمتد في يسر إلى أكثر الأماكن سرية تبحث عن الدفء، تحت اللحاف... ودور تقاوم البلى، وقد تمكّن منها، مهلهلة حتى النّحاع، تنوء بأعبائها، وتنجرف أحيانا مع المياه إلى مشارف، في مجاهل غير معلومة، وأصوات تصرخ، وتتوعد، طواير من أشخاص لباسهم غريب، ويضعون على رؤوسهم خرقا تشبه العمائم، بعضهم ينتعل نعالا من تلك النّعال الرخيصة، والبعض يخبّ حافيا... يتضامون، في خطّ مستقيم، خلال الشارع وعلى حافتيه، فتتعطّل الحركة... تتوقف الحياة خلال لحظات، وتسكن الأصوات دفعة واحدة، إلا تلك التي كانت ترتفع من المضخّمات، كأنها تسبّ، أو تعرّض، أو تندّد... والجوع عدوّ... الهمّ الرّازح على الأكثاف... والفقر عدوّ... وتلك الأجساد الدّاوية... والجري من الصّباح إلى الليل، بحثا عما يسدّ الرّمق، ويذهب الخلّة ولو إلى حين...

كنّا نضطرّ إلى التّوقّف بدورنا، نداري قلقا ما فتى يزداد كلّما امتدّت السّاعات، وساد الضّجر... ومع الصّمت، داخل الحافلة وخارجها، تنطلق بعض الكلمات هنا وهناك، وتزحف الأسئلة على سطح السّكون، وتشرنّب الأعناق إلى الأمام أو الخلف، وتتداني الرؤوس... في تلك اللّحظات، ربّما ينسى الغرباء أنّهم غرباء، وأنهم ما دام القدر ألقى بهم في أتونه، بين حدود مكان مشترك، فأحرى بهم أن تتقارب أرواحهم، وأن يتساكنوا... تغدو الحركة، مهما كانت يسيرة قريبا، والكلمة أنسا، وهزة الرأس مشاركة...

التفت إليّ «شانيل»، وكان منذ قليل يتحدث إلى بعض المسافرين ممّن تعرّف إليهم منذ بداية الرّحلة، وتطلّع من خلال زجاج نافذة

الحافلة المتوقفة إلى الشارع الذي كان يعجّ بمئات الأشخاص الغاضبين، وبعد لأي قال، وكأنّ الأمر لا يعنيه في شيء:
إنّها السّياسة...

بدت لي الكلمة التي قالها رجراجة بلا معنى، فاستدرت ناحيته نصف استدارة، وسألته:
ماذا تعني؟

قال ولمّا تزايله لامبالاته:
لقد خرج هؤلاء النّاس احتجاجاً على حكومة الولاية؟
ثمّ مواصلاً بطريقة أوحى لي أنّه لا يريد أن يواصل الحديث:
هذه المشاهد تراها في بعض المناطق فقط، أمّا عندنا فالأمر مختلف تماماً، لا أثر لهذا الاحتجاج أو الشّغب...
وصمت قليلاً.

ثمّ:
هراء!... أنا شخصيّاً أرى أنّ الاهتمام بالسياسة مضيعة للوقت.

لا شيء يبقى على حاله... ومع الوقت، تتغيّر الأشياء إلى درجة الغموض. تحيل ألوانها، وربّما استحالت تلك الأشياء الأولى إلى أخرى لا يربطها بتلك التي كانتها سوى الأسماء، وحتىّ الأسماء قد تتغيّر هي بدورها... الكون نفسه ربّما أراه بعيني شخص آخر، غير عينيّ: كريها، واسعا، متاها، وعلى استعداد أن يلتمني!!! الحافلة عدوّ مداج كان يداري مكروه وخداعه، منذ البداية، وكان ذلك ضروريّاً حتّى تنطلي الحيلة على الجميع؛ ولكن مع مضيّ السّاعات، مع مرور اللّحظات، ثقيلة رتيبة، بدأ يكشف عن أنيابه الطّويلة، التي كانت ترشح دما وقيحاً!!! وأنا نفسي كنت خلال يومين كاملين شخصا آخر، لا أحمل اسماً محدّداً، لا ملامح مميزة، ولا قسمات، ولا هيئة... ولا شهادة

ميلاد، ولا بطاقة هوية، ولا وحدة تشدني إلى التنامي القديم!! وربما
الشيء الوحيد الذي تبقى لي من كل ما كنت أملكه، الوعي، الإحساس
المفترط... وذلك نفسه ما كان يزيد في ضنكي وضناي!!... وعي ما فتى
يتزايد بالغبية... بأن أعضائي لا تطاوعني، بل إنها كانت تنفصل عني
دون إرادة مني، وحتى في انفصالها تأبى إلا أن تسبب لي آلاما وتباريح!!
الألم في قدمي، وفي ساقي، والثقل في رأسي، صداع لعين يحط بكل
حملة الذي لا يطاق... والعطش... كان جفافا قاتلا... وضربات القلب
المفاجئة، تباغتني في أوقات بعينها، ونخسات موجعة كنت أحسها في
إليتي كأنها الأسياخ... والنوم مجرد حلم... أمنية من الأمناني الكثيرة
التي لا تتحقق أبدا، سيما عند الطلب والرغبة... كنت في سري أغبط
الجميع، كل الذين كانوا في الحافلة، يأكلون متى جاعوا، ويشربون إذا
أحسوا بالظمأ، ويتحدثون... يتعارفون، ويتصل بينهم الكلام عن أي
شيء... كنت أرى «شانيل» وهو يغط في نوم عميق، و«نايجو» وهو
يضطرب هنا وهناك، وحينما تتوقف الحافلة في إحدى الاستراحات
المنتشرة على طول الطريق يشير إلينا بالزول، فننبهه كالخرفان
المطبعة...

أكل دون شهية... أشياء عينتها منذ البدء، واعتدتها، ليست لأنها
لذيذة، ولكي كنت أخشى أن أتورط في صنوف مأكلا لا أعرف عنها
شيئا...

متعتي الحقيقية فنجان القهوة...

كنت أضع الفنجان أمامي، وأنظر إلى البعيد، إلى المطر الذي كنت
أراه نائيا جدا، إلى المدى المتخضب برقائق النور الدقيقة الآتية من
الأعماق الخفية... وأظلل كذلك، أشبه بالمسرنم الذي فقد كل رابطة
له بعالم الناس، إلى أن تحين اللحظة المرتقبة من جديد... لحظة
الرحيل الأزلي!!...

[اعتراف]

المعدة!!

الأفكار جميعها... مخاوف ما قبل الرّحيل وبعده... والعطالة التي تريم، غيبة، مشاكسة... تدمّرني، تشعرني بالعجز، والتّفاهة والابتذال؛ وكلّ همّي في دورة المياه، الخوف الطّارئ من أن تخونني معدتي على مرأى ومسمع من الجميع... كنت أخشى أن يتحوّل جسدي عدوّا آخر من الأعداء الكثيرين... أربط على أعصابي، طوال ساعات من الصّحو المدمّر، حين يستحيل الدّماغ أداة جهنّمية في أتون صراع غير مأمون العواقب... وأستبعد من ذهني أزمنة بأسرها طالما افتتنت بها في مكان غير المكان، وزمان غير الزّمان... أزمنة سحر وفتنة!! زمن الشّعر، والقصص التي تتردّد في قصور الملوك والأمراء، من خلف الأبواب الموصدة، أبواب من الذهب الخالص، ومن وراء نوافذ ماسية لا تخترق أظلالها النّسمات العابقة إلّا فيما ندر؛ في قصور فرشت أرضياتها بعشرات السّجاجيد المزخرفة التي جلبت خصيصا من مدن أسطورية ظلّت تعبق برائحة التّاريخ والذكّرى، من بخارى وسمرقند، وأذربيجان، وفارس، والسّند والهند... وجزائر الدّنيا السّبع، وبحر الظّلّمات!!... زمن المضاجع والزّوائج، في أمسيات الشّتاء الدّافئة، من تحت لحاف ثقيل، حين تأتي الأفكار سراعاً، ويتسامى الإنسان إلى عالم أفكار، لا ترد من بينها أفكار المعدة، والبطون المتفسّخة... والفضلات، وخشية أن «يفعلها» الواحد على الرّغم منه، فيستثير الشّفقة، ويضحك الجميع سخرية منه ونكاية فيه!!...

الجسد الدّاء، وهو العلة التي ظللت أحملها على امتداد يومين كاملين، بخجل، أستشعر إفرازاته، تقلّباته، وهجوماته الكريهة، التي كانت تأتي أحيانا في غير أوانها...

دبق، كثيف إلى حد الغثيان، مرعب ومضجر، كأنه كائن منفصل عني، وملايسي هي الأخرى أشعر كأني عار منها تماما، وأني مجرد، وأنتظر، في أية لحظة، أن تتطلع ناحيتي العيون، التي كانت غافلة عني، فتنعم في النظر لثوان، ثم تشير إلي الأصابع في استهجان، ومن بين الشفاه تنطلق الكلمات جارحة قاسية:

اطردوا هذا النغل الذي دنس قداسكم!!

... كنت أخاف أن أفعل ما يفعله الآخرون، عندما يوقف السائق المحرك، فمهرع بعض المسافرين إلى الباب، وينطلقون إلى الخلاء الفسيح... لا يبتعدون كثيرا... يولون ظهورهم إلى الحافلة، وبأيديهم المدرية، يفتحون بناطيلهم، وما هي إلا برهة حتى يتناهى إلى آذانهم ذلك الصوت المشرشر الشبيه بصوت المنشار في الخشب!! أية لعنة!

ربما خجلي كان يمنعني أن أفعل مثلهم، أو خوفي، أو الإحساس بأنني قد أبدو مكشوفاً، وأنا أكره أن أكون مكشوفاً للجميع!!

أتحامل على نفسي... فتندد أعصابي أكثر، وأتشاغل بما حولي، ولكن تظلّ دورة المياه ترنو إليّ من مكان ما بالحافلة... تتطلع إليّ من خلال الزجاج، من تحت مقعد من المقاعد العديدة المخلّعة... من وراء «شانيل»... من السقف... من كل مكان أراه ولا أراه!! كنت أتعذب.

وكانت دورة المياه عذاباً لا يرحم!!

[تغيير]

+ الليل طال أحيتي، والدّار لم تحفل بصمتي، وكلّ من جاءوا رموني بالسّهام، تمنّعوا منّي، فلم أقطع صيام الصّمت، لبت في شرايين

المداد، واستطبت الشّوق يأتيني من الأعماق، ومن خفايا لست أذكر
أنّي أنشأت منها جوانحي؛ أعلنت تشرّدي في حبّه، موتي القليل على
أعتابه، وحفيت من زمن الهروب، فأمطرت كلّ الصّحارى اعترافاتي
الكثيرة، واستأنست رجلاي بالرّمْل النّديّ، أسامر القمر، النّجوم،
وأسأل الاتين عن رقد، وعن ماء أخضّب الأعضاء منه؛ أغمض
العينين، ألحوني، وأبكي، أنشب الأظفار في العمق، فتنزّ من جرحي
الدّماء، أقول: قربان!!... دمي القربان، لم أرض بغير دمي، لا يؤمن
المشتاق بالخيّل، ولا الأبقار، والشّاء!!... دمي دمي، ومذ أذكيت وجد
المنشدين بأضلعي، مذ أزهرت أوصالي شوقا للقاء، ومذ أوطات كون
الفيض أذري، حمّلت صبري كلّ صبرا جديدا، وحفيت، وامتزج الحزن
الشّفيف بالفرح، وانخلع الفؤاد، فجلّ في الكون الخفاء، ومدّ لي حبالا
فأرقى من سماء لسماء... مدّ لي نهرا من الطّيب، فتسلخ الرّوح الحبيبة
من شبّاك حاكها الجسد الوضع!!

إنّي أرى . مولاي . نارا، أسمع من بعيد نفخ ناي، وطبولا، وغناء
ليس من جنس الغناء، وأشمّ عودا، وبخورا، فأرقّ، ويسيل البوح في
جسمي، فأرقص بالدّموع، وأفرد الأحزان بالطّول لأهرب من طنين
الهجر... فاعتقني، واقتل الضّعف الكمين، ومدّني حبالا من حبال
الواصلين، فنجتني وجدا، ونسكر باللذائذ، يا مغيث!!... نارا أرى،
جبلا نأى عن رؤيتي، وغشاء دمي سابل لا يرى غير الّذي أعطاه من
ضعف ومن وهن، والشّوق ساج، ليله داج، وحزن الكون أحمال
عليّ، فمن يعطي سراه للكسيح؟ ومن يلقي بقلبي بصرا، فالعين تظلم
من شكّاتي؟! من يقود الخطوطعنا، إنّي أشتّم عودا وبخورا، وبأذني
أسمع التّغيير، والمدد المدد!! إنّي أشتّم ريحا سابغا... ريحا ناغلا
في مقلتي... ريحا ليس ريحا، بل أثرا ساطعا من لحظة دهرية كانت
بفردوس الخلود، فجرجرت أذيالها، أخفت عناصرها التّليدة، أنشبت

أحداقها في مهجتي!!... حذقي انسكاب، وتقاسيمي ارتداد، حيرة تلتفّ
بالشدّه، وبالألم المير... ونبض قلبي ثرثرات، نبرات لا معان، ربّما لم
تعرف الحبّ، وشكوى المغرمين، ولم تعرف الوجد. الضّنى، لم تعرف
السّهر الطّويل، وترقّب المحبوب يأتي عاري الأحداق، ملفوف الفؤاد
في حرير وبراقع... لم تجرّب نغمة الشّوق الأثيل، ودمعة تهتزّ من حرّ
التّلاقى؛ فمتى تكبّلني القيود، وتكبتني المواجه؟ وإلام يفترش العذاب
حشاشتي، ويفرّخ الجسد الدّمامل، والمحبّون على شوط من الهجس
يمدّون لي الأيدي تباعا؟...

قلت: السّرى!!

قال: السّرى يمتدّ... والسّرى وصل، وهو آخر الدّرجات للفيض

الكبير!

قلت: اطّرح الدّور!

قال: لا يكفي.

قلت: وما أوطأت جسمي ثاكلا أو ثيبا... ولم أهو من كلّ الخرائد

والجواري والغواني!!

قال: لا يكفي.

قلت: أحجمت... أوصدت النّوافذ... وانطلقت في كنف الفراغ

لأزرع التّرتيل والآيات... سمّيت أشياء وهي عطل من عطائي...

قال: لا يكفي.

قلت: ساكنت السّكون... وصمت عن وجع، وتعلّقت عيناى

بالنّجم الغريب، تشقّقت رجلاى دهرا، وابتليت من البلى، كلّ الجراح

خبرتها، ودمي تلوّث بالصّراخ، وما أفقت من منام إذ عرفت البوح

والتّغيير...

قال: لا يكفي... لا يكفي!!

قلت: فمتى الوصال؟

قال: لا تعجل... دروب العشق أهونها السّبيل... والسّبل الّتي

جربتها أشباه آلام، وبعض من كثير، فيه شكوى وشكاة، ودموع تملأ
البحر، وخوف والتذاذ، وهروب كلما أزمعت الروح البقاء، وصيام عن
كلام الميتين... واحتجاب، ومراق وجنون، والتياث وصبايات وعشق...
ومجون... وخمور تجتني ثمر الفؤاد، وتسكب النار أضعافا... فلا
تعجل، فدروب العشق أهونها السبيل!!

+ الحبّ خمر كلّها راح والراح عشق مستباح
والخمر تجدي في أطراح الودّ من بعد اصطباح

كم تمنيت اعتناق الروح وذّ الأصفياء
وسكبت العبر من دمّ وماء
وسألت القلب عن عهد الإخاء
هل يخون الصّبّ في شرع الوفاء

يا سادتي ردّوا عليّ أحرفي
ومدامعي كيما أروّي أضلعي
أنتم خلاقي وأنساق جوارحي
في حبّكم، فمتى تلبي حاجتي

+ لوعة:

اللّيل إذا لم توافوا ليل، والكلام إذا أعجزه ذكركم صمت
صموت، والنّهار لا تشرق فيه غير طلعتكم، فإذا تصرّمت، فلا النّهار
نهار، ولا الضياء ضياء، لا الشّمس شمس، ولا الجلاء جلاء، اللّيل من
بعدكم ليل أليل، والسّكون سواكن لا تسكن، والدّمع جاف للخدود،

والفراش مجاف للجنوب، القلب خفق، والكبد حرى، والدّمع سكب،
والضّنى مضمّن، والإقدام إحجام، والحلم كابوس وهذيان، اللّيل
كوا من تتلى، وما منها كامن إلّا وهو جارح، وما منها جارح إلّا وهو مدم،
وما منها مدم إلّا وهو سمّ زعاف لا يترك ذا العلة إلّا قتله، ولا ذا الخلّة
إلّا وراه، وأنا العاني وصاحب الحاجة والخلّة، فالمدد المدد، يا أهل
المدد، إنّ النّوم مجاني، والراحة رائحة بي إلى هلكتي، مدد مدد، يا
أهل المدد!!!؟!!

... لكلّ شيء بداية معلومة ونهاية محتومة!!
«تريشور» أخيرا؛ تهدهدى الحافلة، وتقف على الرّصيف الأيمن
للشارع، فننزل مع حقائبنا...

الأضواء ساطعة... وأديم الأرض يسبح في برك ساكنة من رذاذ
المطر المتأخّر... ربّما كانت السّاعة تدور في التّاسعة، أو أزيد من ذلك
بقليل، وكانت المدينة شبه مقفرة، بعض الأفراد يضطربون هنا
وهناك، والبعض الآخر ما يزال مرابطا أمام أبواب بعض المقاهي...
انحزنا إلى بعض الأماكن الأمنة لتنفادى سياط المطر، ويبدو
أنّ منظرنا ونحن ننوء تحت عبء حقائبنا الثّقيلة قد أعطى الانطباع
أنّنا كنّا على سفر، وأنّنا نحطّ الرّحال أخيرا، فما هي إلّا لحظات حتّى
كنّا محاطين بعدد من الغرباء... إحساس بالألفة، وأحاديث ابتدأت
متلكنة، ثمّ اتّصلت وانضمّ إليها «شانيّل» و «نايجو»، فصارت أكثر
حميميّة، ومع مضيّ الوقت، واتّصال الأجوبة والأسئلة عن الأحوال،
اكتشفت أنّي لم أكن غريبا، في كلّ المدن والأماكن التي زرتها أنا
فحسب، وإنّما أنا غريب هنا أيضا... أنظر إلى الأشياء من حولي ولا
أراها، وأستمع إلى الكلام يدور من حولي وكأنّي أستمع إلى الغازم محكمة

المغاليق لا سبيل إلى فهمهما...

كنت أحاول أن أتفادى النظرات الموجّهة إليّ، أتلافها... أظهار
بالتّطلع إلى البعيد، إلى نقطة غير منظورة، أتناسى بها الانفجار الذي
يضطرم بداخلي...

كلّ شيء يخصّني يحيل عليّ، بمعنى ما، يفضحني أمامهم...
لون البشرة، الملامح التي زادت بها الرحلة الطويلة كمودا وعبوسا،
وسفعها المطر برذاذه المشاكس، وأغرقها الظلمة في مسحة من
الحزن، وطبعها بستائر رقيقة من الإقصاء والاعتراب... والملابس، وقد
أصبحت دبكة، أحسّها تلتصق بي بين الفينة والأخرى، فتضيف إلى
أحاسيسي السابقة إحساسا جديدا بالنّفور واللّجاجة... وحتىّ صوتي
كنت أحاول أن أبتلعه في جوفي، مكتفيا بتلك الابتسامات الغبيّة على
شفتيّ، كي لا تكون لغتي خيطا آخر يفصح عنيّ ويعرّيني أمام أولئك
الأشخاص الذين كان عددهم يزداد مع مرور الوقت، وتأخّر السيّارة
سيّارة «شايين». التي ستقلّنا إلى المنزل العائليّ ب «كندشان كدفو»...

أنظر إلى النّاحية الأخرى من الشّارع... أرى أضواء شاحبة بالكاد
تخترق سجب الظّلمة المتكاثفة... وألمس الفراغ في الأبواب المغلقة،
والصّمت الحيّ، تمتدّ أصابعه الرّقيقة بين الزّوايا والأركان، فتمسّد
على الأشياء الغافية تنيمها وهي تحكي لها حكاية لا تنتهي عن الأميرة
النّائمة والقصر المسحور... و «شايين» لا يريد أن يأتي... لا يريد أن
يخلّصني من الحلقة الصّاخبة التي كانت تضيق عليّ الخناق بلا
شفقة...

أحاول أن أستحضر صورته... أن أراه بعيني الأخرى، قبل شهرين،

في دكانه بمدينة «صور»... الشعر المنساب والقميص المكوّي بعناية، وبنطالون «دجيز»، والحذاء الملمّع... ورغبته، وهو يحدثني بحرارة، في الذهاب إلى البيت، أو الفندق، لشرب كؤوس من البيرة... كان في حمياً الكلام يدعوني للذهاب معه، ويصرّ على ذلك، وكنت دائماً أعتذر إليه... التّحفّظ... وشيء ما يظلّ دائماً يكبحني من الدّاخل... الخوف، أو التّحسّب من شيء ما... الخجل من الغرباء... حتّى «شايين»، رغم تعرّفِي إليه منذ ثلاث سنوات تقريباً، كان غريباً بالنّسبة إليّ... كان رفيق درب ليس أكثر... وفي منتصف الطّريق سيذهب كلّ منّا في حال سبيله... سينضمّ هو إلى القافلة المتّجهة شرقاً، وسأنتظر أنا قافلة ربّما لن تأتي أبداً...!!

+ حوارية:

(سيّارة بيضاء من طراز «أمبسادور»، شكلها نصف دائريّ، ولأبوابها مقابض من معدن بلون الرّصاص، تستثير فيك حيننا أسرا إلى عصور أدبرت وولّت، ولم يتبقّ من نسغها غير رائحة بالكاد يمكن تمييزها عن باقي الروائح الأخرى... ينزل منها «شايين»، وشابّ آخر يبدو أنّه هو الذي كان وراء عجلة القيادة، وقد قدّمه لي «شايين» باعتباره صديقاً... اسمه «ديداش صدانندن»... تصافحنا بحرارة، وشعرت لأوّل مرّة بالقرب، كما أحسست أنّ «شايين» الذي عرفته من قبل، ليس «شايين» الذي أراه الآن أمامي، بقميصه الأزرق، وساقيه العاريّتين، وهو يحوط وسطه بإزار قلوظه بمهارة فائقة... لشدّما تغيّر، هو الذي كان شديد الحساسيّة، بالغ السّخرية من الأشخاص الذين كان يلاحظ فيهم عدم اهتمام، أو إهمال، بمظهرهم الخارجيّ... كان يمسك بيديه نظّارات سوداء، وحينما اقترب منّي ليصافحني سطعت أنفي رائحة البيرة...)

شايين:

في هذا المساء، وهذا البرد، يحلو الشراب؛ أليس كذلك؟!
(اكتفيت بالابتسام... في تلك اللحظة انضم إلينا «ديداش»...
كان يسلم على «شانيل» ونايجو»، وعلى ما يبدو فإنه التقط سؤال
«شايين» الأخير)

ديداش:

معك حق!

شايين:

هنا لا تستطيع إلا أن تشرب...

(وبعد فترة صمت)

خلفنا العمل وراءنا، وكلّ الالتزامات، وجئنا إلى هنا لنقضي
وقتا ممتعا.

(اعتقدت أنه من غير اللائق أن يظلاً يتحدثان ولا أشارك في
الحديث، فقلت، وأنا أستدير ناحية «ديداش»...)

: وهل أنت في إجازة أيضا؟

(رفّت على شفّتيه ابتسامة، واقترب من حلقنا أكثر)

ديداش:

نعم، أنا في إجازة... إجازة طويلة نوعا ما!

.....: وأين كنت تعمل؟

ديداش:

في الخليج... في العين...

(وتوقّف عن الكلام قليلا، كان يبدو عليه التعب، ربّما جرّاء
الشراب، فقد لاحظت أنّ حركاته كانت تعوزها القوّة... واصل)
: ربّما أعود بعد ستّة أشهر... وعدني بعض الأشخاص
بالمساعدة!!

ثم:

في الحقيقة، أنا في حاجة إلى العمل... امرأتي حامل، وعمّا قريب سأرزق بولد.

(في تلك اللحظة ارتفع صوت محرك مزمجرا وما لبث أن سكن... رأيت «نايجو» يجمع أغراضه ويدفعها إلى مؤخرة سيارة كانت مركونة إلى الرصيف... وبعد أن فرغ، اقترب منا مودّعا... تصافحنا... وقبل أن يغادر، التفت إليه «شانيل»)
شانيل:

سنلتقي قريبا.

نايجو:

قطعا... ثم لا تنس أن تخبرني بالتلفون.

شانيل:

طبعاً.

(يزمجر صوت المحرك ثانية، وتنطلق السيارة التي كانت تقلّ «نايجو» وتختفي في العتمة... ينضمّ إلينا «شانيل»، وأشخاص آخرون لا أعرفهم... كانوا يتمعنّون فيّ باستغراب... وعلى شفاههم عشرات الأسئلة التي انطلقت من أفواههم تباعا دون سابق إنذار)
شخص ١:

من هذا؟

شخص ٢:

ما اسمه؟

شخص ٣:

يبدو غريبا! من أين جاء؟

شخص ٤:

لم نسمعه يتكلّم!

شخص ٥:

هل هو أخرس؟

شخص ٦:

لا يبدو أنه من بلادنا؟

شخص ٧:

إلى أين سيذهب؟

شانيل:

لقد جاء معي، وهو من بلد بعيد...

شخص ١:

هل تفهمه إذا تكلم؟

شانيل:

إننا نتكلم الإنجليزية فيما بيننا!

شخص ٢:

هل يأكل؟

شخص ٣:

هل يشرب؟

شانيل:

(ضاحكا في سخرية)

:وماذا تحسبونه؟ هل تظنونه كائنا من كوكب آخر!!

(تسود العتمة بعد أن نركب السيارة، ونغادر... خلفنا المشهد وراءنا، وكذلك الأشخاص، ولم تبق في ذهني إلا صورة غائمة عن بيت سيكون عمّا قريب بيتي، وعن أناس سأعيش معهم ما زلت لا أعرف شيئا عنهم... وعن أيّامي المقبلة... وعن زوجة وزوج أذكر أنني تعرّفت إليهما من خلال صورة رأيتهما في يوم من الأيام عند «شانيل»)

(...) حوليات ومذكرات:

تصدير:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
هي الأمور كما شاهدها دول
فلا يسر بطيب العيش إنسان
من سره زمن ساءته أزمان
أبو البقاء الرندي .

** ١٦ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

ليلا:

المطرينزل بغزاره... والسّيارة تنساب في أزقة ضيقة، متعرجة، شبه
معتمة... كنت أحاول أن أرى من خلال الزجاج، ولكن دون جدوى...
وأول فكرة تكوّنت في ذهني عن المدينة أنّها ليست مدينة، وأنّها فراغ من
الخيالات، والأشباح التي تنتقل بحريّة في المعابر، تهدّد وتتوعّد، وتشير
بأصابعها إلى أعداء محتملين في ليل لا قمر فيه ولا نجوم...

تنتفي الأبعاد جميعها، في مخيلتي، وأبحث عن عمق الأشياء،
عن انسيابية تكتنف الوجود في هجته وسكونه، فلا أجد غير
الخواء، وامتدادات رأسيّة تشرّب بأعناقها إلى هام السماء... ذكرني
المنظر بأخر كنت رأيته في صباي، في مدينتي الصّغيرة، في أحد بلدان

المتوسّط... جدائل النّخيل... ذوائها الطّويلة الشّبيهة بذوائب فرس
فارهة جامحة... العذوق الصّفراء... وهي تتمايل مع هبات النّسيم
الخريفية... وفتنة مجهولة المصدر أنّ الكون كلّّه يختصر، والفرحة
الطّاغية، والسّعادة الّتي ليس لها حدود، والأسباب والنتائج، ولا يعود
هناك من داع إلى الحيرة، والبحث عن أعراض لا تهمّ كثيرا في مقابل
الجوهر الّذي لا يزول...

لكن هل ما أتوهم أنّي أراه الذّوائب نفسها، والعرائش الخالبة...
والعذوق، والتموّجات المغرية، أم صور يستثيرها الحنين في مخيلتي،
فتبعث فيّ تلك القشعريرة الّتي لا قدرة لي على مقاومتها؟!
.جوز الهند!!

(أو الكوكونت)؛ كما خرجت الكلمة من فم «شايين»... وقد
أضاف بعد لأي:
.جوز الهند في كلّ مكان!!

أحسست بشعور غريب، ووجدت لوقع الكلمة مثل السّحر...
لحظة من اللّحظات القليلة كانت تلك اللّحظة... لحظة لا تعرف فيها
سببا للفرحة الطّائرة، ولا سببا لسعادة تهزّ شغاف القلب... تضحك
من العمق دون سبب ظاهر، أو تبكي فتنزل الدّموع، تسجّ على خديك،
فلا تدري أيّ دموع غبطة أم تعاسة... وربّما تعترك أحيانا رغبة في
الرّقص على الملأ... في الخروج من جلدك والتّحليق بعيدا في أفاق
عوالم لم تكتشف بعد... يا الله!! في كلّ مكان...! أمكنة لم يفكر فيها
لا «شايين» ولا غيره، أراها أمكنتي، فضاءات لا امتداد لها، أراض
بلا حدود، وكهوف ومغاور، وشالّالات ذات مياه لجّية، وسماوات،
ونتوءات، وبحيرات من زمن الضّياع، وأرخبيلات لا وجود لها إلّا في
أزمنة ما قبل الخلق... يا الله!!

في وقت ما، استدارت السيّارة، وولجنا إلى مجاز ضيق بالكاد يسمح بمرورها، وما هي إلا لحظات حتّى وجدنا أنفسنا أمام منزل من المنازل الحديثة التي لا تشبه في شيء تلك القديمة التي تعجّ بها معظم ولايات «هندستان»... منزل من طابقين... صالته فسيحة، وتنتهي بسلم يقود إلى الطابق الأول... استقبلتنا كلّ العائلة... رجل عجوز، تقدّم منيّ ضامّا كفيّ، تحت ذقنه، ولأنيّ كنت أجهل طباع القوم وعاداتهم فقد كنت أمدّ يدي للجميع، للرجال وللنساء، وقد سبّب لي ذلك بعض الحرج... كانت النساء يبتسمن تلك الابتسامة الخجولة، يقفن خلف أزواجهنّ، وقد ظننت عندما كنت أمدّ إليهنّ يدي كأنّ عفريتاً أطلّ فجأة بعنقه فسبّب لهنّ من الرعب والخوف ما لا يمكن وصفه...

كانت تلك عائلة الجدّ... هكذا أخبرني «شانيل»!!

التّحايا والسّلامات، بعد غياب عامين، والأحاديث الحارة، لولا التعب والحاجة إلى أخذ قسط من الراحة، وتنفضّ الجلسة لتبدأ جلسة أخرى في اليوم التّالي... ودّعنا الجميع... واتّجهنا إلى منزل العائلة... كان السيّد والسّيّدة «لوهيداكشان» في الانتظار، وزوجة «شايين» من ورائهما تحمل في حضنها ابنتها «باروتي»...

احتضن السيّد «لوهيداكشان» «شانيل» بحرارة من لم يرولده ردحا من الزّمن، ثمّ اقترب منيّ فسلم عليّ... دخلنا بعد ذلك إلى البيت... كان الأب غاية في الظّرف، وكان يرنو إليّ كما لو كانت تربطني به صلات قديمة، وقد أصرّ أن أجلس إلى جانبه، ولم يتوقّف عن محادثتي طوال الوقت، ولولا إحساسه أنّي قادم من سفر، وأنّي في حاجة إلى الراحة، لظلّ يتحدّث ويتحدّث إلى ما لانهاية... ربعة، بل إنّه أميل إلى القصر، وهو تقريبا في نفس طولي، يلبس نظّارات طبّيّة، ويرتدي تلك الفوطة التي علمت، منذ وقت مبكر، أنّها جزء من اللّباس المحليّ، ليس في «تريشور»، ولكن في «كيرالا» كلّها... عاري الجذع، ينساب من

رقيبته عقد طويل من الصّندل... قال إنّه قضى حوالي إحدى عشرة سنة بالخليج، انتقل خلالها بين بلدان كثيرة... عمل في شركات عدّة، ثمّ جرّب التّجارة الحرّة، وقرّر أخيرا أن يعود إلى مسقط رأسه بعد أن جمع مبلغا لا بأس به من المال، بنى منه المنزل، وزوّج «شايين»، وأودع قسطا في البنك تحسّبا لطوارئ الزّمن...

كنت متعبا، وقدماي في الحذاء تؤلماني، والحديث أسمع بعضه ويفوتني أكثره، وقد أدرك السيّد «لوهيداكشان»، من خلال بعض الأسئلة التي كنت أجيب عليها بفتور لا يخفى، أنّه ربّما من الأفضل أن نوجّل كلّ شيء إلى اليوم التّالي... قال مخاطبا «شايين»:
اذهب معه لترية غرفته!

صعدنا إلى الطّابق الأوّل... كنت أحمل حقيبتني... فتح «شايين» الباب وأضاء النّور... قال:

لم تفتح هذه الغرفة منذ زمن طويل، هي غرفتك الآن... (وأشار إلى اليسار) في ذلك الجانب يوجد الحّمّام... (وأشار ثانية إلى الأمام) وذلك الباب يفتح على رحبة، يمكنك أن تفتحه متى شئت، لتتفرّج على أشجار جوز الهند والغابات المترامية...

وصمت قليلا ربّما أخذ نفسا، ثمّ واصل قائلا:
لا تنس أن تغلقه، فهناك لصوص في الجوار وقد يدخل أحدهم في أيّة لحظة.

طمأنته... كنت أنتظر أن يغادر الغرفة... إلّا أنّه جلس لبرهة على حافة السّريّر، وهو يقول وعلامات الجدّ بادية على محيّاها:
تلك غرفتي هناك، بجانب غرفتك مباشرة... إذا احتجت إلى أيّ شيء، ما عليك إلّا أن تطرق الباب... البيت بيتك فلا داعي للخجل أو التّكليف!!

استاذن أخيرا، وتركني للوحدة والصّمت... والليل... كنت أخشى أن يقاسمني «شانيل» نفس الغرفة، وظللت خلال وقت ليس بالقصير،

أفكر فيما يجب أن أفعله، إذا قرّعزمه حقاً أن يجلب أشياءه، ويصعد
ليقتحم عليّ عالمي وخلوتي... وكإجراء أوليّ، سحبت حشيتي من الحشايا
العديدة التي كانت مكوّمة في جانب من الغرفة، وركنتها إلى جانب
النّافذة في مواجهة السرير تماماً، وجلبت مخدّة ولحافاً، وتمدّدت
بكامل ملابسي، وما أسرع ما وجدتني أغرق في نوم عميق، كأني لم أنم
طوال ساعات وساعات!!

**١٧، ١٨، ١٩ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

كدت أنسى منظر المطر... منظر تلك الحبيبات الصّغيرة وهي تنزل
من السّماء، فترتاح على مصاريع النّوافذ، وحينما تتجمّع تغدو سيولا
جارية، تتعرج على صفحة الرّجاج، وتتثنّى، فيخيّل إلى النّاظر إليها
أنّها خارطة من دون ألوان... رقعة خلو من المهرج والزّينة، غير أنّ لها
قدرة على خلب الألباب، تذكّر بأزمة الفتنة المدبرة، وتعيد إلى الذاكرة
سنوات الطّفولة الأولى، في الحيّ العتيق، حينما كنّا صبياناً وبنات،
نتنقل من بيت لبيت، في شوارع مبلولة، تغطس فيها أرجلنا الصّغيرة...
نطرق الأبواب، وأفواهنا تضحّ بالأهازيج، نستدرّ بعض الدّريهمات، أو
الفواكه أو الخضار، كي لا ينقطع الخير، ويدوم النّعيم! ندعو، وندعو،
بحلوقنا التي ما تزال لم تتأطر بنبرات الرّجولة والأنوثة بعد، حتّى يأتي
الشّتاء في مواعده دائماً، فإذا ما جاء جلب معه المطر... ونرقص،
نقضي ساعات في الرّقص، تحت السّماء الرّحيمة، حول عرائس من
صنع أيدينا كنّا زيناها، وتعهّدناها بالرّعاية، نحفظها في منازلنا، ولا
نخرجها إلّا في أزمنة البرد والصّقيع!!

الشمس القاتلة... الحرارة التي لا تخبو... والدّماغ يكاد ينفجر

من العطالة والرّخاوة؛ سنتان أو أكثر، أوشكت خلالها أن أنسى منظر المطر، كدت أنسى معاني كثيرة لطالما اتّصلت به في ذاكرتي، كما نسيت من قبل أسماء أشخاص كثيرين، أبناء عمومة، أطفال صغار حتى بعد أن كبرت، وبلغت مبلغ الرّجال لم أنقطع عن اللّعب معهم، ومشاركتهم شقاواتهم... ياه! البرد، من لي بسوطه الجارح ينغل في أعماقي، فيعيد إلى جسمي بعض التّئامه وتوازنه، وأنا الكائن الجنوبيّ، القادم من تضاريس الجليد الصّحراوي؟!... من لي بتلك القشعريرة الحيّية، الّتي تعرف دائما كيف تتّخذ طريقا إلى الأعماق القصيّة من جسدي؟!... الالتيام، الأفكار البكر... أمنية ما، تنبع فجأة من المتاه السّديمي، وأنا في الطّريق إلى المقهى والأصدقاء، نضحك ما طاب لنا الضّحك، ونرحل مع خيالنا بعيدا إلى المدن، والممالك، والقلاع والحصون، الّتي ظلّت دهورا تنتظر مجيئنا لنعيد فتحها مرّة ثانية، على وقع الطّبول والمزامير والكاسات... ويا ليل طل، ليطول معك الرّقص، وتحلو النّجوى، وساعات العشق والحبّ!!

«صور»، ولا مطر!

الحرارة ولا شيء غير الحرارة... الجسد المتراخي، والأفكار النّصف، غير النّاضجة، والخطى المتعثّرة على الشّارع الإسفلتي الطّويل الّذي لا ينتهي... ومقاهي الهنود، عفوا مطاعمهم، لا تسمع فيها غير لغة مبهمة، ولا خيار أمامك إلّا أن تشرب شايا على عجل، وحيدا، متروكا، لا تفكر في الشّاي بقدر رغبتك في البحث عن ملجأ من الفراغ في أيّ مكان... (كانت «صور» في سنة الهجرة الأولى، رائحة ولونا؛ رائحة بخور قويّ، تتسرّب عبر الخياشيم إلى الشّرايين، فتمتزج بالدماء، تخضّبها، وتحدث ذلك الخدر الّذي لا فكاك منه... رائحة «أحمد بن ماجد»، صورة لبطل، ارتبط به مصيري منذ الطّفولة، فارسا يأتي من الأقاليم البعيدة، ليغيّر صفحة البحر، ويكتب بالخطّ العريض تاريخا جديدا لملاحه لا

تعرف السَّقُوط والانْهيار! كنت أرى في إسمه خرائط وأسماء جديدة،
مدنا وجزائر... سومطرة، سرنديب، واق الواق... وبحر الظَّلَمات،
وبحر الخرز، وسور الصِّين العظيم، وحكايات لها طعم عرق السَّوس
في بيوت أسطوريّة في طرف الجزيرة العربيّة؛ وكنت أرى فيه انتمائي،
وانتماء من مات من آبائي وأجدادي... كنت أرى فيه الماضي التَّليد!!...
واللّون، السَّواد، الملاءات الّتي تخفي أكثر ممّا تبدي، وفي إخفاءها،
تستثير الخيال، فيهمي من عل، يرتدّ إلى الأرض، ثمّ يحلّق إلى السَّماء،
يكشف ويستكشف، ويرسم، يشكّل الصُّور، والخيالات والأوهام،
ويعيد بناء الكلمات والحروف لتصير قصائد في الحبّ والعشق... المرأة
الّتي تجسّد كلّ النِّساء، وكلّ النِّساء اللّواتي يختصرن صورة لامرأة
وحيدة، هي اختزال الفتنة والجمال!!)

الآن هنا، عبر رحلة الأميال... في سباق المسافات الطَّويلة، تندغم
في الذَّهن والذَّاكرة «صور» المدينة، وأنسى خلال ثلاثة أيّام لبلياليها
سياط الحرارة اللافحة، والرَّخاوة، والموت البطيء، والأفكار اللَّعينة
عن الموت الّذي لا يأتي إلّا في أواخر اللّيل، متخفّياً في برقع أسود،
ليخطف الحياة والأنفاس... أنسى الجبال المنتصبة كالأشباح في
المداخل والمخارج، والبحر حين يصبح نغلا، لا تضوع منه غير الرُّطوبة
والرَّوائح الكريهة... وأتطلّع إلى منظر المطر في الخارج، فأنسى عوالمي
القديمة كلّها، ولا يبقى إلّا العالم الّذي يشمخ أمامي: عالم الخضرة
والماء!!

لم ينقطع المطر عن الهطول خلال ثلاثة أيّام بأكملها؛ وحين
صحوت في اليوم التّالي من وصولي، وتطلّعت من النّافذة إلى السَّماء
في الخارج، فطالعتني جهمتها ولونها الرّمادي، وعبوسها، ذهب في
اعتقادي أنّ الوقت ما يزال مبكراً، وأنّي لم أنم إلّا ساعات قلائل... إلّا
أنّ الأصوات الّتي ظلّت تأتيني من الطّابق السّفليّ، والضّحكات الّتي

كانت تخترق الصّمت من حين لآخر، كانت تنبئ عن أحاديث ليست وليدة اللحظة، وإنّما عن أخرى قد تشابكت وتشعّبت منذ وقت ليس بالقصير... تناولت ساعتي ونظرت فيها... كانت السّاعة تشير إلى منتصف النّهار... تفاجأت، واستغربت كيف لم يوقظوني طوال هذه المدّة... ذهبت إلى الحّمّام فغسلت وجهي... ثمّ وضعت رأسي للحظات تحت صنوبر الماء، كنت أريد أن أطرد الإرهاق والتّعب... وذكريات عشرة أيام من المعاناة والعذاب!!

** ٢٠ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

كسبت جولة وخسرت جولات!!
والغرفة التي حسبت أنّها ستكون لي، في أوقات بعينها، لا يشاركني فيها أحد، صارت غرفتي في كلّ الأوقات... صارت سجنًا، فيه ألوك وحدتي، وأجترّ آخر ما تبقى من ذكريات لم يبق لي سواها...
النّافذتان... والباب مغلق، أحرص أن أغلقه بعد أن أدخل، وأتحسّب لأيّ صوت، لأيّة نائمة، لأيّة خطى في الممرّ تتّجه صوب الغرفة... إحساسي بالغربة. بالوحدة، جعلني عدوانيًّا، صيّري كائنا يكره بلا حدود؛ و«شانيل». من يفترض فيه أن يكون منقذاً وصاحباً. خيّب ظنيّ وآمالي، كان ينتظر لحظة الوصول، أن يتخلّص منّي ليفرغ لزيارات لا أعرف عنها شيئاً، وأصدقاء، وأقارب، كانوا كلّهم إخوة وأخوات بالنّسبة إليه!! فلا يرى امرأة إلّا خاطبها قائلاً: «أختي!» ولا رجلاً زائراً إلّا هبّ لاستقباله، منادياً إيّاه: «أخي!»...

لزمّت الغرفة!

وكنت لا أنزل إلّا لماماً، في أوقات بعينها، عند الغداء أو العشاء،

وفي الصّباح أنزل مضطراً، فأجد فنجان القهوة على النّضد بالصّالة... كنت أريد أن أظّلّ وحيداً، أن أباعد عن شمل العائلة الملتئم حول مائدة الإفطار، لأذهب إلى أقصى نقطة لا تطالها أعينهم... ومن مكان ما، بجانب السّور، أرنو إلى الغابة الممتدة أمامي... أسرح مع الخضرة والأكواخ التي رغم رثائها وقدمها كانت تبعث في إحساسا غريباً بالرّضى... كنت أنتظر بفارغ الصّبر الفيل الصّغير الذي كان يأتي دائماً، وفي موعد لا يخلفه مدرّباه أبداً... حوالي السّاعة التّاسعة، أو بعد ذلك بقليل، يجلبانه ليحمّماه، ثمّ يسلكان به طريق العودة إلى المعبد الهندوسيّ القريب...!!

منذ الأيّام الأولى أدركت، بالفطرة المتأصّلة بداخلي ودون توجيه من أحد، أنّه من واجبي إزاء عائلة مضيّفي، حتّى لا يصدرمتي ما يمكن أن يخلّ بالنّظام، أن أعتاد بعاداتهم، أن أبعد مهذباً في نظرهم، وأن لا أجب الانتباه، رغم الاختلافات بين ما كنت أحمله بداخلي وأخفيه وما كانوا يبدونه باعتباره جزءاً من حياتهم اليوميّة، وهي كثيرة، لا تكاد تحصى أو تعدّد...

تعلّمت أن أخلع نعليّ قبل أن أدخل، وأن أنتقل في أرجاء البيت حافياً... واعتدت أن أسمع النّداء إلى الطّعام، يطلقه السيّد «لوهيداكشان»، فاتّبعه في أدب، وفي صمت، وأغسل يديّ بعده، ثمّ ألحق به إلى المائدة الكبيرة... كنّا نجتمع أربعتنا في سائر الأيّام، أنا، وهو، و «شانيل»، و «شايين»، وتقوم النّساء على خدمتنا، السيّد «لوهيداكشان» وكتّها... أمّا إذا صادف أن تغيب أحدهم، لسبب من الأسباب، أو تأخّر، فكنت أتناول طعامي مع «شانيل»...

كنت أحرص أن أتناول وجبة لا تتغيّر، وكان خوفي من اضطرابات

المعدة. أوريّما الإمساك، الهاجس الذي ظلّ يطاردني طيلة الأيام التي قضيتها في «كندشان كدفو»... «تشاباتي»، أو رقائق الخبز المحلي، و «كاري» اللحم أو الدجاج، وبعض السمك... أجهّد أن أنتهي قبل الجميع، وأن لا أصدر أيّ صوت عند الأكل، وكان أكثر ما يسبّب لي الحرج، فيجعلني أحسّ بالحرارة تخرق كلّ مسامي، وتغرقني في بحار من العرق. أنّ العيون كلّها كانت متّجهة نحوي، ربّما تنظر إلى طريقي في الأكل، تريد أن تتأكّد فيما إذا كنت مثلهم، فيما إذا كنت كائنا أَرْضِيّا، يستطيب الطّعام كما يستطيبونه، يأكل بشهية، فإذا ما اكتفى قام من حول المائدة... كنت أشعر بنظرات السيّدة «لوهيداكشان»، وحركاتها وإيماءاتها، وهي تحاول أن تقرب إليّ طبقا من الأطباق، أو أيّ شيء آخر، وكتّتها، وهي قريبة من زوجها، تخدمه، وبين الحين والآخر، تصوّب نظراتها إليّ، فأشعر بالانسحاق... يا للجهيم!... أتظاهر بالشّرد، وأطاطي رأسي كأني أبحث عن شيء ضاع منّي، وتمتدّ يدي لإيراديا إلى كأس الماء بجاني، أمسكه مليّا، وأقربه من فمي ثم أعيده!! كان الماء ساخنا، ولطالما حاولت أن أتعسّف على نفسي فأغصبها عليه غصبا، ولكن دون طائل...

لم أرتو، وطعم الماء كدت أنساه... وكلّما خرجت مع «شانيل» بالسيّارة، كان همّي أن نتوقّف عند أوّل محلّ مرطّبات لنشتري بعض قوارير الماء المعدنيّ، ولكن كان يتعلّل بحجج واهية، يتظاهر بعدم سماعي فإذا ما ألححت عليه، قال عندنا ماء في البيت، وبإمكانك أن تنتظر قليلا...

(كانت أيّاما صعبة!!)

** ٢١ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:
ألم فظيع!!... صدا ع لا يطاق!!

** ٢٣، ٢٢ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

تعرفت إلى الكثير من العائلات!!... رجال ونساء وأطفال صغار، وشيوخ، وصبايا، لا أدري مدى قرابتهم من عائلة مضيبي، غير أنني كنت أستغرب للألفة التي كانت تجمع بينهم؛ كل واحد منهم يعرف الآخر، ويتصرفون فيما بينهم دون تكلف، وتجلجل ضحكاتهم، في أحيان كثيرة، كأنني لست موجودا بينهم... فرحتهم بـ «شانيل»، الغائب الذي قضى سنتين كاملتين بعيدا عن الأهل والأقارب، يضطربون من حوله، ويستمعون إليه وهو يحكي، وهو يصف لهم البلد الذي جاء منه... كان معظم الحديث بـ «المليالي»، وذلك ما كان يشعرني بحرج أكثر، وبعض ما كنت أفهمه، أو ما كنت أعتقد أنني خمنت، يرجع إلى بعض الكلمات التي كنت ألتقطها بين الحين والآخر، منطوقة بالإنجليزية... أو النظرات الموجهة إليّ، مستفسرة عن إسمي، بلدي... مهنتي، ونسبتي، واللغة التي أتكلّمها؛ وقد لاحظت استغراب الكثير منهم حينما أعلمهم «شانيل» أنني لا أتكلّم «المليالي»، وأنّ لغتي الأمّ العربية... ربّما بدا لهم أنّ كلّ من يأتي إلى قريتهم الصغيرة، لا بدّ أن يتكلّم «المليالي»، والآن يكون ضيفا مرغوبا، أو على الأقلّ سيفقد الكثير من الاهتمام به لديهم... سيكون بعيدا عنهم، وعن أحاديثهم، ونكاتهم، وطرائفهم... وحياتهم البسيطة الهادئة، بين عرائش أشجار جوز الهند، والخضرة التي توطّر جميع المشاهد، في كلّ الاتجاهات، إلى حدود البحر القريب!!

** ٢٤، ٢٥ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

«أونام»... الفرحة الغامرة، والسعادة التي ليس لها حدود!!!
والبيت يعجّ بعشرات الآلهة، في نهاية الصّالة، إلى جانب السّلم
المفضي إلى الطّابق الأوّل... «راما كريشنا»، بكامل أبهته، وملامحه
الطّفولية، في أوضاع مختلفة، يتطلّع إلى الوجود من حوله، بعينه
الحامتين، ونايه في يده، ينفخ فيه... وآلهة أخرى... تحيط بها الأنوار
من كلّ جانب، أنوار تظّل تتغامز، على امتداد ساعات اليوم، وتمتزج
بتموجات البخور والعود المحروق، وهي تتثنّى، وتتعانق، في طريقها إلى
السّقف...

ستأتي العائلة الكبيرة كلّها... الأعمام والأخوال، والأطفال
والنّساء، في كامل زينتهم، وسيمتلئ بيت السيّد «لوهيداكشان». الأخ
الأكبر، بالحركة، وسيعلو الصّياح والضّوضاء... وسيتحلق الرّجال
حول زجاجات الويسكي الفاخرة، وسيشربون على شرف آلهتهم!!!
وفي الختام، سيتناولون غداءهم، أطباقا خالية من اللحم والدّسم،
امثالاً للتعاليم التي كانوا يتوارثونها أبا عن جدّ!!!... كان يفترض فيهم،
في اليوم الأوّل من «أونام»، أن يكونوا كلّهم نباتيين، وأن يحتفلوا كما
ينبغي للمتّقين المخلصين أن يحتفلوا!!!

** ٢٦ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

في الصّباح، رافقت السيّد «لوهيداكشان» إلى بيت عديله، أخ
زوجته؛ شخصيّة نادرة المثال، وهو لا يشبه أحدا ممّن تعرّفت إليهم،

بمن فيهم أحد الأعمام، الذي صادف أن كان بين أهله، في إجازته السنوية، وقد علمت، من خلال بعض الحديث الذي تبادلناه، أنه يعمل بالديوان السلطاني بـ «صلالة»، وأنه عمل بعض الوقت بمدينة «صور»، وأن عدد السنوات التي قضاها بالسلطنة يربو على العشرين!!

حرصت منذ البداية أن أحفظ بعض الأسماء، أسماء القريبيين ممي... الأب، والأبناء، وبعض الأصدقاء، أمّا أسماء الآخرين، وهم كثر، بمن فيهم الأم الطيبة، الخجول، الصّمت، فقد كان يفوتني أن أسأل عنهم «شانيل»، ولم تبق في ذاكرتي منهم إلا مجرد ملامح وصور رجراجة غائمة!!

«الخال». هكذا كنت أسمع السيّد «لوهيداكشان» يناديه أمامي، طوال، أقرب إلى النّحافة، داكن البشرة، يرتدي قميصا وبنطالا، تبدو عليه أمارات المرض... (إنه القلب!!)... عمل مديرا لأكبر الشركات بالبحرين، والإمارات، والسلطنة، وقطر، وزار الكثير من البلدان في آسيا وغيرها... تعرّف إلى يابانيين خلال زيارته الأخيرة إلى اليابان... زار كمبوديا، وماليزيا... وتايلند...

قال لي، وكنا في الصّالة، وبعد أن أمر بإحضار الشّاي: . لقد عشت حياتي بالطّول والعرض، وأنا لست نادما الآن... بعض الناس يهدّم المرض، ويجعلهم نزقين، أمّا أنا فلست نادما على شيء: ولو عاد بي الزّمان إلى الوراء لسلكت سيرتي الأولى في الحياة... أخذ الطّبق من يد زوجته التي دخلت في الأثناء، ووضعته على نضد أمامنا، ثمّ أشار إلى فناجين الشّاي... أخذت فنجانني فرشفت منه، وتطلّعت إليه ثانية، قال:

صحيح أنّ المرض لا يرحم، وقد أقلعت عن عادات كثيرة، فلا أشرب إلاّ بقدر، فإذا شربت فلا أسرف... والنّساء ربطتني بالكثيرات منهنّ علاقات، في فنادق، ودور سينما، وقاعات رقص، ومقاه...

ثم صمت قليلا وواصل مستدركا كأنه نسي شيئا مهماً:
بالمناسبة، لقد تعرّفت إلى بعض الفتيات من بلدك...
وحين أبديت إعجابي بهندسة البيت وديكوراتها الجميلة، وحسن
ترتيب الغرف في الدّاخل، قال وقد بدت على محيّا ابتسامة رضى،
ولمست في نبرته شعورا بالرّهو:
في الحقيقة، لقد طلبت من أحد أصدقائي اليابانيين أن يجهّز
لي تصميمًا للبيت، وقد فعل؛ والبيت في هندسته لا يضاهيه أيّ من
المنازل الموجودة في الجوار...
... كان الوقت متأخرا عندما غادرنا، وقد تحدّثنا كثيرا، وشعرت
في لحظة من اللحظات أنّي قريب من الخال، وأنّها لن تكون المرّة الأخيرة
التي نلتقي فيها!!

** ٢٧ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

لم أتفاجأ، وقد كنت في الحقيقة أحسّ الدّعوة الموجهة إليّ من
الخال للغداء... أعلمني بذلك السيّد «لوهيداكشان» الطّيّب، بلغة
إنجليزية محطّمة، في اليوم التّالي من زيارتنا الأخيرة له...
وقد حرص مضيفي أن نمشي المسافة من البيت إلى وسط القرية
على الأقدام، رغم أنّه كان بإمكانه أن يدعوني للذهاب معه بالسيّارة...
ثمّ امتطينا الحافلة التي أقلّتنا إلى المكان المحدّد، وقد كانت السّاعة
تربو على التّاسعة صباحا!!

وجدنا الخال بصحبة أحد أصدقائه، وكانا متحلّقين حول مائدة
وطيئة عليها إناء كبير به سائل كثير من جوز الهند، كانا يصبّان منه في
كأسين كبيرين، وقد سلّمنا عليهما، ثمّ أومأ إليّ السيّد «لوهيداكشان»

بالجلوس فجلست...

سألني الخال إن كنت أرغب في مشاركتهما، فاعتذرت، وتواصل بيننا خيط الحديث للحظات، كنت أحسنّ خلالها أنني وجدت أصدقاء حقيقيين، لا يتجاهلونني، ولكن يحدثونني باللغة التي أفهمها، ويتبسطون معي في الكلام، فإذا ما انزلقوا للحديث فيما بينهم، سرعان ما انتبهوا إلى أنفسهم واعتذروا إلي... كان حديثهم المفضل عن السياسة... عن المشاكل التي يعانون منها، وسوء الإدارة... والفساد الذي كان ينخر حكومة الولاية...!! ويبدو أنّ حديثاً مثل ذلك الحديث كان لا يحلو لهم إلا إذا كان الشّراب أمامهم، فيشربون وهم يتناقشون، ويشربون وهم يتصايحون، ويحدثون، ويظّلون، مع ذلك، أصدقاء، لا تشوب صداقتهم شائبة...

غادرنا الخال، وما أسرع ما عاد وبيده زجاجة الويسكي، مشروبهم الاحتفاليّ المفضل، سيّما أنّ ذكرى «أونام» ما تزال عالقة بالأذهان والقلوب... وجلب مع زجاجة الويسكي زجاجات الصّودا، وترك لصديقه الممتلئ، ذي النظّارات الطّبيّة، أن يقوم بواجب الضّيافة!! في الأثناء، كانت الزّوجة وبناتها يضطربن اضطراب من همّة إرضاء ضيوفه، فكّن يأتين بأطباق عليها أنواع من السمك... سمك مقليّ... ومشويّ... ودجاج... ومرطّبات وكولا...

كنت أكل وأستمع إليهم، وقد ذهب عني كلّ حرجي، وأنا أنظر إلى أولئك الرّجال، في خريف العمر، يشعرون أنّهم أدّوا واجبهم نحو زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم... تغرّبوا من أجلهم، وتحملوا المشاقّ، وربّما الإهانات، وتأثّروا أسباب الرّزق، وهم يحسّون الآن أنّه أن لهم أن يرتاحوا، أن يتمتّعوا بما جمعه طيلة سنوات كدّهم وتعبهم، دون منغصّات...

** ٢٨ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

في المساء، كانت مفاجأة أخرى في انتظارنا... دعوة على المشارف والأطراف القصية، في المدينة الكبيرة. «تريشور»، التي تظل دائما في البال، تختفي بغتة، ثم تظهر على غير انتظار في أبيه زينتها وحلتها!!!... كنا أربعة بالسيارة: «شانيل»، والسيد «لوهيداكشان»، وأخوه الأصغر، وأنا... وبعد حوالي الساعة تقريبا انفتحت أمامنا بوابة فدخلنا، واستقبلنا رجل بالزي المحلي، كانت تبدو عليه الواجهة والثراء، وقد تأكد لي ذلك من خلال ما رأيته من حولي، المنزل الفخم الذي لاشك أنه استوعب مبلغا هائلا من المال في بنائه... الطوابق العديدة، الحديقة الغناء، والأبواب ذات المقابض الذهبية، والأنوار الساطعة، والأثاث والرياش... وشجرة العيد... والأشخاص الكثيرون، الذين جاءوا من كل أنحاء العالم، من «دلهي» و«مومباي» و«كلكتونا»، والخليج العربي، و«الولايات المتحدة الأمريكية»، و«اليابان»، و«الصين»... و«كوريا» و«إنجلترا»، ومناطق أخرى من العالم: كلهم هنود، منهم المدير، والممثل التجاري، والمدرس، والمندوب، وصاحب المؤسسة، والثري الذي يبحث عن شركاء... أصدقاء في لحظة بعينها، ينتظرون العيد، فيتواعدون، ثم يلتقون أخيرا في منزل أحدهم. وقد تجمعوا هذه المرة، عند مهندس ذائع الصيت، له مكتب في «مومباي»... وقد أنستني المفاجأة، وجو المرح والصخب، والأسئلة التي كانت تأتيني من كل جانب، وعلى غير انتظار، أن أسال عن اسمه، غير أن «شانيل» أخبرني أنه عمه!!

كانت ليلة ليلاء، كما يقولون! ليلة من ألف ليلة وليلة، لم أر

مثلها... شراب كثير، وأصناف من المأكّل، منها ما أعرفه، وأكثره أراه
لأوّل مرّة... وأحاديث، وخصومات صغيرة... وحين يسكر الرّجال،
ترقّ مشاعرهم ويتعاطبون... في تلك اللّيلة كنت ضيف الشّرف، وقد
لاحظت أنّ الجميع كانوا ينظرون إليّ بعين الشّكر والعرفان لأنّي لبّيت
دعوتهم!!

** ٢٩ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

لم أتخلّص من الصّداع!
كان صداعا شديدا، ظلّ يلزمني خلال الأيّام الأخيرة من الرّحلة؛
وقد فكّرت أن أقدم تاريخ العودة، فسلمّت «شاي» الجواز وتذكّرة
السّفر، ورجوته أن يحاول مع صديق له أخبرني أنّه يعمل بإحدى
وكالات الأسفار... لم يكن «شاي» متحمّسا للفكرة، وأكّد لي أنّه من
الصّعب إيجاد مقاعد شاغرة في هذه الفترة بالذّات، وهي . كما قال
. فترة عودة طلّاب المدارس إلى مدارسهم في البلدان الّتي يعمل بها
آباؤهم... كنت أشعر باليأس والإحباط، وخيبة الأمل، وكان كلّ همّي
أن أغادر في أقرب فرصة...

** ٣٠ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

الأزقة... الشّوارع... التّواصي... الممرّات... أمام الدّور وفي الجوار،
في «كندشان كدفو» كما في «تريشور»، وفي أتون الغابات الخضراء،
وفي المعابد... والمحلات والدّكاكين... ليلا ونهارا... مئات البشر يحتفلون
بالعيد، بـ «أونام» على وقع الآلات والمزامير، تتقدّمهم صناديق ذات

دواليب بها صور الآلهة، ولوحات بالألوان الزيتية، تجسّد مشاهد بعينها... كانت المواكب لا تتوقّف، وكان الأطفال يتصايحون، والنساء يحملن أبناءهنّ في أحضانهمّ ويشربنّين بأعناقهنّ، يتدافعن، عليهنّ يظفرن ببعض من أشياء الآلهة المقدّسة... يبحثن عن النفحة الخالدة والسّعادة التي إذا لم يكتب لهنّ الطّفر بها، وضيعنها، هذه السّنة، سيكون عليهنّ أن ينتظرن سنة أخرى، وأن يتحمّلن ويتعذّبن... وكان الرّجال في غاية الوداعة، يقفون جنباً إلى جنب، ودون كلام كثير، تتطلّع أعينهم إلى الفيلة الضّخمة التي تهادى في مشيتها، وعلى متنها بعض الأشخاص ممّن كانوا يوجّهونها إلى نهاية الشّوط...

حشد كبير، مئات المتجمهرين، تحسب إذا رأيتم أنّ المدينة بأسرها قد خرجت للاحتفال، كأنّما كانوا ينتظرون مناسبة مثل هذه لكسر الرّوتين اليوميّ، وإعطاء الحياة نفساً جديداً، فتسري الدّماء في العروق، ويتجدّد الشّباب، وتورق أيّام الحبّ...

كان الليل فاتناً... رائعا، تتغامز نجومه؛ كانت نجوما كثيرة وكبيرة، تحيط بالقمر الجليل، وهو ينشر ألوانه البرتقالية فوق الرّؤوس الحاسرة، ويضيء زوايا المدينة العتيقة التي انقطع فيها التّيّار الكهربائيّ فجأة، غير أنّ المشهد لم يتوقّف وتواصل بكامل فتنته وجاذبيّته... أصوات آلات نحاسيّة، ومزامير، وطبول، ما تكاد تتوقّف إلاّ لتتصل من جديد، أكثر صخباً وجليّة... ومجموعات من الرّاقصين بأزياء غريبة، على رؤوسهم عمام ثقيلة، ويلبسون سراويل فضفاضة تشبه تلك التي كان النّاس يلبسونها في القرون الخوالي... وفتيات وشبان في مقتبل العمر يضعون على وجوههم أقنعة ملوّنة، ويحملون صورا ومجامر، ومهزجون، ويلتحمون، في أوقات بعينها، فيسود الصّمت، وتهدأ الجلبة، وتتّسع الدّائرة المضروبة حولهم، فيضطرّ رجال الدّرك إلى إيقاف بعض السيّارات، أو تحييد مسارها، أو تغيير وجهتها... كان الاحتفال فوق كلّ شيء... فوق قوانين السيّر، والحركة.

وفوق الخصومات... والشَّغْب... والفوضى... وكان كذلك نقطة أمل
تهمي للحظات في الأفق، فيتعلّق بها الجميع، ويرنو إليها الأطفال
بأعينهم المفتونة، يتفافزون، بفرحة منقطعة النّظير، لاصطياد تلك
الجرار التي كان يرفعها الكبار، يحاولون كسرها، للظّفر بما فيها من
الحلوى والمرطّبات!!

*** ٣١ آب (أغسطس) ٢٠٠٢:

منذ أن حللت ضيفا على «الكوتالز»، وخلال الأيام الخمسة
عشر الماضية، لم يزرنني «شانيل» في غرفتي بالطّابق الأوّل إلّا في اليوم
الأوّل، وقد جاء ليطمئنّ على وضعي الجديد، فسألني إن كنت مرتاحا،
أو فيما إذا كنت في حاجة إلى شأن من الشّؤون، وقد قدّرت له تلك
البادرة، وتلك اللّفتة الكريمة من جانبه، والتي ظننت. آنذاك. أنّها فأل
حسن، كما ذهب في اعتقادي أنّ جسور الوصل لن تنقطع بيننا، ليس
فقط لأنّي ضيفه، وأنّه من واجب المضيف على ضيفه أن يقوم على
راحته وخدمته، وإنّما أيضا لما بيننا من الدّوالّ الكثيرة والصّداقة التي
لا يمكن أن تنفصم بين يوم وليلة... وانتظرت «شانيل»، بعد ذلك...
انتظرته حتّى يئست أخيرا من مجيئه، وظللت أعزّي نفسي برحيلي
الوشيك، وعودتي إلى «صور»، إلى وحدتي الاختيارية التي اخترتها
بمحض إرادتي، ودون أيّة ضغوطات من أحد...

كان «شانين» الوحيد الذي يزورني بين الفينة والأخرى، وكنا
نتحدّث لبعض الوقت، قبل أن يخلد كلانا للنّوم: ومن خلال الأحاديث
التي كنّا نتبادلها اكتشفت فيه أشياء جديدة لم أعرفها فيه من قبل...
لمست فيه شيئا من الحنان، وكثيرا من الدّمائية، وأنّه قادر في أحيان
كثيرة أن يكون متعاطفا، خلافا للفكرة التي أخذتها عنه، ونحن في

«صور»... كنت أعتقد أنه شخص خال من كل عاطفة، وأن كل همّه في الحياة أن يجمع المال، ثم يبذّر المال الذي جمعه على مبادله التي كنت على علم بآكثرها، إن لم أكن على علم بها كلّها!!

وعندما جاء «شانيل» إلى الغرفة قبل يومين على موعد السفر، وجلس على حافة السرير، ثم لم يلبث أن اتكأ على المخدّة وراح ينظر إليّ وأنا أكتب، حدست للتوّ أنّ في الأمر سرّاً، وأنّه لم يتجشّم عناء الصعود إليّ. ولم يحرم نفسه من جلسته الحميمة إلى والدته وزوجة أخيه في الصّالة، إلاّ لأنّه كان يضر شيئاً أويّبت خطّة ما، وقد تأكّدت ظنوني بعد أن جاء «شاي» أيضاً، فأخذ مكانه بجانب أخيه... كنت أفكر في الخطّة القادمة، أتطلّع إلى الحديث الذي كنت أعرف أنّه سيبدأ، لذلك لم أخدع كثيراً بابتسامهما المتكرّر، وسؤالي عن الأشياء الجديدة التي كتبتهما، وشعوري والرحلة توشك على التّهاية...

تظاهرت باللامبالاة، وكرهت أن أترك القصيدة التي بدأتها دون إنهاء، لكن اتّضح لي أنّ الأمر الذي جاء الأخوان من أجله لا يحتمل التّأجيل أكثر، فقد بدأ «شاي» يمهد للمسألة بأسلوبه الطّليّ الذي عهدته فيه، قال:

إذن أنت مستعدّ...

وتمهل قليلاً، ثمّ واصل:

بعد غد تغادر... كان بودّي لو ذهبنا إلى «كوداي كانال»، لكن كما تعلم، الظروف الطّائرة وضياح أوراق السيّارة، ثمّ الزّيارات للأقارب... لكن...

وسكت ثانية، وقد رأيته ينظر إلى «شانيل»، ثمّ اتّجه إليّ مرّة أخرى، وقال بعدوبة متناهية:

لكن سيكون بإمكاننا أن نتدارك الأمر!

لا أنكر أنّي خفت، وأنّي ارتعبت لتلك النّبرة الخادعة، إذ لن يكون بإمكانني أن أتحمّل حيلة جديدة من حيلهما التي لا تنتهي وأنا

أستعدّ لرحلة أعلم أنّها ستكون متعبة جدًّا... ثلاث ساعات بالطائرة إلى «مسقط» وثلاث ساعات أخرى بالسيارة إلى «صور»، وآلام الرأس، الصداع، الذي ما زلت أشعر به يثقل على رأسي!!! بذلت محاولة أخيرة، جازفت، كنت أرغب من الصميم أن أسدّ عليهما الطريق... قرّرت أن أعارض أيّ اقتراح، وقلت لنفسي إنّي لن أذهب إلى أيّ مكان، فإذا كان هما يريدان الاستجمام أو السفر، فليفعلا ما يحولهما، أمّا أنا فسألزم غرفتي حتّى يحين موعد الرّحيل!! قلت:

لا أعرف كيف يمكن أن نتدارك الأمر!

واستغلّ هوتلك الفرصة فتصدّى للكلام قائلاً:

نذهب في رحلة...

فقاطعته:

لا تنس أن بعد غد موعد رحلتي.

ولكن كان يبدو أنّه لا يريد أن يسلم، فغيّر نبرته، صارت أكثر حزمًا

وهو يقول:

ما زال لدينا يوم كامل، ثمّ إنّ هناك من يريد أن يرانا...

قلت مأخوذاً:

هناك من يريد أن يرانا؟ ومن ذا الذي يريد أن يرانا؟!...

كنت مستثّاراً، قلقاً، أحترم من الدّاخل وأسعى إلى ضبط

أعصابي.

بعض الأصدقاء... أناس نعرفهم، تعودنا إذا جاءنا غريب أن

نأخذه إليهم، فيفرحون به، ويعطيهم بعض المال...

بدا لي كلامه غريباً نوعاً ما، بل إنّي وجدته غاية في الغرابة...

أصدقاء؟ إذا كانوا أصدقاء فلماذا لم أرهم على امتداد الأيام

المنقضية؟ ولماذا يخبرني الآن عن هؤلاء الأصدقاء إذا كانوا موجودين

أصلاً؟!... لماذا الآن؟... لما الآن؟...

وأيّن هؤلاء الأصدقاء؟ لماذا لم يأتوا إلينا؟!

فقال وهو يتنحى:

.إنهم يسكنون في الغابات، وهم فقراء جداً.

كنت أستمع إليه بتأنٍ، أقرأ ما وراء كلماته، وقد انتهيت إلى شبه قناعة أن الأمر لا يخرج عن تفسيرين اثنين: إما أنه يريد فعلاً أن يترك لديّ انطباعاً جيداً عن الرحلة، وهذا أمر مشكوك فيه إلى حد ما، وإما أنه يريد أن يأخذ مني مبلغاً من المال، بطريقة لا تشعره بالحرَج، ولا تجعلني أحسّ كأني محسن يتصدّق على بعض المساكين، وهو الأقرب إلى الصواب... وقد جاء كلامه فيما بعد مصداقاً لتخميناتي كلّها، فقد اندفع إلى الحديث بحماسة نادرة، ولم ينس أن يتبادل بعض النظرات المتأمرة مع «شانيل»:

لا داعي أن نحكي لك عن وضعنا المادّي فأنت أعلم به... فقط نريد منك بعض المال... في الحقيقة، لو كان عندنا شيء منه لما سألناك... أنت تعرف ظروفنا في صور... فواتير التّلفون والكهرباء، وإيجار البيت... ومصاريف السيّارة... فقط نريد بعض المال... بعض المال من أجلك... من أجلنا، أنت تعرف، هؤلاء الأصدقاء تعودوا علينا، وسيكون معيباً في حقنا أن نذهب إلى هناك، ولم نجلب لهم شيئاً معنا...

أحسّ «شانين» كأنّه أدّى واجبه، وكذلك أحسست أنا، إذ أدركت أنّه لم يعد لديه ما يقول، وقد قرّر أن يدع بقية المهمّة في يد «شانيل» الذي لم ينطق حرفاً واحداً فيما كان «شانين» يشدّ خيوط حيلته الصّغيرة حول عنقي...

قال «شانين» وهو يغادر الغرفة:

.استعدّ إذن... سنغادر إلى الغابات في الصّباح المبكر... ستكون

الرحلة شاقّة، ما في ذلك شكّ، لكن بالقطع ستكون ممتعة!!

ثمّ:

.شانيل سيشرح لك كلّ شيء!!

كان «شانيل» متكلّناً فاعتدل في جلسته، وسألني:

كم بقي لديك من المال؟

قلت:

لم يبق لديّ الكثير منه على كلّ حال.

كان يريد أن يعرف على وجه الدقّة، وكنت أحاول أن أتهرّب:
كم؟

ليس أكثر ممّا تظنّ.

أعلم، لكن كم؟

فقلت وقد ضقت ذرعا بمحاصرته:

. أنت تعلم أنّي صرفت الكثير من المال خلال الأيام الكثيرة
الماضية، عدا المبالغ التي طلبتها وأعطيتك إياها...

بدأت لهجته تخفّ شيئا فشيئا، فقد كان كلامي حريّا أن يعيد
إليه شريطا من الأحداث التي ربّما بدأت تتلاشى في مخيلته، قال:

. إنّني لا أنسى أياديك البيضاء ومساعداتك الكثيرة لي؛ ولكنّ
الوضع محرج الآن ونحن في حاجة إلى المال...

وتطلّع إليّ، كنت أعرف أنّه يروّني بنظراته، وأنّه ينتظر اللحظة
التي أنظر فيها إليه، فلربّما لمست حرجه فأقرّر أن أضيف إلى الأيادي
السّابقة يدا بيضاء أخرى، غير أنّي حرّنت، ظلّت عينايا معلّقتين ببياض
الورقة التي كنت خطّطت عليها بعض الكلمات الموزونة المقفّاة... قال:
. أعلم أنّه ما تزال لديك بعض العملة الأجنبيّة!

فعلا، كانت لديّ بعض العملة، لكنّي كرهت طريقته في التّدخل
في شؤوني بتلك الطّريقة الغير المهذّبة... قلت:

. أنت واهم...

ثمّ:

. بقيت عندي ستّة آلاف «روبية»... سأعطيك ثلاثة آلاف،

وسأحتفظ بالبقية...

وسحبت المبلغ من حافظة النّقود وأعطيته إيّاه... لاحظت عدم

الرّضى على سحنته، وانقبضت ملامحه، وقال وهو ما يزال يحتفظ بالمبلغ في يده:

لكن هذا لا يكفي... أنت تعلم...

قاطعته بفضاظة، رغم اقتناعي أنّه من الأفضل لي أن أترك انطبعا جيّدا لديه، سيّما وأنّه لم يبق أمامنا غير يوم واحد، سيمضي كلّ واحد منّا بعده إلى حال سبيله:

. أنا أيضا في حاجة إلى المال... عندي أيضا أصدقاء، أريد أن أشتري لهم بعض الهدايا، فلا داعي أن تحرّجني أكثر.

كان ذلك إعلانا واضحا بعدم مواصلة الحديث، قام، وهو يقول: لا بأس، سأندبّر الأمر!!

ثمّ، كأنّه نسي شيئا مهمّا كان عليه أن يخبرني به:

لا تنس... غدا صباحا... سأوقظك في الخامسة!!

لم أنم في تلك اللّيلة... رأسي تضجّ بألاف الأفكار، تضطرم بسيل عرم من التّميؤات والخيالات السّوداء... كنت أستدعي في ذهني كلام «شايين» كلمة كلمة، ومداورات «شانيل»، وأقلّب الأمر على جميع وجوهه، وكنت أنتهي في كلّ مرّة إلى نتيجة واحدة: الأصدقاء الذين كانا يتحدّثان عنهم، وأطنبا كثيرا في وصف فقرهم وحاجتهم، ليسوا في الحقيقة إلّا احتمالات من صنع خيال جامح، ليسوا إلّا غطاء لأشياء ما زلت إلى حدّ تلك اللّحظة أحدها، ولا أظفر بها!! كنت أريد أن أبرّئهم... أن ألتمس لهما الأعذار، إذ أنّ الصّورة التي كنت أخشى أن تسيطر عليّ، وكانا هما يتجسّدان خلالها، بكلّ ملامحهما وقسماتهما، كانت من الفظاعة والسّوء بحيث لا يمكنني احتمالها بحال... صورة لوغدين... صورة لشخصين يظهران ما لا يبطنان، لم يهن عليهما أن يرياني أخلد لبعض الرّاحة بعد كلّ تلك المعاناة التي عشت في خضمّها،

متوارباً في سوداويتي، منكمشا بين أستار الوحدة والصمت...!!
ربّما كنت مخطئاً حينما قدّرت أنّ «شايين» ليس ذلك الشخص
الجافّ، الذي لا يفكر في غير مصلحته، وهو بطبيعته طيّب، لكن تعوزه
القدرة للتعبير عن تلك الطّبيعة!!

كنت مستعدّاً تماماً للمحنة الّتي كنت أعلم أنّها في انتظاري...!!
دلفت إلى الحّمّام، فاغتسلت، ثمّ لبست ثيابي، وبقيت أنتظر... جاء
«شانييل» فنزلنا السّلم معاً... ووجدنا في انتظارنا «ديداش»، وشخصاً
آخر قابلته مصادفة، لكن لم تربطني به علاقات صحبة أو صداقة،
وعلى ما يبدو، من خلال صمته، أو من خلال بعض الكلمات القليلة
الّتي كان يتبادلها مع البقيّة بـ «المليالي» في بعض الأحيان، أنّه لا يتكلّم
الإنجليزية، وأنّ وجوده معنا كان لشيء آخر أكثر من مجرد الصّحبة...
ركبنا السيّارة، فانطلقت بنا عبر أرقة «كندشان كدفو» الضّيقة،
ثمّ طوينا شطراً من الطّريق الطّويلة، وفي إحدى محطّات البنزين نزلنا
ريثما فرغ عامل المحطّة من تزويد الخزّان بالوقود... لم أكن أعرف
وجهة سيرنا، ولم أهتمّ كثيراً، حتّى أنّي لم أطرح أسئلة، ولم أكن أنتظر
أجوبة، بل لزمّت صمّتا أخرق كاويا...

في أحد المطاعم الشّعبيّة توقّفنا... كان مطعماً من تلك المطاعم
الّتي لا تشعر حيالها بالفخار، أنّك توقّفت عندها، وأنّك تناولت فيها
إفطارك، فشعرت بسعادة طارئة، وانتابك ذلك الإحساس أنّك تودّ أن
تعود إليها ثانية لتستعيد شيئاً من شعور كنت استحضرت في المرّة
الأخيرة حينما زرتهما...!! نزلت مرغماً، ولم تكن غايّتي أن أطلب شيئاً
لنفسي، وأنّ أشارك الجماعة إحساسهم بالاعتباط وهم يأكلون بشهيّة
منقطعة النّظير، وينظرون إلى بعضهم من حين لآخر، ثمّ يَوْمُون إلى

صاحب المطعم ليجلب لهم المزيد من رقائق «البوروتا» أو «الكاري»... فقط كنت أرغب أن لا يفوتني تناول فنجان قهوتي الصّباحي. أن أشعر أن السّاعات الأولى من الصّباح لم تمض عبثاً، وأنّه من بين الآلام والعذابات والقلق والصدّاع، كان هناك شيء يستحقّ أن أعيش من أجله، وأن أدافع من أجل الحفاظ عليه... كانت غربة، وما أعانيه إحساس الغريب، بين غرباء عنه، لا يهتمّهم من أمره شيء، فلا يكثرثون إذا أكل معهم أو ظلّ جائعاً، ولا يتساءلون عن سبب قلقه، بقدر ما كانوا يفكّرون في متعتهم، في إحساسهم أنّهم يقضون وقتاً ممتعاً على حساب... شخص، وهذا الشّخص هو أنا!! مجرد رقم من الأرقام، أو شمّاعة تعلّق عليها الخطايا والدّنوب، ولكن تظلّ مع ذلك شمّاعة مرغوبة لما قد تحمله بين طواياها الخفيّة من مزايا غير مرتقبة، وتظهر في اللّحظة الأخيرة، ليعمّ الفرح والفضى، وترتفع الأصوات من حين لآخر، مشيرة إلى «المحسن الّذي جاد ببعض ممّا لديه» توقّره وتبجّله!!

آه، ما أكثر تلك المدن الّتي مررنا بها، والقرى والمقاطعات، وحقول الموز، وحقول الدّرة، والأرزّ، والغابات المترامية على امتداد البصر، بلا بداية تشير إليها، ولا نهاية تحدّها، كأنّها الأزلّ... و«هندستان» شسوع... مرام... ووجوه متعدّدة، وملامح تكاد لا ترى بعضها حتّى تنسيك ما قد رأيته من قبل... تطالعك من بين الكوى البعيدة، والفجوات القصيّة الّتي تظهر فجأة، كالجرح الدّامي، بين أشجار المطّاط، والصّنوبر والسّنديان... وتراها تنظر إليك من فرجات النّوافذ المفتوحة... قسمت لا تنسى، لأطفال وبنات، يحملون على سواعدهم الصّغيرة عشرات الحقائق، قاصدين مدارسهم الّتي تبعد عن منازلهم عشرات الكيلومترات... لا تتفاجأ لتلك الالبتسامات الرّخيّة الّتي ترسم على شفاههم الكامدة، ولا تبالي لألعابهم البريئة في ساحات خالية مقفرة، لا أثر فيها لتلك الحياة الضّاجة الصّاخبة... والفقر، ليس هنا فقط، بل

في كلّ مكان، بلا أسماء ولا عناوين، كائن مخيف، متجبر، طاغ، يترّص للبطون الضّامرة، والأجساد الموشكة على السّقوط، وتلك الأخرى الصّغيرة الّتي لا تجد شيئاً تتبلّغ به؛ كان الفقر كالمدين تماماً، كالأماكن المسترسلة، يخيل إليك أنّها تسابق السيّارة في طمّها للمسافات، أماكن على كثرتها لا تحمل غير بعض السّمات الفارقة، غير أنّها خلو من الأسماء الّتي تحفظ هويّتها...

جدوع أشجار على الطّريق، دكاكين قد اندلق كلّ ما بها إلى الخارج... أسواق مرتجلة، وأناس يروحون ويجيئون... ومقاه مفتوحة... وحافلات مكتظة لم يبق بها موطئ لقدم... وجلبة وأصوات... ونداءات تأتي من كلّ الاتجاهات... ودور على الأطراف... وسيول من الأمطار، زخّات كبيرة، انفرج عنها بطن السّماء، فاستقبلها أديم الأرض، واحتضنتها المزارع الرّيّانة كما تحتل المراضع الولدان... والطّريق لا تنتهي!! الوجهة لغز من الألغاز... نهاية من النّهائيات العجيبة لحكاية من الحكايات الّتي ظلّت دهورا تترقّب شخصا ليضع اللّمسات الأخيرة على الأحداث!!

في إحدى مراحل الطّريق توقّفنا...

وقصدنا بعض المقاهي... وبعد أن شربنا فناجين القهوة والشاي الّتي جاءنا بها النّادل، خرجنا... وكنت أظنّ أنّنا سنواصل الرّحلة، إلّا أنّي رأيت «شانيل» و «ديداش» ينفصلان عن الجماعة ويقصدان بعض الأماكن على الجانب الآخر من الشّارع... وذهب «شانين» ورفيقنا الخامس إلى بعض الأكشاك، ولم يلبثا إلّا قليلا وقد عادا وهما يحملان أكياسا صغيرة بها بارد وبعض المكسّرات... اتّضحت الصّورة إذن! وبدأت غفلي الأولى تنقشع شيئا فشيئا أمام عيني!... ولمزيد التّأكّد من صدق ظنوني سألت «شانين» عن «شانيل» و «ديداش»، لم يسع إلى

المواربة، وكان صريحا معي؛ قال:

هناك في الجوار بعض المحلات لبيع الكحول... (وأشار إلى إحدى
البنائيات على الطّرف الآخر)... انظر إنّها هناك... وهم يبيعون بالكلفة
الأصليّة دون رسوم إضافية...
ثمّ أضاف قائلا:

سيكون علينا أن ننتظر بعض الوقت، فهم يفتحون في العاشرة،
وبعد ذلك نواصل الرّحلة!
هكذا إذن! لا أصدقاء، ولا فقراء ولا مساكين! والأصدقاء هم
أصدقائي، والمال الذي طلب إليّ دفعه كان عربون مودّة لرحلة في
العبر!!

عندما خاطبني «شايين» قائلا وهو يشير إلى جبل تكاد تلامس
قمّته بعض سحابات كانت تعبر صفحة السّماء، وتتوارب في أغشية
كثيفة من الضّباب:

انظر إلى هناك... إذا بلغنا تلك القمّة، ستنتهي رحلتنا!!
حينئذ ذهب في ظني أنّ المسألة هي مسألة وقت فحسب، وأنّه
بعد حوالي السّاعة أو أكثر من ذلك بقليل نكون قد بلغنا المنتهى...
كنت مخطئا، ويبدو أنّ تقديراتي لم تكن تستند ولو إلى حدّ ضئيل
من الموضوعيّة... تساءلت في البداية، وأنا أنظر إلى الجبل الضّخم،
وأرى تلك القمّة العاتية، المتحدّية، كيف يمكن للسيّارة أن تصل إلى
هناك... وشككت... تصوّرت الطّريق وهي تصعد وتصعد دون توقّف...
والمحرّك يهדר دون انقطاع... و«شانيل» وراء عجلة القيادة، وهو دائم
الدّوران كثور النّواعير... وكنت أنتهي في كلّ مرّة إلى صعوبة المهمّة...
مرّ وقت طويل قبل أن نبلغ بداية الطّريق...!!
وكانت صعوبات كثيرة تنتظرنا في المفاقر والمنعرجات، أقلّها

المحرك الذي كان سرعان ما تطوّح به الحرارة فنضطرّ إلى النزول
لنزوّد السيّارة بالماء، وقد كان الأمر يتكرّر بعد حين وحين... والمسافة
تطول، توغل في البعد... تتحدّى الخيال والاحتمال، وتدمّر الأعصاب...
كنت وأنا أرى الغابة وراءنا، ثمّ وهي تصعد مع السيّارة، ثمّ وهي تتكاثف
من حولنا فلا نرى الأرض التي لا شكّ أنّها كانت تتباعد باستمرار، ثمّ
وأنا أنظر إلى السّماء التي كانت تبدو قريبة جدّا، أكاد ألمسها بيدي،
وأمرّر كفي على صفحتها، أشعر بالغثيان... يداهمني شعور بالخطر،
وإحساس ما فتئ يتضخّم بالحذر... ماذا لو سقطت السيّارة، ماذا لو
تهدى إلى الأسفل، إلى القاع، ولا شيء غير الصّدى، لا شيء غير وعي
ما انفكّ يزايد أنّ الغابة التي تلقّنا ليست مجرد غابة، وإنّما هي متاهة
لا متناهية، امتداد بلا حدود، في عالم من الخضرة، على قدر فتنتها
فإنّها لا تعني شيئا آخر غير الموت... ذكريات الغابة الإفريقيّة... الغابة
الاستوائية... وغابة الأمازون... وآلاف الحيوانات التي تربّص، فيلة
وأسود وفهود ونمور... وسباع، وضباع... وبنات آوى... وهذه الغابة لا
تبعد كثيرا عن تلك الغابات، بل لقد كانت تبدو في إلغازها أكثر خطرا...
كانت هناك حكايات تتردّد وتتناقلها الألسن عن الفيلة التي تظهر
في نهاية المساء على الطّريق، والدّئاب التي هاجمت سيّارات كثيرة،
وتسبّبت في الكثير من الحوادث... والسّباع الجائعة... والخوف الدائم
من المفاجآت التي قد تحدث بين الفينة والأخرى...

السيّارة... والمحرك... وعجلة القيادة... والسّاعات تمرّ... والرحلة
ما تزال في بدايتها... وفي شطر من الطّريق يحلو التعلّل، وتتوق النّفس
إلى بعض الشّراب...

رأيهم ينزلون، وفي يد كلّ واحد منهم زجاجة البيرة... راقبتهم وهم
يلتئمون على أنفسهم، يتقاربون ويتباعدون، فإذا شربوا شربوا بشهيّة،
وكان «ديداش» أقربهم إلى النّشوة... يمسك الزّجاجة بين يديه ويعبّ...

وكننت أنا داخل السيّارة أنظر إلى المشهد ولا أريد النّظر إليه... تمنّيت لو كننت في غرفتي... لو تركت لشأني، فهذه الرّحلة، في نهاية المطاف، لم تكن تعني لي شيئاً، وحتّى لو كانت تعني شيئاً ما، فإنّها ستكون كذلك بالنّسبة إليهم!!!

أخذوا بعد ذلك أدواراً من الويسكي، وكانوا يتحدّثون فيما بينهم ويمزّمزون... المشهد أسر ما في ذلك شكّ... الأشجار، والحشائش الخضراء، وينابيع المياه الصّغيرة الّتي كانت تنحدر من أعلى القمم الجليّة، توجي بعصر قديم، موغل في القدم، عصر الماء والمطر... والإنسان الأوّل في رحلة البحث عن السّائل المقدّس ليتعمّد به!!

لم أكن أظنّ الرّحلة قد تنتهي في وقت ما، ومن قبل كانت المسافات الّتي قطعتها مع بعض أصدقائي، والرّحلات الّتي كنّا نقوم بها في أويقات خلوّنا وفراغنا، لا تتعدّى بعض الكيلومترات، ولم تكن مضجرة أو متعبة بأيّ حال من الأحوال... وكنّا حيثما ولّينا وجوهنا لا يطالعنا غير الانبساط... البراح الّذي يتّحد في لحظة من اللّحظات مع المدى، ويزوب خلل الشّسوع اللّامتناهي!!!

لا أدري كم كانت السّاعة حينما بلغنا القمّة، غير أنّ الوقت كان متأخراً، وقد دهشت غاية الدّهش حين علمت أنّ الجماعة لا يعرفون طريق السّير الّذي يسلكونه، وقد بدا لي أنّ ذلك الشّخص الخامس الّذي لا أعرفه، والّذي لم أسمع به يتكلّم إلّا لمأماً، وفيما ندر، كان هو الدّليل، وقد تزوّد ببعض الخرائط، الّتي تحمل أسماء لأماكن معيّنة، ربّما سمع عن جمالها، وقد كان لا ينفكّ يسأل عنها بعض الأشخاص ممّن كانوا يصادفوننا على امتداد الشّوارع الكثيرة الّتي كنّا نمرّ فيها...

كان عالما آخرفوق الجبل، غيرالعالم الذي تركناه وراءنا... عالم غريب بكل ما فيه، بفقره الظّاهروحياته الرّتيبة، ومسحة البساطة الّتي كانت تؤطّركل شيء فيه... ولسنوات بعيدة، في زمن منسي، إلّا أنّ الذاكرة الجماعيّة ما تزال تحفظه إلى الآن، كان هذا العالم غير موجود أصلا، وغير معترف به، ولا يحمل سكّانه بطاقات هويّة أو ما يثبت انتماءهم وولاءهم، وكانت الحكومة لا تطاله، ولكن تحكمه حفنة من قطع الطّرق والصّعاليك، كانوا يجمعون الإتاوات من الأهالي ويهدّدون كلّ من تسوّّل له نفسه أن يتحدّاهم أو يقف في طريقهم...

لم تتغيّر الأمور كثيرا، بعد ذلك، فقد ظلّ الفقر هو الفقر، ولون الوجوه الشّاحبة هو ذات اللّون الّذي طبع الوجوه في ذلك الزّمن المنسيّ، كما أنّ شكل المنازل والبيوت قد بقي هو نفسه الشّكل المفضّل والمميّز، لكن كنت ترى الابتسامة على الشّفاة، والفرحة لا تخفى، والحركة دائبة... وأكثر من ذلك بدأت الحقوق تترامى وتمتدّ، تخضّر في أكثر الأماكن، ليس على الأطراف فقط، وإنّما أمام المنازل والاصطبلات...

توقّفنا في بعض الاستراحات، فتناولنا غداءنا... كنّ نساء كلّ من يعمل بالاستراحة، وقد كنّ حريصات على خدمتنا، واستغلّ أصحابنا الفرصة، فكانوا يمازحونهنّ؛ وعلى ما يظهر فقد اكتشفن أنّنا غرباء، فكُنّ يسألن عن المكان الّذي جنّنا منه، ويبدّين ظرفا زائدا وهنّ يفعلن ذلك... كانت المرّة الأولى الّتي أكل فيها لحم البقر، ولعلّي في أوقات سابقة كنت أتفادى بعض الأسئلة الّتي كنت أراها حرجة بيني وبين نفسي... اعتبرت البقر مقدّسا، ولا يجوز ذبحه أو أكله، وطيلة المدة الّتي قضيتها في بيت مضيفي كان كلّ طعامهم إمّا سمكا أو دجاجا، لكن بعد الّذي رأيته من الجماعة، وفرحتهم الزّائدة حينما أبلغوا أنّ هناك لحم بقر مقلّي ومشويّ، وبإمكانهم أن يطلبوا ما يشاءون، ويأكلوا ما يشاءون، جعلني أسأل «شانيل»:

.أليس البقر محرّمًا أكله؟

فقال مازحاً:

.على العكس هناك من يحبه أكثر من غيره!!

كانت نهاية الرحلة شاقّة جدًّا!!

وقد سلكنا الطريق الّتي جننا منها مرّتين؛ في المرّة الأولى اصطحبنا شخص لا نعرفه، ولأتني كنت أجهل «المليلي» فقد تخيلت أنّه مجرد عابر، وأنّه طلب إلينا أن نوصله إلى بعض الأماكن في طريقنا، واكتشفت، فيما بعد، أنّه دليل، وأنّه على دراية كبيرة بالمسالك والأماكن في الغابة الكبيرة المترامية... كان يروي لنا قصصا عن الحيوانات، والأوقات الّتي تستحسن فيها الزيارة، وقادنا عبر شوارع ضيّقة متعرّجة إلى سدود مائيّة، بالغة العلو... ولكن أكثر ما بقي عالقا في مخيلتي، محطة تزويد المياه، امتداد أشبه بالبحيرة، قائم في وسطه برج كبير للمراقبة، إذا حدث أن كنت داخله، وتطلّعت إلى المياه تحتك، ذهب في ظنّك أنّها تسير بك إلى ما لا نهاية، وأنّك قد تصحو فتجد نفسك في مكان قصيٍّ، وراء كلّ الحدود المرسومة والمعروفة... كانت تلك «تملنادو»، وكان الشّوق، والإحساس أنّك قريب من السّماء، ومع الخوف من السّقوط، والحذر، كان الخدر والنّشوة، وشعور بالتّسامي، سيظلّ يلاحقني حتّى بعد نهاية الرحلة...!!

ركبنا السيّارة... كنّا جميعا مفتونين، ولولا أنّ ذلك الشّخص نصحنّا أن نعود قبل أن يحلّ الظّلام، لكان بالإمكان أن يظلّ الواحد هناك إلى الأبد، دون أن يحسّ بالوقت أو الزّمن... (رغم كلّ شيء، كنت أعاني من الصّداع، وكنت أحاول أن أتناسى الألم، وأقول لنفسني: غدا أغادر فلا داعي للقلق !!)

«كندشان كدفو»...

السَّاعَة حوالى التَّاسِعَة أو التَّاسِعَة والنِّصْف ليلاً... الجميع
فى الاسْتِقْبَال... السَّيِّد والسَّيِّدَة «لوهيداكشان»... وزوجة «شايِن» و
«باروتى» الصَّغِيرَة...

تركْتهم وصعدت إلى غرْفَتى... أخذت دُشًّا وأويت إلى الفراش...
كنت أشعر بالتَّعب... وبالإرهاق... وبالصَّدا ع أيضاً!!

** ١ أيلول ٢٠٠٢:

فى المطار...

تركْنى «شانيل» وقفل راجعاً... كنت وحيداً... وقد أنهيت كلَّ
الإجراءات وصعدت إلى صالَة الانتظار... أثرت أن أحتفظ بكيس
المفاتيح فى جيبى... مفتاح باب شَقَّتى الخارجى بمدينة «صور» وبعض
المفاتيح الأخرى... عندما مرَّز عامل المطار آلتَه على ملابسى، بدأت
تصدر أصواتاً متَّصلة... أشار إلى ركن جانبى أرخيت عليه ستارة
خضراء، فتبعته إلى هناك... فتدشنى من رأسى حتَّى أخمص قدميَّ،
وأمرنى فخلعت حذائى... أريته جميع ما أملك... أخرجت كيس المفاتيح،
وبعض الأوراق الَّتى كنت أحتفظ بها... وعندما أشار إلى الباب، إيدانا
بالانصراف، حملت حقيبتى، وتقدَّمت إلى الأمام فجلست على أحد
المقاعد الشَّاغرة...

كانت تضجُّ برأسى أفكار كثيرة... أفكار محمومة. ومع اقتراب موعد
إقلاع الطَّائرة، عادت بى الذَّاكرة إلى سنوات الطِّفولة الأولى، ولا أدري
لماذا كانت صورة خالى فواز أوضح من أية صورة أخرى فى ذهنى... كان
هو أيضاً يافعا، وكان طالبا بإحدى المدارس الدَّاخلىَّة، بإحدى المدن

التي تبعد عن مدينتنا، وكان إذا طلب إليه المدرّس أن يحرّر موضوعاً إنشائيّاً. أيّ موضوع، كان يختم حديثه، بجملة أثيرة، وجدّتي دون وعي منّي أكرّرها في لهوّة، من بين شفّتي اللّتين كانتا تمتلئان بابتسامة كبيرة، لم أكن أدري في تلك اللّحظة فيما إذا كانت ابتسامة سعادة قادمة أم تعاسة أفلة:

وداعاً، أيّتها الحقيبة!! وداعاً أيّتها الحقيبة!!

..انتهت..

صور «سلطنة عمان» في:

١٥ كانون الأوّل ٢٠٠٢

يتبع..

الجزء الثالث/

بوابات المواجيد

